السعوديون والإرهاب

رؤى عــالمية

ⓗ دار غيناء للنشر، ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مجموعة من المفكرين
السعوديون والإرهاب: رؤى عالمية. /مجموعة من المفكرين
الرياض، ١٤٢٥هـ
٥٦٠ ص ، ١٤,٥سم×٢١سم
ردمك: ٦ـ٥ـ٩٤٥٤ ـ ٩٩٦٠
١ الإرهاب ٢ ـ الإرهاب ـ السعودية أ. العنوان
ديوي ٣٦٣,٣٢٠٩٥٣١ ١٤٢٥/٧٧٢٧
رقم الإيداع: ١٤٢٥/٧٧٢٧
ردمك: ٦ـ٥ـ٩٤٥٤ـ ٩٩٦٠



الرياض ـ ت: ٢٢٩٥١١٩ ـ ف: ٢٢٩٥٠١٩
ghainaabook@hotmail.com

الطبعة الثانية
١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م

لأن الكتاب مشروع عالمي برؤى ثقافية مختلفة
فإن البحوث والمشاركات الواردة فيه
لاتعبر بالضرورة عن رأي الناشر أو الفريق العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

المحتويات

مقـــــــــدمة :

أ.د. محمد بن سعود البشر
رئيس الفريق العلمي

لم يكن "الإرهاب" ليحظى بهذه الأهمية على مستوى الحكومات والشعوب ومراكز الدراسات الاستراتيجية ووسائل الإعلام لو لم تقع أحداث الحادي عشر من سبتمبر من جهة، واستهدافها المراكز الحيوية لدولة تَعُد نفسها القوة الوحيدة المطلقة في العالم من جهة أخرى. ندرك جميعاً أن هذا الحدث قد وقعت قبله أحداث إرهابية كبيرة عانت منها حكومات وشعوب في أماكن متفرقة من العالم مثلما وقعت بعده أحداث كبيرة أيضاً، وبقي هذا المصطلح يتلون تبعاً لتفسيرات مقبولة أحياناً ومرفوضة أحياناً أخرى.

التلون في مفهوم الإرهاب سقطت بسببه نظم سياسية، وتشردت بتطبيقاته شعوب مسالمة، وأزهقت

بشعاره أنفس بريئة، ولا تزال كثير من دول العالم وحكوماته وشعوبه، بل وثقافاته ومؤسساته المدنية تعاني من تبعات (الحرب ضد الإرهاب). والذي يؤجج هذه الحرب ويزيدها اشتعالاً هي الأطماع السياسية لصناع القرار المستفيدين منها، ومراكز الدراسات الاستراتيجية التي تؤطر لهذه الحرب وتنظر لها، ليبقى العالم يعاني من مشكلة الصدام الحضاري، ولتبقى الشعوب تتجرع مآسي الحروب العسكرية، ولتبقى ثقافات الدول والمجتمعات رهينة الأنموذج الثقافي أحادي الجانب الذي يخوض حرب أفكار تتزامن مع موجات الغزو العسكري المتتابعة.

لقد طغت على العالم الدراسات والبحوث التي تدعم هذا التوجه، مسنودة بدعم مادي ولوجستي كبيرين، وضعفت الأطروحات المناهضة له، وقلّت ـ أو حُجمت ـ بفعل الهيمنة الإعلامية والدعائية التي اختارت ـ بعمد أو جهل ـ أن تكون موافقة للمسار الأول ومعززة له.

هذا الكتاب الذي نخاطب به الضمير العالمي الباحث عن الحقيقة والعدل هو نتاجُ مختلِف التوجهات، متعدد المنطلقات، شارك فيه كوكبة من أبرز العلماء والمفكرين والإعلاميين في الولايات المتحدة، وأوربا، وروسيا، والعالم العربي. تحدثوا فيه عن الإرهاب من زوايا مهمة: مفهومه، وأسبابه، ودوافعه، وتاريخه، ومؤسساته السياسية والفكرية. كما تحدثوا عن ضحاياه من الأديان، والثقافات والدول. فيه رؤية صادقة تقوم على الدليل والبرهان. وأمثلة حية من الواقع المعيش، تهدف إلى رفع الصوت عالياً لتحكيم العقل، وهيمنة المنطق، والدعوة إلى التعايش في أمن وسلام تسعد بهما شعوب الأرض.

هذا الكتاب هو محاولة علمية، وتجربة ثقافية، يقدمها أعلام متخصصون، وعلماء قادرون، وفلاسفة متميزون، برؤى ثقافية مختلفة تجاه أهم قضية يومية أشغلت فكر الإنسان وعقله، وتتعاطى مع ظرف زماني هو الأشد وطأة عليه منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

إنها مشاركات فردية تمثل وجهات نظر أصحابها، لكنها بالتأكيد متفقة على الهدف الأساس من قبول المشاركات في هذا المشروع الاستراتيجي العالمي، وهو **تحقيق "إنسانية" الإنسان العالمي، ورفع الظلم عنه، والدعوة إلى هيمنة صوت العقل في النظر إلى الأحداث، والاعتدال في النظرة إلى الثقافات، والإنصاف في التعامل مع الشعوب**.

ليسمح لي القارئ في كل مكان من هذا الكون أن أتوجه بالشكر والامتنان لكل الشخصيات المرموقة التي أسهمت معنا في إعداد هذا العمل الإنساني المشترك.

المشاركون في الكتاب

المشاركون في الكتاب:

إدوارد شوارز: مراسل صحافي، ومحرر أخبار إذاعية. كتب في العديد من الصحف والمطبوعات وعمل مراسل أخبار من على متن حاملة الطائرات يو اس اس ليت U.S.S. Leyte. غير عمله ليلتحق بمجال عمليات التأمين التجاري وإدارة المخاطر. تقلد عدة مناصب قيادية في هذا المجال. يعمل حالياً عضو مجلس إدارة شركة المؤمّن الأمريكي. عضو في مجلسين للمنح الدراسية بجامعة أريزونا الحكومية وكذلك عضو لجنة برامج المنح المحلية والدولية (أمريكا).

السفير إدوارد ولكر: رئيس وكبير المديرين التنفيذيين لمعهد الشرق الأوسط، وهو مؤسسة بحثية مرموقة تعنى بسياسات الشرق الأوسط وتتخذ من واشنطن العاصمة مقراً لها، عمل مساعداً لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى في

إدارة كل من الرئيسين بيل كلنتون وجورج بوش الأب. تقلد عدداً من المناصب أثناء عمله في وزارة الخارجية منها سفير الولايات المتحدة في إسرائيل ومصر والإمارات العربية المتحدة، إضافة إلى نائب المندوب الدائم لأمريكا بالأمم المتحدة (أمريكا).

الدكتورة أميمة بنت أحمد الجلاهمة: أستاذ مساعد بكلية التربية ـ قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك فيصل فرع الدمام. دكتوراه في الدراسات الإسلامية ـ تخصص عقيدة ـ مقارنة أديان. شغلت عدداً من المناصب الأكاديمية منها أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية في كلية التربية بجامعة الملك فيصل فرع الدمام. كما شاركت كعضو في مؤتمر الحوار الوطني السعودي الثالث الذي عقد في المدينة المنورة (يونيو ٢٠٠٤م). كما شاركت في عدة منتديات ثقافية داخل المملكة وخارجها (السعودية).

بول فيندلي: عضو الكونجرس الأمريكي من عام ١٩٦١م إلى عام ١٩٨٣م، المؤسس والرئيس الفخري لمجلس المصالح القومية، واشنطن، له ظهور واسع في وسائل الإعلام الأمريكية وشارك في العديد من المناسبات ذات العلاقة بشؤون الشرق الأوسط مثل

مؤتمرات الأمم المتحدة في جنيف عام ١٩٨٨م وكوالا لامبور عام ١٩٨٩م ونيويورك عام ١٩٩٣م. مؤلف العديد من الكتب مثل: لا سكوت بعد اليوم: مواجهة الصور الأمريكية المزيفة عن الإسلام، الخداع المتعمد: مواجهة الحقائق حول العلاقة الأمريكية ـ الاسرائيلية، من يجرؤ على الكلام: أفراد ومؤسسات يواجهون اللوبي الإسرائيلي. (أمريكا).

تشارلز سانت بروت: مؤرخ ومحلل سياسي مهتم بالجغرافية السياسية وعلى وجه الخصوص الجغرافية السياسية للشرق الأوسط والإسلام. رئيس تحرير مجلة دراسات جيوبوليتكية الفرنسية. مدير المعهد الفرنسي للإشراف على الدراسات الجيوبوليتكية. مشارك في الكثير من المناسبات ومحاضر في جامعة رينه ديسكارت للقانون في باريس. بعض مؤلفاته ترجمت إلى الإنجليزية وآخر مؤلفاته: السياسة الفرنسية تجاه العالم العربي. (فرنسا).

تيم كيندي: الشريك المؤسس لمجموعة السياسات الاستراتيجية، وهي شركة إعلام استراتيجي. تلقى تعليمه في كل من جامعة جنوب كاليفورنيا وجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. كاتب متخصص في الشؤون الدولية والدفاعية للولايات المتحدة. نشرت كتاباته في كل من وول

ستريت جورنال Wall Street Journal، يو اس أيه تودي U.S.A Today، ذي واشنطن تايمز The Washington Times، ناشيونال ديفينس (الدفاع الوطني) National Defense وواشنطن ريبورت أون ميدل إيست أفيرز Washington Report On Middle East Affairs (أمريكا).

جانجير أراسلي: ولد في موسكو عام ١٩٦٠م. تخرج في معهد الدول الأفريقية والآسيوية (جامعة موسكو الحكومية) كمتخصص في شؤون العالم العربي والإسلامي. وفي الثمانينيات من القرن الماضي عمل في مجموعة المساعدات العسكرية السوفيتية في كل من ليبيا والعراق، وكذلك في اللجنة السوفيتية للتضامن الأفريقي ـ الآسيوي. ومنذ التسعينيات ظل يعمل مستشاراً في الشؤون الأمنية مع تركيز خاص على الإرهاب. يرأس حالياً مركز دراسات الإرهاب والتهديدات المختلفة في أذربيجان، صدرت له ثمانية كتب في موضوعات مختلفة بما فيها الإرهاب (أذربيجان).

الأستاذ الدكتور **جعفر شيخ إدريس**: دكتوراه في الفلسفة من جامعة الخرطوم. رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة. مفكر إسلامي مهتم بقضايا الفلسفة والسياسة، ومتخصص في العلاقة الحضارية بين الغرب والعالم الإسلامي. (السودان).

الدكتور **جون ديوك آنثوني**: مؤسس وكبير المديرين التنفيذيين للمجلس الوطني للعلاقات العربية ـ الأمريكية، مؤسس وعضو مجلس إدارة وأمين لجنة تعاون الأعمال بين دول مجلس التعاون والولايات المتحدة. مؤسس لجنة السلام الإسرائيلية ـ الفلسطينية. الرئيس المؤسس لجمعية الدراسات الخليجية. مؤسس المؤتمر السنوي لصانعي السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. ظل الدكتور آنثوني يعمل مستشاراً لوزارتي الدفاع والخارجية الأمريكية طيلة الخمسة والعشرين عاماً الماضية، ويحاضر لهما حول شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي. له ثلاثة كتب وأكثر من مئة مقال ودراسة تتناول المصالح الأمريكية في الدول العربية والشرق الأوسط والعالم الإسلامي. من أبرز كتبه: الدول العربية في الخليج الأدنى: الشعوب والسياسة والنفط. (أمريكا).

خالد المالك: رئيس تحرير صحيفة الجزيرة بالسعودية، التي تعد واحدة من أهم الصحف اليومية التي تصدر في السعودية. بدأ العمل الصحفي محرراً في كل من صحيفة الرياض ومجلة اليمامة وصحيفة الجزيرة. له كتابات في أغلب الصحف السعودية. نائب رئيس مجلس إدارة هيئة الصحافيين السعوديين. ينظر إليه الوسط الصحافي باعتباره أحد رواد الصحافة السعودية، حيث عمل تحت إشرافه الإداري والمهني عدد كبير من الصحافيين السعوديين. (السعودية).

خالد المعينا: رئيس تحرير جريدة عرب نيوز التي تصدر باللغة الإنجليزية. شخصية إعلامية ومستشار علاقات عامة مرموق. كبير المدراء التنفيذيين للشركة السعودية للعلاقات العامة للفترة من ١٩٩٣م إلى ٢٠٠٠م. مثل الإعلام السعودي في العديد من مؤتمرات القمة المهمة، ولديه معرفة واسعة بالإعلام الغربي. أجريت معه العديد من اللقاءات مع مطبوعات ومحطات تلفزيونية مثل سي ان ان وسي بي سي وتلفزيون ستار خصوصاً أثناء حرب الخليج (السعودية).

ديفيد دومك: مؤسس ومدير مجموعة Mid Amr التي أنشئت عام ٢٠٠٣م بهدف بناء جسور التفاهم بين الولايات المتحدة والعالم العربي، وتوعية الأمريكيين المؤثرين حول المناخ الاجتماعي والسياسي والتجاري في العالم العربي. تخرج في جامعة إنديانا ونال شهادة الدراسات العليا من جامعة جورج تاون. المدير القانوني السابق لعضو الكونجرس جون دينقل John Dingell . عمل مع عدد من النواب الأمريكيين في الكونجرس. يكتب في الصحافة العربية ومتعاون منتظم في صحيفة عرب نيوز Arab News السعودية. (أمريكا).

ديلندا هانلي: محررة أخبار في واشنطن ريبورت أون ميدل إيست أفيرز Washington Report On Middle East Affairs، وهي المجلة الأكثر توزيعا من بين جميع المجلات التي تعنى بشؤون الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية. درست في الجامعة الأمريكية في بيروت وانضمت لرابطة السلام، وعملت بتدريس اللغة الإنجليزية في كل من سلطنة عمان والمملكة العربية السعودية. تكتب مقالات عن فلسطين وتونس والسعودية وليبيا والمسلمين في السياسة الأمريكية. والانحياز في وسائل الاعلام.

الدكتور **رالف سالمي**: عضو هيئة التدريس في شعبة العلوم السياسية ودراسات الأمن القومي بجامعة كاليفورنيا الحكومية. يحاضر في سياسة الشرق الأوسط والقانون الدولي والشؤون الإسلامية والسياسة الخارجية الأمريكية. حصل على العديد من الجوائز الأكاديمية مثل جائزة لجنة الأمم المتحدة للخدمة العامة، وجائزة مستشار الكلية المتميز بالجامعة. نال تقدير كل من مدير جامعة كاليفورنيا ومجلس الأمناء لإسهاماته المتميزة في مجال التعليم العالي. آخر مؤلفاته: الإسلام والصراع والحل: نظريات وتطبيقات. (أمريكا).

ريتشارد كورتيس: دبلوماسي متقاعد وسكرتير مجلة واشنطن ريبورت أون ميدل أيست أفيرز Washington Report On Middle East Affairs مؤلف كتاب: الصورة المتغيرة: المفاهيم الأمريكية للنزاع العربي ـ الإسرائيلي، وخداع جمعيات العمل السياسية: الضغط على الكونجرس لتوجيه السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط.

يكتب بصورة مكثفة عن عملية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين ودور اللوبي العرقي والديني الذي يسعى للتأثير على سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. (أمريكا).

زين العابدين الركابي: أستاذ مشارك في قسم الإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، كاتب ومفكر معني بقضايا المنهج في الفكر الديني والسياسي والإعلام. آخر إصداراته كتاب "الأدمغة المفخخة" باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية (السعودية).

الأستاذ الدكتور **زينفون كونتياديس**: أستاذ بجامعة بيلوبونيس Peloponnese والمدير الأكاديمي لمركز القانون الدستوري الأوربي وهو معهد أبحاث مقره أثينا. له عدد من

المؤلفات في مجال القانون العام والقانون الاجتماعي إضافة إلى العديد من المقالات عن القانون الأوربي. آخر مؤلفاته: "الضمانات الدستورية والتنظيم المؤسسي في نظام الضمان الاجتماعي" "٢٠٠٤م" و: "مساهمة في النظرية للديمقراطية التعددية" "٢٠٠٠" (اليونان).

الأستاذة الدكتورة **سلوى الخطيب**: أستاذ بجامعة الملك سعود، ماجستير في علم الاجتماع دكتوراه في الانثربولوجيا "علم الإنسان"، من كلية لندن الجامعية عام ١٩٨٧م. عينت أستاذاً مساعداً في شعبة الدراسات الاجتماعية بجامعة الملك سعود عام ١٩٨٧م. وفي عام ١٩٩٩م عينت مديرة مدرسة البنات بالأكاديمية السعودية الإسلامية في واشنطن، ثم وكيلة شعبة الدراسات الاجتماعية في جامعة الملك سعود عام ٢٠٠٢م . لها العديد من البحوث عن الطلاق والتكيف الاجتماعي ومفهوم المرأة المسلمة للمساواة . (السعودية).

سليمان بن عبدالعزيز الربعي: محاضر بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة القصيم. سبقت له الكتابة في عدة صحف ومجلات ومواقع إلكترونية محلية وعربية (السعودية).

الأستاذ الدكتور **عبدالرحمن بن زيد الزنيدي**: أستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. مفكر سعودي معني بالقضايا الفكرية المعاصرة. له مشاركات فكرية في المؤتمرات واللقاءات الدولية. آخر إصداراته: "السلفية وقضايا العصر"، "العولمة الغربية والصحوة الإسلامية: الموقف الرشيد" "مصادر المعرفة في الفكر الديني الفلسفي: رؤية إسلامية" . (السعودية).

الدكتور **عصمت عبدالمجيد**: الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية (١٩٩١م ـ ٢٠٠١م) . شغل مناصب وزارية ودبلوماسية عديدة منها: نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية، سفير ومندوب دائم لمصر لدى الأمم المتحدة (١٩٧٢م ـ ١٩٨٣م)، مستشار بالبعثة الدائمة لمصر في المقر الأوربي للأمم المتحدة بجنيف (١٩٥٧م ـ ١٩٦١م) ومستشار سياسي مسؤول عن تنفيذ الاتفاقية البريطانية المصرية (١٩٥٤م ـ ١٩٥٦م). مثل بلاده في العديد من المؤتمرات والاجتماعات الدولية وشارك في جميع جلسات مجلس الأمن التي عقدت في المدة من مارس ١٩٧٢م إلى يناير ١٩٨٣م. نشرت له العديد من التقارير والمقالات والدراسات، من مؤلفاته: كتاب "زمن الانكسار والانتصار مذكرات دبلوماسي عن أحداث مصرية وعربية ودولية"، وكتاب "مواقف وتحديات في العالم العربي" (مصر).

الدكتور **فيصل بن مشعل بن سعود آل سعود**. حاصل على درجة الماجستير من جامعة كاليفورنيا، مدينة تشيكو، بالولايات المتحدة عام ١٩٨٨م، والدكتوراه من جامعة دورهام بالمملكة المتحدة عام ٢٠٠٠م، معني بقضايا نظام الحكم والتطور السياسي والمؤسسات السياسية في المملكة. له العديد من المؤلفات العلمية، منها: التطور السياسي في المملكة، الذي ترجم إلى عدد من اللغات العالمية، ومؤلفات أخرى متنوعة بعدة لغات أجنبية.(السعودية).

الدكتور **فيليب سيب**: أستاذ الصحافة بجامعة ماركويتي في ولاية ويسكانسون. مهتم ببحوث العلاقة بين وسائل الإعلام والعلاقات الدولية. مؤلف للعديد من الكتب منها: "الصحافي العالمي: الأخبار والضمير في عالم متصارع"، "وما وراء الخطوط الأمامية: كيف تغطي وسائل الإعلام عالماً تشكله الحرب". (أمريكا).

الأستاذ الدكتور **محمد بن سعود البشر**: أستاذ الإعلام السياسي بقسم الإعلام بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، حاصل على درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة جنوب إلينوي في الولايات المتحدة في تخصص الإعلام السياسي. مهتم بدراسات الفكر والثقافة والعلاقة بين الحضارات. له حضور

إعلامي في وسائل الإعلام السعودية والعربية. من مؤلفاته: "مقدمة في الاتصال السياسي"، "الاتصال الثقافي"، "فلسفة الشك"، "الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني". (السعودية).

الأستاذ الدكتور **نعوم تشوميسكي**: أستاذ الفلسفة واللسانيات في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. تلقى تعليمه الجامعي وفوق الجامعي في جامعة بنسلفانيا وحصل على درجة الدكتوراه في اللسانيات عام ١٩٥٥م. فيلسوف عالمي ومحلل سياسي حصل على العديد من الدرجات الفخرية من عدد من الجامعات الأمريكية والعالمية. كتب وحاضر بصورة واسعة حول اللسانيات والفلسفة والتاريخ الفكري والشؤون الدولية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة . له عدد من المؤلفات آخرها: "الهيمنة أم البقاء". (أمريكا).

وولف شوبيرت: محام متخرج من كلية القانون بجامعة برلين. عمل مستشاراً قانونياً في مكتب محاماة بمدينة جدة بالمملكة العربية السعودية من ١٩٩٢م إلى ٢٠٠٠م. ترأس دوائر الأعمال الألمانية لعدة سنوات. متحدث منتظم في الشؤون العربية وعضو في المجلس الموسع لإدارة الغرفة التجارية العربية الألمانية في برلين. عضو جمعية الشرق الأوسط والأدنى في مدينة هامبورج والجمعية العربية الألمانية في برلين وجمعية القانون العربي والإسلامي. (ألمانيا).

الدكتور **يفجيني بريما كوف**: رئيس وزراء ووزير خارجية روسيا الأسبق. تخرج في معهد الاستشراق بموسكو. أكمل دراساته العليا بجامعة موسكو حيث نال درجة الدكتوراه في الاقتصاد. مارس الصحافة في المرحلة الأولى من حياته، فعمل مراسلاً للإذاعة والتلفزيون، ثم معلقاً في جريدة (برافدا) ومن ثم مراسلاً لها في عدد من الدول العربية. تولى إدارة معهد الاستشراق، ثم معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية، قبل أن ينخرط في العمل السياسي في أواخر الثمانينيات من القرن المنصرم إذ تولى رئاسة مجلس اتحاد السوفيت الأعلى وكان عضواً في مجلس الرئاسة ومجلس الأمن القومي. يعمل حالياً رئيساً للغرفة التجارية الروسية وعضواً في البرلمان الروسي. (روسيا).

الفصل الأول: الإرهاب اليوم :

الإرهاب: مفهوم غامض على النطاق الدولي

ديفيد دومك *

«العنف العشوائي ينتشر في كل مكان من حولنا مثل مرض مهلك ومميت، ولمواجهة ذلك العنف بدأت الدول تردّ عليه بشكل غير قانوني وتقابل الإرهاب بالإرهاب.. وبالتالي فقدت أرض المعركة حدودها الشرعية.. إن الإرهاب عدو مشترك للإنسانية، حيث إنه لا يفرق بين صديق وعدو، عسكري ومدني.. إننا نريد تكاتفاً دولياً يقوم بتعريف الإرهاب، ووضع السبل للتغلب عليه».(١)

تركت مذبحة مدرسة بلسان في روسيا وخطف الطائرات في مطلع سبتمبر ٢٠٠٤م العالم في دهشة تامة وحزن عميق بسبب

* موظف سابق في الكونجرس الأمريكي ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

وحشية وضراوة الهجمات الإرهابية نفسها، كما تركته في حيرة حول الأسباب التي تؤدي إلى الإرهاب والحلول الموضوعة لمواجهته. في واقع الأمر، يبدو لكثير من المراقبين أن كارثة الإرهاب التي ضربت العالم في العقد الأخير ـ وخاصة منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تمثل نزوة غريبة نبعت من عقول منحرفة مستغلة وهي عقول القلة «هم» (الإرهابيون) في مقابل الأكثرية «نحن» (العالم المتحضر).

وينظر الآخرون إلى التشخيص البسيط وهو تشخيص الأبيض والأسود للإرهاب أبعد من ذلك، مستخدمين تحذيرات مثالية، إن لم تكن إيحائية، عن «صراع الحضارات» الحتمي، وهذه النظرية، التي اختمرت على مدى عقد سابق على يد صموئيل هنتنجتون، قد اكتسبت أهمية خلال السنوات الثلاث السابقة، واستفاد منها أولئك الأفراد، سواء كنا نسميهم المحافظين الجدد الأمريكيين، أو خلاف ذلك الذين يرون الإسلام على أنه دين يورث العنف، وقد أدى إلى تعميق تلك الفكرة وجود أنظمة حكم قمعية مستبدة في منطقة الشرق الأوسط، وباختصار فإنهم يرون الإرهاب على أنه ظاهرة دينية وإقليمية مُؤكّدة. إن المتطرفين الإسلاميين الذين لديهم الاستعداد لاستخدام الإرهاب يقومون بذلك بدون منطق يستندون إليه، حيث إن تلك الأفكار لا يمكن أن تقبلها إلا عقول شاذة شريرة، ومن هذا المنطلق فإنه صراع مليء بالحقائق الأخلاقية.

تكمن المشكلة في مفهوم الإرهاب نفسه. إن الميل إلى الإرهاب من خلال منظور «الخير في مواجهة الشر» على الرغم من ملاءمته

وإمكانية قبوله، يعتبر تبسيطاً يولد المشاكل، وحتى تاريخ اليوم لا يوجد تعريف عقلاني للإرهاب. وقد خرج علينا علماء السياسة الذين عكفوا على دراسة هذا المصطلح بـ ١٠٩ تعريفات شهيرة، وكانت تلك التعريفات قبل أحداث ١١ سبتمبر وقبل أن تتكاثر الدراسات في هذا المجال بشكل ملحوظ[٢]، جهات قليلة استطاعت أن تعرف الإرهاب، حتى المجموعات المتجانسة نظرياً مثل منظمة المؤتمر الإسلامي، فشلت في التوصل إلى اتفاق بين أعضائها حول هذا المصطلح في عام ٢٠٠٢.
إن مناقشة الإرهاب حسب التعريف تفرض أحكاماً أخلاقية على التنفيذيين والأسباب التي يناصرونها [٣]. الاستخدام المجرد لكلمة «إرهابي» بدلاً من «ثائر» أو «محارب منشق» أو «مناصر لحزب» يعتبر أمراً تقريرياً في تحديد ما إذا كان أحد المبررات عادلاً أم لا. وبغض النظر عن ذلك، بينما ساهمت التكتيكات ونطاق العمل في جعل الإرهاب أكثر دموية، وقامت وسائل الإعلام بجعل التغطية أكثر اتساعاً وشمولية، فإن الإرهاب ليس جديداً تماماً، وليس حكراً على الإسلام وحده أو الشرق الأوسط كما يشهد التاريخ والواقع، ولا تحمل منظمة القاعدة براءة اختراع الإرهاب، فإنها فقط لاعب جديد، إلا أنها تملك استراتيجيات أكثر تطوراً ونتائج أكثر تدميراً.

لغرض هذه الدراسة سنعرف الإرهاب على أنه **عنف ضد غير المحاربين ـ المدنيين أو العسكريين ـ لمساندة أغراض سياسية**.
ومما لا شك فيه أن الإرهاب اليوم مشكلة عالمية. في الحقيقة إن

وزارة الخارجية الأمريكية قد حددت ٣٧ منظمة تعمل في جميع أنحاء العالم على أنها منظمات إرهابية هذا العام[٤]. ويظهر الإرهاب في العديد من الأشكال والمقاسات والصور ويستخدم لتعزيز مجموعة من الأغراض: الوطنية والعرقية والدينية والأيديولوجية، والاقتصادية والاجتماعية التي تخص علاقات الدول فيما بينها.

وما لا تشتمل عليه إحصائية وزارة الخارجية المذكورة أعلاه هم رعاة الإرهاب من الشخصيات الرسمية بالدول. مرة أخرى يبرز السؤال: من المسؤول عن ارتكاب جريمة الإرهاب؟ قامت الولايات المتحدة، على سبيل المثال، بتصنيف سوريا على أنها راعية للإرهاب نتيجة لمساندتها لحزب الله وعدد من الميليشيات الفلسطينية المعارضة لإسرائيل. بالتأكيد تحصل سوريا على مكاسب ضد مصلحة إسرائيل عندما تقوم تلك المنظمات بأعمال عنف ضد أهداف إسرائيلية. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك انسحاب إسرائيل من لبنان بعد تضررها من هجمات حزب الله على مدى سنوات. ولكن السوريين لن يوافقوا على الاسم الذي ألصقته بهم الولايات المتحدة الأمريكية: وقد أعلن الرئيس السوري السابق حافظ الأسد قائلاً: «إننا نعارض الإرهاب منذ القدم. ولكن الإرهاب شيء والنضال الوطني ضد الاحتلال شيء آخر، إننا نساند النضال ضد الاحتلال وكذلك نساند حركات التحرر الوطني»[٥].

الولايات المتحدة الأمريكية حساسة عندما يستخدم النقاد الأجانب

والوطنيون غموض «الرعاة الرسميون للإرهاب» ضدها. فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية تساند حركات التحرر لديها بالإضافة إلى أن أنظمة الحكم التافهة التي تطبق إرهاب الدولة ـ عرفت على أنها إرهاب من قبل الحكومة ضد مواطني الدولة أنفسهم ـ لقمع المعارضة السياسية. من أمثلة ذلك، مساندة إدارة الرئيس ريجان للعديد من المجموعات اليمينية الثائرة في أمريكا الوسطى في الثمانينات، بما فيها الحركات المعارضة سيئة السمعة. من أمثلة المجموعات الناجحة التي كانت تساندها الولايات المتحدة الأمريكية في الأرجنتين وتشيلي، والكنغو وإيران وكمبوديا وجنوب فيتنام. وهناك أيضاً مسألة عدم الرضا الأمريكي عن الضرر المصاحب الذي ينتج عن الأعمال العسكرية ويعتبر الضرر المصاحب عادة بمثابة معيار لقياس الخسائر المدنية.

القاعدة كنموذج إرهابي كلاسيكي: القصة والأيديولوجية والدافع

على الرغم من أنه أمر كريه بالنسبة للكثيرين، وخاصة في الغرب، لاستكشاف المنطق وراء القاعدة، فإن عمل ذلك ذو أهمية عالية في فهم هذا التنظيم بعينه، وبشكل أوسع، تمييز الخصائص المشتركة للمجموعات الإرهابية بشكل عام، إن هذا يثبت أن القاعدة ليست استثناء فالحملة التي تطبقها تنطبق على قوالب قديمة. إنها تستجيب لخطأ تاريخي لم يتم تصحيحه من قبل هيكل القوة المعاصر، الأمر الذي لم يترك بديلاً عن استخدام وسائل العنف. إنه

ينفث الإحباط الاقتصادي أساساً، واليأس لدى الناس، لقد عرفت سبباً لجميع الأمراض الاجتماعية، وتبنت العلاج، وفي النهاية فإن متبعيها ـ مثل العديد من الإرهابيين أو الثوار في الماضي ـ يؤدون عمليات خطرة، وغالباً يضحون بأنفسهم لهذا السبب، مثل طياري (كاميكاز) في الوقت الحاضر، وإذا لم يحصلوا على تعاطف الشعوب، فإنهم على الأقل يكسبون نقاطاً لشجاعتهم.

لدى منظمة القاعدة هدفان رئيسان:

١ـ إعادة الهيكلة الجذرية للشخصية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للدولة الإسلامية.

٢ـ تخليص مناطق العرب والمسلمين من تأثير الولايات المتحدة والغرب.

وعند دراسة هذين الهدفين نجد أنهما معقولان إذا قبل المرء (على الأقل لغرض الفهم) النظرة العالمية لها. من وجهة نظر القاعدة، فإن دول العالم الإسلامي، وخاصة مصر والسعودية، تقف مكتوفة الأيدي في مواجهة النفوذ الغربي، وتعتبر أن تصرفاتهما، التي ينظر إليها غالباً على أنها فاسدة وغير إسلامية، تجعلهما شركاء في الجريمة، وإن ضعفهم يقوي ويشجع الغرب، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية على التدخل في الشؤون التجارية والعسكرية والثقافية. والأسوأ من ذلك حديث الولايات المتحدة عن حقوق الإنسان والقانون الدولي في نفس وقت قيامها بتطبيق سياستها الفردية التي جعلتها تبدو قوة عظمى كاذبة. وتعتبر سياسة الولايات المتحدة

الأمريكية تجاه إسرائيل أوضح مثال على ذلك.

سيد قطب ليس مشهوراً في الغرب، ولكن فهم تاريخه واتجاهاته يعتبر ذا أهمية قصوى. برز سيد قطب بوصفه قائد الإخوان المسلمين المصريين بعد اعتقاله من قبل جمال عبد الناصر في الخمسينات من القرن الماضي. رأى سيد قطب أن هناك حاجة إلى الإصلاح في العالم الإسلامي من أجل استعادة الهيمنة وبعث العقيدة. وبدلاً من بناء جسور بين الإسلام والعالم الغربي الحديث، دعت رسالة سيد قطب إلى تمزيق الجسور التي كانت قائمة في ظل القادة الإسلاميين السابقين عليه، الأكثر اعتدالاً من أمثال حسن البنا. كان سيد قطب يؤمن أن الغرب تسبب في ظلم اقتصادي واجتماعي، وأن أساليبه المادية قد تسببت في تفتيت النسيج الأخلاقي للعالم الإسلامي، ركز سيد قطب على الحاجة إلى الجهاد، الذي لم يكن مقتصراً على جهاد الذات، ولكنه حمل معنى أكثر عنفاً وقسوة والذي ركزت عليه الصحافة الغربية منذ ذلك الحين.

أعدم سيد قطب في عام ١٩٦٦، ولكن أفكاره ما زال لها صدى كبير لدى المتطرفين الإسلاميين.

ومع الأخذ في الاعتبار قتالية سيد قطب ودرجة عنف شبكة القاعدة في الوقت الراهن، فإنه من السهل على قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا وأمريكا الشمالية أن تسقط في براثن الشكل القديم لما يسمى بالإرهاب الإسلامي المتفرد. من المؤكد أن اللهجة

الدينية لسيد قطب، التي يرددها اليوم أسامة بن لادن يمكن أن تثبت هذه الشكوك. ولكن الدين السياسي ـ «متابعة أهداف العالم من خلال قيادة دينية وتلقين الجماهير»[٦] ـ هو مجرد شكل من التلقين الأيديولوجي، وهو أحد مكونات الإرهاب، إن الأيديولوجية قد أبرزت العديد من المتطرفين الدينيين (الإرهابيين)،من المتطرفين اليهود في (جدعية القديمة)، إلى المتطرفين المسيحيين الأمريكيين ٩١٣ الذين قتلوا عضواً بالكونجرس الأمريكي وأحد أفراد حاشيته قبل ارتكابهم الانتحار الجماعي في مدينة جونستاون Jonestown. جويانا Guyana، وتشتمل القصة على المكونات الأخرى (البيئة التاريخية السياسية الاقتصادية والدافع (عدم القدرة على تحقيق الأهداف بوسائل غير عنيفة).

الشرق الأوسط: ليس كل الإرهاب عربياً، وليس كل الإرهاب العربي إسلامياً

نتيجة للأفلام السينمائية العديدة والعروض الإخبارية والأعمال الإرهابية الفعلية، يقفز الأمريكان غالباً إلى النتيجة التي مؤداها أن الشرق الأوسط يعج بالإرهابيين والمتعاطفين مع الإرهاب. إنه أرض لا يقدر الناس فيها الحياة كما نقدرها نحن هنا. كما يقول برنارد لويس: «إنها أرض مليئة بالغضب الإسلامي»، ولكن القوالب التي يوضع بها الإسلام وميوله المزعومة نحو

العنف لا تخضع للفحص والتمحيص. منذ مطلع القرن العشرين وحتى منتصفه كانت توجد عدة منظمات في الشرق الأوسط يمكن اعتبارها إرهابية، وكانت غالبيتها مجموعات وطنية.

من بين أكثر الإرهابيين نشاطاً خلال ذلك الوقت كانت منظمات ليهي **LEHI** (العصابة القاسية) ومنظمة إيجون زواي ليومي (إيرجون)(Irgun) Jrgun Zavai Leumi، وهما منظمتان يهوديتان مناصرتان للصهيونية، وكانتا تستهدفان كلا من الفلسطينيين والبريطانيين، كانت كل مجموعة من هاتين المجموعتين تهدف إلى تأسيس دولة يهودية في فلسطين، وكانت كل منهما تستخدم العنف من أجل تحقيق أهدافها. من الناحية الأخلاقية كانت مبررات الصهاينة تعززها البيئة السياسية والثقافية. وكانت تعتمد على إثارة التعاطف وجمع المساندين والمؤيدين نتيجة للأعمال الجسيمة المعادية للسامية التي كانت تقع في أوروبا، حيث كان يعيش معظم اليهود في ١٩٠٠م. وتنوعت تلك المجموعات ما بين (دريفوس أفير) في فرنسا ومجموعات المجازر في روسيا. ومن المضحك كثيراً أن مهندسي الصهيونية وفيهم شايم وايزمان Chaim Weizman قد لعبوا بفكرة قبول وطن يهودي خارج فلسطين ولكن العامل الديني لا يمكن إهماله، وخاصة عندما يكون سماسرة القوة في ذلك الوقت من المسيحيين، ويمكن لبعضهم أن يتبنى فكرة إيجاد فلسطين يهودية لأغراض

مسيحية، ولا حاجة للقول أن الممارسات النازية الوحشية ضد اليهود قد خلقت تعاطفاً لا مثيل له لصالح الشعب اليهودي، وقد استخدم هذا التعاطف بدوره من أجل دعم فكرة الصهيونية في إنشاء دولة يهودية.

ومع بداية تبني المجتمع الدولي بشكل واسع لفكرة الصهيونية، أصبح ينظر إلى الميليشيات العسكرية اليهودية التي كانت تعتبر ذات يوم إرهابية على أنهم مناضلون من أجل الحرية في الصحافة الدولية، وخاصة وسائل الإعلام الأمريكية، بالنسبة للأمريكان، كانت فكرة اليهودي المهزوم المسكين الذي يحمل سلاحه ضد المستعمر الباغي هي جوهر قصة داود في مواجهة جولياث، وهي فكرة لم تضيعها المنظمات الإرهابية اليهودية التي كانت تعمل في ذلك الوقت. وقد أفاد مناحيم بيجين قائد منظمة إيرجون الشهير، الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء إسرائيل قائلاً: «احتج بعض الناس قائلين بأن إفراغ الصحافة الأمريكية لمساحات كبيرة على صفحاتها لعملياتنا، أي عمليات الجيش المنظم حتى لو كان يحقق انتصارات عظيمة كانت مثيرة ولكنها أقل إثارة من الهجمات الشجاعة لمجموعة من الثوار ضد حكومة جبارة وجيش جبار»[٧]، وبعد حكاية الصهيونية، ركزت التغطيات الأمريكية على النزاع الإسرائيلي ـ البريطاني ، وكانت قليلاً ما تذكر الفلسطينيين.

كانت العصابة القاسية مسؤولة عن اغتيال وزير الدولة

البريطاني في القدس، اللورد موين وكذلك كونت برنادوت من الأمم المتحدة، ومن أبرز أعمال منظمة (إيرجون) تفجير يوليو عام ١٩٤٦ لفندق الملك داود في القدس، ومذبحة عام ١٩٤٨ للفلسطينيين العزّل في دير ياسين، وقد ترك الحادث الأول ٩١ قتيلاً وفيهم ٢٨ مسؤولاً بريطانياً، أما الحادث الثاني الذي نفذ في ٩ أبريل ١٩٤٨ فنتج عنه وفاة ما لا يقل عن ٢٥٠ شخصاً، وفيهم النساء والأطفال.

في سنوات لاحقة، بعد أن غادر البريطانيون الساحة بفترة طويلة، تشكلت مجموعة أخرى من الإرهابيين اليهود في إسرائيل، بينما كان قادة الصهيونية ـ وفيهم من كانوا في منظمة إيرجون ـ ممن لا يبالون بالدين، كانت حركة جوش إيمونيم أساساً حركة دينية، بشكل عام ازداد التأثير الديني في السياسة الإسرائيلية بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ أو «النكسة» كما تسميها كثير من الدول العربية، في تلك الحرب قامت إسرائيل باحتلال الضفة الغربية الفلسطينية، التي كانت في العصور القديمة تعرف باسم جدعية والسامرية وهذا الاحتلال أعطى دفعة دينية للإسرائيليين، الذين شعروا أن ذلك النصر والاحتلال كان أمراً إلهياً.

تأسست حركة جوش إيمونيم Gush Emunium عام ١٩٧٤ وتبنت فكرة إيريتز إسرائيل، وعملت بوسائل مدنية وعسكرية لتشجيع الاستيطان فيما حددته الأمم المتحدة بأنها مناطق محتلة

بصورة غير شرعية[٨]. كانت أنشطتها في البداية محصورة في أمور الاستيطان، وقد حاول بعض أعضاء الحركة تفجير المسجد الأقصى في احتجاج على اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ مع مصر، واعتراضاً على إعادة سيناء إلى مصر ومنح الحكم الذاتي المحدود للفلسطينيين، أرادت حركة جوش إيمونيم الانتقام من الخطأ القومي المتمثل في إعادة أراض مقدسة عن طريق ارتكاب أعمال تدميرية غير عادية، وقد نمت قوة اليمين الديني في إسرائيل منذ السبعينيات من القرن الماضي، وتطورت مسوغات المستوطنين. وفي الوقت الراهن يعيش نحو ٤٠٠,٠٠٠ إسرائيلي في مستوطنات الضفة الغربية، على الرغم من وضعهم غير القانوني بموجب القانون الدولي، ومؤخراً دخلت حركة يغال أمين Yigal Amin ضمن حركات المستوطنين اليمينيين، وقد قام ذلك المستوطن باغتيال إسحاق رابين، واليوم تعرّض رئيس الوزراء اليميني الحالي آرئيل شارون للتهديد بالاغتيال، وهو المؤيد للاستيطان ـ إذا قام بإخلاء غزة.

من بين الهيئات العاملة في الشرق الأوسط في الوقت الراهن منظمة التحرير الفلسطينية وجبهة جورج حبش الشعبية لتحرير فلسطين، وهذه المنظمات التي نالت ذات يوم نصيب الأسد من المساندة الشعبية الفلسطينية هي منظمات غير دينية، وكلتا المنظمتين مارست الإرهاب ولم تستخدم الخطاب الديني لإضافة

المزيد من الوزن والقيمة لتبرير أغراضها. عملت منظمة التحرير الفلسطينية كمجموعة وطنية تهدف إلى تأسيس دولة موحدة بهدف إنشاء فلسطين متعددة الأديان، وقد دمجت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الوطنية مع الأيديولوجية اليسارية.

ومع إخراج أعداد كبيرة من الفلسطينيين بصورة غير شرعية من ديارهم ونفيهم إجبارياً، من السهل رؤية الدافع وراء منظمة التحرير الفلسطينية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كانت البيئة التاريخية ـ السياسية يانعة، وارتكب خطأٌ ضد الشعب الفلسطيني، وأخيراً ، حتى مع وجود القرارات الشرعية للأمم المتحدة والمجتمع الدولي، بما فيه الولايات المتحدة، لدعم مواقفهم، فإن الفلسطينيين لم يحصلوا على أكثر من الكلمات لمساندة قضيتهم، وهذا الإحساس بفقدان القوة، معززاً بالأوضاع الاقتصادية المتردية، جعل العنف أكثر جاذبية، فحتى لو لم يستطع السلاح أن يجلب إسرائيل إلى طاولة المفاوضات، فإنه على الأقل سيجذب الانتباه إلى قضيتهم الوطنية.

آسيا: سيريلانكا، اليابان، كمبوديا

من بين أشهر الثورات الوطنية تلك الحرب الدائرة بين الحكومة السنهالية السريلانكية المسيطرة ، ونمور التاميل الانفصاليين، فمنذ تأسيسها عام ١٩٧٦، تقوم حركة نمور

التاميل الانفصاليين بمحاربة النظام في سريلانكا مما نتج عنه نحو ٦٠,٠٠٠ قتيل حتى اليوم، انخرطت حركة نمور التاميل الانفصاليين في العديد من أنشطة العنف ومن ذلك تفجيرات انتحارية واغتيالات، وفي حقيقة الأمر فإن أكثر من ٢٠٠ تفجير انتحاري قد نفذت بواسطة حركة نمور التاميل الانفصاليين. كما قام النمور باغتيال شخصيات رسمية مرموقة من أمثال رئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي في عام ١٩٩١ والرئيس السيرلانكي راناسينغ بريماديسا في عام ١٩٩٣. إن الشعب التاميلي هو في الغالب من الهندوس، أما حركة نمور التاميل الانفصالية فهي حركة وطنية غير دينية، تسعى لتحقيق الاستقلال للأقلية التاميلية التي تسكن شمال شرق سيرلانكا، وهي الأرض التي لم تحصل فيها ثقافتهم أو لغتهم أو دينهم أو مكوناتهم الثقافية الأخرى على الحماية الكافية.

كانت اليابان ضحية للعديد من أشكال الإرهاب: منه إرهاب ترعاه دول (اختطاف كوريا الشمالية لمواطنين يابانيين واختطاف طائرات)، وإرهاب أيديولوجي (أعمال الجيش الأحمر الياباني اليساري) ودينية مستترة (أوم شينريكو). وقد ارتكبت جماعة أوم شينريكو أفظع عمل إرهابي على الأرض اليابانية عام ١٩٩٥ عندما سربت الغازات السامة في

محطات القطارات والذي أدى إلى مقتل ١٠ أشخاص وإصابة ٥٠٠٠ شخص. كانت المجموعة أساساً موجهة دينياً، تمارس خليطاً من الهندوسية والبوذية وتؤمن بقدسية الرؤية النبوئية. إن منظمة «عبادة يوم القيامة» التي ضربت اليابان في عام ١٩٩٥ مشابهة لمعتقدات مجموعات أخرى عبر التاريخ (رسالة دينية متعصبة ممزوجة بالعنف)، تشمل جماعة ديفيد كوريش الذين ماتوا في إطلاق نار عشوائي وحريق في مدينة واكو بولاية تكساس عام ١٩٩٣.

وتعتبر حالة كمبوديا مثيرة في نشوء الإرهاب الذي شهدته الدولة في السبعينات من القرن الماضي. وعلى الرغم من أن الأمريكيين لا يوافقون على التشخيص ، إلا أنهم وقعوا ضحية لإرهاب الدولة عندما استخدم لون نول Lon Nol المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية القوة الغاشمة في انقلاب أطاح بالحكم. بعد ذلك، أصبحت البلاد ضحية للإرهاب الذي تحركه الأيديولوجيات خلال الحرب الأهلية التي أدت إلى اندحار الحكومة الضعيفة التي كانت تساندها الولايات المتحدة الأمريكية وتولي الخمير الحمر الحكم واستيلائهم على السلطة في عام ١٩٧٥، بعد ذلك، وتحت حكم بول بوت، شعر الكمبوديون بالحنق من إرهاب الدولة عندما تعرض نحو ١,٨ مليون مواطن إما للإعدام أو الموت جوعاً في حقول الموت.

أوروبا: منظمات إيتا، و١٧ نوفمبر، والجيش الأحمر الأيرلندي

لأوروبا تاريخ دموي طويل مليء بالإرهاب. فبينما يمكن أن نجد كل شكل من أشكال الإرهاب في كل قارة تقريباً، فإن تاريخ أوروبا خلال أي حقبة مليء بأمثلة العنف السياسي الذي يمكن أن يرقى لمستوى الإرهاب، حسب التعريف المستخدم، هيمن الثوريون الفرنسيون الجاكوبيانز خلال العصر الحديث على إرهاب الدولة، مستخدمين الإعدام بالمقصلة بشكل واسع لنشر الرعب والذعر وكسب طاعة المواطنين، وفي نهاية القرن التاسع عشر، قامت الجماعات التي تحكمها أيديولجيات في أوروبا باغتيال عدد من مسؤولي الحكومة، وفيهم الرئيس الفرنسي سادي كارنوت (١٨٩٤)، والإمبراطورة النمساوية إليزابيث (١٨٩٧)، ورئيس الوزراء الأسباني أنطونيا كانوراس (١٨٩٧)، وملك إيطاليا أومبرتو الأول (١٩٠٠)[٩]. خلال الحرب العالمية الأولى، اشتركت قوات الحلفاء والقوات المركزية في إرهاب ترعاه الدولة. وقد واجهت روسيا وكثير من دول أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى، وفيها ألمانيا والاتحاد السوفيتي، الإرهاب الفكري، وفيما بعد، استخدم قادة كلتا الدولتين إرهاب الدولة على نطاق واسع لتقوية قبضتهم على دولهم.

ولكن أحداث الإرهاب الأوروبية لم تنف بشكل منعزل عن كتب التاريخ. فكثير من المجموعات في العديد من الدول استمرت في

العمل في العصر الحالي. وكان معظم مجموعات الإرهابيين الأوروبيين، أو من يسمون كذلك، هم من الوطنيين أو المعتنقين للأفكار السياسية (اليمين أو اليسار). ومع ذلك فقد شهدت أوروبا متطرفين دينيين كذلك. على سبيل المثال، نظمت مجموعة (معبد الشمس) عمليتي انتحار جماعي في القارة في منتصف التسعينات من القرن الماضي، ولكن عمليات الانتحار بدون قتل مدنيين لا تعادل الإرهاب. وهناك عناصر نشطة من متطرفي القاعدة الإسلاميين في أوروبا في الوقت الراهن يمكن أن تسمى مجموعات إرهابية، بالرغم من أنها من أصول أجنبية غالباً.

في البداية، اعتقدت السلطات الإسبانية أن تفجير ١١ مارس في قطارات مدريد كان من أعمال منظمة إيتا الانفصالية، وهي منظمة تابعة لإقليم الباسك تقوم بمحاربة الحكومة منذ تأسيسها في عام ١٩٥٩. إن حركة يوسكادي آت اسكاتاسونا (إيتا) هي حركة وطنية غير دينية تحمل الأفكار الماركسية وتهدف إلى إنشاء وطن مستقل في إقليم الباسك في شمال إسبانيا (أربع مقاطعات) وجنوب فرنسا (ثلاث مقاطعات). على الرغم من أنهم مسيحيون مثل باقي إسبانيا، إلا أن الباسك يختلفون عن الإسبان في أصولهم العرقية ولغتهم. ومثل كثير من المجموعات الوطنية، فقد عانى الباسك من كوارث تاريخية مع أعدائهم؛ فخلال الحرب الأهلية الإسبانية حارب الباسك في صفوف الجانب الجمهوري الخاسر،

وبالتالي فقد عوقبوا من قبل القائد اليميني الوطني المنتصر جنراليسيمو فرانسيسكو فرانكو. ومنذ نشأة تلك الحركة نتج عنها وفاة ما يقارب ٨٠٠ شخص مدني (وفيهم مسؤولون حكوميون) وعسكري (وفيهم أفراد الشرطة) على حد سواء. ولا تستخدم منظمة إيتا التفجيرات الانتحارية.

في اليونان، ألقت الحكومة القبض على العديد من أعضاء منظمة ١٧ نوفمبر في عام ٢٠٠٢، وكان ذلك أول انتصار كبير خلال ٢٥ سنة من الصراع للسيطرة على المجموعة. خلال تلك الفترة قامت مجموعة ١٧ نوفمبر وهي منظمة يسارية صغيرة بتنفيذ سلسلة من الاغتيالات، كانت تستهدف عادة مسؤولين ورجال أعمال أجانب، ومن بين ضحاياها رئيس مركز المخابرات الأمريكية السابق، وملحق عسكري بريطاني. هذه المنظمة مناهضة للغرب، ومناهضة للولايات المتحدة الأمريكية ومناهضة للرأسمالية، ومناهضة للأتراك. وقد اكتسبت اسمها من هجوم الحكومة الشهير على الطلاب الناشطين، الذي وقع في ١٧ نوفمبر ١٩٧٣. وفي الجانب الآخر من الحدود، واجهت إيطاليا أيضاً عنف اليساريين. تأججت حرب إيطاليا ضد اللواء الأحمر منذ اختطاف واغتيال رئيس الوزراء الأسبق ورئيس الحزب الديمقراطي المسيحي ألدو مورو عام ١٩٧٨، وحسبما قيل إن المجموعة نفذت ٢٠٠٠ هجوم نتج عنها مقتل ١٦١ شخصاً[١٠].

إن أكثر المنظمات الإرهابية شـهرة في أوروبا هي منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي. لدى هذه المنظمة الكثير من المتعاطفين خارج أيرلندا، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، التي تدعم الوطنية الأيرلندية. هذه المنظمـة موجـودة منذ وقت طويل، فـقد كـانت ثورة ايسـتـر ١٩١٦ يقـودها الـوطنيـون الأيرلـنديون ـ وفـيـهـم الجـيش الجـمـهوري الأيرلندي ـ تطالب بـالاسـتـقلال عـن بريطانيا. وبعد حرب دموية، تم منح الثوار الأيرلنديين الاسـتقلال في كافة المناطق باستثناء الأقاليم الشمـالية من أيرلندا. ومنذ ذلك الحين ظلت حـالة أولستر Ulster أو (أيرلندا الشمـالية) مهملة مع وجـود مناصـرين لبـريطانيـا مـن أغلبـيـة بروتسـتـانتـيـة وتزايد الوطنـيين مع الأقلية الكاثوليكيـة، وقـد عـانى الكاثوليك من سـوء الظروف الاجـتماعـيـة والقـانونية والاقـتصـادية في أولسـتر أكـثر من البـروتسـتـانت. في عــام ١٩٦٩ تجــددت الاضـطرابات بين الحـكومـــة البـــريطانـيـــة والوطنيين الأيرلنديين بقيادة منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي، ومنـذ ذلك الوقت قــتـل نحــو ٣,٢٠٠ شـــخص مـن البـــريطانـيين والأيرلنديين المدنيين والمقاتلين، واغتالت منظمـة الجيش الجمهوري الأيرلندي اللورد ايرل ماونتباتن Earl Mountbatten في عام ١٩٧٩، وكـانت على وشك قتل رئيسـة وزراء بريطانيـا مارجـريت تاتشـر في عـام ١٩٨٤. ولكن مـا كـان يزعج البـريطانيين أكـثـر هو التـفـجـيرات في المناطق العـامـة ومـحطات القـطارات. بينمـا اتبعت

غـالبيـة منظمـة الجيش الجـمـهوري الأيرلندي جناحـهـا السيـاسـي، الشـين فين، وقبلـت عملية السـلام بالتفاوض في أواخـر التسـعينات من القرن الماضـي، فـقد استمـرت المجموعـات المنشقة في اسـتـخدام العنف أو التـهديد به. كمـا أن البروتسـتانت المناصريـن للاتحاد مع بريطانـيـا يتـحـدون اتـفـاق إطلاق الـنار، وكـانوا يشنون حـمـلات إرهابية في الماضـي.

أفريقيا: كينيا وجنوب أفريقيا:

تعتبر أفريقيا من أكثر القارات اضطراباً مما جعل حظها وافراً من العنف. ويشـمل ذلك العنف الذي تثيره الأغراض السـياسـيـة والذي يقع في نطاق الإرهـاب. في البـداية كـان معظم العنف السـيـاسي في حقبة ما بـعد الحرب العالمية الثانية عنفاً وطنيـاً، وكان الهدف عادة هو كسـر شوكـة الاسـتـعمـار والخروج من بوتقـة قيوده وكان المدنـيون الأبرياء يستـهدفون من قبل المتمردين والحكومة على حد سواء. في كينيا، على سبـيل المثال، قامت جماعة ماو مـاو التي تعمل تحت قيادة جومو كينياتا بذبح أكثر من ١٠٠ مسـتوطن بريطاني أبيض. وقامت القـوات البـريطانيـة انتـقـامـاً لموت «المدنيين الأبـرياء » بقـتـل آلاف الكيـنيين، وقـدر أن ١٣,٠٠٠ شـخص لقـوا حتـفـهم مـعظمـهم من الضحايا الأبرياء الذين راحوا ضحية إطلاق النار المتبادل[١١].

إن الكفاح الطويل الممتد بين الأغلبية الأفريقية وحكومة التمييز

العنصري في جنوب أفريقيا قد انتهى نتيجة نضال نلسون مانديلا والمؤتمر الوطني الأفريقي في عام ١٩٩٤. ولكن على الرغم من النهاية السعيدة للقصة فإن القصة نفسها كانت مليئة بالدماء، وكان هناك العديد من أمثال ستيف بيكو Steve Biko على الطريق. إن حكومة جنوب أفريقيا البيضاء التي بنيت على الإنكار الصريح لحقوق السود والملونين لم تتردد في استخدام إرهاب الدولة ضد مجموعات الحقوق المدنية الأفريقية، وفيها المؤتمر الوطني الأفريقي. وقامت هذه الحكومة أيضاً باستئجار مقاتلين من خلفيات سوداء أخرى، منها على سبيل المثال حزب زولو إنكاثا Zulu Inkatha، لمهاجمة أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي[١٢].

واليوم ابتسم التاريخ للمؤتمر الوطني الأفريقي الذي قاد بوضوح اتجاه الخير واستطاع هزيمة عدو مفلس أخلاقياً. ومثل الجيش الجمهوري الأيرلندي ومنظمة التحرير الفلسطينية فإنه يشتمل على جناحين: سياسي، وعسكري. ومثل الاتجاهات الوطنية الأخرى، كان المؤتمر الوطني الأفريقي يعتبر إما رابطة بطولية تخوض حرب عصابات أو منظمة ثورية مخربة، قبل أن تنقلب الكفة على حكومة جنوب أفريقيا، قامت باتهام المؤتمر الوطني الأفريقي بأنه منظمة إرهابية، وهي صفة التصقت به لفترة من الزمن، وخاصة بالنظر إلى علاقات المؤتمر الوطني الأفريقي بالشيوعية والمنظمات اليسارية الأخرى.

أمريكا اللاتينية: حقيبة مختلطة في كولومبيا، معارك أيديولوجية في بيرو:

عانت أمريكا اللاتينية، وهي قالب ديني كاثوليكي متجانس أساساً، من الإرهاب الذي ترعاه الدول، وإرهاب الدولة، والإرهاب المرتكز على الأيديولوجيات وإرهاب الجريمة، وكما نرى اليوم في كولومبيا فتوجد جميع الأشكال أحياناً في نفس الوقت. ففي كولومبيا نجد أن المعركة الرئيسة هي بين الحكومة والثوار اليساريين الذين تقودهم قوات الجيش الثوري الكولومبي، ولكن الحكومة تحارب أيضاً مجموعة يسارية شعبية وهي مجموعة جيش التحرير الوطني.

إضافة إلى ذلك فإن قوات الدفاع الذاتي المتحدة اليمينية الكولومبية هي المطحونة بين الكل، المجموعات اليسارية والحكومة. تلك المنظمات الثلاث جميعها مدرجة على قائمة المنظمات الإرهابية التي وضعتها الولايات المتحدة الأمريكية، بينما تلقت الحكومة الكولومبية مساعدات أمريكية بقيمة ١,٣ بليون دولار أمريكي، وكانت خطة كولومبيا هي العمل على بناء قوات مسلحة كولومبية لتحييد المجموعات الثورية والسيطرة على عصابات تهريب المخدرات التي تمول المجموعات الثورية في مقابل حمايتها. من الأعمال الشائعة

لتلك المجموعات تفجير أهداف مدنية واغتيالات وعمليات خطف سياسيين. وعلى الرغم من أن الحكومة الكولومبية تعتبر أفضل هذه الأطراف، فقد لطخت أيديها بالدم، بينما توسطت الولايات المتحدة وكوبا في الحرب الأهلية هناك.

في بيرو، اكتسبت المجموعة الماوية سيندرو لومينوسو السرية (شينينج باث) شهرة دولية نتيجة لهجماتها المتكررة، وخاصة أثناء حكم الرئيس السابق ألبرتو فوجيموري. جعل فوجيموري من أولوياته هزيمة شيننج باث ومنظمة يسارية أخرى هي حركة توباك أمارو الثورية. تأسست شيننج باث في منطقة اياتشوشو، وهي منطقة جبلية بها موانع مائية تبعد ٣٠٠ ميل عن العاصمة ليما، في عام ١٩٧٠ وقد تأسست على يد أستاذ الفلسفة أبيمايل جوزمان، وظهرت المجموعة على الساحة في عام ١٩٨٠ عندما نظمت سلسلة من التفجيرات في مراكز الانتخابات، ويقدر أنه خلال الفترة من ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦ قامت منظمة شيننج باث بنحو ١٢,٠٠٠ عملية قُتل فيها نحو ١٠,٠٠٠ شخص [١٣]. ويبلغ إجمالي القتلى في بيرو من العنف السياسي منذ عام ١٩٨٠ نحو ٣٠,٠٠٠، وقد دُمرت حركة توباك أماروTupac Amaru من قبل القوات البيروفية عندما اقتحمت الحركة مجمعاً دبلوماسياً يابانياً عام ١٩٩٦.

أمريكا الشمالية: غير محصنة ضد الإرهاب داخل أو خارج الولايات المتحدة:

لم يكن الإرهاب جديداً على الولايات المتحدة الأمريكية أو أمريكا الشمالية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١. فقد عانى جيران الولايات المتحدة من عدم الاستقرار النسبي الذي اشتمل على العنف السياسي. في المكسيك أدت انتفاضة شياباس ـ معركة أيديولوجية أهلية كانت مدمرة ولكن ليست بالضرورة دموية أو إرهابية ـ إلى قتل ٤٥ مدنياً بقسوة وعنف، ومعظمهم من الأبرياء، من قبل قوات غير معروفة مساندة للحكومة. وتعرضت كندا في تلك الأثناء بشكل مستمر للتهديد من قبل حركة المطالبين باستقلال كويبك. وخلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦٣ و١٩٧١ مارست مجموعة جبهة تحرير كويبك أعمال التفجير والخطف.

في الولايات المتحدة الأمريكية قامت مجموعات متنوعة ومدمرة بتنفيذ هجمات إرهابية في السنوات الأخيرة، وتتنوع دوافع واتجاهات هذه المجموعات بشكل واسع ولكنها عادة كانت مبررة على أساس تعرضها للظلم حسب ادعائها. وهناك قائمة طويلة من المجموعات ذات الأغراض الفردية، تتنوع ما بين نشطاء مناهضين للإجهاض والراديكاليين المحافظين على البيئة الذين شاركوا في جرائم عنف. هذه الأعمال الإرهابية ـ العنيفة والمدعومة برسالة سياسية معينة ـ تتنوع ما بين حرق المباني وعمليات القتل.

مجموعات أخرى، بيض وسود، مسيحيون ومسلمون ويهود قامت بتنفيذ أعمال عنف أصلها عرقي وديني.

بورتوريكو، مقاطعة أمريكية منذ عام ١٨٩٨، لا تعتبر ولاية ولا دولة مستقلة، بل هي من الناحية الرسمية «كومنولث» يتمتع بالعديد من مزايا ومسؤوليات الولايات التابعة للولايات المتحدة الأمريكية، بدون كامل حقوق والتزامات كل فرد. إن هذا الوضع الغامض قد ولد حركة وطنية دموية، وقد جاء قرار الرئيس الأمريكي هاري ترومان عام ١٩٤٦ بالاعتراض على قانون أصدره التشريع البورتوريكي لتفويض إجراء استفتاء عام على الاستقلال ليؤدي إلى محاولة الاغتيال عام ١٩٥٠، وبعد ذلك إطلاق النار على أرض مجلس النواب الأمريكي، وبعد عدة سنوات قامت القوات المسلحة للتحرير الوطني بتنفيذ حملة تفجير في الولايات المتحدة الواسعة، وقد استهدفت تفجيرات هذه المنظمة التي بلغت ٣٦٥ عملية شركات تجارية ومباني عالية الأهمية مثل مبنى فرونسيس تافيرن في نيويورك عام ١٩٧٥، وقد قتل ثمانية عشر أمريكياً في تلك العملية[١٤].

في الوقت الراهن، برز على السطح خليط كريه من المجموعات اليمينية المناهضة للحكومة، وغالباً ما تكون أغراضها دموية، من أبرز أعمال اليمينيين الإرهابية ما حدث في مدينة أوكلاهوما في ١٩ أبريل ١٩٩٥، عندما قام تيموثي ماكفي بتفجير مبنى (الفريد

موراه) الفيدرالي الذي أدى إلى قتل ١٦٨ منهم العديد من الأطفال. ماكفي الذي رأى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية على أنها حكومة ظالمة وتطغى على حقوق المواطنين، قال لاحقاً إن هجومه كان انتقاماً من الحكومة لدورها في موت ٩٠ عضواً بطائفة (برانش دافيدان) الدينية في عام ١٩٩٣. وقد كان من البارزين أيضاً جيل سابق من الإرهابيين اليساريين ـ وفيهم Weather-men Underground، وجيش تحرير سيمبيونيز. وقد كانت المجموعات السابقة معروفة بتفجير أهداف رمزية بينما المجموعة الأخيرة اشتركت في عمليات خطف (باتريشيا هارت) واغتيال رئيس نظام مدارس مدينة أوكلاند في ولاية كاليفورنيا[١٥].

الخاتمة: الإرهاب مشكلة غامضة منتشرة عالمياً:

قال أدولف هتلر الذي كان يتصرف بطريقة متوافقة مع كلماته: «القسوة تؤثر، القسوة والقوة الخالصة. يتأثر الرجل البسيط في الشارع فقط بالقوة الجبارة وعدم الرحمة. والإرهاب هو أكثر الوسائل السياسية فاعلية» في النهاية، يعتبر مصطلح الإرهاب من أكثر المصطلحات غموضاً التي تثير اليوم دلالات سلبية على المستوى العالمي. ولكن الكلمة ببساطة تمثل عنواناً يلتصق بالأحكام الأخلاقية عن الأعمال التي تنفذ لدعم موقف سياسي. والإرهاب ظاهرة عالمية حيث

إنه ببساطة يحدث الآن وكان يحدث عبر التاريخ في العديد من المواقع لأسباب عديدة. وبدون استثناء، فإن الإرهاب ـ سواء إرهاب الدولة أو الإرهاب الذي تدعمه الدولة، أو الذي يحصل على شعارات وطنية أو أيديولوجية أو دينية أو اقتصادية ـ يحمل منطقاً وراءه، على الأقل في عقول مرتكبيه. ومما لا شك فيه ـ بقليل من الاستثناء ـ أن هناك من يمكن أن نطلق عليه حقاً إرهابي وما يمكن أن يسمى بحق عملاً إرهابياً ما زال يكمن في عين حامله، ولكن في النهاية لا يمكن للمرء أن ينكر أو يستنكر الحقيقة البديهية التي تتردد دائماً: «إن ما يسميه شخص ما إرهابياً هو مناضل من أجل الحرية من وجهة نظر شخص آخر».

❊ ❊ ❊

الهوامش

1- Mahfouz, Naguib. "Conference on Terror." Al-Ahram Weekly, 16 -22 September, 2004.

2- Ganor, Boaz. "Defining Terrorism: Is One Man's Terrorist Another Man's Freedom Fighter?." The International Policy Institute for Counter-Terrorism: Annual Edition. September 23, 1998. Page 11.

3- Laquer, Walter. "Reflections on Terrorism." Foreign Affairs: Volume 65, Number 1, Fall 1986. Page 90.

4- United States Department of State, Office of Counterterrorism, Center for Defense Information, Terrorism Project. www.state.gov.

5- Ganor. Page 12.

6- Ferguson, Niall. "Clashing Civilizations or Mad Mullahs: the United States Between Informal and Formal Empire." The Age of Terror. Talbot, Strobe and Chanda, Nayan (editors). New York: Basic Books 2001. Page 120.

7- Rappaport, David. "The International World As Some Terrorists Have Seen It: A Look at a Century of Memoirs." Inside Terrorist Organizations. Rappaport, David C. (editor). London: Frank Cass Publishers, 2001. Page 40.

8- Sprinzak, Ehud. "The Gush Emunim Underground." Inside Terrorist Organizations. Rappaport, David C. (editor). London: Frank Cass Publishers, 2001. Page 195.

9- Laquer, Walter. "Reflections on Terrorism." Foreign Affairs: Volume 75, Number 1, September/October 1996. Page 24.

10- Barker, Jonathan. No-Nonsense Guide To Terrorism. Oxford, UK: Verso Books, 2003. Page 55.

11- Byford, Grenville. "The Wrong War." Foreign Affairs: Volume 81, Number 4, July/August 2002. Page 39.

12- Barker. Page 72.

13- McCormick, Gordon H. "The Shining Path and Peruvian Terrorism." Inside Terrorist Organizations 1McCormick, Gordon H. "The Shining Path and Peruvian Terrorism." Inside Terrorist Organizations. Rappaport, David C. (editor). London: Frank Cass Publishers, 2001. Page 109.

14- Hewitt, Christopher. "Understanding Terrorism in American: From the Klan to al- Qaeda." London: Rutledge, 2003. Page 34.

15- Hewitt. Page 64.

أسباب الإرهاب الدولي وتأثيراته

إدوارد شوارز *

تعدّ معرفة أسباب الإرهاب أو بداياته أو مصادره عاملاً أساساً لكي نفهم أن كلمة إرهاب ترتبط بالخوف والكراهية وأن المتورطين في أعمال إرهابية يطلق عليهم نعوت مختلفة، فهم أحياناً يدعون أبطالاً ووطنيين ومحررين ومقاتلين من أجل الحرية، وأحياناً قتلة وسفاكي دماء وشياطين، وتمضي القائمة إلى ما لانهاية. و مثل هذه الاختلافات هي التي تؤدي إلى التنوع في النعوت . ويتضح هذا عند استخدام الفلبين لعبارة " مقاتلي عصابات " وهو وصف قد تم قبوله واستخدم في المراسلات الإخبارية والتعليقات الصحافية. فالإرهاب سلاح يصوّب بقصد وبكل دقة ضد المدنيين و يعتمد على أجندة دينية وسياسية. والمصطلح يعود للثورة الفرنسية قبل نحو مئتي عام، عندما استخدم ربما للإشارة إلى الخونة الذين عادوا الثورة. وقد تحولت كلمة

* مراسل صحافي ومحرر أخبار ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

" إرهاب " بسرعة إلى جريمة رسمية تؤدي بصاحبها إلى المقصلة.

إن التعريف الشائع والمقبول لكلمة إرهاب لا يعدو أن يكون خليطاً متنوعاً من التعريفات المبهمة والمضللة التي تُنشر في وسائل الإعلام المختلفة في دولة ما. وحتى تُطلق كلمة إرهاب على أي عمل هجومي يجب أن يتسبب ذلك العمل في سفك الدماء وإيقاع الإصابات، وأن يكون متعمداً ويعمد إلى العنف والتدمير وإيقاع أكبر عدد من الإصابات بين المدنيين. وأن تشمل أجندة الحرب التي يعتمدها هؤلاء استهداف أهداف معينة مثل خطف الطائرات، وإطلاق النار، والاغتيالات، واستخدام الغازات السامة، والتفجيرات، والتهديدات، والتخريب، وأعمال العنف والاضطرابات السياسية.

وليس هناك إرهاب حميد، كما أنه يجب عدم الخلط بين هذه المجموعات والمجموعات الأخرى التي لا تساند العنف، فالحرب العالمية الثانية مثلاً شاركت فيها ألوية وفرق سرية من مقاتلي الحرية. وكانت هذه المجموعات المنظمة تهاجم الأهداف العسكرية ولم تكن في أكثر الأحيان انتحارية السمة، وكانت تتألف من الرجال والنساء المدفوعين بالرغبة في نيل حريتهم واستعادة أراضيهم المغتصبة. باختصار، كانوا يريدون تحرير بلدانهم من الاحتلال الفاشي. وقد انتشر مؤخراً اعتقاد خاطئ حول تعريف الإرهاب الحديث، يرتبط في الغالب بالعرب على اعتبار فرضية خاطئة مفادها أن الدين الإسلامي يشجع على العنف . سنناقش هذا الاعتقاد الخاطئ لاحقاً . لكن التعريفات التأريخية

تصف الإرهابيين بأوصاف منها، أنهم جنود، ومحاربون، وصليبيون، وغيرها من الأوصاف التي يمكن إضافتها الى القائمة. ففي القرن الأول (وفيما يسمى) بفلسطين القديمة قام المتعصبون للدولة العبرية/اليهودية بقتل الرومان والمتعاونين معهم . وبعد قرون من ذلك التاريخ اعتبرت عصابات شتيرن Stern Gang، والتي تعتبر الأكثر تشدداً بين العديد من الحركات الصهيونية، وهي منظمة إرهابية خلال الانتداب البريطاني لفلسطين المحتلة. وكان الجيش الجمهوري الإيرلندي حتى سنوات قريبة مضت يختار ويضرب أهدافاً مدنية مما يؤدي إلى قتل وإصابة المدنيين الأبرياء. واستمر انفصاليو الباسك في ضرب مواقع داخل أسبانيا كوسيلة لإبراز هويتهم الوطنية. كما أعلن عن عمليات إرهابية أخرى مثلما حصل في اليابان في قطار الأنفاق (حادثة غاز الأعصاب) وأعمال القتل والخطف في الفلبين وغيرها.

وإن ما يدفع الشباب الفلسطينين ذكوراً وإناثاً لتفجير أنفسهم أو تحويلها إلى قنابل متحركة هو شيء أكبر بكثير من الشعور بالإحباط وخيبة الأمل من الظروف الاقتصادية و المعيشية ، بل يتعدى ذلك إلى أمور كاحترام الذات والشعور بالإهمال وفقدان الأمل. لذلك لا يستطيع أحد أن يرفض غضبهم، علاوة على الكثير من الإحباطات التي لا تزال تطارد آمالهم في السلام والحصول على وطن آمن. وعلى أية حال فهم ينظرون إلى إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية كمعسكرين معاديين، وبالتالي فهم يقبلون بمهام الموت كأغلى ما يستطيعون التضحية به،

بغض النظر عما يسببه ذلك من قتل للمدنيين الأبرياء. فالشعور بالكراهية والإحباط يسيطران عليهم، وكل فعل يكون له رد فعل مساوٍ له، أو أكبر منه، مما يسهم في استمرار دائرة القتل من الجانبين.

ولهذا، فقد تشكلت المنظمات الإسلامية المتشددة ودخلت معترك السياسة بهدف القضاء على أي تأثير اجتماعي غربي على منطقة الشرق الأوسط، وهي بهذا تسعى لإقامة دولة إسلامية تتخذ من الإسلام نظام حُكم لها. لذلك فإن هناك حرباً، سواءً أكانت معلنة أم لا، تشنها أمريكا و حلفاؤها. ولذلك فالبحث عن الإرهابيين وتدميرهم في عمليات حربية مباشرة أو عمليات سرية يبقى على رأس أولويات الإدارة الأمريكية لارتباطه بأمن الولايات المتحدة وهيمنتها على العالم. فالصدام بين الثقافات والحكومات له صداه بين أروقة الأمم المتحدة، وقد أدرك المجتمع الدولي وجود اختلافات، وأن على كل دولة أن يكون لها نهجها فيما يتعلق بشؤون الدفاع والعمليات العسكرية الدولية المناوئة للإرهاب.

وهناك اتفاقات شراكة لمحاربة الإرهاب، نذكر منها –على سبيل المثال– تلك الخاصة بدول حلف شمال الأطلسي (الناتو). وعلى الصعيد ذاته كان موضوع الإرهاب حاضراً على رأس الأولويات الأمنية في أولومبياد أثينا ٢٠٠٤، وفي هذه الصدد نذكر أن منظمة ١٧ نوفمبر في اليونان هي منظمة إرهابية نشطة ظلت تمثل نوعاً من الإرهاب المحلي. وباختصار فإن الإرهاب الدولي لا حدود له، وهو عبارة عن فيروس أسود سام يخدع العقل، وفي نهاية المطاف عدو

للحرية. ويبدو أن أهدافه وأغراضه في تغير مستمر على مر العصور.

إن الإرهاب الديني يشجع على مستويات أعلى من العنف إلى جانب القيام بهجمات لإيقاع أكبر عدد من الإصابات. ولقد تم توثيق هذه الظاهرة بشكل جيد. كما أن هذا الإرهاب قد كشف عن طويته من خلال الأعمال المروعة التي حدثت – على سبيل المثال– في أفريقيا والهند وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية. إن معسكر المتدينين المتشددين السريع النمو يسعى لاستخدام الإرهاب كوسيلة لإحداث تغيير واسع وحتمي في التركيبة السياسية والاجتماعية. وكما تم الإعلان عنه مؤخراً فإن أكثر من نصف المنظمات الإرهابية الدولية النشطة توصف بعبارة "مسلحة". وهذه المنظمات ذات دوافع دينية قوية وربما يكون بعضهم لعبة تستخدمها الحكومات التي تدعم الإرهاب لتحقيق أهداف خاصة متصلة بالسياسة الخارجية. ويتم في بعض الأحيان وصف الصراع الرئيس، وذلك أمر ليس بالجديد، على أنه صراع بين الإسلام والثقافة الغربية من خلال تعريف وقبول الفصل بين الكنيسة والدولة وتوسعة نطاق الحرية الاجتماعية والحرية الشخصية. فتنظيم القاعدة بزعامة ابن لادن، يعلن عن برنامجه السياسي المتمثل في العمل على السيطرة والتحكم، والمنحرفون عن هذه السياسة يوصفون بأنهم يستحقون معاملة وعقوبة قاسيتين، إذ أن الولاء هنا يجب أن لايكون محل شك أبداً. إن حقن الحلول الدينية في هذه الحوارات السياسية المعقدة، يؤدي الى افتراض تكريسها لتبريرات العنف لعلاج الخلافات

والمشاكل. وهي ـ حسب رأي البعض ـ شبيهة بحوار الفاشيين حول الهيمنة والسيطرة.فالإرهابي الديني المتطرف يعتقد أنه مصرح له بالقتل باسم دينه ومعتقده. هذه الحال ـ كما يراها الآخرون ـ تمثّل ضرباً من الجنون، أما بالنسبة للإرهابي الديني فيرى أن نشاطاته وأعماله عقلانية وصحيحة وأنها مستلهمة من إرادة الإله. وكثير من المسلمين يرفضون هذا التوجه ويعارضون بصراحة موقف المتطرفين الذين شوهوا اسم الإسلام وسمعته.

إن التحديات الكبيرة التي يمثلها الإرهاب العالمي تدفعنا إلى أن نفهم بشكل أفضل أسبابه، وما حدث من إخفاقات، ومن هم الأعداء و من هم الحلفاء ... الخ . وهذا يجعلنا أكثر قدرة على محاربة هذا العدو. وهناك الكثير مما يمكن مناقشته فيما يتعلق بالإخفاقات الاجتماعية والاقتصادية لبعض الدول، وشعور مواطني هذه الدول بالإحباط في بحثهم عن حياة أفضل، و فرص عمل جديدة، و تعليم و رعاية صحية وأمن أسري. من المؤكد أن الشعور بالإحباط والجوع وعدم التعليم والتدريب يدمر الصورة الذاتية، كما أن عدم الاستقرار اليومي والفروقات الواضحة بين الأغنياء والفقراء تذكرنا دائماً بأن كل شيء ليس على ما يرام.

وتضاءلت الآمال بالنسبة للكثيرين وقل تفاؤلهم فأصبح إيمانهم بالدين هو مصدر قوتهم وترقبهم لوعد بيوم جديد. وأخيراً، ألم يكن الدين هو الذي وضع الحقوق والقوانين الأساسية

للحياة؟ ألم يكن الدين أيضاً هو الشعلة الحقيقية التي تسببت في الحرب العالمية الأولى وغيرها من الحروب؟ والآن، ألا يستخدم الدين لتحقيق مآرب مشبوهة ؟

لقد تعرفنا على التنوع وعلى المزايا الفريدة لمختلف الديانات والمعتقدات وممارساتها. فالكثير من الديانات تتشابه من حيث القيم الإنسانية التي تدعو إليها والقوانين التي تطبقها. فقد تم تشكيل الحكومات المدنية بالاشتراك مع السلطات الدينية، وكان هناك علاقة توافق وتناغم بين الدين والعلم والفن. ومع مرور الوقت، أصبح الفصل بين الكنيسة والدولة في كثير من الدول الأوروبية الكبرى أمراً واقعاً من حيث القانون والتطبيق. كما شمل ذلك الحريات الشخصية والنهضة الثقافية على عدة مراحل، ومع ذلك فقد كانت الشؤون الحكومية والدينية في العصر العثماني و كذلك في أسبانيا حتى عام ١٤٩٢ متوازنة وتحظى بالاحترام .

وفي عام ١٩٧٩، أعلنت اللجنة العليا لمحاربة الإرهاب في الأمم المتحدة عن مجموعة من الأسباب التي تؤدي إلى الإرهاب، وهي على النحو التالي:

سياسية:

– هيمنة دولة على أخرى والتمييز العنصري.
– استخدام القوة ضد الدول الضعيفة.
– التدخل في الشؤون الداخلية للدول.
– الاحتلال الأجنبي للدول سواءً أكان كلياً أم جزئياً.

استخدام العنف والضغط لإجبار الناس على الهجرة و في

حالات معينة ، هيمنة عرق معين.

إقتصادية:

– فقدان التوازن في النظام الاقتصادي الدولي.
– استغلال الدول الأجنبية للمصادر الطبيعية في الدول النامية.

إجتماعية:

– انتهاك حقوق الإنسان.
– الحرمان والجوع والبؤس والأمية.
– تجاهل الدولة التي تتعرض للظلم والعدوان.
– تدمير البيئة.

إن سيكولوجية الإرهاب تتطلب التزاماً كاملاً بالقضية دون الالتفات إلى المخاطر الشخصية بما في ذلك قتل النفس في سبيل تحقيق ذلك الهدف. فقد أوضح الخبراء أن الإرهابيين ملتزمون تماماً بالأهداف التي يسعون لتحقيقها، وأنهم ينظرون إلى أنفسهم في العديد من الحالات كملهمين وشهداء. وفي العديد من الدول الإسلامية في الشرق الأوسط تحظى عائلة الشهيد بالدعم المادي وغيره. كذلك فإن العلاقة التي تدعو إلى الاهتمام بين بعض المنظمات الإرهابية الدولية وعصابات المخدرات هي في الحقيقة إشارة إلى الحاجة المادية، وربما رغبة في أن تدمر القوى الغربية نفسها من خلال وقوعها في براثن المخدرات. وتشير بعض التقارير التي تجري دراستها الآن ومراجعتها أن الانتحاريين في الشرق الأوسط

هم من الفئة الفقيرة وغير المتعلمة، وربما ممن يعانون من أمراض نفسية و ممن لا تتعدى أعمارهم العشرين. ويرى هؤلاء الخبراء أن الأشخاص الأكبر سناً، و الأكثر تعليماً، والأكثر استقراراً من الناحية الاجتماعية هم أقل إقداماً على مثل هذه العمليات الانتحارية. وهذا مناقض تماماً لما قام به السعوديون الذين شاركوا في أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية.

وتحاول الدراسات المتعمقة التوصل إلى الدوافع الحقيقية التي تجذب الإرهابيين إلى هذه المنظمات وتفسّر رغبتهم في تنفيذ عمليات انتحارية و سيكلوجية الكراهية التي يحملونها. إن شبكة الإرهاب الدولية واسعة النطاق وتتطلب تدريباً قاسياً كما تتطلبه الجيوش النظامية غير العادية. كما أن تعدد الخلايا الإرهابية الجاهزة (التي تقدر بـ ٥٥٠ منظمة إرهابية أو أكثر في ستين دولة) يوضح تأثيرها المحتمل، و المتمثل في رسائل التهديد والتخويف، إلى جانب الأساليب المتبعة في خلق الانقسامات، ومن ثم العمل على إخضاع الآخرين. إن رغبة هذه المنظمات في الترويع والقتل لا حد لها، وتشكل أهدافها الأسوأ بالنسبة للدول الديمقراطية التي تناصبها العداء. ومع أن نشاط منظمة التحرير الفلسطينية ومنظمة حماس ينحصر في هذا الإقليم بشكل عام، إلا أن فقدانهما الثقة وانزعاجهما من الولايات المتحدة يرد بشكل منتظم في وسائل الإعلام الشرق أوسطية. وتعد قوات الدفاع الإسرائيلية بالنسبة لهم هي الأشد فتكاً وإرهاباً في المنطقة، ففي أرض

المعركة يحدث الكثير من الأشياء التي يندم عليها الإنسان في كثير من الحالات، فيما تغيب الحقيقة في الأماكن التي تتعرض للهجوم والعنف المستمر، إلا أنها لا تغيب عن المراقب. ويقع المدنيون الأبرياء من جميع الأطراف ضحايا للنزاعات السياسية والإقليمية التي اتسعت لتغطي المنطقة بأسرها ولتشمل الأمور الدينية وتلك المتعلقة بالممتلكات وغيرها. ومع أن الحروب لا تؤدي إلا إلى الدمار، إلا أنها قد تفرض تغيير الحدود كنتيجة نهائية لها.

إن أي عملية تشخيصية أو حل محتمل لن يكون كاملاً إذا رفض أحد ماهو واضح وجلي. فمعظم الإرهاب الدولي في هذا العصر هو نتاج التطرف الديني الذي يعارض الحريات و العلمانية وحرية الصحافة، وفصل الكنيسة أو الدين عن الدولة، ومبدأ أن جميع الناس قد خلقوا سواسية . وبينما تشجع المجتمعات الغربية على الانفتاح والإنسانية وبرامج التواصل مع الآخر، فإن المتشددين، وبخاصة في المجتمعات الإسلامية، قد أبدوا تخوفهم من العادات المستوردة من الغرب. وحتى داخل المجتمع الغربي ذاته. فإن هناك خلافاً محتدماً حول موضوعات تتفاوت ما بين التلفاز والجنس والملابس وما يبث على الفضائيات وتأثيره على الأخلاق. إنه صراع بين القديم والجديد. وهذا جزء من الحجة التي يستخدمها الإرهابيون في حربهم من أجل صون الأخلاق. وإن النقاش الشفوي لا يزال مفتوحاً للتوصل إلى حلول وسط، أما الأمور التي

تدعم الإرهاب المتطرف والقتل فهي ليست قابلة للنقاش.

ويسعى الإرهاب الدولي للسيطرة على السلاح الاقتصادي من خلال السيطرة على الطاقة أي النفط الخام. فإذا تمكن الإرهابيون من ذلك ونجحوا في محاولاتهم الاستيلاء على مقاليد الحكم في الدول المنتجة للنفط، فإن الحرب ستنتقل إلى مستويات أعلى من التدخل العسكري.

إن القوى الغربية، كما يرى البعض، تقوم بعمليات خداع تهدف للاستيلاء على مصادر النفط. وإلى ذلك، فإن الفحص المتأني لا يمكن أن يتجاهل أن هذا العالم متغير، وأنه من بعض النواحي أقل فهماً، وأنه بعيد كل البعد عن تقاليد الماضي. ويستمر الإرهاب في كونه يتصف بالهجومية والتدخلية وأنه تهديد مستمر لجميع الأمريكيين. فقد أشارت دراسة أجريت مؤخراً إلى أن أربعة من بين كل عشرة من الأمريكيين يخافون من وقوع حادث إرهابي كبير كالحادي عشر من سبتمبر. فلم يعد المحيطان الأطلنطي والباسيفيكي يشكلان قلعة تحمي الولايات المتحدة الأمريكية. فقد تبين من خلال أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن العدو لا يحتاج لأن يكون قوة عسكرية قوية ومتطورة، أو حتى حكومة أجنبية. بل أثبت الإرهابيون أن غير المحتمل هو حقيقي وممكن. ومن الواضح جداً أن القدرات الاستخباراتية الأمريكية الضعيفة (قبل الحادي عشر من سبتمبر) والمتمثلة في وكالات الاستخبارات المركزية CIA، و جهاز الاستخبارات البريطاني إم آي ٦ MI6 مع غيرها

لم تقدم إلا القليل للوقاية من الهجمات الإرهابية. وهذا يبين قدرة الإرهابيين الدوليين على التخفي والانصهار في مجتمعات معظم الدول الغربية.

ومع الاعتراف بأن دوائر الاستخبارات ستحتاج لسنوات طويلة قبل أن تتمكن من اختراق معظم المنظمات الإرهابية السرية، إلا أن إمكانات التحذير عالية المستوى ستبقى على مستوى العالم هي المهام الأساسية للحكومات المعنية وإن قيادة منظمة القاعدة التي لم يقبض عليها منذ عام ٢٠٠١، لا تزال تستطيع توجيه ضربات، وقد أثبتت قدرتها على الصبر وعلى إعادة التنظيم. وهكذا فإن الإرهاب الدولي قادر على التكيف، ونظراً لدرجة السرية والأمن التي يتمتع بها، فإنه لا يمكن التنبؤ بما سوف يقوم به.

إن فرضية تبني النظام العراقي للإرهاب التي قال بها الرئيس الأمريكي بوش قبل حربه على العراق واحتلاله لها، لا تزال مصدراً للخلاف إلى جانب الاتهامات المتعلقة بامتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل. كما أن الرئيس بوش قال بوجود علاقة بين القاعدة والرئيس العراقي صدام حسين ولم يكن هناك أي تأكيدات على صحة ذلك . وبحسب التقارير الأمريكية الحكومية، فقد جاءت مناقضة لتوجه الحكومة الأمريكية نفسها، حتى أن بعضها اتهم الإدارة الأمريكية بالكذب. ومع ذلك، فإن ما يكون حقيقة في لحظة من اللحظات قد يصبح كذبة في لحظات أخرى. وقد أوضحت

الدوافع السياسية كيف أن الإرهابيين والحكومات يستغلون الأحداث والأخبار لصالحهم، وفي النهاية فإن الصحافة الحرة فقط هي التي تستطيع أن تعرض الحقيقة. لذلك فإن المنظمات الإرهابية تتغذى على الإعلام، وفي هذه اللحظات بالذات يرى الناس النتائج فحسب ولا يرون السبب. وبينما تعمد الحكومات إلى إخفاء جثث جنودها، فإن الإرهابيين يعلنون مسؤوليتهم عن قتلهم ويعربون عن سعادتهم بعدد الإصابات في صفوف جنود تلك الدول. وكما تؤدي الكراهية التي في صدورهم إلى مزيد من القتل بين المدنيين والعسكريين على حد سواء... إن دور الصحافة الحرة هو أقرب ما يكون الى عين الكاميرا، التي تساعد على مراقبة الأحداث من خلال دقة النقل وضمان تأكيد التقارير التي تنقلها.

أما إسرائيل، فمثلها مثل العديد من الدول الإسلامية، تواجه انقساماً داخلياً، ففيها مجموعة من اليهود المتعصبين ينكرون قيام حكومة علمانية، ويعتبرون أنفسهم أطهر اليهود الذين يستحقون أن يسكنوا تلك الأرض. صحيح أن هؤلاء أقلية ولكنهم موجودون ويتمنون لو يستطيعون تحويل تلك الدولة إلى دولة يحكمها رجال الدين، وبالتالي فهم يرفضون أسس الحكومة الديمقراطية. أما الفلسطينيون فينظرون إلى مهاجميهم على أنهم حماة للحرية، فيما يسميهم الإسرائيليون قتلة ومجرمون.

ويعتبر تبادل الطلاب الجامعيين طريقة سهلت التواصل بين الشرق

والغرب، وهي ممارسة قديمة تحظى بالاحترام. فالأمم الفقيرة تكافح لتنهض من تخلفها، وأملها معقود على التعليم وعلى شباب المستقبل. وعليه، فإن الأشخاص الذين يتخلفون عن هذا الركب ويعانون من الحرمان يصبحون فريسة سهلة للإرهابيين. إن القوى العظمى تخصص كثيراً من ميزانياتها للجيش والاستخبارات والأمن،رغم أن العدو معروف بالنسبة لها. فالإرهاب الدولي هو العدو الرئيسي للشعوب، وهو يبحث عن مزيد من إراقة الدم والتدمير. ولا يوجد شفاء سريع لهذا المرض العالمي الخطير. فالماديات قد دمرت البيئة وأصبحت أسلحة الدمار الشامل في متناول المنظمات الإرهابية، واختل التوازن العالمي، وانقسم المجتمع الدولي حول مفهوم الإنسانية. ومن الواضح أن الأعذار ليست أسباباً، والغضب يحجب الفهم، والفهم هو روح الإبداع والتطوير إذا استمد من نور التعليم والحكمة المقتبسة من جميع الثقافات والأديان. إن الحرب من صناعة الإنسان وهي في طبيعتها سياسية. فالأعداء الحقيقيون لهذا العالم هم: الجوع، والخوف والمرض وعدم الاستقرار. والإرهاب الدولي تهديد واضح للسيطرة على العقول وعلى المستقبل مما يجعل مستقبل أولئك الذين لم يولدوا بعد غير واضح.

وإن الأمور التي تسبب الصراع السياسي والحروب وقلة العدالة تعكس القيم الإقليمية، فمستبقل الإرهاب غير معروف. في حين يرى كثير من سكان هذا العالم أن الخوف الذي يسببه القصف سيجعل منهم نشطاء ضد الإرهاب. أما الآخرون فالأمل لديهم أضعف،

فالقفاز الواقي موجود وعليهم أن يختاروا بين الأخلاق ونقيضها. ولن يتوارى الإرهاب ويشارف على الانتهاء إلا إذا كافحنا أسباب الجوع، والمرض، وجعلنا الحرية ممكنة من خلال إجراء إصلاحات مسؤولة مع احترام تعاليم الدين. كما قد يكون لذلك معنى أقل بالنسبة لأولئك الذين لا إرادة لديهم. فاقتصاديات الحرمان واضحة المعالم، كما نرى من التقارير الواردة من مختلف أرجاء العالم. باختصار، نحن مسؤولون عن كثير من هذه الظروف وقد منحنا ربنا القدرة على فعل الصواب من خلال المنظمات الدولية والاتفاقيات التي تحظى بالاحترام، ومن خلال الدعم الحقيقي وليس الخيالي. إن الحقائق التكتيكية قد تعيق التقدم، وليس هناك ما هو سهل، ولكن وقف المنظمات الإرهابية أو الحجر عليها سيكون بداية ليوم جديد. وبما أن القاعدة تعمل بدون قوانين، فعلينا أن نعمل على تدميرها وتدمير المنظمات الدولية الأخرى كلما كان ذلك ممكناً.

إن بالإمكان استخدام ثورة المعلومات في هذا العصر لمنع الإرهابيين الدوليين من تحقيق النجاح، وتحقيق هجوم مضاد على المنظمات الإرهابية. فلقد ضرب الإرهاب الدولي أسبانيا (تفجير القطار عام ٢٠٠٤) وقد أثر ذلك على مسار الانتخابات لتعمل ضد الحكومة التي كانت قائمة وقتئذ. وقد شكلت تلك الأعمال ضربة لقوات التحالف في العراق بعد انسحاب القوات الأسبانية من تحالفها مع القوات المحتلة في العراق. ولقد قال الإرهاب الدولي

كلمته واستمعت له دولة وتصرفت مدفوعة بالخوف.

إن الرسائل الدينية تعتبر بمثابة قوى محركة للعديدين، وقد استخدم الإرهابيون الدين لتحقيق مآربهم الخاصة، والكثيرون منهم يؤمنون تماماً بقضاياهم. وإذا لم تتحدث الأديان الثلاثة المنبثقة عما جاء به أبو الأنبياء إبراهيم عن السلام والاحترام المتبادل، فلن يتم التوصل إلى أي اتفاق. فبالنسبة للإسلام، تتعرض تعاليمه السمحة العظيمة للتحدي، لذلك يجب أن ننظر إلى الإرهابيين على حقيقتهم وليس كما يحاولون أن يظهروا. لقد كتبت مجلة مراقبة الجهاد Jihad Watch أن : " جهاد العنف هو أمر ثابت في التاريخ الإسلامي " .

إن تحالف العالم الحر يواجه الإرهاب على جميع الجبهات، ولكن هذا عدو مختلف النوع، فهو يختفي في الظل ولا يحمل ما يدل عليه. وإن أمريكا وحلفاءها من العالم الحر يؤمنون بالحرية ولن ينحنوا أو يستسلموا للإرهاب. وستبقى الولايات المتحدة موجودة عند حدوث أمر جلل كالحادي عشر من سبتمبر، على النقيض مما يقوم به الإرهابيون من تقديم المساعدة على جبهة ما والتخطيط للقتل على جبهة أخرى. ولذلك، إذا بقينا متّحدين، فإن احتواء أو تدمير العناصر الأساسية للإرهاب الدولي يمكن أن يصبح حقيقة في وقتنا هذا.

يجب أن نقول هذا بالعبارة الشائعة في الشرق الأوسط، عدو عدوي صديق لي.

الإرهاب: الأسباب والدوافع

أ.د. سلوى الخطيب *

«إذا كانت هناك حاجة ملحة للحد من الإرهاب، فإننا يجب أولا أن نتعرف على متطلبات تلك الحاجة. إن أي محاولة تتجاهل الأسباب محكوم عليها بالفشل».

كورت فالدهايم

الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة

أصيب العالم بأسره بصدمة شديدة عندما سمع و شاهد في التليفزيون الهجمات التي استهدفت برج التجارة العالمي عام ٢٠٠١ وتساءل الناس لماذا حدث ذلك؟ ولماذا وقعت تلك الأحداث من مسلمين ضد مثل هذه الدولة القوية؟

وقد اتهم العديد من الناس الإسلام بأنه مسؤول عن خلق الإرهاب. وبالتالي قبل أن نفسر العوامل المحلية والدولية التي تساهم في إنتاج

* جامعة الملك سعود ـ السعودية.

شخص إرهابي، أود أن أجيب على بعض الأسئلة مثل: هل هناك علاقة بين الإسلام والإرهاب؟ هل الإسلام كديانة مسؤول عن الإرهاب؟ لماذا وقعت معظم الهجمات الإرهابية خلال السنوات القليلة الماضية بأيدي مسلمين؟

ما الإرهاب؟

الإرهاب ظاهرة عالمية، لا وطن لها ولا دين. وقد أصبحت تمثل تهديداً كبيراً للسلام والاستقرار العالميين. والإرهاب ليس ظاهرة جديدة، حيث يقدر وجود نحو ٣٧٠ منظمة إرهابية في العالم تعيش في ١٢٠ دولة.(١)

من هذا المنطلق، فإن القضاء على الإرهاب هو الشغل الشاغل للمجتمع العالمي بأسره. وعواقب الإرهاب لا تؤثر فقط على الضحايا أو القتلى أو المصابين، ولكن على المجتمعات بشكل عام في كافة أنحاء العالم. من الصعب تحديد المعنى الدقيق للإرهاب، لأن ما يعتبره شخص ما عملاً إرهابياً، قد يعتبره الآخر جهاداً شرعياً. وحسب تقدير السرحان، هناك ١٨٠ تعريفاً للإرهاب تشتمل على ما يلي:

يعرف عبد العزيز السرحان الإرهاب بأنه: «**هجمات على البشر أو الممتلكات العامة أو الخاصة، والتي تخالف القوانين الدولية**».(٢)

ويعرف حسنين إبراهيم الإرهاب بأنه: «**سلوك رمزي لاستخدام، أو للتهديد باستخدام العنف المنظم، الذي يفترض أن يخلق شعوراً بالرعب وعدم الأمن في المجتمع، من أجل تحقيق أهداف سياسية أو غير سياسية**».(٣)

يعرف عز الدين الإرهاب بأنه: «**عنف منظم ومرتب بغرض خلق حالة من عدم الأمن في المجتمع. وهو موجه ضد الدولة أو ضد حزب سياسي أو لتحقيق أهداف سياسية معينة**».[٤]

الجمعية الأمريكية لمكافحة الإرهاب تعرف الإرهاب بأنه: «**استخدام، أو التهديد باستخدام العنف غير المشروع ضد المدنيين لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية**».[٥]

يعرف جاري و جاري (١٩٩١) الإرهاب على أنه: «**شكل من الأعمال ذات الدافع السياسي المشتملة على مكونات سيكولوجية** (بما فيها الرعب) **وجسمية** (أعمال العنف) **التي ينفذها أفراد أو مجموعات صغيرة بهدف إجبار المجتمعات أو الدول على الخضوع لمطالب الإرهابيين**».[٦]

وبالنظر إلى جميع تعريفات الإرهاب المذكورة، يمكنني القول إن الإرهاب في كل مكان له خصائص ثلاث مهمة:

١ – **استخدام العنف أو التهديد باستخدام العنف**: جميع الهجمات الإرهابية هي هجمات عدوانية مدمرة وتستخدم القوة والعنف ضد أهداف بشرية أو ممتلكات.

٢ – **خلق هجمات منظمة ومرتبة**: جميع الهجمات الإرهابية تهدف إلى خلق حالة من الذعر وعدم الأمن في المجتمع.

٣ – **محاولة تحقيق أهداف سياسية**: فالإرهاب سلوك منحرف له أهداف سياسية.

إن العديد من العمليات الإرهابية التي نفّذت في القرنين التاسع عشر والعشرين من قبل القوات الحرة في ألمانيا، والحرس الحديدي الروماني، والإرهابيين اليابانيين، والباسك في أسبانيا، الإرهابيين الأيرلنديين، كانت تنفذ من قبل أولئك الذين يقاتلون من أجل الحرية الوطنية والاستقلال عن الاحتلال الأجنبي.

الفرق بين الأعمال الإرهابية في الماضي والحاضر هو أن الأعمال الإرهابية كانت تنفّذ في الماضي من أفراد، بينما في الحاضر تنفذ من مجموعات. وكانت أهداف الإرهابيين في القرن التاسع عشر هي الملوك والوزراء والمسؤولين الرسميين، إلا أن أهداف الإرهاب تغيرت اليوم ولم تعد الشخصيات العامة، ولكن المجتمع بأسره (رجال ونساء وأطفال). إن هدفهم ليس فقط التعبير عن أفكارهم، ولكن نشر الخوف والذعر في المجتمع كله.

عواقب الإرهاب:

الإرهاب له أثر سلبي وتدميري على المجتمع كافة. وعواقبه لا تؤثر فقط على الضحايا، ولكنه يضرب بشدة جميع جوانب الحياة الاجتماعية:

١ – **نفسياً:** الإرهاب يخلق حالة من الذعر والخوف والهلع والارتباك.

٢ – **اقتصادياً:** الإرهاب له تأثير سلبي خطير على النظام الاقتصادي. فهو يؤثر على جميع المشروعات الاقتصادية في البلاد، و يعيق وصول برامج التنمية إلى أهدافها. كما إنه يمنع

المستثمرين من تنفيذ مشروعاتهم الاستثمارية. وتتأثر السياحة سلبياً بالإرهاب، حيث ينخفض عدد السياح بشكل كبير بعد كل هجوم إرهابي. وبالتالي أستطيع القول بأن الإرهاب يدمر النمو الاقتصادي في الدولة.

٣ –**سياسياً:** الإرهاب يخلق عدم استقرار وعدم أمن في المجتمع. وتنفق الحكومات الكثير من الأموال في مكافحة الإرهاب. وكان من الممكن إنفاق تلك الأموال في برامج التنمية. ويمكن أن يؤدي إخفاق الحكومات في مواجهة الإرهاب إلى سقوط بعضها.

٤ – **اجتماعياً:** للإرهاب تأثير تدميري خطير على المجتمع، فعدم الاستقرار الاقتصادي يزيد من معدل البطالة، وهذا يؤدي إلى انتشار الفقر وخاصة بين الطبقة الدنيا. إن معظم الأعمال الإرهابية تنفذ من فئة الشباب، لذلك فإن المجتمع يفقد بعضاً من قواه العاملة. والإرهاب يدفع بعض الناس إلى الهجرة إلى مدن أخرى مما يسبب مشكلات لكلتا المدينتين. فالإرهاب يخلق حالة من تصارع القيم بين الناس. فهم لا يعرفون ما الصحيح وما الخطأ، وهذا يمكن أن يؤثر على نظام القيم، ويزيد الجريمة في المجتمعات.

من التساؤلات المهمة التي يحاول علماء الاجتماع إيجاد إجابة لها: ما الظروف الاجتماعية التي تشجع ظهور الإرهاب؟

هل هي نقص الديموقراطية؟ أو أنه نتيجة للنظام الشمولي؟

يفترض بعض علماء الاجتماع أن الإرهاب يحدث عندما لا يكون في دولة ما نظام ديموقراطي. ويقول آخرون إن الإرهاب يحدث عندما تبدأ الحكومة في فقد السيطرة والهيمنة على شعبها. ويفيد بعض علماء الاجتماع أن الإرهاب يحدث في أكثر النظم القمعية الشمولية مثل ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية والاتحاد السوفيتي الشيوعي. ومع ذلك فإن الأدلة التاريخية تبين أنه قد وقعت محاولات قليلة لقتل هتلر وستالين وموسوليني. إضافة إلى ذلك، فقد وقعت هذه الأحداث من قبل أفراد، وليست من قبل مجموعات إرهابية تمارس عملها بطريقة نظامية. وقد أحبط البوليس السياسي في تلك الدول محاولات تُعدُّ لحملات إرهابية. ولم يحدث الإرهاب في الأنظمة السياسية القادرة على استخدام القوة غير المحدودة ضدهم، أو في مجتمعات لا تعيقها قوانين حقوق الإنسان. فالإرهاب يمكن أن يزدهر فقط في بيئة تكون ديمقراطية جزئياً من الناحية الشكلية أو في نظام ديكتاتوري غير كفء.[٧]

قبل أن نبين الأحداث المحلية والدولية التي ساعدت على إنتاج إرهابيين في المجتمعات الإسلامية خلال تلك الفترة، على وجه الخصوص، أعتقد أنه من المهم أن نعطي فكرة موجزة عن الإسلام ومبادئه وكيف يمكن أن تساعد هذه المبادئ على خلق الإرهاب.

ما الإسلام؟

إن اسم الإسلام يعني «الخضوع» أو «الاستسلام»، والمسلمون هم أولئك الذين يسلمون أنفسهم لإرادة الله. والإسلام دين توحيد خالص. ويؤمن المسلمون بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. والإسلام كديانة نشأ في الجزيرة العربية قبل ١٤٠٠ سنة. وانتشر في جميع أنحاء العالم وهو أكثر الأديان انتشاراً. ويقدر عدد المسلمين اليوم بأكثر من مليار مسلم.[8] الإسلام دين غني ومتطور، فقد تطور بسرعة كبيرة في الماضي واستمر في نموه وتطوره في الوقت الراهن. يجب أن يؤمن جميع المسلمين بالله وملائكته وكتبه ورسله وبيوم القيامة. ويتوقع من كل مسلم أن يؤدي أركان الإسلام الخمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقامة الصلوات الخمس يومياً وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. والإسلام دين الرحمة، فهو دين يحترم آدمية الإنسان بغض النظر عن دينه أو جنسه أو عرقه. ومثلما جاء في الأديان الأخرى فإن القرآن يحث المسلمين على اتباع كافة الفضائل، مثل الأمانة والإخلاص والعدل واحترام الوالدين، والكرم والشجاعة والتعاون على الخير وليس الشر. وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ (المائدة : ٢) .

ولكي يكون المسلم مسلماً حقاً فإن عليه أن يساعد المحتاجين

ويساندهم. والإسلام يمنع الناس من قتل الأبرياء. وقد ورد في القرآن أن من قتل نفساً بغير سبب مبرر فكأنما قتل الناس جميعا: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (المائدة : ٣٢). والإسلام دائماً يشجع المسلمين على أن يكونوا أقوياء، وأن يكونوا مستعدين للجهاد. وكلمة جهاد بالعربية جاءت من كلمة "جهد" التي تعني بذل جهد ما. وهناك العديد من أنواع الجهاد في الإسلام وتشمل: جهاد النفس ضد المعاصي حيث يفترض أن كل مسلم يجب أن يقاوم الإغراءات المضللة، والجهاد بالمال ضد الطمع ويعني أن المسلم الحق يجب أن لا يكون طماعا ولا يسرف في إنفاق المال، وبالتالي فإنه يجب عليه أن يبذل المال للفقراء، أي يعطي الزكاة والصدقة للمحتاجين. وأخيراً الجهاد بالنفس ضد احتلال الأرض، والجهاد بالنفس يفترض أنه يستخدم في الإسلام للدفاع عن النفس وليس للهجوم على الآخرين. والإسلام يستخدم كلمة "إرهاب" في القرآن بمعنى التخويف وليس تجاه الأبرياء أو مهاجمة الآخرين. قال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾ (الأنفال : ٦٠) والمراد بالقوة في عصرنا هو (الدبابات والطائرات والمدافع، الخ).

إن الإسلام يحكم جميع جوانب الحياة. ويعتمد جميع المسلمين

على الشريعة «تعاليم الدين الإسلامي»، المشتقة من القرآن والسنة (أقوال وأعمال النبي محمد صلى الله عليه وسلم)، بوصفها المصادر الأساسية للتشريع الإسلامي ، والشريعة تنظم جميع الأنشطة الإنسانية. فالإسلام ليس ديانة فقط لكنه نظام اجتماعي متكامل. ويتنوع تطبيق الإسلام من مجتمع إلى آخر. وهو يختلف أيضاً داخل المجتمع نفسه من وقت إلى آخر، حسب التفسيرات المختلفة للقرآن.

بالرغم من كل هذه المبادئ الطيبة للإسلام، فقد دهش الناس عندما وجدوا في السنوات القليلة الماضية أن كثيراً من الهجمات الإرهابية نفذت من قبل مسلمين. **لا أعتقد أن الإسلام يعتبر عاملاً أساسياً في نشوء الإرهاب، ولكن هناك عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية مختلفة تجمعت لتكوين إرهابيين مسلمين.**

أولا: نهاية الحرب الباردة :

كان لنهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي أثر سلبي على الاستقرار العالمي. أصبحت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة، وأصبحت تسيطر على قرارات الأمم المتحدة. بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وظهور اتجاه "محاربة الإرهاب"، أعطت الولايات المتحدة نفسها الحق في التدخل في سياسات العديد من

الدول النامية وتجاهلت المجتمع الدولي في العديد من القرارات.

وكانت حرب العراق أحد هذه الأمثلة التي تظهر كيف أن الولايات المتحدة لا تحترم قرارات الأمم المتحدة. فقد هاجمت الولايات المتحدة العراق على الرغم من الرفض الدولي والغضب العالمي. واحتج الناس في كافة أنحاء العالم على تلك الحرب، ولكن الجيش الأمريكي واصل هجومه وتجاهل تلك الاحتجاجات.

وقد خلق اعتداء الجيش الأمريكي الكراهية والحنق تجاه السياسة الخارجية الأمريكية، وأثار العنف ضد المواطنين الغربيين والأمريكيين على وجه الخصوص. وقد أوردت الكاتبة الهندية الشهيرة السيدة (روي)، في مقال شائع بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية، أوردت قائمة بنحو ثمانية عشر أو عشرين حرباً اشتركت فيها الولايات المتحدة الأمريكية. وتلك القائمة صحيحة على الرغم من أنها تشتمل على بعض الحروب التي انخرطت فيها الولايات المتحدة الأمريكية لحماية الأقليات المسلمة لأسباب سياسية معينة مثل ما حدث في البوسنة وكوسوفو والكويت.(٩)

شعر العديد من المسلمين بازدواجية معايير السياسة الخارجية الغربية. فالغرب يدعو إلى الديموقراطية، ولكنهم لا يحترمون حرية الشعوب الأخرى في اتخاذ قراراتها بنفسها. وتلك السياسة تعكس هيمنة وعدم عدالة الغرب. وأصبح الكثير من المسلمين

والعرب بشكل خاص يشعرون بحساسية تجاه الأمريكيين. وأصبحوا يرفضون أي نصيحة من الغرب، حتى ولو كانت في مصلحتهم. في هذا الصدد، قال رجل سعودي «أصبح الناس في الوقت الراهن يكرهون أي شيء يأتي من الغرب، لأنهم يأخذونه كأمر وليس كنصيحة». وبالتالي يمكنني القول بأن من أهم الأسباب لعدم قبول الولايات المتحدة في الوقت الراهن والهجمات ضد الأهداف الأمريكية هو العدوان الأمريكي المسلح على الدول الأخرى.

ثانيا - فلسطين

تحتل فلسطين مكانة هامة في قلب كل مسلم لأنها تضم أولى القبلتين (أول قبلة توجه نحوها المسلمون في صلاتهم). إنها مقر المسجد الأقصى، والمكان الذي انتقل إليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى القدس في رحلة الإسراء والمعراج.

وتمثل فلسطين إحدى المشكلات الرئيسة في الشرق الأوسط. فقد أصبحت مرضاً مزمناً في المنطقة. في مؤتمر صحافي عقد في باريس في ٢١ سبتمبر ١٩٧٢، قال الرئيس جورج بومبيدو: «إننا ندين الإرهاب، لأنه يستهدف حياة الأبرياء بدون تمييز. ولكن يجب أن نكون واقعيين حيث إن الإرهاب الفلسطيني لا يمكن الحد

منه بدون أن نقدم حلاً للقضية الفلسطينية أولاً. من المستحيل الحد من هذا النوع من الإرهاب بدون أن نقدم علاجاً للسبب الرئيس للقضية المطروحة أولا».

إن سيطرة إسرائيل على الأماكن المقدسة، واحتلالها للعديد من مناطق غزة والضفة الغربية كانت سبباً للإحباط العميق في العالم الإسلامي. وكانت سبباً لإمكانية وقوع المزيد من الصراع في المنطقة لأن هناك دائماً خطر قيام أحد المتطرفين الدينيين بمحاولة تفجير أحد الأماكن المقدسة لدى المسلمين. إن مثل هذه الأعمال يمكن أن يكون لها نتائج وخيمة لا تحمد عقباها في المنطقة بأسرها. كذلك فإن الدعم الأمريكي المتواصل لإسرائيل قد خلق شعوراً بالغضب والعنف بين العديد من المسلمين. ولم تفلح جميع الاتفاقات الدبلوماسية في إيجاد حل عادل للمشكلة الفلسطينية. والعديد من الفلسطينيين يشعرون بأن اتفاق أوسلو كان غير عادل وغير منصف. سياسات إسرائيل في الضفة الغربية وقطاع غزة جعلت من الصعب على الكثير من الدول تبريرها، حتى بين أصدقاء إسرائيل أنفسهم. لقد أدى اتفاق أوسلو إلى تشجيع العديد من المسلمين على الاعتقاد بأنه ليس هناك حل للمشكلة، غير المقاومة و«الجهاد».

في عام ٢٠٠٠ بدأت الانتفاضة الفلسطينية، ومنذ ذلك العام، نسمع كل يوم أو نرى هجمات على كلا الجانبين. وحسب

إحصاءات الجيش الإسرائيلي فقد أصيب نحو ١١،٤٠٠ إسرائيلي منذ سبتمبر ٢٠٠٠ ، وحسب إحصاءات منظمة الصليب الأحمر الفلسطينية فقد أصيب نحو ٢١،٣٤٢ فلسطينياً خلال هذه المدة.[١٠]

وفي العامين الماضيين، أعطت الولايات المتحدة الأمريكية الضوء الأخضر لإسرائيل لعمل ما تراه للحفاظ على سلامتها، حتى إذا كان ذلك يعني قتل الأبرياء أو بناء الجدار العازل. استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو ٢٩ مرة لمنع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة من اتخاذ قرارات عادلة لمساندة الفلسطينيين ومنحهم حقوقهم، ولم تصدر أي إدانة لإسرائيل عند قيامها بمهاجمة المدنيين.

إذا اعتبرنا قتل الأبرياء إرهاباً، يمكننا القول أن كلاً من الفلسطينيين وإسرائيل يرتكبون أعمالاً إرهابية. ومع ذلك، فإن الفرق الوحيد بينهما هو أن الهجمات الفلسطينية تنفذ من قبل أفراد أو مجموعات فقدت الأمل في أن تحقق حكومتها أي نتائج بشأن ذلك الصراع. من ناحية أخرى، تنفذ إسرائيل هجماتها من قبل جيشها وبدعم كامل من القوة العظمى. من هذا المنطلق، يمكنني القول بأن الاحتلال الإسرائيلي والدعم الأمريكي غير المشروط لإسرائيل قد ساعدا على خلق الإرهاب.

ثالثاً - أفغانستان:

من العوامل الأساسية التي ساعدت على نشر الإرهاب احتلال الاتحاد السوفيتي لأفغانستان. خلال الحرب الباردة، وضعت الولايات المتحدة من أهدافها القضاء على الترسانة النووية للاتحاد السوفيتي. قامت الولايات المتحدة بتشجيع الدول الإسلامية على إرسال رجالها لمقاتلة الروس. وبالرغم من اختلاف أيديولوجياتهم، فقد جاء المسلمون من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي لمقاتلة الروس. وكانوا مدربين ومنظمين في مجموعات، وهناك تأسست منظمة القاعدة.

وقد أظهرت نتائج البحث الذي أجريته على الإرهابيين الـ ٢٦ المطلوبين في السعودية والذين شاركوا في الهجوم على مجمع المحيا السكني بالرياض عام ٢٠٠٤، أن ٥٥٪ من هؤلاء الإرهابيين قد ذهبوا إلى أفغانستان، وعاشوا وتدربوا هناك لفترة من الزمن. أفغانستان أعطت هؤلاء الناس الفرصة كي يجتمعوا معاً، ويؤسسوا منظمات مثل القاعدة. بعضٌ من هؤلاء الناس قضى عشر سنوات أو أكثر هناك، ولم يكن لديهم شيء يفعلونه غير القتال وحضور الخطب الدينية. عندما انتهى الاحتلال السوفيتي، عادوا إلى بلادهم وكلهم أمل في أن تستقبلهم بلادهم بأكاليل الزهور. لكنهم دهشوا عندما استقبلوا بالرفض، بل إنهم ذهلوا عندما اكتشفوا أنهم لا يملكون أية مهارات تجعلهم يتأقلمون مع

مجتمعاتهم. بعض قادتهم في أفغانستان انتهزوا الفرصة وقاموا بتوظيفهم لتحقيق أهدافهم السياسية. أحد السعوديين الذين قضوا فترة من الزمن هناك في أفغانستان، قال إنهم اعتادوا عندما كانوا في أفغانستان، أن يطلبوا الإذن للذهاب إلى جبهة القتال ويحاربوا، ولكنهم كانوا دائماً يواجَهون بالرفض، «لا، لا حاجة لنا بكم الآن، هناك ما يكفي من الأفغان في المعركة. سوف نحتاجكم لاحقاً عندما تعودون إلى بلادكم». وهذا يعني أن القادة هناك كانت لديهم خطط خاصة بهم وكان لديهم أجندتهم السياسية على المدى البعيد.

وأختتم القول بأن الحكومات العربية كان يجب أن تضع خططا معينة عن كيفية التعامل مع هؤلاء العرب الأفغان، وكيفية إعادة تأهيلهم لكي يتواءموا مع مجتمعاتهم.

رابعاً - التعصب:

إن كلمة «تعصب» تعني الحماس الشديد غير المتعقل لفكرة أو مبدأ معين. في جميع الديانات، اليهودية والمسيحية والإسلامية يوجد متعصبون. وقد اعتقد كثير من الناس أن الدين مصدر رئيس للتعصب.

إن المتعصبين في كل مكان يؤمنون بأنهم على حق وأن كل الآخرين على باطل. وهم يؤمنون بأن العدو يجب تحطيمه وتدميره. والتعصب ليس محصوراً على دين معين. وقد أعطى الفيلسوف الديني الروسي نيكولاي بردياييف خصائص فلسفية للمتعصب. فهو

يرى أن المتعصب يشاهد الخيانة والغدر والشك في كل مكان؛ إنه يرى الأعداء في كل مكان حوله. وقد أشار بردياييف إلى أن التعصب يقسم العالم إلى معسكرين عدوانيين.[١١]

هذا التقسيم مبني على تفكير منحرف، ينظر الى العالم على أنه خير محض أو شر محض. فالخير ما يمثله هو ، والشر ما يمثله الآخرون. وفي الغالب فإن التعصب يكون ذا دوافع دينية أو عنصرية عرقية. **وكما في العوالم الأخرى، فإن التعصب في العالم الإسلامي هو نتاج انحراف عن عقيدة الإسلام الصحيحة، يتمثل في سلوك يتعارض مع قيم الرحمة أو التسامح التي جاء بها الإسلام.**

هذا التعصب الذي نسبه أصحابه إلى الاسلام سلط الغرب عليه الضوء، وركزت عليه وسائل الإعلام حتى رسخت في ذهنية المواطن الغربي أن الإسلام هو دين التعصب. ونود التأكيد هنا أن هؤلاء المتعصبين هم الأعلى صوتاً والأكثر صراخاً في العالم الإسلامي، لكنهم القلة الشاذة التي لاتمثل الاسلام الصحيح ولا المسلمين الرحماء المتسامحين.

خامسا - الفقر والحرمان:

يقول كثير من علماء الاجتماع إن هناك علاقة مباشرة بين الفقر والانحراف[١٢]، [١٣] وأنه عندما ارتبط الفقر بالأهداف السياسية

تحول إلى إرهـاب. ويقال إن الأعمـال الإرهابية دائمـاً تأتي من دول العالم الثالث، ومن الطبقات الدنيا في تلك المجتمعات. ويعتقد الكثير من الناس أن الفـقـر والجـوع من الأسـبـاب الرئيـسـة وراء الإرهاب. ويُفتـرض أن البؤس الواقع في العالم الثالث هو نتـيجة للإمبـريالية واستـغلال الدول المتقـدمة للدول الناميـة، فقد اسـتغلت الإمبـريالية ثروات واقتصاديات دول العالم الثالث.

إن الفـقر ظاهرة عـامة توجـد في جـميع أنحـاء العالم، ولا توجـد دولة في العالم لا يوجد بها فـقر. يقدر أن نحـو ١٥-٣٠ في المئة من سكان الدول العربيـة يعيـشـون تحت مسـتوى خط الفقر؛ وأن نحو ٢٢ في المئـة من سكان الدول العـربية يبلـغ متـوسط دخلهم دولاراً واحداً في اليوم؛ وأن ٥٢ في المئة يبلغ دخلهم ما بين ٢-٥ دولارات في اليوم.(١٤)

على الرغم مـن تلك الحـقـائق، فـإنـنـي أعـتـقـد أن الفـقـر ليس هو العـامل الوحـيـد الذي يؤدي إلى الإرهاب. والحـرمـان عـامـل آخـر أيضاً. قبل مئة عام، أي قبل اكتشـاف البترول، كان معظم الناس في شـبـه الجـزيرة العـربيـة فـقـراء، وكـانوا بالكاد يـجـدون طعـامـهم، واعـتـادوا أن يـتـناولوا وجـبة واحـدة في اليـوم. لذلك اضطر العـديد منهم إلى الهـجـرة إلى سـوريا أو العراق بـحـثـا عن عـمل. ومع ذلك، كانت الجـريمة نادرة جداً خـلال تلك الفتـرة لأن معظم النـاس كانوا فـقـراء، قليل من الـتـجـار كـانوا يملكون ثـروة تزيد على مـا تملكه

الأغلبية العظمى من الفقراء.(١٥)

أمـا في الوقت الراهن، فـإن الفـجـوة اتسـعت كـثيـراً بين الفـقـراء والأغنيـاء. فقد ازداد الأغـنياء غنىً وازداد الفـقراء فـقراً. وأصبـحت هناك فـروق كبـيرة بين الطبـقات الاجـتماعـية. ومـع ظهور العـولمة وعصـر الفضـائيات، أصـبح الناس في الدول النامية على دراية أكثر بمستوى فقرهـم وعلـى دراية أكثر باحتياجاتهم.

لذلك، فإنني أعتـبر الفقر والحرمان والإحـباط من العوامل التي أدت إلى العدوان، وهذا بدوره يمكن أن يكون قد أدى إلى ظهور الإرهاب.

سادساً - البطالة:

من العوامل المهـمة في ظهـور الإرهـاب في العالم العـربي النمو الديموغـرافي غـير المنتظم، وعـدم قدرة الحكومـات العـربيـة على توفـيـر الوظائف للأجـيـال الشـابة. منطـقة اليـمـن من بين المناطق التي تتمتـع بمعدل إنجاب عال تتّسم بمعـدل ٥,٨ بالمئة، وفلسطين ٥,٧ بالمئـة، والمملكة العـربيـة الـسـعـودية بمعـدل ٥,٢ بالمئـة، ومـوريـتـانيـا بمـعـدل ٤,٧ بالمائة، والسـودان بمعـدل ٤,٦ بالمئـة والكويت بمعدل ٤,٠ بالمئة.(١٦)

ومع هذا المعدل المرتفع للإنجاب، فشلت كـثير من الحكومات في توفـيـر فـرص الـعـمل للشـبـاب. فـفـي دول مـثـل مـصـر والمـغـرب والسـودان والسعوديـة والأردن وسوريا يتـخرج مئـات الآلاف من

الشباب الجامعيين كل عام. ونصف هؤلاء الخريجين فقط يستطيع الحصول على فرص عمل، مع أن نسبة الذين يجدون فرص عمل مرضية تعتبر أصغر من ذلك.

إن معدل البطالة يعتبر مرتفعاً جدا في معظم الدول الإسلامية النامية. يقدر أن نحو ٢٠٪[١٧] من القوة العاملة في الدول العربية تعاني من البطالة. ويختلف معدل البطالة من دولة إلى أخرى في الدول العربية. ففي موريتانيا يبلغ معدل البطالة ٢٩٪ بين الذكور و ٤٢٪ بين الإناث؛ وفي السودان يبلغ ١٢ ٪ بين الذكور و ٢٤ ٪ بين الإناث، أما في المغرب فيبلغ ١٥ ٪ بين الذكور و ٢٢ ٪ بين الإناث. ولا شك أن معدل البطالة مرتفع جداً بين فئة الشباب في دول الخليج. ويقدر هذا المعدل بنحو ٨٠٪ بين الشباب في الكويت و ٧٥ ٪ في قطر و ٦٥ ٪ في البحرين[١٨].

سابعاً - انعدام الديمقراطية:

إن الديمقراطية تعطي الأفراد الفرصة لأن يعبروا عن أنفسهم، وأن يشاركوا في صنع القرار، وأن يكونوا سواسية أمام القانون. كما أن غياب القنوات الشرعية التي تتيح الفرصة للناس لكي يعبروا عن أنفسهم في معظم الدول الإسلامية يجبر الأفراد على استخدام قنوات غير شرعية أو غير مباشرة للتعبير عن أفكارهم أو مشكلاتهم. ولا توجد في الكثير من المجتمعات الإسلامية

مؤسسات مدنية لحماية حقوق الأفراد.

ثامناً - التعليم:

يُعد التعليم أحد المعايير الرئيسة التي تحدد وضع الفرد في فئة القوى العاملة، وكذلك التي تحدد دخله. وقد ساعد النظام التعليمي بطريقة غير مباشرة على ظهور الإرهاب. فمن بين المشكلات التعليمية المهمة في العديد من دول الخليج يأتي التوزيع غير المتوازن للخريجين الجامعيين. إن معظم الطلاب يتركزون في كليات الآداب والعلوم الاجتماعية والدراسات الإسلامية، بينما قلة من الطلاب يدرسون العلوم الطبيعية.

وهناك نقص في التوازن بين النظام التعليمي وأهداف التنمية في البلاد. معظم المدارس والكليات والجامعات في الدول النامية لا تعد الطلاب للدخول إلى سوق العمل، أو تعطيهم المهارات التي يحتاجونها مثل تعلم اللغة الإنجليزية ومهارات الكمبيوتر. كما أن النظام التعليمي لا يساعد على استثارة التفكير لدى الطلاب أو تنمية مهارات التحليل والنقد لديهم. بدلاً من ذلك، فالنظام التعليمي يساعد الطلاب على تذكر المعلومات فقط. كل هذه الحقائق تساعد على زيادة معدل البطالة في معظم الدول النامية.

الأسئلة المهمة التي يمكن أن تثار هنا هي: هل دين الإسلام مسؤول عن الإرهاب؟ وهل المسلمون إرهابيون بطبيعتهم؟

بالطبع لا، لأسباب عديدة منها:

١ – أنه يحض الإسلام على الفضيلة والرحمة والأمانة والسلام بين جميع البشر. ولا يوجد دين يشجع الناس على أن يكونوا إرهابيين.

٢ – الإرهاب ليس مرتبطاً بالإسلام فقط، فهو ظاهرة عامة توجد في الكثير من الدول. فكما ذكرت آنفاً، توجد نحو ٣٧٠ منظمة إرهابية تعيش في ١٢٠ دولة. وتضم تلك المنظمات: الفاشيين الجدد ومجموعات النازيين الجدد الذين نشطوا في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وجنوب إفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية، وأوروبا. في ألمانيا يوجد ٧٥ مجموعة يمينية متطرفة تضم نحو ٦٥,٠٠٠ ناشط. وقد نفذ تفجير أوكلاهوما بالولايات المتحدة في عام ١٩٩٥ من قبل شخص مسيحي وليس مسلماً، على الرغم من أن أصابع الاتهام المتعجلة وجهت إلى المسلمين.

٣ – إن الإسلام دائماً متّهم بأنه مسؤول عن جميع سلوكيات المسلمين، بينما لا تعامل المسيحية واليهودية بالطريقة نفسها. فإذا ارتكب مسيحي أو يهودي عملاً إرهابياً، لا أحد يقول «إرهابي مسيحي» أو «إرهابي يهودي». ولكن إذا أساء أي مسلم التصرف فإن الأمة كلها سوف تتهم بأنها إرهابية.

٤ – إن الإسلام موجود منذ أربعة عشر قرناً وانتشر في جميع أنحاء العالم. وخلال كل هذه السنوات لم نسمع عن منظمات

إرهابية في أي من الدول الإسلامية. الإرهاب المنسوب إلى الإسلام هو ظاهرة جديدة ظهرت فقط خلال السنوات القليلة الماضية، نتيجة لعدة عوامل سياسية واقتصادية معينة.

٥ – يجب ألا ننسى أثر الحضارة الإسلامية والمساهمات العلمية التي منحتها للعالم في العديد من المجالات. يجب ألا ننسى أيضاً أو نغفل العلماء المسلمين من أمثال ابن خلدون ومساهمته في علم الاجتماع، وابن سينا في العلوم والطب، وابن رشد في الفلسفة والطب، والبغدادي ومساهمته في الرياضيات، وأبو العباس بن الرومية ومساهمته في علم الصيدلة، والزهراوي الذي يعتبر أبا علم الجراحة، وابن بطوطة الرحالة العظيم، وجابر بن حيان في الرياضيات، وغيرهم..[١٩] فالناس دائماً ينسون الجوانب الإيجابية للمسلمين ويتذكرون الجوانب السلبية فقط. والأعمال السيئة دائما تعمم على جميع المسلمين، ولكن الأعمال الطيبة تنحصر في الأفراد فقط.

٦ – في عصرنا الراهن، هناك العديد من العلماء المسلمين الذين ما زالوا يساهمون في تطور جميع العلوم من أمثال نجيب محفوظ وأحمد زويل اللذين حصلا على جائزة نوبل. وهناك العديد من العلماء المسلمين والفلاسفة والكتّاب في العديد من الدول الغربية يساهمون في نجاح وخدمة الإنسانية.

إن أسباب الإرهاب محيرة ومربكة. ويعتقد بشكل واسع أن

الإرهاب هو استجابة للأعمال المحبطة في مواجهة الظروف القاسية التي يصعب تحملها. ومن هذا المنطلق، فإن الوسيلة الوحيدة للقضاء على الإرهاب أو التخلص منه هي التعامل مع مصادره وأسبابه. من المهم التعامل مع عوامل الإحباط التي تواجه الإرهابيين بدلاً من قمع الإرهاب بالقوة وحدها. فالإرهاب ليس عملا قاسياً فقط؛ إنه عمل يحمل أيديولوجية معينة وأهدافاً معينة تحتاج إلى مواجهتها. لا يمكننا أن نحارب الإرهاب بالقوة العسكرية فقط، ولكن باستخدام أيديولوجيات أخرى أيضاً، وخاصة إذا حصل الإرهابيون على أيديولوجياتهم من تفسيرات معينة للإسلام. يجب مجابهة طريقة التفكير هذه ومواجهتها بصراحة ووضوح من أجل تصحيح مفاهيم الإرهابيين وأفكارهم ومعتقداتهم.

وختاماً أقول إن الإسلام ليس مسؤولاً عن الإرهاب. هناك عوامل مختلفة أسهمت في نشر الإرهاب خلال السنوات القليلة الماضية في العالم بشكل عام، وبين المسلمين بشكل خاص مثل: استخدام القوة ضد الدول الضعيفة، والتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، واحتلال إسرائيل لفلسطين واحتلال أفغانستان، والظلم، والفقر والحرمان، وعدم احترام حقوق الإنسان، وعدم التسامح والتعصب، وفقدان الديمقراطية، والبطالة، وفشل النظام التعليمي في تحقيق أهدافه، هذه العوامل كلها هي المسؤولة عن الإرهاب.

الهوامش

١ـ محمد إبراهيم الحلوة. الإرهاب الدولي، بحث غير منشور، جامعة الملك سعود، ص٣.

٢ـ مرجع سابق، ص١٤.

٣ـ مرجع سابق، ص ١٤.

٤ـ مرجع سابق، ص ٩.

٥ـ مرجع سابق، ص ١٤.

٦ـ Jary, David & Jary Julia. (1991). The Harper Collins Dictionary. P.518.

٧ـ www.Laqueur, Walter. No End to War.Amazon.com.

٨ـ Curry. T.,Jiobu, R.,and Schwirion, K.(1999). Sociology for the Twenty First Century. Prenhtic Hall.

٩ـ Laqueur, W.Ibid.

١٠ ـ جريدة الحياة، ٧ أكتوبر ٢٠٠٤م، ص ٤.

١١ـ Laqueur, W.Ibid.

١٢ ـ ١٣ جبارة وعلي السيد. المشكلات الاجتماعية. دار الوفاء. الإسكندرية. ٢٠٠٣م.

١٤ ـ سامية جابر. الانحراف والمجتمع. دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٨.

١٥ ـ أمل عبدالرحيم. الخصائص الاجتماعية للعالم العربي: دراسة تحليلية. غير منشورة.

١٦ ـ سلوى الخطيب. توطين البادية في السعودية: دراسة حالة على الغاط. رسالة ماجستير. قسم الدراسات الاجتماعية، جامعة الملك سعود، ١٩٨١.

١٧ ـ الأمانة العامة لجامعة الدول العربية. تقرير الاقتصاد العربي، ٢٠٠٣م، ص ٢٦٢.

١٨ ـ مرجع سابق، ص ١٧٣.

١٩ ـ فاطمة محجوب. الموسوعة الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠.

دوافع الإرهاب العالمي وأسبابه

تشارلز سانت بروت *

أصبح الإرهاب اليوم في صدارة قائمة أولويات الاهتمام العالمي، وغدا محوراً من محاور العديد من الدراسات السياسية والجغرافية، وبات العالم أكثر من أي وقت مضى حبيس مصطلح يستخدم لتبرير كل شيء، نعت ذاتي وليس حقيقة موضوعية[١]، وعلى الرغم من أن كلمة «الإرهاب» من الكلمات الأكثر استخداماً في مجال السياسة والإعلام، إلا أنها بقيت بمنأى عن إيجاد تعريف دقيق. فكلمة إرهاب نفسها مثيرة للجدل، وتستخدم بصورة خاصة لوصف كل ما هو بغيض وكل ما هو محفوف بالشر المطلق، ويستغل المصطلح للحط من قدر الخصم وجعله في صورة سلبية من أجل إضفاء شرعية على سياسة ما أو موقف ما تجاه هذا الخصم.

* مدير المعهد الفرنسي للدراسات الجيوبوليتكية ـ فرنسا.

هذا التوصيف السياسي الذي يضفي صفة الشر على الإرهاب، وقد قصد توظيفه لكي يؤدي عدة مهام على المستويين المحلي والدولي، فعلى سبيل المثال ـ ساعد على وصم العدو بأنه دون البشر وبربري. وقد أشار البروفيسور فرانسو بيرنارد هيوغ ـ Francois Brnard Hughe بقوله: «إن استخدام كلمة إرهاب تعني إضفاء الشرعية على عمل ما ولذا فإن الكلمة يطلقها من يريد أن يصف أفعالاً ما أو مجموعات ما على أنها على هامش المجتمع».

وبعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م على وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» ومدينة نيويورك، أعلن الرئيس جورج بوش الحرب على الإرهاب، وكأنّ الإرهاب له تعريف أو أيديولوجية محددة. وفي أدبيات إدارة الرئيس بوش فإن الإرهاب أضحى بديلاً عن الشيوعية، فهو شر محض يجب على المدافعين الجدد عن الفضيلة محاربته، وقد اخترعت الولايات المتحدة تعبير «الإرهاب العالمي»، الأمر الذي أدى إلى المزيد من الغموض حسب ما أشار إليه البروفيسور نعوم تشومسكي بالقول: «مصطلح (إرهاب) هو مصطلح مقيّد من الناحية العملية بالإرهاب الذي لحق بالولايات المتحدة وحلفائها»[٢].

واستخدام مصطلح الإرهاب قد يكون أيضاً وسيلة من وسائل الدعاية ضد عدو غامض فقبل الحرب على العراق أعلنت الولايات المتحدة قائمة «الدول الإرهابية». هذه القائمة تضم دولاً مختلفة لا يجمع بينها شيء سوى عدم رضا الإدارة الأمريكية عنها. من هذا

المنطلق سوف نحاول تعريف مفهوم الإرهاب، ونذكّر أن الإرهاب ليس ظاهرة حديثة لكنه ذو جذور تاريخية قديمة، ونؤكّد أيضاً أن دوافعه تختلف وتبقى هناك مخالفة للحقيقة إذا ألصقناه بأيديولوجية أو دين محدد. وسوف نلقي الضوء أيضاً على أسباب إرهاب اليوم ودوافعه بسؤال أنفسنا: هل حقاً هناك شيء اسمه الإرهاب العالمي؟

ما الإرهاب؟

لعل صعوبة تعريف الإرهاب ترجع إلى حقيقة أنه تعبير يحوي حقائق كثيرة ومختلفة، فكلمة إرهاب يعود أصلها إلى اللاتينية وتعني مخيف أو مفزع، فالإرهاب عبارة عن عملية ترويع عن طريق إثارة الخوف والفزع، وليس هناك تعريف مقبول عالمياً للإرهاب غير ما ذكرنا. وبحسب الخبير ولتر لاكوير Walter Laqueur فإن الخاصية الوحيدة المتفق عليها عموماً هي أن الإرهاب ينطوي على عنف وتهديد بالعنف» [٣].

وتعريف الإرهاب قد غدا نوعاً من الجدل ومحفوف بالكثير من التفسيرات الذاتية. فما كتب عن الإرهاب كثير لكن ليس هناك عمل يمكن أن يكون كاملاً، فالتعريف الشائع والمتفق عليه هو «الاستخدام المنظّم لإثارة الذعر خصوصاً كوسيلة من وسائل الإكراه، والاستخدام المنظّم لإثارة الخوف أو العنف

المفاجئ ضد الحكومات والأماكن العامة أو الأفراد لتحقيق أهداف سياسية». وحسب مفوضية الاتحاد الأوروبي فإن الإرهاب يعدّ: «هجمات يقوم بها عمداً أفراد أو جماعات ضد دولة أو عدة دول أو مؤسساتها أو شعوبها بغرض إشاعة الخوف بينهم، وتغيير أو إضرار بالبنية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية لهذه الدول».

لكن القانون الدولي لم يتطرق أبداً لتعريف الإرهاب، فقد اكتفى بإدانة جرائم محددة مثل خطف أو مهاجمة الطائرات. أما المعاهدات الدولية مثل تلك التي يعود تاريخها إلى ١٥ ديسمبر ١٩٩٧م والمعنية بمنع التفجيرات الإرهابية، والاتفاقية الدولية لمنع تمويل الإرهاب (٨ ديسمبر ١٩٩٩)، حيث تهدف إلى ملاحقة أعمال إرهابية معينة، والاتفاقية الأخيرة تستهدف منع: «أي أعمال تسعى إلى قتل أو إلحاق أذى خطير بالمدنيين أو أي شخص ليس له أي دور نشط في العدوان في حال الصراع المسلح، عندما يكون هدف هذه الأعمال من حيث طبيعتها وتركيبتها هو تخويف السكان أو إرغام حكومة ما أو منظمة دولية على القيام بعمل ما أو الامتناع عن القيام بمهمة ما».

وحقيقة القول ليس هناك تعريف يحاول أن يكون أكثر دقة، فكل واحد يشعر أن له مطلق الحرية لوضع تعريف للإرهاب حسب ما يراه. وهذا ما يمكن فهمه من واقع أن الإرهاب ليس

أيديولوجية أو فلسفة سياسية، بل هو وسيلة لغاية. فالحرب بحسب المنظّر كارل فون كلوسويتز Carl Von Clauswitz هي: «مجرد استمرار للسياسة بطريقة أو بوسيلة أخرى» [٤]. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الإرهاب.

وهناك دائماً استراتيجية وراء أي أعمال إرهابية بغض النظر عن شكلها، فالأعمال الإرهابية نادراً ما تكون أعمالاً تلقائية أو عفوية. إنها استخدام متعمد للعنف من قبل مجموعات ذات أهداف محددة سواء أكانت هذه المجموعات يمينية أو يسارية أو وطنية أو عرقية، أو ثوريين أو أفراد القوات المسلحة أو الاستخبارات التابعة للحكومات. وما يدفع الإرهاب للقيام بذلك هو نشر الرعب إما لتخويف السكان، كما حدث عند إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكي من قبل الولايات المتحدة، أو قصف ألمانيا للندن وقصف الولايات المتحدة للعراق، أو الضغط على دول ضعيفة. والإرهاب يلجأ دائماً للإثارة إذ الهدف هو ترك أثر معين. وبفضل الاتصالات الحديثة مثل الإنترنت وقنوات البث التليفزيونية الفضائية فإن الأعمال الإرهابية أصبحت معروفة للجميع. فكل العالم تقريباً شاهد حياً على الهواء برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، في حين لم يشاهد أحد القنابل التي ألقيت علي هيروشيما، والتي أدت إلى وقوع عدد من الضحايا وصل إلى مئات الآلاف (أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ شخص قضوا نحبهم

في غضون دقائق). وهكذا نرى أنه من الصعب الوصول إلى تعريف دقيق للإرهاب، لكن من المؤكد أن الإرهاب ظاهرة تتخذ عدة أشكال.

ظاهرة متعددة الأوجه:

ظهر مصطلح الإرهاب لأول مرة في أواخر القرن الثامن عشر أثناء الثورة الفرنسية التي كانت فترتها السوداء تفيض بالإرهاب. هذا الإرهاب نفذه النظام وغذّته ميول المتطرفين من الثوريين أمثال القائد روبسبير Robespeure. ومن الجدير بالملاحظة أن أول استخدام للإرهاب كان من جانب دولة متعطشة للدماء وطاغية وكانت تستخدم التخويف ضد أعداء النظام كوسيلة للحكم. وقد طبق هذا التخويف على نطاق واسع من خلال المخبرين السريين والعنف والحجز التعسفي والإعدامات الجماعية لعشرات الآلاف من الناس دون محاكمتهم. ولا يفوق إرهاب النظام في عهد الثورة الفرنسية إلا إرهاب النظام النازي في ألمانيا ونظام ستالين في روسيا، ونظام بول بوت في كمبوديا. ولذا فإن الثورة الفرنسية التي توصف بأنها تمثل نوعاً من التطور المهم في تاريخ الإنسانية كانت أول نظام استبدادي في التاريخ المعاصر. لقد دشنت هذه الثورة إرهاب الدولة الذي استمر أحد أوجه الإرهاب الحديث.

ومن أشكال الإرهاب الأخرى ما ظهر في القرن التاسع عشر

بعد نهاية الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) وفي هذه الفترة قام بعض الأفراد من جنوب الولايات المتحدة بإنشاء منظمة إرهابية تسمى كو كلوكس كلان Ku Klux Kkan لتخويف مؤيدي إعادة البناء بعد الدمار الذي أحدثته الحرب. تتمثل الأعمال التي قامت بها هذه المنظمة في زرع الذعر بهدف خلق جو من عدم الأمان في المجتمع وإضعاف أو قلب نظام الحكم.

وكان ظهور الإرهاب الأيديولوجي المدمّر قد بدأ بالهجمات التي قام بها العدميون والفوضويون في روسيا في السنوات الأولى من عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي وكذلك تلك التي نفذها العدميون في التسعينيات من القرن نفسه في كل من فرنسا وإيطاليا وغيرها من الدول الأوروبية. ومن أمثلة هذه العمليات الإرهابية الهجمات بالقنابل التي قام بها الفوضوي فرانسوا كونج ستين Francois Koenig Stein والمعروف أيضاً باسم رافاكول Ravachol واغتيال الرئيس الفرنسي سادي كارنوت Sadi Carnot عام ١٨٩٤، واغتيال إمبراطورة النمسا إليزابيث عام ١٨٩٧م، وكذلك اغتيال ملك إيطاليا عام ١٩٠٠م، والإرهاب المرتبط بجماعة الفوضويين دائماً ما يكون ذا علاقة بحوادث السرقات كما في عصابة بونوت Gang Bonot(١٩١١ ـ ١٩١٢م). وبونوت هو زعيم مجموعة من اللصوص والقتلة الذين سموا أنفسهم فوضويين. وبعد سنوات قليلة من ظهور هذه الجماعة

استخدمت الحركات الشيوعية الأساليب نفسها للاستيلاء على السلطة. والشيوعيون المستخدمون للإرهاب كأداة سرية ضد الملكية في روسيا هم أنفسهم الذين استخدموا إرهاب الدولة للبقاء في السلطة. وعلى النهج ذاته سارت الحركة الصهيونية إذ استخدمت الإرهاب السري في فلسطين وطبقت بعد ذلك إرهاب الدولة بعد إنشاء الدولة الصهيونية في فلسطين.

أما الشكل الثالث من أشكال الإرهاب الذي له تلك الأوصاف فقد ظهر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وهذا يشمل الأعمال التي قامت بها حركات المقاومة الوطنية التي حاربت المحتلين، ومنها ـ على سبيل المثال ـ محاربة القوات الإنجليزية المحتلة في أيرلندا. وفي الثلاثينيات من القرن الماضي أدى الصراع في منطقة البلقان إلي بروز إرهاب شرس وقاس تمثّل في اغتيال الاسكندر حاكم يوغسلافيا ولويس ماثيو وزير الخارجية الفرنسي في مرسيليا بفرنسا في أكتوبر من عام ١٩٣٤م، وقد نفذّ هذه الاغتيالات أعضاء منظمة أوستاشي Ustashi الكرواتية التي كانت تطالب باستقلال الإقليم.

دوافع الإرهاب:

يتبين من ذلك أن الإرهاب يأخذ عدة أشكال، ولذا فإن الخلط لا ينجم عن تعريف الإرهاب وإنما عن التعريفات المتعددة له، وبناء على ذلك تتعدد الدوافع، فالعالم قد عرف وسوف يعرف الإرهاب

الأيديولوجي (المرتبط بالفاشيين أو الثوريين اليساريين) والإرهاب العرقي والإرهاب الديني والطائفي وإرهاب المافيا وإرهاب الدولة وغيره كثير.

ـ **الإرهاب الثوري:** هو أكثر أشكال الإرهاب استمرارية، إذ بدأ في القرن التاسع عشر وامتد خلال القرن العشرين. فمنذ عام ١٩٦٨م وحتى السنوات الأولى من ثمانينيات القرن الماضي كان الإرهاب من عمل المجموعات اليسارية المتطرفة. نذكر منها على سبيل المثال منظمة الجيش الأحمر أو عصابة بآدر مينهوف Baader - Minhoff (على اسم زعيمها أندرياس بآدر) في ألمانيا، وحركة اكشن دايركت Action Direct في فرنسا، وخلايا Ceellues Communistes Combattantes في بلجيكا، وغيرها العديد من الحركات في اليونان واليابان. وفي إيطاليا أقدمت الألوية الحمراء على تنفيذ نحو ثمانية آلاف هجوم إرهابي خلال عقد من الزمان أدت إلى مقتل أكثر من ٥٠٠ شخص بما في ذلك اختطاف وقتل ألدو مورو Aldo Moro رئيس حزب المحافظين الإيطالي عام ١٩٧٨م . ولا تزال العديد من الحركات اليسارية موجودة حتى يومنا هذا. نذكر منها حركة الطريق الساطع Shining Path في بيرو، والقوات المسلحة الثورية في كولومبيا، وحركة ١٧ نوفمبر، والمقاومة الشعبية الثورية في اليونان، والخمير الحمر في كمبوديا، والحركات الماركسية واليسارية في تركيا، وغيرها.

ـ **إرهاب الفاشيين الجدد:** ويشبه من طرق عدة إرهاب التطرف اليساري، وقد كان نشطاً في إيطاليا في السبعينيات من القرن المنصرم، واستمر بالنشاط في أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة متمثلاً في المنظمات العنصرية مثل كو كلوكس كلان أو المجموعات المسلحة التي تضم متطرفين مثل تلك التي نفذت التفجير الذي حدث في مدينة أوكلاهوما في أبريل عام ١٩٩٥م الذي أدى إلى مقتل ١٦٦ شخصاً. كذلك مختلف حركات النازيين الجدد المعروفة بحليقي الرؤوس في بريطانيا وبولندا وإسرائيل. وفي إسرائيل نذكر أيضاً الحركات الفاشية الإرهابية مثل حركة كاهانا، وكاخ التي من أعضائها باروش جولدشتاين Baruch Goldstein الذي نفذ المذبحة الإرهابية في المسجد الأقصى عام ١٩٩٥م، وهناك مختلف مجموعات المستوطنين الإسرائيليين الذين يقومون بتنفيذ أعمال إرهابية ضد الفلسطينيين.

ـ **الإرهاب الديني أو الطائفي**: هو طاعون جميع الأديان.، فقد بدأت الحركة الصهيونية بأعمال إرهابية في فلسطين ضد السكان العرب الأصليين، وضد ممثلي الأمم المتحدة، وكذلك هجمات في دول عربية معينة في بعض الأحيان تستهدف معابد يهودية في هذه البلدان من أجل إرغام اليهود العرب على الرحيل والاستيطان في إسرائيل. وهناك أيضاً عدد من المنظمات اليهودية الإرهابية تعمل خارج إسرائيل منها رابطة الدفاع اليهودية في أمريكا

الشمالية وأوروبا ومنظمة بيتار Betar وغيرها، والمسيحية أيضاً بها مجموعات دينية متطرفة. ومن هذه المنظمات نذكر أمم أريان Aryan Nation المنظمة النشطة في أمريكا الشمالية والتي ارتبطت بالحركات المسلحة، وكذلك الحركة البروستانتية المتطرفة في أيرلندا الشمالية والمتطرفين الكاثوليك في البوسنة. وفي آسيا قامت العديد من الحركات الدينية والطائفية منها مجموعات السيخ مثل دال خالسا Dal Khalsa وتنظيم داشميش Dashmesh وحركة شيف سينا الهندوسية Hindu Shiv Sena في الهند. وفي اليابان فإن طائفة أيه يو إم شينري كيو AUM Shinri Kyo هي الأولى التي تستخدم غاز النيتروكسين neurotoxin في تنفيذ هجمات إرهابية في طوكيو عام ١٩٩٥م. هناك أيضاً عدد من الهجمات التي نفذّت في أنحاء العالم باسم الإسلام ومن أشهرها هجمات الحادي عشر من سبتمبر على نيويورك ووزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» في واشنطن.

ـ الانفصال العرقي: تشكل محاولات الانفصال لأسباب عرقية أحد العوامل المسببة للعديد من الأعمال الإرهابية، وبعض الأزمات من هذا النوع ظلت ملتهبة لسنين طويلة مثل تلك التي في أيرلندا الشمالية، ومشكلة الأكراد في تركيا والعراق وإيران، ومشكلة إقليم الباسك الأسباني (مع وجود إيتا ETA كمنظمة إرهابية) وما قام به الأرمينيون ضد الأتراك للانتقام من مذابح

عامي ١٩١٥ ـ ١٩١٦م. وهناك أيضاً نزاعات أخرى من هذا النوع تعدّ حديثة نسبياً مثل مشكلة اليوجورس Uygurs في إقليم شيان غرب الصين وتيمور وآشي في إندونيسيا ونمور التاميل في سيريلانكا والحرب العرقية في رواندا وبورندي وزائير. فالنزاعات الانفصالية التحررية التي تفضي إلى أعمال إرهابية ظهرت إلى الوجود أيضاً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. حيث إن هناك عدة دول يمزقها العنف السياسي الآن كانت من قبل جزءاً من الاتحاد السوفيتي أو ضمن الكتلة الشيوعية. ومن الأمثلة على ذلك العمليات الإرهابية بين الأرمنيين والآذريين والعصيان المسلح من قبل الأبخاز وسكان استونيا الجنوبية ضد جورجيا، والأزمات في منطقة القوقاز وخصوصاً التمرد في الشيشان الذي أدى إلى عمليات إرهابية في روسيا يقابلها عمليات القمع ضد المدنيين الشيشان. ونذكر هنا كذلك الصراع في يوغسلافيا السابقة ممثلة في الصرب ضد الكروات الذي أدى إلى إشعال فتيل العمليات الإرهابية من كلا الجانبين والحرب في البوسنة والهرسك وأخيراً الصراع في كوسوفو بصربيا.

ـ إرهاب المافيا: إن مجموعات المافيا ـ وخصوصاً تلك التي تعمل في تجارة المخدرات ـ لا تتردد في استخدام الإرهاب ضد الدول التي تحاربها بهدف وضع حد لنشاطها. وهذه المجموعات عادة ما تتعاون مع مجموعات أخرى تمارس الإرهاب السياسي أو

الأيديولوجي، علاوة على ذلك فإن العصابات المسلحة تتخفى في بعض الأحيان وراء المطالب السياسية.

ـ **إرهاب الدولة:** وهو إمـا أن يتمـثل في رعـاية العمليـات الإرهابيـة من قبل دول ضـد دول أخرى، كـما هو حـال الاتحاد السوفيتي السابق في تشجيعه مختلف الحركات في نضـالها ضد الدول الغربية، وكذلك الهجمات الإرهابية التي نظمتها إيران ضد فرنسا خلال الحرب العراقية الإيرانية. وأيضاً فـإن استخدام أي دولة للعنف بصورة مكثفة يمكن أن نطلق عليه إرهاب دولة.

وبناءعلى هذا فإن إرهاب الدولة يتخذ صوراً عدة:

ـ الإرهاب الذي تمارسه الدول ضد مواطنيها بهدف السيطرة من خلال المراقبة والتدخل لمنع الاجتماعات والتحكم في وسائل الإعلام والتعذيب والاعتقالات الجماعية، الاتهامات والإشاعات الباطلة والمحاكم الصورية والإعدامات. وكان إرهاب الدولة هذا من سمة الاتحاد السوفيتي تحت حكم ستالين وكذلك ألمانيا النازية والصين في عهد ماو والخمير الحمر في كمبوديا وكوريا الشمالية وإيران في عهد الخميني وأفغانستان تحت حكم طالبان.

ـ المناورات العسكرية والتحركات للحرب التي تقوم بها دولة ما في أرض دولة أخرى بهدف تهديد الاستقلال السياسي أو وحدة أراضي تلك الدولة.

ـ الهجوم من قبل القوات المسلحة لدولة ما على أهداف تعرض للخطورة المدنيين الذين يسكنون في دولة أخرى (مثل قصف إسرائيل لقطاع غزة أو قرى في لبنان وقصف الولايات المتحدة لمدن عراقية).

ـ تكوين ودعم قوات من المرتزقة المسلحين عن طريق دولة ما بغرض زعزعة سيادة دولة أخرى، أو القيام بمحاولات ومؤامرات اغتيال موجهة من دولة ما إلى مسؤولين في دولة أخرى أو حركات تحررية وطنية سواء أكانت هذه العمليات عن طريق هجمات عسكرية أو بوحدات القوات الخاصة أو أفراد الاستخبارات أو عملاء لهذه الجهات.

ـ حملات التعريض من قبل دولة ما سواء استهدفت زعزعة استقرار دولة أخرى أو حشد الدعم العام للتدخل الاقتصادي أو السياسي أو العسكري أو استخدام التخويف ضد دولة أخرى.

واليوم تقف الولايات المتحدة وإسرائيل كدولتين تستخدمان إرهاب الدولة بانتظام، فغزو جرينادا وبنما والعراق عن طريق الولايات المتحدة، والهجمات الإسرائيلية ضد السكان المدنيين في لبنان وفلسطين خير شاهد على ذلك. واحتلال الاتحاد السوفيتي لأفغانستان هو أيضاً شكل من أشكال إرهاب الدولة. العدوان واحتلال الدول يؤدي إلى تنظيم الحركات المسلحة. وإن المحتلين على مر التاريخ يصفون أفراد مجموعات المقاومة الوطنية بأنهم إرهابيون لتبرير القمع الذي يمارسونه. كما كان الألمان الذين

احتلوا فرنسا بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٤م يطلقون وصف إرهابيين على المقاومين الفرنسيين الذين التفوا حول تشارلز ديجول. والشيء نفسه فعله السوفييت عندما وصفوا الأفغان بأنهم عصابات إرهابية. واليوم فإن إسرائيل والولايات المتحدة تصف المقاومين اللبنانيين والفلسطينيين والعراقيين بأنهم إرهابيون. فالمقاومة كفاح مشروع ضد المحتل وعمل يعترف به القانون الدولي. وحقيقة القول فإن احتلال الدول هو الذي يمثل عملاً إرهابياً وليست المقاومة التي يقوم بها المواطنون للحصول على حريتهم بأية وسيلة متاحة لهم. وفي هذا الجانب فإن جميع المراقبين الموضوعيين يقرون بأن مجموعات المقاومة مثل حركة حماس الفلسطينية وحزب الله اللبناني لا علاقة لهما بالإرهاب الدولي.

ومن الجدير بالاهتمام أن مختلف أشكال الإرهاب أو ما يسمى بالإرهاب، غالباً ما تكون ذات مطالب تجمع بين الدينية أو العرقية أو الوطنية، وكل مطلب منها يعضد الآخر، وبالطريقة نفسها يمكن أن تتعاون المجموعات الإرهابية رغم أنها لا تسعى لتحقيق الأهداف السياسية ذاتها. وهذا ما يوصف بعولمة الإرهاب الذي أفرزه التطوير الذي حدث في قطاع الاتصالات، وعلى أية حال فإن الإرهاب ليس حكراً على أيديولوجية أو دين أو قضية، فالإرهاب ليس غاية وإنما وسيلة وسلاح وغالباً ما يقال عنه سلاح الرجل

الفقير أو سلاح الضعفاء. لكنه أيضاً يمكن أن يكون سلاح الجبناء، وبمعرفة حقيقة أن الإرهاب ليس أكثر من طريقة يستخدمها مختلف الأفراد لتحقيق أهداف مختلفة، فإنه من السخف محاولة جعل الإرهاب عدواً. فمصطلح «الإرهاب العالمي» لا يعني شيئاً دقيقاً. وعلى النقيض فإن الإرهاب يستخدم لغايات شتى عن طريق مجموعات مختلفة في جميع أنحاء العالم.

من ناحية ثانية، فإنه في الأعوام القليلة الماضية تبلورت ظاهرة الإرهاب ذات الصفات المتعددة في فكرة واحدة وهي «الإرهاب العالمي» ذلك الشر المطلق الذي لا يمت إلى الواقع بصلة. وإن استخدام مصطلح الإرهاب العالمي هذا أدى إلى تبسيط خطير لهذه الظاهرة، حيث إن الملاحظ هذه الأيام أن كثيراً من الناس يضعون الإرهاب مرادفاً للإسلام، وكثيرون أيضاً يتحدثون عن الإرهاب الإسلامي أو العنف الإسلامي ونحوهما، والحقيقة أن العمليات الإرهابية يقوم بها أعضاء شبكات من الصعوبة حصرهم، ولهم عملاء في مختلف أنحاء العالم استفادوا من سهولة التنقل التي توفرت لهم في عالم اليوم. هذا الأمر لا يسمح لنا بالتحدث عن مؤامرة دولية واسعة أو ما يسمى بالإرهاب العالمي. فهذا الإرهاب الذي تتبناه شبكات عالمية لا يختلف في حقيقته عن الإرهاب الدولي الذي حدث في حقبة التسعينيات من القرن المنصرم، والذي قامت به شبكات دولية من اليسار المتطرف. لكن ببساطة فإن العملية

الفوضوية لعولمة الاقتصاد هي التي جعلت هذا الشكل من الإرهاب أكثر سهولة اليوم.

وعلى مر العصور ظل هناك أناس يتلاعبون بالمعتقدات الدينية والأيديولوجية من أجل تحويلها إلى أدوات قتال، أدوات إرهاب وقتل، هذه الظاهرة معروفة جيداً وقد عشناها في ظل الماركسية التي أدى التلاعب بها إلى إنتاج نظام ستالين وموت الملايين، ونتيجة لهذا برزت مجموعات الماركسية ذات التوجه اليساري المتطرف التي أصبحت مجموعات إرهابية قتلت مئات الأبرياء، ومجموعات اليمين المتطرف المسيحية الإرهابية في الولايات المتحدة، أو مجموعات اليمين المتطرف البروتستانتية في أيرلندا الشمالية قد فعلت الشيء نفسه من غير أن يقول أحد من الناس إن البروتستانت هم في الأصل إرهابيون أكثر من المسيحيين الكاثوليك أو الأرثوذكس. إذن لماذا يلصق الإرهاب بالإسلام؟

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، اعتقدت القوة العظمى الوحيدة أن بإمكانها إدارة شؤون العالم بمفردها، فالقادة في واشنطون يتحدثون عن « النظام العالمي الجديد» الذي يموّه تحت وصف العولمة ويترجم إلى حلم الولايات المتحدة للهيمنة على العالم. وليس لأن العولمة قد أدت إلى تسريع التفاعل من خلال الاتصالات المتطورة وتبادل المعلومات، وهو ما يعني أن هذا العالم محكوم عليه أن يعيش تحت رحمة قوة وحيدة تبحث عن

مصالحها من خلال أي وسائل ممكنة. وقد استهدفت سياسة الهيمنة هذه، والتي تهدف بصفة خاصة إلى احتكار الثروات الطبيعية لبعض الدول وبخاصة نفط الدول العربية والإسلامية، وفي الوقت نفسه فإن اليمين المتطرف في إدارة الرئيس بوش قد قرر أن يجعل إسرائيل الحليف الاستراتيجي.. الأمر الذي نتج عنه إعطاء النظام الإسرائيلي مطلق الحرية لتنفيذ سياساته المتطرفة، ولقد عانى المسلمون مرارة قاسية، وهم يتعرضون للهجمات والتحقير وأرضهم محتلة. وقد استغلت هذا الوضع جماعات معينة لتشويه الإسلام، لكن أن تتحول هذه الظاهرة إلي تهديد إسلامي فهذا نوع من القفز على الحقيقة قد سارعت بعض الجهات إلى ترويجه لأسباب سياسية صرفة. ومن هنا ولدت أسطورة التهديد الإسلامي للغرب.

أسطورة التهديد الإسلامي:

ساهمت عدة أسباب في تعزيز أسطورة التهديد الإسلامي، أولها الجهل والافتقار إلى الفهم. ففكرة التهديد الإسلامي التي تلوّح بها عدة دوائر، ليست شيئاً جديداً، فقد أشار حسن البنا في الثلاثينيات من القرن الماضي إلى أن: «الغربيين مهتمون جداً بهذه الحركة الإسلامية الوليدة ويرون فيها تهديداً وشيكاً. وقد كان رد الفعل نوعاً من سلوك العداء والمواجهة، إذ يرون أنها نوع من

انتصـار التقـاليد القديمة القمعية، وتحالف الليبراليين ضـد العالم المتحضـر الجديد. وهذا وهم عميق وخطأ فادح، علاوة على أنه اعتقاد خاطئ لحقيقة جلية».

فالصحوة الإسـلامية سارت عكس معظم الافتراضـات التي وضعتها نظريات التطور والعلمانية والليبرالية الغربية، والتي من ضمنها أن الأخذ بأسباب التحديث يعني علمانية وتغريب المجتمع، ولأن المجتمعات الإسلامية رفضت محاولات التغريب هذه كحق مشـروع من أجل وضع النهج الخاص بأفرادها والحفاظ على قيمهم وخصوصيتهم، فقد انتهى البعض إلى القول أن الإسلام هو العدو القادر على فعل أي شيء وكل شيء. وقد رد البروفيسور الأمريكي جون اسبوسيتو[٦] John Esposito ـ المدير المؤسس لمركز جورج واشنطن للتفاهم الإسلامي المسيحي ـ على مزاعم المحافظين الجدد في أمريكا الذين يدّعون أن الإسلام نفسه وليس الإسلام المتطرف هو الإرهابي وأنه بطبيعته لا يتوافق مع القيم التي يسميها بعض الغربيين «غربية» و«عالمية».

وفي الحقيقة هناك دوائر معينة اختارت عن قصد أن تجعل من الإسلام العدو الجديد. هذه مؤامرة لتبرير سياسة الهيمنة والتدخل في العالم. فالإدارة الأمريكية التي تريد احتلال مناطق إنتاج النفط في العالم، قد عزلت روسيا وبطأت من وتيرة التنمية في الصين وأثرت على الاقتصاديات الأوروبية المنافسة، ولديها كل

المصلحة في الحط من قدر الإسلام وجعله العدو العالمي لكي تغزو الدول الإسـلاميـة، فدوائر المحافظين الجدد تريد أن تجعل من الإسلام تهديداً حتى تبرر تحالف الولايات المتحدة مع إسرائيل. ومن جانبه فإن اللوبي الصهيوني يشجّع الحملات الدعائية ضد العرب والمسلمين وبصورة رئيسة الحملات المغرضة ضد المملكة العربية السعودية، وهذا اللوبي يضع نفسه تحت خدمة مؤلفين وباحثين ينشرون أعمالاً تهدف إلى الإساءة للإسلام والدول الإسلامية.

وحقيقة القول أن الولايات المتحدة استخدمت عولمةتبادل الاقتصاد والمعلومات لعولمة أيديولوجيتها التي ليست إلا نوعاً من إخفاء رغبتها في الهيمنة على العالم. وقد ذهب العالم الفرنسي فرانسوا بيرنارد هيوغ إلى القول أنه بناء على أيديولوجية إدارة بوش فإن: «العدو واحد وعالمي. ولذا فمن المهم شن حرب شاملة ضد هذا الشر الذي يهدد أمريكا وبقية ما يسمى بالعالم الحر. ومن منطلق الحرب العالمية على الإرهاب، فإن الولايات المتحدة ترى أنه يجب عليها أن تقود الحرب في أي مكان ترى أنه يمثل تهديداً لمصالحها. هذا المبدأ قد أدى إلى بروز مفهوم حق التدخل ضد أي خطر ممكن وشن هجوم على الأرض التي يأتي منها هذا الخطر، أي العالم العربي والإسلامي، وذلك بهدف زعزعة الأنظمة السيئة... إلخ»[٧].

هذا نوع من الهيمنة العالمية، أو الإمبريالية (الأمريكية)، بواسطة الولايات المتحدة بالتحالف مع الصهيونية المتطرفة. ولإخفاء ذلك فقد ابتدعت الولايات المتحدة مصطلح الإرهاب العالمي ولكي تمنحه شكلاً استغلت الجريمة التي قام بها حفنة من السذج من أمثال أسامة بن لادن، لكي تخلق لها عدواً هو: إرهاب الإسلام العالمي. لكن من الخطأ افتراض أن الإسلام عدائي، أو أن فهمه من قبل المسلمين بمستوى واحد. فهناك تنوع حتى في العالم الإسلامي وتنوع في الآراء بخصوص التجديد الإسلامي.

وقد أثبت التاريخ أن الإرهاب له عدة أشكال وكلها تمس الأديان والأنظمة والأيديولوجيات. فالسعودية التي تحارب الإرهاب بشدة تنتقد جعل الإرهاب ظاهرة إسلامية محضة [٨]. ومن الواضح أن جريمة قامت بها حفنة من الفئة الضالة لا تبرر اتهام كل المجتمع أو الثقافة، فتحكيم العقل ينبغي أن يدلنا على تجنب تجريم العالم الإسلامي بجرم ارتكبه حفنة من المتشددين الذين سطوا على الإسلام، وباسمه نفذوا جرائمهم. وعلينا أيضاً أن نفرق بين الإرهاب والإسلام الأصولي الذي له شرعيته السياسية مثله مثل بقية المفاهيم. فالإسلام لم يلجأ لاستخدام السلاح قبل أن يهاجم ويهدد. لذا فينبغي فهم أسباب الإرهاب إذا ما أردنا اجتثاث هذه الحلقة المفرغة والمفزعة من حروب لا نهاية لها بين البشر.

محاربة أسباب الإرهاب:

إن الحرب على الإرهاب لا يمكن أن تُحصر في الحروب التي تشن لتحقيق أهداف خفية. كيف يمكن أن نفهم غزو العراق ـ وهو ليس بلداً إرهابياً ـ في إطار الحرب ضد الإرهاب؟ لقد ثبت أن احتلال العراق أدى إلى نمو إرهاب لم يكن موجوداً من قبل، وأشعل الغضب في العالم العربي والإسلامي. وكيف لنا أن نتجاهل الغضب الشديد الذي يشعر به أي عربي أو مسلم وهو يسمع ويرى كل يوم عشرات المدنيين من الرجال والنساء والأطفال يقتلون جرّاء القصف الإسرائيلي في فلسطين أو عن طريق القوات الأمريكية في العراق؟ ومع هذا فإن المجتمع الدولي لا يحرك ساكناً. كيف لنا أيضاً أن نقلل من شأن الكراهية التي يمكن أن تهيمن على مشاعر الناس وهم يرون القانون الدولي يداس تحت الأقدام منذ عقود من الزمن؟ كيف يمكننا أن نصدق أن هذا هو السبيل للحد من العوامل التي تؤدي إلى التطرف في العالم العربي والإسلامي، إذا لم يجد هذا العالم الحق في العدل والاحترام؟ إن سياسة النفاق والكيل بمكيالين من جانب بعض الحكومات الغربية هي المسؤولة عن المزيد من الكراهية والغضب والإحباط وعدم الاستقرار، والمسؤولة أيضاً عن الحرب في الشرق الأوسط وتصعيد وتيرة العنف والإرهاب في العالم.

وأخشى من الرؤية القاصرة التي توجه ما يسمى بالحرب على الإرهاب، وهي رؤية يبدو أنها تعتمد على الخيارات العسكرية أكثر من التغيير الدبلوماسي والاجتماعي، وأن تؤدي إلى عكس ما يراد منها. فبدلاً من القضاء على الإرهاب يمكن أن تغذي بصورة أكثر الشعور المعادي لأمريكا والغرب، وأن تؤدي كذلك إلى المزيد من إراقة الدماء وعدم الاستقرار في العالم. إننا بحاجة لفهم العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية التي أدّت إلى هذه الأنواع من الحركات التي نسميها إرهاباً. وعلينا قبل ذلك كله أن نركز على الأسباب الفعلية للإرهاب والعنف. كما يجب علينا التغلب على ما يسببه لنا التسرع للبحث عن حلول للمشكلات المزمنة من تبني نوع ما من سباق التسلح الذي يؤدي إلى المواجهة العالمية مع العالم الإسلامي دون أن نحل أياً من المشكلات. وعلى عكس ذلك فمن أجل القضاء على العوامل التي أدت إلى إشعال الكراهية على الغرب وعلى وجه الخصوص الولايات المتحدة، علينا حل المشاكل التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي. إن من الضروري حل جميع النزاعات الدولية القائمة، ويشمل ذلك القضية الفلسطينية والعراق، وذلك في إطار الجهود الحالية للقضاء على الإرهاب. ذلك لأن مثل هذه المشكلات تعمل على تغذية الإرهابيين. وهذا يعني إيجاد حل

دائم وشامل في فلسطين وإقامة دولة فلسطينية مستقلة، ووقف التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية والإسلامية، واحترام استقلال وحقوق هذه الدول ووقف نهب ثرواتها، والنظر ليس فقط لمصلحة المواطنين وإنما لكرامتهم وهويتهم. فليس الإسلام هو الذي يؤدي إلى الإرهاب لكنها السياسات المجحفة والسيئة التي كان المسلمون ضحاياها.

وعلى النقيض من نظرة المواجهة والإمبريالية التي تنتهجها الولايات المتحدة تجاه العالم، فإن فرنسا ـ على سبيل المثال ـ منذ عهد الجنرال تشارلز ديجول ترى أنه من خلال حل المشكلات الرئيسة يمكن تجنب الحروب والعنف أياً كان نوعه، بما في ذلك الإرهاب، وبهذا فقط سوف يجد أولئك الذين يلجؤون للعنف أنهم دون مبرر لذلك، وهذا هو الثمن الذي ينبغي أن يدفع لإشاعة جو من الثقة بين الشعوب والترويج للحوار بين الحضارات وهو أمر نحن في حاجة ماسة إليه [٩].

وبالطبع فإن فرنسا لم تقل إن الالتزام بميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي واحترام حقوق الإنسان سوف يقضي نهائياً على الأسباب الرئيسة التي تؤدي إلى العمليات الإرهابية، ولن يختفي المتطرفون من على وجه الأرض، لكن: «الكثير من

النزاعات التي تغذي الإرهاب اليومي والكثير من المواقف التي تخلق توترات غير محتملة على المدى البعيد، لن تولد أفعال قتل بالفظاعة التي نشاهدها» [١٠].

وختام القول: يجب أن نتذكر أن الإرهاب ليس بكل بساطة ظاهرة الزمن المعاصر، لكنها ظاهرة موغلة لها جذورها التاريخية. ففي الغرب هناك مجموعات ومنظمات إرهابية قامت بعمليات عنف قبل الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م وليس من الأمانة محاولة إلصاق الإرهاب بالإسلام، فهذا نوع من الخطأ لأنه يعني إنكار الأسباب الحقيقية للمشكلة ومن ثم استمرار دوافع الإرهابيين، وعليه يبقى هناك الكثير الذي يجب القيام به على المستوى الدولي من دراسة الأسباب ذات العلاقة بجميع أشكال الإرهاب والعنف والقضاء عليها. وهذه الأسباب، والتي يمكن أن تتمثّل في الفقر والإحباط والظلم واليأس، تؤدي ببعض الناس إلى التضحية حتى بحياتهم من أجل إحداث تغيير جذري.

الهوامش:

1-"Aworld ensnared by a word" Par John V.Whitbeck, International Herald Tribune, 18fe'évrier 2004.
2-Noam Chomsky, Hegemony or Survival, Metropolitan Books, 2003
3-The Age of Terrorism, Boston, Little Brown and Company, 1987
4- De la Guerre, 1816-1818
5- cf Interview of the French anti-terrorist judge Jean-Louis Bruguiere, in Politique Internationale, été 2004.
6- The Islamic Threat: Myth or Reality?, Oxford University Press, 1995
What Everyone Needs to Know about Islam,2002.
7- La quatrième guerre mondiale, Paris, ed. Le Rocher, 2004
8- cf. L'Arabie saoudite à l'épreuve des temps modernes,
"Etudes géopolitiques 3" Paris, Etudes Géopolitiques-Idlivre, 2004
9- Cf. Charles Saint-Prot, French Policy toward the Arab World
ECSSR, Abu Dhabi, 2003, in English or in Arabic (books@ecssr.ac.ae or www.etudes-geopolitiques.com).See also: Zeina el Tibi, la Francophonie et le dialogue des civilisations, Paris, L'Age d'homme, 2001 (translated in arabic : Dar al Moualef, Beyrouth, www.daralmoualef.com)
10- Ambassadeur André R. Lewin, Président de l'Association française pour les Nations unies, Le Monde, 25 septembre 2004.

الغرب والإرهاب:
سرد موجز واتجاهات راهنة

جانجير أراسلي *

للعنف حضور على امتداد تاريخ البشرية فهو ملازم لكل مراحل التطور البيولوجي و الاجتماعي للجنس البشري. إذ تشير الأحداث التاريخية أنه طيلة الـ ٣٥٠٠ سنة الماضية لم تنعم البشرية إلا بـ ٢٧٠ سنة فقط من الهدوء والسلام. أما السنوات الباقية فقد عاشها الإنسان في حروب ونزاعات مسلحة. ومن بين أقصى أشكال العنف تبرز ظاهرة أسوأ شؤماً على الإطلاق هي ظاهرة الإرهاب -Terror ism. وكلمة "إرهاب" التي شاع استخدامها من قبل أرسطو ويعود منشؤها إلى كلمة Terror الإغريقية القديمة، والتي هي في الأصل تعني الإثارةالسلبية لجمهور المسرح، انتقلت عبر عصور التاريخ الإنساني إلى أن تحولت أخيراً في الوقت المعاصر لتحمل معنى التهديد الأكثر شمولية ورعباً.

* رئيس مركز دراسات الإرهاب في أذربيجان ـ أذربيجان.

إذاً، فالإرهاب ليس ظاهرة جديدة، ودون أدنى شك إنه لم يبدأ بتاريخ ١١ سبتمبر، ٢٠٠١ لكن، يجب الإقرار بأن إعادة تشكيل النظام الدولي قد بدأت بالتطورات التي أعقبت١١ سبتمبر. إن تأثيرات ما بعد الصدمة التي أعقبت الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن تردد صداها على مختلف الأصعدة. وعلى وجه الخصوص، شمل ذلك مناقشات متواصلة من قبل رجالات الدولة، السياسيين، العلماء، المفكرين ووسائل الإعلام حول الموضوع الرئيسي وهو: هل إرهاب اليوم ظاهرة مرتبطة بمناطق جيو–سياسية معينة على نطاق العالم، ناشئة عن طبيعة سالبة لدين معين على حدة؟ هل إرهاب اليوم عامل من عوامل الفوارق الجيو–ثقافية التي تولّد وتعجّل بالإرهاب؟ هل الإرهاب استجابة رفض أساسي من قبل المجتمعات التقليدية للعولمة، السمة والثقافة الغربية والتوحد الثقافي؟ هل ما ذهب اليه صمويل هنتينجتون من حتمية المواجهة بين الحضارة والدين أصبح حقيقية؟

إنني لا أقدّم رداً مستفيضاً على هذه القضايا الواسعة ، لكنني أحاول بإيجاز ودون انحياز تتبع التاريخ السابق، الاتجاهات الراهنة، التوجهات والتوقعات المتعلقة بظاهرة الإرهاب حسبما هي مطبقة في منطقة الحضارة الغربية، وبالتالي التعرف على الصفات والخصائص المميزة لهذه الظاهرة بمعناها الواسع.

خلفية تاريخية:

إن منابع الإرهاب المعاصر في الغرب يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عند ظهور مجموعة من الدول التي شكلت المركز الوظيفي العملي للنظام العالمي وقتها. وكانت تلك هي الفترة في تاريخ الإمبراطوريات الأوروبية ودول أمريكا الشمالية التي ساهمت في تشكيل وتكوين المجموعات الأولى التي رأت في الإرهاب أداة لحل المشاكل والاحتكاكات السياسية، الاجتماعية، العرقية وتلك المتعلقة بالاعتراف؟

هذه الظاهرة التي تترجم حالياً بكلمة إرهاب أثارها سببان بالتحديد: الأول يأتي من ديناميكية الثورة الصناعية، أي الزخم الدافع بقوة لتلك الدول تجاه التصنيع. فقد كان التقسيم الطبقي الاجتماعي والصراعات وتحول الأنماط الاجتماعية التقليدية هو الإطار التبريري الأيديولوجي الدافع من وقت لآخر لممارسة الإرهاب كوسيلة متطرفة لحل المشاكل، متمثلة في شكل أفراد أو مؤسسات. وتجدر الإشارة إلى أن أجندة الاحتجاجات الاجتماعية تنطبق على كافة المنظمات والجماعات الإرهابية الهامة خلال الفترة التي تشملها هذه الدراسة. أما السبب الثاني لتعزيز عامل الإرهاب في النظام الوظيفي للسياسة العالمية فناتج عن نمو الوعي الذاتي الوطني متخذاً القومية الراديكالية منشأً ومصدراً له. أوروبا والمناطق المجاورة لها المتحدة وقتها والخاضعة لسيطرة روما،

وفيما بعد لسيطرة الإمبراطوريات المتلاحقة، كانت في القرن التاسع عشر مكتظة بحوالي ٥٠٠ من الجماعات العرقية الرئيسية والفرعية والتي حتمياً كانت تثير تناقضات، خاصة ضد خلفية توحيد تلك الدول الوطنية.

نتيجة لذلك، فقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بدايات أعمال الإرهاب الموجهة ضد مراتب السلطة العليا. وعقب أعمال الإرهاب السياسية، كانت هناك الاغتيالات للرئيسين الأمريكيين أبراهام لينكولن ووليام مكينلي، الرئيس الفرنسي سادي كارنوت، ملك إيطاليا يومبرتو الأول، ملكة النمسا–المجر اليزابيث، وعشرات من الممثلين الآخرين لمؤسسات الدول. أما الأسوأ من ذلك، فهو العمل الإرهابي الذي أدى إلى موت الأرشيدوق فرديناند ولي عهد النمسا–المجر، ليطلق شرارة الحرب العالمية الأولى.

إن الحاجة إلى حلٍّ لقضية الإرهاب في النصف الأول من القرن العشرين لم تتوصل إلى أي نتيجة، فنشبت اثنتان من الحروب العالمية (الأولى والثانية) ساهمتا في الواقع القائل أن الدولة هي المصدر الأساسي للعنف والذي تمثل في الإرهاب البلشفي في روسيا والإرهاب النازي في ألمانيا. بيد أنه نتيجة لذلك، تغير الوضع جذرياً، فحالة الجمود في المواجهة بين القوتين العظميين والأنظمة التابعة لكل منهما والتي عُرفت في التاريخ بالحرب

البـاردة، إلى جـانب نضـال المسـتـعـمـرات من أجل التـحـرّر الوطني وظهور دول جـديدة، وحالة الفـوضـى التالية للـحرب والوعود غـير المستوفاة القابلة للانفـجار الشديد والآمـال غير المـحققة، جـمـيعـهـا أثبـتت أنهـا مـادة مـغذية جـيـدة لأعلى مـسـتـويات ظاهرة الإرهاب. ويمكن تسـمـيـة الفتـرة من ١٩٤٥ إلى ١٩٩٠م بفتـرة "الحضـانة" للإرهاب ومفـهومه وانـتشاره الطائش في أشكاله المتعددة الحـالية وأسلوبه المحـفـوف بالمخاطر. هناك فـئـات منعزلة من هذه الظاهرة نشـأت وأصـبـحت تتشكل وتأخـذ طابعـهـا خـلال هذه الفـتـرة مـثل الإرهاب المدفـوع سـيـاسـيـاً (الجناح اليـسـاري والجناح اليـمـيني)، الإرهاب المدفـوع عـرقـيـاً (على خلـفـيـة حـركـات التـحـرر الوطنيـة) والإرهاب المدفوع دينياً.

الإرهاب المدفـوع سـيـاسـيـاً (التـقـليـدي) المسـتـخـدم كـأداة لدى الضـعـفاء والمعارضـين شكّل أساس الظاهرة الـتي تنطبق على العالم الغربي أثناء الحـرب الباردة، وهذا ينطبق تمامـاً على إرهاب الجناح اليساري. فالأزمة الأيديولوجية التي عايشتها أجيال ما بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، وإحباط وخيبة أمل رجال الصفوة الثقافية بالدول الصناعـيـة مع قـيم أنماط مـجـتـمـعـات اسـتـهـلاكـيـة نامـيـة، جميعـها أفضت إلى التحول إلى عدم الرضـا، أولاً في شكل كراهية، ومن ثم إلـى انتـقـام من خـلال العنف. حـادثـة مـايو ١٩٦٨م في باريس جاءت كحد في التسلسل التاريخي للإرهاب، فاندلاع أعمال

الطلاب التي هزت المدن الأوروبيـة، والدمـاء والجثث في الشـوارع، دخـان المتاجـر المحتـرقـة والسـيـارات المقلوبة جـمـيـعـهـا، التي كـانت مـقـبـولة من الناحـيـة النفسـيـة في التـقـارير الصـادرة من الشـرق الأوسط أو الكونغـو وليس في "أوروبا المتـحـضـرة"، قـد أحـدثت هزة نفسـيـة على مـسـتـوى الجيل بـأكمله. وفـيـمـا يـتـعلق بالولايات المتحدة فإن انقسام المجتمع تمثل في الحرب في فيتنام عندما كانت تحـدث في صـيـف عـام ١٩٧٠م هجـمـات بمتـوسط ٢٠ هجـومـاً إرهابيـاً في كل أسـبـوع في ولاية كـاليـفـورنيـا وحـدهـا. بعض المعـاصرين لـهذه التطورات توصلوا إلى نتـيجـة بسيطة وأسـاسـيـة هي: كـان العنف، الإرهاب، التـخريب، حـرب العـصابات المدنيـة هـي الوسـائل الممكنة وحـدها للنضـال الفـعـال ضـد المجـتـمع المهـيـمن. وكـانت هـذه المتطلبـات الممـزوجـة بالإطار العـالمي للمواجـهـة بين الشـرق والغـرب هـي المسـؤولـة عن تشكيل عـدد مـن المنظمـات والجمـاعات اليسارية مـثل الألوية الحمراء (إيطاليا)، حـزب الجيش الأحمر (ألمـانيا الغربية)، العمل المباشر (فرنسـا)، خلايا الشيوعية القـتاليـة (بلجيكا)، مـجمـوعة الأول مـن أكتوبر المناهضـة للفـاشيـة (إسـبـانيا)، تـنظيم ١٧ نوفـمبـر الثـوري (اليـونان)، الإرصـاديون، حـركـة الـشـبـاب الـثـوري (الولايات المتـحـدة) وبعض الوحـدات التنظيمية الأخرى.

خـلال فـترة الحـرب البـاردة انـتـشـر الإرهاب السـيـاسـي للطيف

اليميني تحت تأثير مباشر من المفهوم الجماعي القائل " التهديد من الشرق " والقتال ضد الشيوعية. كان الغرب سريعاً في فهمه لدروس الحرب العالمية الثانية، أي الكفاح المشترك ضد ألمانيا النازية حتى إلى مستوى نسيانها. ظهر عدو جديد تمثل في جمهوريات روسيا الاتحادية والدول الاشتراكية، وتم فهم هذا العدو على أنه الشر المطلق والتهديد الشامل من الدرجة الأولى، بينما اعتبرت التنظيمات السياسية اليسارية بالدول الغربية كطابور خامس لذلك العدو. وكان الهوس المشرب بروح الحرب، التوقع الدائم للحرب، التطلع إلى مقاومة "الحُمر" في نهاية الخمسينات، هو الذي ساهم مساهمة مباشرة في إعادة إحياء الخلايا الفاشية الجديدة الوطنية وما يتعلق بها من تشكّل وتكوّن جماعات أقصى اليمين والجماعات المتطرفة مثل المنظمة المسلحة السرية، تحالف العمل القومي والأوروبي (فرنسا)، التحالف الرسولي المناهض للشيوعية (إسبانيا)، النظام الجديد (إيطاليا)، جيش تحرير البرتغال وخلافها.

أثبت الغرب أيضاً أنه كان غير محمي من الإرهاب المدفوع عرقياً حيث يلاحظ أن تنامي الهويات الوطنية الذي كان أحياناً يأخذ طابع العنف المتطرف لم يؤثر فقط على العالم الثالث، بل أيضاً على الدول المتقدمة. فأيرلندا الشمالية أصبحت نموذجاً فريداً لحركة تمرد وإرهاب دام ثمانية قرون كان دافعه التطلعات والطموحات الوطنية غير المحققة، والتي أدت

في نهاية المطاف إلى نشوء حركة الجيش الجمهوري الأيرلندي. وظهر أيضاً عدد من الجماعات الأخرى في النصف الثاني من القرن العشرين لتعمل على توحيد الأجندة العرقية–السياسية والتكتيكات الإرهابية، وشملت تلك الجماعات منظمة الباسك/إيتا (إسبانيا)، الجبهة القومية لتحرير كورسيكا (فرنسا)، جبهة تحرير كويبك (كندا) والنمر الأسود (الولايات المتحدة) وخلافها.

وبشكل عام فإنه مع نهاية تاريخ الحرب الباردة كان الإرهاب قد وطّد نفسه كفئة أيدلوجية–سياسية مستقلة وممارسة عملية دولية لديها أشكال متعددة من المظاهر، وتحوّل من باعث أحادى الارتكاز إلى شامل المرتكزات. بناءً على ذلك، اتخذ الإرهاب موقعاً مركزياً في بؤرة الدولة وفي الرأي العام الغربي كفئة تهديد مستقلة تتمتع بالأولوية تتطلب جهوداً جبارة وموارد هائلة من أجل مواجهتها والتصدي لها.

تحوّل المعايير:

إن تفكك الاتحاد السوفيتي والنظام الاشتراكي عام ١٩٨٩–١٩٩٠م يبدو وكأنه لم يكن حدثاً بالغ الخطورة في القرن العشرين فحسب، بل وشكل أيضاً نقطة بداية لقوى دافعة عالمية لم تكن منظورة. فنظام القطبين في النظام العالمي تلاشى عن الوجود عقب هزيمة أحد الطرفين في الحرب الباردة (يشار إليها أحياناً بالحرب العالمية الثالثة)، لكن ما لم يتحقق سلماً و كان يُنادى به أو

كان منتظراً منذ أمد طويل. ولم يعمّر طويلاً وهو وهْم "نهاية التاريخ" الذي كان يصرّ عليه بتفاؤل فرانسيس فوكوياما أحد دعاة المستقبل الأمريكيين. وحل محل هذا الوهم إدراك حقيقة أن البشرية قد أصبحت وجهاً لوجه أمام تهديدات وتحديات جديدة وطويلة الأمد وبالغة الخطورة انفجرت من "علبة باندورا" (أي مكمن كل الشرور).

ويجدر بنا ملاحظة أن معايير الحركات الحالية متعددة بطبيعتها التكوينية. وفيما يلي بعض من تلك المعايير الجديرة بالملاحظة: توسع ثورة المعلومات، استمرار الثورة العلمية والتقنية، توسع عملية العولمة، الانهيار المتزايد للسيادة الوطنية وإضعاف الدور التقليدي للدول، تطوير عجلة الإسراع في الهويات العرقية والدينية، تفاقم التصادم في نقاط تواصل البرامج الحضارية والمنافسة بين مختلف أنماط الحضارات، استمرارية الثورة في العلوم العسكرية، تضييق إمكانيات الموارد الأرضية، تكثيف الانحطاط البيئي. وكافة هذه العوامل تؤثر بصفة مباشرة أو غير مباشرة على تشكيل إطار جديد للتهديدات في القرن الحادي والعشرين، بما في ذلك الإرهاب.

عندما تكيّف الإرهاب الحديث على ظروف الوقت الراهن، أصبح يخضع الآن إلى تعديلات ذاتية وتغيّرات على نطاق واسع، وبالتالي يجب الإقرار بأن الإرهاب التقليدي (الكلاسيكي) في الماضي القريب

يتعرض الآن إلى عزل من قبل "إرهاب الموجة الجديدة"، أو "إرهاب الجيل الجديد"، وسمات هذا الإرهاب هي كما يلي:

- تعديلاتٌ نوعيةٌ في المضامين والمحتويات (استراتيجية ونوعية للحرب).
- اتجاه متغاير نحو زيادة الناتج والتقوية والتعزيز.
- قوى دافعة (ديناميكيات) جديدة (الطبيعة المرنة والمتحولة، نقطة الالتقاء).
- عامل الممثلين غير ممثلي الدولة.
- تطور المهنية.
- تصاعد العامل التقني (أسلحة التدمير الشامل، الإرهاب التقني).
- تصاعد عامل المعلومات (إرهاب الإنترنت، الإرهاب النفسي).

من الصعوبة بمكان تحديد هيكل دقيق وشامل للإرهاب مع تفاوت نطاق هذه الظاهرة في الوقت الراهن. لكن هناك أربعة عناصر رئيسية ملازمة في أي وحدة تنظيمية لفئة إرهابية سواءً أكانت مجموعة، جماعة، تنظيماً أم حركة، وهي:

- الأفكار.
- القادة.
- التمويل.
- التنفيذيون، أو الجنود المشاة.

وبصرف النظر عن التركيبة الكلية السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، النفسية، الأيديولوجية، الدينية وخلاف ذلك، فإن هناك ميزتان تتّسمان بعلامات متكاملة أساسية تظل منطبقة على الإرهاب كظاهرة اجتماعية وسياسية: وهاتان الميزتان هما: العنف على التنظيمات غير الحكومية، والدافع القابل لتبرير العنف كوسيلة لتحقيق الأهداف النهائية. يلاحظ أن تكرار العنف في شكل إرهاب يتم ضمن إطار دائرة حلزونية محفوظة وتكون صيغته المبسطة كالتالي:

عنف ⟵ ضحايا ⟵ منتقمون ⟵ عنف

الديناميكيات الراهنة:

هناك قطاع من إرهاب اليوم ناشئ مباشرة في خطوط العالم الغربي، يتميز ببعض الخصائص المعينة و يختلف عن المناطق الجيو-سياسية ومناطق الحضارة الأخرى. لا توجد اليوم حركات إرهابية شاملة أو حتى تنظيمات أو مجموعات كبيرة في الغرب، وبدلاً من ذلك فإن الإرهاب عبارة عن جماعات محدودة وأفراد منفصلين. ورغم أن الإرهاب "الغربي" لا ينسجم مع الإرهاب الواسع النطاق من حيث معاييره، إلا أنه يظل هاماً وخطيراً رغم مظهره الخافت، بل إن أكثر ما يلفت الانتباه هو لا مركزيته وانتشاره الواضح، حيث يتمتع بطبيعة مرنة، متقلبة وكامنة. لا

يوجد اختلاف بين الإرهاب والتطرف السياسي حيث يلتقيان في الجريمة المنظمة وفي تشكل الفئات الوظائفية المستقلة مثل إرهاب الإنترنت. و لأننا لانستطيع هنا الإحاطة بكافة جوانب الموضوع، إلا أن المحاولة أدناه تأخذ في الاعتبار الاتجاهات الرئيسية.

الإرهاب اليساري: من خلال الحدس يمكن اليوم استقراء أن الطيف اليساري للحركة السياسية لم ينجح في النجاة من انهيار الاتحاد السوفيتي والنظام الاشتراكي فحسب، بل نجح أيضاً في الدخول في نشاط متصاعد جديد. يلاحظ أن أزمة الفكر الشيوعي والتخلص من مصادر الدعم الخارجية في أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات لم تؤد إلى اختفاء المنظمات السياسية في الغرب، ولا إلى تدني المساواة الاجتماعية ومفاهيم العدل بين جزء كبير من الناس. وبناءً على مجريات الأحداث، يبقى القليل فقط من مشكلة الإرهاب اليساري والجماعات الإرهابية اليسارية المتجددة ذات الاتجاهات الأيديولوجية المختلفة (الماركسية-اللينينية، الماوية، التروتسكيمية، الجيفارية وخلافها) ككيانات هامشية في العملية السياسية. المشاكل المحلية (مثل السياسية الاجتماعية- الاقتصادية للحكومة) ذات العوامل الخارجية المزعجة (مثل الوجود العسكري الأمريكي وخلافه) الذي يكون ذريعة احتجاج يؤدي إلى ارتكاب أعمال الإرهاب. المثال الواضح على ذلك يتمثل في مجموعة الألوية الحمراء الإرهابية الإيطالية-الحزب الشيوعي

المقاتل التي يلجأ أعضاؤها إلى القيام بأعمال إرهاب (مندفعة) دورية موجهة ضد المسؤولين الحكوميين ومؤسسات الدولة. هناك فئة أخرى لها دافعها تتمثل في مجموعة يابانية هي طائفة ميديل كور Middle Core التي تقوم خلال فترات دورية بشن هجمات على الأهداف العسكرية الأمريكية في اليابان.

الفوضوية :Anarchism التي يعود تاريخها إلى مائة وخمسين عاماً خضعت أيضاً لتغييرات كاتجاه سياسي يساري واتخذت مرة أخرى صفة عنيفة متزايدة مع التركيز تحديداً على مواكبة العصر الحديث، حيث يكفي ذكر أعمال الإرهاب خلال شهر ديسمبر ٢٠٠٣–يناير ٢٠٠٤ التي من خلالها تم إرسال قنابل مفخخة إلى مفوض الاتحاد الأوروبي رومانو برودي والمسؤولين الأوروبيين الآخرين. يلاحظ أن أعمال الإرهاب كانت ينظمها الاتحاد الفوضوي الرسمي المكون من مجموعة مختلطة قليلة العدد تتمتع بحرية نسبية ضمن مجموعات إيطالية، إسبانية، فرنسية، ألمانية، هولندية وبلجيكية وهي تحتج على توسع التكامل الأوروبي.

هناك حركة متمردة ذات أصل اجتماعي عرقي تسمى جبهة زابا–تيستا Zapa-tista للتحرير الوطني، والتي نشأت في مطلع التسعينيات من تسعمائة وألف خارج العالم الغربي–المكسيك، وهي حركة ذات اتجاه خاص من الطيف السياسي

اليساري. عبارة "زاباتيزمو Zapatizmo" الشهيرة والأيديولوجية المرتبطة بها شكلت أساس الظاهرة الجديدة النوعية–أي الحركة المناهضة للعولمة Anti-globalist Movement. هذه الحركة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بـ"اليساريين الجدد" وهي أحدث ظاهرة جاءت كقوة مقابلة للعولمة. إن الحركة المناهضة للعولمة هي حركة اجتماعية–سياسية انتقالية لها منظّروها الأيديولوجيون الرسميون مثل خوزيه بوفتJoze Bouvet و"قائدها المساعد–كارلوس". وهكذا، فإن الحركة تشترك في نطاق واسع من النشاط الاحتجاجي: ضد المؤسسات الدولية المالية (منظمة التجارة الدولية، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي) والسياسية (الأمم المتحدة)، الخط السياسي للدول الكبرى (مجموعة–٧/٨)، إنهاء التدهور البيئي، حماية حقوق الأقليات الإثنية، شطب ديون دول العالم الثالث، إيقاف السياسة الأمريكية الدفاعية ضد الصواريخ وخلافه. الشكل التنظيمي للحركة يشمل النقابات والمؤسسات الطلابية، تنظيمات حماية حقوق الإنسان، المؤسسات المناهضة للحكومات والمنظمات الدينية والعلمانية، علاوة على المجتمعات العرقية لمواطني العالم الثالث. ويلاحظ في اللامركزية انعدام نظام التوجيه الواحد، استخدام مخطط أفقي للإدارة، نظام تخطيط صارم، تنسيق وتبادل معلومات على المستوى القارّي (عبر الإنترنت). تقوم الحركة المناهضة للعولمة

بتنظيم نشاطات خلال أوقات الاحتجاجات، وتحدد مكان وتاريخ منابر المؤسسات الدولية السياسية والمالية. ويلاحظ أن هذه النشاطات تكون كنظام مصحوبة باضطرابات جماهيرية ومشاجرات بين الشرطة والمحتجين وتدمير الممتلكات الخاصة وخلاف ذلك.

إن إعداد وإجراء هذه النشاطات ينص على التحرك المنظم للناس المشاركين من مسافات بعيدة (يشمل ذلك المشاركين عبر القارات)، تجمع المشاركين في وقت محدد بدقة (على نفقة التنظيمات المحلية)، الاستطلاع والاستكشاف الفوري، توزيع أدوات الحماية والهجوم (الخوذات، الدروع، الثياب الواقية من الرصاص، أجهزة التنفس، العصي، الهراوات)، السلوك العدواني في أماكن تجمع الجماهير، والدعم المعلوماتي–الدعوي المكثف في وسائل الإعلام. وكانت مراحل هذه الحركة الطموحة خلال السنوات العديدة الماضية من وجودها قد شملت المصادمات والمناوشات مع مشاركة عشرات الآلاف من الناس في سياتل (١٩٩٩)، دافوس، واشنطن، براغ، نيس (٢٠٠٠)، كويبك، غوتبيرغ، وخاصة جنوى (٢٠٠١). ولم يتم التعرف على انتهاك ظاهر للعيان من قبل تنظيمات الحركة المناهضة للعولمة منذ عام ٢٠٠٢م رغم أنه من المبكر التحدث عن تحولها إلى حركة سياسية صرفة. وفي هذا الشأن، فإن العامل الحالي لتوحيد جزء من المجموعات المتطرفة للطيف اليساري

السياسي في الحركة المناهضة للعولمة قد يضيف عناصر واتجاهات عنف مكملة للحركة. لكن من المستحيل الإلمام الكامل بنتائج هذه العملية.

الإرهاب اليميني: إن التخلص من التهديد الشيوعي لم يؤدِّ إلى إزالة ظاهرة تطرف الجناح اليساري والمظاهر الإرهابية المتعلقة به في الغرب. وبدلاً عن ذلك، عمل على تعديل تلك الظاهرة. فكما هو واضح من الفترة الأولى للحرب الباردة، فإن مناهضة الشيوعية كعامل مبدئي مثير للإزعاج والاستنفار قد حل محلها خوف وكراهية الأجانب من الناحية العرقية والعنصرية والدينية. وبناءً على كل ذلك، تجلت بوضوح الفروقات الأساسية في صفة إرهاب/تطرف الجناح اليميني في الولايات المتحدة ودول أوروبا.

الولايات المتحدة الحالية هي عبارة عن "مجتمع تعددي" يتضمن كمية ضخمة من المصالح والمجموعات المتعددة الاتجاهات. وهذا وضع مكيّف مسبقاً للاحتكاك الداخلي الذي يفضي إلى القلق، الإثارة، التطرف والمشاعر التطرفية. وفي المقابل، يعتبر التطرف في حد ذاته مصدراً رئيسياً ومؤشراً للإرهاب. وتتمثل الصفات المميزة لطيف الجناح اليميني في المنظمات المتشددة القائمة على الهوية المسيحية، وهي منظمات مؤسسة على سيادة العنصر الأبيض وتتخذ شكل المنظمات من نوع المليشيات. أما مضامين الخطط والبرامج الأيديولوجية لهذه المنظمات فهي عادة

ما تكون مختلطة مع: العداء ورفض أي شكل من أشكال السلطة الحكومية العليا (مفهوم "حكومة الاحتلال الصهيونية")، فكرة الانتقائية والتفوق العنصري لدى "الأمة الأنجلو–ساكسونية"، فكرة التطهير العنصري والديني لأمريكا، التمسك بحقوق المواطنين في حرية حيازة الأسلحة.

شرائح منظمات الطيف اليميني الأمريكي الصغيرة نسبياً ولكنها الأكثر نشاطاً، ترتبط مباشرة باستخدام العنف لتحقيق أهدافها. وتشمل هذه المنظمات مجموعات مثل أمم أريان Aryan Nations، جيش إريان الجمهوري، وطنيو إداهو Idaho Patri-ots وعشرات من المجموعات الأخرى التي ما زالت تعمل، أو أنها علّقت نشاطها. وتشتمل أهداف الهجمات الإرهابية مصحوبة باستخدام الأسلحة النارية والأجهزة المتفجرة البدائية على الشخصيات المحلية المتمتعة بسلطات تنفيذية، القضاة، ضباط تعزيز القانون وغيرهم من المسؤولين، مؤسسات الاعترافات الدينية، ممثلي الجماعات العرقية والعنصرية الأخرى. هناك جزء (رئيسي) آخر من خليط منظمات وجماعات أقصى اليمين الأمريكية والذي يعمل رسمياً بموجب القانون، أو ليس بمنأى عن القانون، والذي يدخل من فترة لأخرى في دوامة عنف محدود النطاق. ومع ذلك، يمكن اعتبار هذا الجزء في المرتبة الثانية من الإرهاب حيث إن هناك تحفيز لدعايته الأيديولوجية وحوافزه

المالية. فعقب أحداث ١١ سبتمبر، تكاثفت بصفة ملحوظة نشاطات هذا الخليط من المجموعات، ولم تتجه إلى الانخفاض، بل يلاحظ بصفة متزايدة تكديس الأسلحة والذخيرة وزيادة الدعوة للعنف. أكثر المنظمات عدداً في طيف الجناح اليميني التي ترقى إلى مستوى الحركة الجماهيرية هي وحدات المليشيا المدنية citizen militias. منذ مطلع عام ٢٠٠٤، كانت هناك ٤٤١ وحدة تنظيمية في ٥٠ ولاية أمريكية يصل عدد أعضائها إلى ٥٠٠٠٠ فرد. وتقوم كافة هذه التشكيلات على نمط الوحدات العسكرية النظامية المسلحة بأحدث أسلحة المشاة المعتمدة على نظم ولوائح وكتيبات الخدمة العسكرية، وتتصرف على غرار نظم مراكز ومعسكرات التدريب. هناك على الأقل ١٣٧ من الوحدات المذكورة أعلاه تقيم اتصالات مباشرة ودائمة مع جماعات التطرف اليميني مثل أريان نيشنز وكوكلوكس–كلان Kuklux-klan. ويلاحظ أن نشاطات هذه الوحدات تفضي إلى إحداث مطالبات أساسية تؤدي في آخر الأمر إلى مظاهر إرهابية. انه تيموثي ماكفي و ليس هو التطرف الإسلامي أو تطرف الجناح اليساري. ماكفي الأمريكي الأبيض المتقيد ظاهرياً بالقانون المشهور بوطنيته والمقاتل المحنك في حرب الخليج هو الذي ارتكب أكثر أعمال الإرهاب تدميراً في تاريخ الولايات المتحدة قبل وقت طويل من أحداث ١١ سبتمبر. بتاريخ ١٩ أبريل ١٩٩٥م فجّر ماكفي عبوة نسفت المبنى الفدرالي في

مدينة أوكلاهوما أودت بحياة ١٦٨ قتيلاً وأكثر من ٥٠٠ جريح، وقد ارتكب ماكفي هذا العمل الإرهابي بسبب آرائه المناهضة للحكومة بصفته عضواً في واحدة من جماعات التطرف اليمينية.

إن نطاق التطرف اليميني الأمريكي قد جعل مسؤولي مكتب التحقيقات الفدرالي يخلصون إلى أن " العنف من جانب الإرهابيين المحليين سوف يظل يهدد الولايات المتحدة طوال السنين الخمس القادمة " (مقتطف من ورقة استراتيجية من مكتب التحقيقات الفدرالي).

الجناح الأوروبي من التطرف/الإرهاب اليميني معروف بصفاته المميزة، فهو متقارب مباشرة مع حركة حليقي الرؤوس Skinhead Movement بناءً على ثقافة فرعية شبابية خاصة وشكل مستقل من التنظيم الذاتي. هذا الجناح الذي تأسس في بريطانيا العظمى عام ١٩٦٩م، يأخذ صفة الحركة الدولية من خلال تمدده إلى حوالي ٥٠ دولة على نطاق العالم. الأحزاب والجماعات النازية الجديدة الأوروبية (مثل الحزب الديمقراطي القومي في ألمانيا) تتولى نظماً قتالية مستترة في شكل مجموعات حليقي الرؤوس ومجموعات مشجعي أندية كرة القدم. فيما يلي أمثلة على هذا الجناح: مجموعة القتال-١٨ (بريطانيا العظمي)، الجلود المطرقية-(Hammer Skin إيطاليا)، جبهة العاصفة (Stormfront ألمانيا). وهذه المجموعات ذات الوجود السياسي

الحديث المتطرف والمستمر، تتورط خلال فترات دورية في ارتكاب أعمال عنف أخف وطأة موجهة ضد العناصر العرقية الأجنبية والعنصرية. والموقف يزداد حرجاً في ألمانيا حيث إن أعمال إحراق المباني عمداً والهجمات بسبب الكراهية الوطنية والعنصرية يتم تنفيذها من قبل أعضاء المجموعات المتطرفة الشبابية، مما يؤدي إلى حالات هلاك ممثلي مجموعات الشتات العرقية.

الإرهاب العرقي: لم تخضع مشكلة الإرهاب العرقي في الوقت الراهن إلى أي تغييرات معينة في الغرب بالمقارنة بالفترة السابقة. وبالتالي لن تتم دراسته بالتفصيل هنا. وعلى الرغم من القوى المحركة الشائعة، إلا أن الأسباب الجذرية التي أنشأت الإرهاب كمصدر لقضايا اليولستر، الباسك وكورسيكا ظلت كما هي دون تغيير. هذا هو السبب الذي جعل الإرهاب القائم على الحركات الانفصالية العرقية ينجح في المحافظة على أهميته التدميرية. كما يتضح المثال من أيرلندا الشمالية، فقد أدى الحل الجزئي للقضية إلى انقسام الجيش الجمهوري الأيرلندي وتشكيل جماعات متشددة مثل الجيش الجمهوري الأيرلندي الحقيقي والجيش الجمهوري الأيرلندي المستمر، حيث تتمسك هذه الجماعات بتكتيكاتها الإرهابية و اندماجها المتزامن مع مجموعات الجريمة المنظمة. وينطبق الشيء نفسه على الجماعات شبه العسكرية الموالية، بما فيها جمعية الدفاع عن يولستر وقوات المتطوعين

الموالية.

ويجب التركيز بصفة خاصة على الإرهاب الناشئ من اندماج جماعات الشتات العرقية التي وطدت استقرارها واندمجت في المجتمع الغربي. في المرحلة الحالية، لا يشارك مواطنو الشتات هؤلاء في نشاطات عنف في أماكن إقامتهم، لكنهم يحافظون على علاقات مباشرة ودائمة مع الجماعات الإرهابية خارج منطقة الغرب الجغرافية. وتشمل مجموعات الشتات كلاً من الأرمن (على علاقة مع الجيش السري الأرمني لتحرير أرمينيا)، الأكراد (حزب العمال الكردي)، التاميل (نمور تحرير التاميل–إيلام)، السيخ (التحالف الدولي لشباب السيخ، وخلافه) وكوبا (ألفا–٦٦ وخلافه) بالإضافة إلى مجموعات شتات أخرى. هذا مع ملاحظة أن مجموعات الشتات تلعب دوراً مهماً في جمع الأموال، والمساندة السياسية والدعائية ودعم المنظمات الإرهابية ذات العلاقة بها.

الإرهاب ذو الدوافع الدينية: هذا النوع من الإرهاب الذي ينظر إليه عدد من المعاصرين على أنه أزمة موازية للديانات العالمية ولنظريات العلمنة الاجتماعية، أحدث انتشاراً وتفريخاً غير مسبوق لمئات الطوائف والجماعات الدينية الشمولية بعد تلك الحديثة، خاصة خلال الحقبة الماضية على عتبة الألفية الثالثة، وكانت معاييرها الأساسية هي: إدارة رأسية داخلية قاسية، قادة يتمتعون بالجاذبية يتجهون نحو القوة الفردية الخاصة، إنشاء مجتمعات معزولة لعناصر معسكرة ذات هيكل

تنظيمي ومستوى عالٍ من الاستنفار والاستعداد الداخلي، حشدٌ كامنٌ للأسلحة النارية والذخيرة، التقيد بالحقيقة، القدرة على المناورات الشاملة، زعزعة وتغيير الضمائر، رفع معدل القابلية على العنف الداخلي، الغزو الخارجي، تضحيات بالأرواح البشرية وأعمال انتحارية جماعية، أشكال اختراق إجرامية في مختلف مجالات النشاطات الاجتماعية والاقتصادية. أما طوائف "يوم الحساب" أو "الدينونة" الموجهة نحو الرؤيا النبوئية، فتشكل خطراً من نوع خاص، وهذه الجماعات معرضة إلى حد كبير إلى مظاهر عنف تأخذ أحياناً طابع أعمال الإرهاب. وليس من قبيل الصدفة أن الهجمة الإرهابية العنيفة غير المسبوقة في التاريخ باستخدام الأسلحة ذات التأثير الشامل (هجوم بالغاز في مارس ١٩٩٥ في نفق بطوكيو) قد تم ارتكابها من قبل طائفة أوم شنريكيو Aum Shinrikio الشمولية اليابانية (بنى المؤلف حجته على واقع أن اليابان من ناحية سياسية واقتصادية تعتبر جزءاً من العالم الغربي). مشهد آخر عنيف يثبت خطر الطوائف الشمولية، يتمثل في المواجهة التي دامت ٥١ يوماً بين وكلاء تعزيز القانون وخبراء من طائفة الديفيديين Davidian في واكو بولاية تكساس في شهر أبريل ١٩٩٣، والتي انتهت بمقاومة مسلحة شرسة للسلطات وبانتحار جماعي شمل نساءً وأطفالاً (توفي ٨١ شخصاً). وهذه النماذج تؤكد أن الطوائف الشمولية في ظروف معينة وبشروط مسبقة معينة تكون قادرة على التحرك الفوري لمركز

النشاط الإرهابي.

الإرهاب من قبل الإفراد: يجب ملاحظة أن الإرهاب المدفوع بقضية واحدة، والذي يتضمن مواطنين منفصلين يتم تنفيذ نشاطهم الإرهابي بصفة مستقلة وخارج نمط الهياكل التنظيمية، يعتبر إلى حد كبير نتاجاً لظاهرة معينة أصلها الضمير الاجتماعي الغربي. هذا الإرهاب يؤمن بالفردية القوية للشخصية في مجتمعات ما بعد العهد الصناعي الذي يتناقض بحدة مع مذهب الجماعية، وينطبق هذا بصفة خاصة على المجتمعات التقليدية. بالإضافة إلى مختلف الدوافع (السلوك غير الاجتماعي، فقدان احتمالات فرص الحياة، الحياة الخاصة الناجحة، الانحرافات النفسية، المسيحية)، فإن الفردية العدوانية–المحبطة المفروضة على البرامج والمطالبات السياسية، الدينية والاقتصادية المختلفة، إضافة الى العوامل المسرّعة الأخرى، تؤدي في آخر الأمر إلى تنشيط طاقة سالبة واحتمالات احتجاج على نمط الحياة الساخط وأهداف الكراهية ذات الصلة من خلال القيام بأعمال إرهاب. وعلى الرغم من الموارد الضئيلة، فإن الإفراد الذين لديهم طريقة حياة تخريبية، المتشبثين بآراء متطابقة مع برامج الجماعات الإرهابية والمتطرفة، فوق إطارهم التنظيمي في الوقت نفسه، يكون هؤلاء في وضع يتيح لهم التخطيط سراً ومن ثم شن هجمات تخريبية جيدة التنظيم.

إن أعمال الإرهاب المحفوفة بعواقب خطيرة مثل التفجيرات، إطلاق النار على التجمعات البشرية، أعمال احتجاز رهائن في المدارس ورياض الأطفال

واختطاف الناس هي أعمال واسعة الانتشار في الولايات المتحدة وأوروبا. المثال الكلاسيكي على ذلك يتمثل في حادثة ثيودور كاتشينسكي Theo-dor Kachinsky، الشخص "الأحادي القنبلة" الذي أقام في عزل انفرادي إرادي لمدة عشرين سنة (من ١٩٧٦ إلى ١٩٩٥) كان خلالها يوزع طروداً بريدية عبارة عن شراك ومصائد على العلماء ورجال الأعمال ذوي الصلة بتطوير تقنيات الحاسب الآلي والطيران. لقد أفضت ست عشرة حادثة من أعمال الإرهاب احتجاجاً على المجتمع الصناعي والاتجاهات نحو تدمير البيئة إلى ٣ قتلى و٢٣ جريحاً. ففي أبريل ١٩٩٩م قام شخص إنجليزي الجنسية يدعى ديفيد كوبلاند David Copeland المعادي للأقليات العرقية والعنصرية، بتفجير ثلاث شحنات متفجرة مصنوعة في منزله في حانات لندن، راح ضحيتها ٣ قتلى و١٢٩ جريحاً. وفي خريف عام ٢٠٠١، عمد شخص أمريكي مجهول إلى توزيع رسائل مملوءة بمادة الجمرة الخبيثة على المكاتب الحكومية الأمريكية، أدّت إلى مقتل خمسة أشخاص. وفي خريف عام ٢٠٠٢م، استطاع الأمريكيان جون آلان محمد John Allen Mohammed ولي مالوف Lee Malov "قنّاصا واشنطون المعروفان" شل الحياة في العاصمة الأمريكية، وذلك بقتل وجرح ١٣ شخصاً من خلال أعمال القنص. وفي شهر سبتمبر ٢٠٠٣م، قام ميتشيلو ميتشيلوفيتش باغتيال آن ليندAnne Lindوزيرة الخارجية السويدية في مركز للتسوق. المشاهد المذكورة أعلاه، من بين مشاهد أخرى، هي مؤشر على استقرار الهوس الاجتماعي

في المجتمع الغربي والأمريكي على وجه الخصوص متخذاً مظهراً معيناً من النماذج السلوكية، ناشئاً من انحطاط فعلي في قيم الحياة الإنسانية، ناشراً إحباطاً نفسياً و" ثقافة اليأس " والذي حسب اعتقادنا سوف يتطور من الآن فصاعداً. ذلكم هو السبب الذي حدا بوثائق مكتب التحقيقات الفدرالي حول الاستراتيجية المستقبلية لمكافحة الإرهاب إلى التركيز على أن " أهم تهديد إرهابي خلال السنوات الخمس القادمة يظل متمثلاً في الإرهاب الفردي، " ذلك هو الذئب الأوحد ".

الإرهاب القائم على مصالح خاصة: بناءً على مصالح فريدة، هذا الإرهاب هو عبارة عن نتاج معين لنمط الحياة الغربية. إن الكثير من نماذج المجتمعات الاستهلاكية للذين يعانون من مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية الذين ليست لديهم طبيعة جادة ويفتقرون إلى الضرورة للكفاح الدائم من أجل المعيشة، ينظمون وقتهم ومواردهم المالية على نحو كافٍ لمواجهة المشاكل ذات الأولوية القصوى حسب رأيهم. وبناءً على هذا الوضع، تتشكل مجموعات هامشية ومتطرفة لتستخدم العنف لتحقيق أهدافها.

الإرهاب ذو الدوافع البيئية: وتمثله جبهة تحرير الأرض، جبهة تحرير الحيوانات، مليشيا حقوق الحيوانات. ويتمثل صدى الاحتجاج ضد أي شكل من أشكال استغلال وتدمير البيئة والحيوانات في إشعال النيران في مختبرات الأبحاث، مكاتب شركات العلوم الصيدلانية ومستحضرات التجميل باستخدام مواد ذات أصل عضوي، الهجمات

على الباحثين والنشاطات الإجرامية الأخرى. ويترتب على هذه الأعمال تدمير الصحة البشرية والخسائر المالية الكبيرة. هناك أيضاً اتجاه إلى دمج هذه المجموعات في جماعة متعددة الجنسيات تعمل في الولايات المتحدة، كندا، بريطانيا العظمي والدول الأوروبية الأخرى. الصعوبات الكامنة في التعرف على هذه المجموعات وإحباطها ناشئة عن لا مركزيتها حيث تستخدم تكتيكات " الوحدات المستقلة دون قادة ".

النشطاء من أجل الحياة الذين يلتفّون حول فكرة ثابتة Idee Fixe ويعارضون إجهاض الحمل بالأدوات الاصطناعية وينشطون في ممارسة العنف من خلال إرهاب منخفض المستوى. هذه الظاهرة التي منشأها الولايات المتحدة يعود تاريخها إلى السبعينيات من القرن العشرين، ويكفي القول أنه خلال الفترة من عام ١٩٨٢–١٩٨٤م، تم التعرف على ٢٢٠ عملاً ضد المستشفيات والأطباء الذين يمارسون الإجهاض، وشملت تلك الأعمال ٨٩ هجوماً بالقنابل وتدمير المباني. وطوال أعوام ١٩٩٤–١٩٩٨م، كان هناك ٦ قتلى و٨ جرحى معظمهم من ولايات جيورجيا وفلوريدا نتيجة لأعمال هؤلاء النشطاء. وفي الوقت نفسه، ارتكب أحد النشطاء من أجل الحياة خمس محاولات اغتيال في ولاية نيويورك و كندا.

هكذا، يظل الإرهاب القائم على المصالح الخاصة عنصراً مستقلاً ضمن إطار التهديد الإرهابي في خصوصيته الغربية المعلنة.

إرهاب الإنترنت: Cyber-Terrorism يجب أن نتذكر أن الفضاء

المعلومـاتي الكوني وتشكّل الـحضـارة التـقنيـة التي أعطت زخـماً للـتقدم الحضـاري البشري يتـصف أيضـاً بـأثر سلبي. فـالإرهـاب عبـر الإنترنت، والـجريمة عبـر الإنتـرنـت المشتـقة منه والتـي نشأت على أسـاس الدوافع السـياسيـة والإجرامـية، سلوك الـجماعـة والفرد اللاإجـتمـاعي، جميـعـها تعتبـر أخطر التحديات الـحديثـة على المجتمعات المتقدمة في عصـر ما بعد عصـر الصناعة. وتتمـثل محتـويات ومضامين إرهاب الإنتـرنت/جريمة الإنترنت في الوقـت الراهن في النفاذ غيـر المشروع إلى شـبكات الحاسب الآلي من خـلال اخـتـراق الرمـوز والشـفـرات الأمنيـة، إعـادة البـرمـجـة، الإزعـاج والمضايـقـة في عمليـات مزود الـخدمات، الإخـلال بالمداخل، رفع الشعارات أو المطالبات، اعتراض مسـتتر أو حذف المعلومات من الأقراص الصلبـة، أعـمـال التـزوير الماليـة، ومـا يتـرتب علـى كل هذه التـهديدات في مجال المعلومات والأمن المادي والمالي. إن أسـاليب ووسـائل غزو الشبكات المستـخدمة من قبل إرهابيي الإنترنت مـتعددة، مـنها: فيـروسـات وديدان الـحاسب الآلي، القنابل المنطقـية، حـصـان طروادة، برامج التـحسس. أمـا أشكال نشـاطات إرهـابيي الإنـترنت فتتـضمن أعمـالاً لامركزية محـفزة أو حمـلات موجهـة عالمياً (على المدى القـريب والبعيد على السواء). وتتـمثل أهداف إرهابيي الإنـتـرنت فـيمـا يلي: المنظمـات الـدوليـة (أهداف كـيـانات الحركـات المناهضـة للعولمة والعسكرية، المشـاركين في مختلف النزاعات المسلحة)، الشـخصيـات التنفيـذية والقانونية، المؤسـسـات الاقتـصادية أو الجامعـات (أهداف أشكال الاحتجـاج السياسية والاجـتماعيـة)، المنظمات

الاجـتـمـاعـيـة وغيـر الـحكومـيـة (أهداف أشكـال الكراهيـة والعـداء الديني والعـرقي)، المـؤسـسـات المصـرفـيـة (أهداف الكيـانات ذات الأنـشطة الإجرامية).

أما أخطر أعمـال إرهاب الإنترنت فهي تلك التي تستـهدف مرافق البنى الأسـاسيـة الحرجـة: مراكـز قيـادة القـوات النووية، أنظمة إدارة مـحطات الطاقـة الـنووية، السـدود، المرافق الصنـاعـيـة، مـراقـبـة الـحـركـة الجـوية والأنظمة المصرفـية. وتجدر ملاحظة أن موارد معلومـات القوات المسلحة الأمـريكـيـة البـالـغ عـددها ٢,٠٠٠,٠٠٠ حـاسب آلي، ١٠٠,٠٠٠ شـبكة مـحلية وحـوالي ١٠,٠٠٠ نظام مـعلومـات، تتعرض شـهرياً لعدد ٧٥٠ هجـمة من طفـيليي الإنترنت (الـهاكرز) الذين يحـقق جزء منهم أهدافـهم، فـهـم يشـوشـون علـى الاتصـالات و الملاحـة و أنظمـة الاسـتـخـبـارات الفضـائية و أنظمة التصويب والدعم اللـوجستي. ديناميكيات هذه الأعمال بالمعـدلات السنوية هي كـالآتي: في حـين شـهد عـام ١٩٩٤م ٢٢٥ نفـاذاً غير مـرخص به، فإن عام ١٩٩٩ شـهـد ٢٢,١٤٤ حالة نفاذ غيـر مرخص به. بعض هذه الهجمـات يتم شنها من قبل منظمات ذات اختـصـاص تابعة لمخـتلف الدول. لكـن يجب عـدم نسيـان أن أزمـة عـام ١٩٩٨م بـعنوان "الغروب الشمسي– "Solar Sunset التي أحدثت رعباً في البنتاغون (الأولى من نوعـهـا التي تتم مـواجـهـتـهـا من خـلال الهـجـوم على ذاكـرة الحاسب العملاق. وقـد تم إلقاء اللائمة على العراق واعتبـر طرفاً مداناً في ذلك العمل)، حـيث ثبت أن طفـيلياً (هاكـر) إسـرائيلـيـاً بمفرده هو الذي

ارتكب تلك الأعمال. كان الخطر الوشيك الوقوع بواسطة إرهاب الإنترنت بالنسبة للأساسيات الهامة جداً بالنسبة لمجتمعات المعلومات الغربية خلال ما بعد عصر الصناعة، كان مدعوماً بمشهدين: في مايو ويونيو عام ٢٠٠٢م، نجح اثنان من المتطفلين (الهاكرز)، أحدهما بريطاني والآخر أسترالي بصفة مستقلة في اختراق شفرات قيادة القوات النووية الاستراتيجية وأنظمة التحكم ومركز الاستخبارات الفضائية بالقوات المسلحة الأمريكية.

الجريمة المنظمة: إن الجريمة المنظمة لما وراء حدود الدول هي شبح يعبر عن ناتجة مباشرة من توسيع وتعميق العولمة. في الواقع أن الجريمة المنظمة لما وراء حدود الدول كراعٍ مالي وقاعدة موارد، عبارة عن عنصر متكامل للإرهاب الحديث. البيانات المحددة هي مؤشر لأشكال ونطاق آلية اندماج، الأمر الذي يؤكد أن غالبية عظمى من التنظيمات الإرهابية العاملة حالياً هي صور تلتقي في الجريمة المنظمة. وتتضمن نشاطات الجريمة المنظمة ما يلي: المتاجرة المحظورة بالمخدرات والأسلحة والذخائر المحظورة، تهريب المواد القيمة، المتاجرة البشرية، المنتجات المزورة وخلافه. أما الأموال التي يتم تحصيلها فتعتبر قانونية من خلال غسيل الأموال، ومن ثم تخصيصها لدعم النشاطات الإرهابية.

فيما يلي أرقام توضح معايير الجريمة المنظمة يومياً. يقدر معدل دورانها العالمي السنوي بمبلغ ٧٠٠ بليون دولار، والذي

يبلغ ما لا يقل عن ٥٪ من مجموع الناتج العالمي الإجمالي. الجريمة على الإنترنت في الولايات المتحدة لوحدها تسبب خسارة سنوية تبلغ ٥ بلايين دولار أمريكي. أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ امرأة تشترك في تجارة الجنس في الدول الأوروبية، مما يجعل من الممكن كسب ١٣ بليون يورو في السنة. وهناك أهمية خاصة تتمثل في حركة مبيعات المخدرات غير المشروعة البالغة ٤٠٠ بليون دولار من الأموال المكتسبة بصفة غير شرعية.

وحري بنا القول أن عامل المخدرات اليوم قد تحول إلى أخطر التهديدات التي تحظى بالاهتمام الدولي. فالملايين من مدمني المخدرات و الارتفاع الحاد في جريمة الشارع وعدد ضحايا فيروس نقص المناعة/الإيدز و عدم الاستقرار الاجتماعي و الخسائر الاقتصادية بالبلايين و الانحراف عن بذل الجهود حسب أهميتها، جميعها حقائق واقعية تهدد المجتمعات الحالية والمستقبلية. وخير دليل على الحقيقة التي لا جدال عليها، والقائلة أن الهياكل التنظيمية لظاهرة الإرهاب تتحكم في القطاعات الثلاثة لدورة المخدرات – الإنتاج، العبور، المبيعات – هي نتائج تحليل الوضع في جميع المراتع الأساسية الثلاثة لإنتاج المخدرات وهي: الهلال الذهبي (جنوب آسيا)، المثلث الذهبي (جنوب شرق آسيا) والمثلث الفضي (أمريكا اللاتينية). ومن خلال ذلك، فإن المجموعات المحلية مثل القوات المسلحة الثورية في كولومبيا أو جيش يونايتد

وا ســتــيت البــورمي Army of United Wa State تعــمـل أسـاسـاً في مـواقـع الإنتـاج، بينما الاحـتـمـال النـهـائي ونقـاط توزيع العبـور كائنة في الغرب وتنظمـهـا الجماعات الإجرامية والتي كثير منها، رغم أنـها مؤسـسـة عبـر الخطوط العرقـية، متكامـلـة تماماً في النظام الـغـربي. هذا الـنمط المتكامل بـصـفـة مـشـتـركـة مـن تكافل الإرهـاب والجـريمة المنظمـة هو الذي يجـعـل الإرهـاب يـأخذ صـفـتـه العابرة لحدود الدول وصفته الدولية.

الخلاصة:

هكذا، حـاول هذا المقـال، في شكل مكثف، تقـديم تلك الاتجـاهات والأنماط الرئيـسـيـة لإرهـاب اليـوم بصـورة تنطبق على مـحـيط الحضـارة الغربية وبيئـتها. ومـثلما هو ملاحظ فـإن الحقائق كافـية لاستنتـاج أن الإرهـاب، من خـلال الحكم عليه من جـذوره وطبيعـتـه، ليس حـصـرياً على العـالم الإسـلامـي أو العالم الثـالث فـقط (العـالم الجنوبي) بصـفـة عـامـة، بل هو صــفـة مميـزة للـغـرب أيـضـاً مـثل الأقاليم الجيو–سياسية من الكون. وليست هناك حضارة محصنة ضــد الإرهـاب، وفي الواقـع أن الإرهـاب جـريمة ضـد البـشـريـة لا يعترف بالحدود، وليست لديه جنسية أو هوية دينية.

خلاصــة ذلك، إن التوقـعـات المسـتقبليـة مشـوبة بالتشـاؤم. فلقد أصـبح الإرهـاب جزءاً لا يـتـجزأ من المـراحل الحـرجـة لتطور الجنس

البـشـري، تميّـز بحـيل مـتـعـددة وخـداع من المخـاطر والتـهـديدات المتنوعـة. وللأسـف فـإن ظاهـرة الإرهـاب كـانت، ولا زالت، وسـوف تظل، قـائمـة طالما كـانت هناك أسـبـاب تدعـو لوجـودهـا. ولا تتـوفـر طرق وأساليب لحل مشكلة الإرهـاب، فليس هناك احتمال للانتصـار على الإرهـاب يكون مماثلاً للانتصـار على مر الزمن على الجـوع و الفقـر والمخدرات. لا يوجـد حل على– الأقل في المسـتقبل الـقـريب – لإنشـاء نظام شـامل للإدارة المفقـودة الآن. المخـرج من هذه الورطة يكمـن في احــتــواء الإرهـاب و طرده إلى خـــارج الكون. إن النـقطة الحـيوية لـهـذه العـمليـة يمكن التعـبـير عنهـا بالكلمـات التي صـاغـهـا البـروفـيـسـور الأمـريكـي مكينزي Mckenzie التي يقـول فـيـهـا: " هذه حرب لا يمكن الانتـصـار فيـها، ولا يمكن خسـارتها " . يلاحظ أن مسـتويات الإرهـاب وأشكاله ومناطقـه الجـغرافـية من المرجح أن تتـغير بصـفة دائمـة. إن الثابت الذي لا يتـغـير هو الحـقيقـة الفعلـية للحرب.

وبناء على ذلك كله يعدّ الإرهـاب تـحـدياً عالمـياً للبـشرية جـمـعـاء، وتقتـضـي الضـرورة القصـوى مـقـاومتـه والصمـود أمامـه من خـلال تنفيـذ جهـود مشـتـركة فقط وتجـاوز أي حـدود انقسـامـيـة على طول الخط الحضـاري–الديني.

تاريخ مختصر للإجراءات القانونية التي اتخذتها الحكومة الأمريكية ضد الإرهاب المحلي

تيم كينيدي *

«الإرهاب» هو الاستخدام غير القانوني للقوة أو العنف ضد الأشخاص أو الممتلكات لتهديد أو إجبار الحكومة أوالمدنيين أو أي قطاع آخر من الناس، أو لتعزيز أهداف سياسية أو اجتماعية.

المادة ٢٨ من القوانين الفدرالية، القسم ٨٥.

وضعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية منذ نشأتها قوانين تحد كثيراً من الحريات الشخصية والمدنية لحماية ذاتها من التهديدات المتوقعة للإرهاب الداخلي والخارجي. فعلى سبيل المثال ، أقر الكونجرس عام ١٧٩٨ مجموعة قوانين هي : قانون الغرباء، وقانون

* الشريك المؤسس لمجموعة السياسات الاستراتيجية ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

الأعداء الغرباء، والقانون الخاص بالتحريض على العصيان، التي تمنح الحكومة الأمريكية حقاً في سجن أو إبعاد أي شخص تثبت إدانته بالخيانة، ومن ذلك نشر «أية كتابات تتعلق بالفضائح أو مثيرة للكراهية والأحقاد». وقد سعت الحكومة الأمريكية من خلال هذه القوانين الثلاثة إلى وقف الانتقادات التي كانت تواجهها من الموالين للحكومة البريطانية الذين شككوا في القيادة الأمريكية وقتئذ.

وبعد مضي اثني عشر عاماً، أدى الاعتراض الشعبي على شرعية هذه القوانين إلى إلغائها.

وقد وضعت الولايات المتحدة على امتداد ٢٠٠ عام عشرات الإجراءات الإضافية لمجابهة التهديدات المحتملة ثم ألغتها بعد ذلك ـ لأنه كان يُحكم في الغالب على هذه القوانين بمنافاتها للشرعية وعدم قانونيتها.

إن هذه الدورة التاريخية للأنظمة والإجراءات القانونية المتشددة حيناً والمتساهلة حيناً آخر حول الحريات المدنية قد خلقت دوامة تؤدي إلى قلب المسألة، وهي كيف يعرّف الأمريكيون «المجتمع الديمقراطي»؛ كيف تستطيع أمة أن تسخّر نفسها لحماية الحريات الشخصية للأفراد وفي الوقت نفسه حماية نفسها من التمرد والثورات؟

أما اليوم، فإن هذه الدوامة أو الورطة إن صح التعبير، تبرز في خضم احتجاجات يقوم بها أنصار الحريات والمحافظون السياسيون الذين يتهمون الحكومة الأمريكية باستخدام القوانين

الموالية ـ التي أقرها الكونجرس دون مناقشة بعد ٤٥ يوماً فقط من أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ـ بهدف الحد من الحريات الشخصية الأساسية للأمريكيين.

إن إجراء مسح للعديد من القوانين الأمريكية التي تهدف إلى حماية الأمريكيين من الإرهاب والتمرد، يكشف عن تاريخ مذهل للإرهاب المحلي. كما يعكس أيضا تاريخ التناقضات السياسية التي أدت إلى مواجهات وخصومات مستمرة ـ ولا تزال تتصارع ـ حول مفهوم الديمقراطية الذي يقول إن أفضل أسلوب يمكن للحكومة أن تتبعه لحماية أمنها الداخلي هو ضمان تقييد الحريات الشخصية لمواطنيها ومنعهم من حرية الكلام والاتصال بأي شخص يختارونه.

لقد تمكن الباحث الفرنسي أليكس دي توكفيل Alexis de Tocqueville من تعريف فكرة الديمقراطية هذه أفضل تعريف قبل ١٦٠ عاماً من خلال دراسته المشهورة التي أجراها حول الثقافة والسياسة الأمريكية بعنوان «**الديمقراطية في أمريكا**». إن الحرية توفر الأمن ضد المخاطر الأخرى. ففي البلدان التي تكون فيها الجمعيات أو الاتحادات حرة، تكون الجمعيات السرية غير معروفة. يوجد في أمريكا عدد كبير من الأحزاب والتجمعات ولكن لا توجد مؤامرات».

«إن المشكلة المتعلقة بالموازنة بين الأمن الداخلي لبلد ما وبين الحريات المدنية لأفراد المجتمع فيه لا تُعد سمة من سمات العالم

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر»، حسب قول بروس فين Bruce Fein وهو محام دولي مختص في شؤون الدستور في واشنطن. «فطبيعة الحكومة الحرة تتطلب موازنة بين فرض السلطات لمنع النشاطات المناهضة للمجتمع، وبين القوانين المعلنة لحماية الحريات، وهذا هو ما يميز بين الأنظمة الديمقراطية والاستبدادية: ولكن على أن لا يتسبب ذلك في إخافة المجتمع من قول أو فعل شيء مناف للاتفاقيات».

العنصرية والتعصب الأعمى بعد الثورة :

لقد تطور النظام القانوني الأمريكي إلى حد كبير بعد ١٠٠ عام على الثورة الأمريكية «١٧٧٦ ـ ١٧٨٣». فبينما كان المشرّعون الأمريكيون وأرباب القانون يشجعون على استيطان المستكشفين الغربيين في البلاد، كانوا يسعون في الوقت ذاته إلى حماية الحقوق المدنية للهنود الأمريكيين الذين كانوا ينظرون إلى المستوطنين الجدد على أنهم معتدون. أما المستوطنون فقد كرهوا من يقف في طريقهم من الهنود.

ولم يكن الهنود وحدهم هم الأقلية التي ينظر إليها بعض الأمريكيين على أنها مصدر لتهديد الأمن الداخلي، فالمهاجرون الجدد القادمون بوجه خاص من الصين وإيرلندا كانوا هم أيضاً يتعرضون للتمييز العنصري والهجوم.

لقد ضمت منظمة كو كلوكس كلان Ku Klux Klan أكبر مجموعة مؤيدة لاستخدام العنف ضد المهاجرين والأمريكيين من أصل أفريقي. تأسست هذه المجموعة عام ١٨٦٦ في ولاية تينيسي من قبل مجموعة من المحاربين القدامى الذين شاركوا في الحرب الأهلية الأمريكية «١٨٦١ – ١٨٦٤». وقد اجتذب هذا التنظيم أعداداً كبيرة من المؤيدين في جنوب شرق الولايات المتحدة الأمريكية حيث بلغت ذروتها في عام ١٨٧٠م. وقد روّعت عصابات هذا التنظيم الأمريكيين من أصل أفريقي والبيض الذين يساعدونهم من خلال تنفيذ أحكام الإعدام فيهم وحرق ممتلكاتهم وغير ذلك من أعمال العنف والتنكيل.

وبعد مرور عدة قرون من التراجع والضعف، تزايدت نشاطات عصابات الكو كلان عام ١٩١٥ عندما وجهت جل حقدها ضد المهاجرين اليهود وأتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. ثم وصلت أعداد المؤيدين لها إلى الذروة مرة أخرى في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي «١٩٤٠» عندما بدأ الأمريكيون من أصل أمريكي يطالبون بمزيد من الحقوق المدنية.

في البداية كانت هناك ردود فعل على أعمال العنف التي قام بها أنصار كلان على المستوى المحلي وعلى مستوى الولايات. ولكن من خلال الفرض المتقطع للقوة، تدخلت الحكومة الأمريكية من خلال إرسال عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي حديث التكوين

المدعومين بالأنظمة والقوانين التي نصت على أن قيام أي منظمة بعمل متطرف داخل الولايات المتحدة «يعد انتهاكاً للقوانين الفيدرالية الأمريكية».

بزوغ الحركة المناهضة للحكومة في أمريكا

اتسمت الثورة العمالية في بداية القرن العشرين بالعنف في أمريكا. وغالباً ما كانت ردود فعل الشركات التجارية التي تتعرض للإضرابات العمالية المنظمة قاسية، الأمر الذي كان يزيد من حدة التطرف والكراهية بين العاملين. وقد كان من السهل على منظمات العمل والعمال الأوروبية الاستفادة من ردة الفعل الغاضبة بين هؤلاء العمال ودعوتهم إلى مناهضة الحكومة ـ واستخدام القنابل والأسلحة وغيرها من وسائل العنف كوسائل لتحقيق أهدافهم الاقتصادية.

من بين مناهضي الحكومة الأمريكية غير المشهورين في تلك الحقبة ليون تشيزولكوز Leon Czolgosz ، ابن لأحد المهاجرين البولنديين، وهو الذي قتل الرئيس الأمريكي ويليام ماكنلي William Mckinley 1843 - 1901 أثناء زيارته لمعرض عبر أمريكا في بافالو، نيويورك. وقد ادعى تشيزولكوز أن فعله هذا كان مبرراً «لأن ماكنلي كان عدواً للأشخاص العاملين الجيدين».

ومع انتفاء وجود أية علاقة بين تشيزولكوز والحركة العمالية الأمريكية، فقد رد الكونجرس على اغتيال الرئيس ماكنلي بإصدار قانون المهاجرين الغرباء عام ١٩٠٣، وهو إجراء يهدف إلى إخماد نشطاء العمال الذين كان يُطلق عليهم عادة عبارة «المناهضون». وقد نص هذا القانون على منع دخول المناهضين إلى الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه تسهيل إجراءات طرد أو إبعاد أي شخص تثبت عليه هذه التهمة إلى خارج الولايات المتحدة. كذلك أدى هذا القانون إلى إعداد ملفات مكتب التحقيقات الأمريكي السرية حول المهاجرين المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبعد الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ ـ ١٩١٨»، بدأ المجتمع الأمريكي يخشى حركات المناهضين. فهناك التضخم الاقتصادي، وازدياد البطالة، والقلاقل العمالية والتمييز العنصري، إلى جانب وسائل الإعلام التي أجّجت مشاعر الحقد والكراهية التي انتشرت خلال هذه الحقبة المسماة «بالخوف الأحمر».

وبسبب التوتر والفزع الذي انتشر بين الناس، أصدر الكونجرس عام ١٩١٨ نسخة معدلة من قانون التحريض الذي أصدره عام ١٧٩٨. وقد نص القانون الجديد المعدل على تجريم ما «يقال، أو ينشر، أو يكتب أو ينمي المشاعر ضد الحكومة الأمريكية».

وكان أول من حُكم عليه بموجب قانون التحريض الصادر عام

١٩١٨ هو يوجين في. ديبس Eugene V.Debs، مرشح رئاسي سابق، حُكم عليه بالسجن عشرة أعوام «لذكره عبارات مناهضة للحرب». وعندما استأنف ديبس قضيته أمام المحكمة العليا، أصدر القاضي حُكماً مناصراً للحكومة الأمريكية، وبرر ذلك بأن «للكونجرس حق إصدار التشريعات ـ التي قد لا تكون مقبولة في الظروف العادية ـ عندما يرى أن هناك خطراً داهماً».

يقول بيتر إيرنست Peter Earnest، وهو ضابط سابق في الاستخبارات الأمريكية ويعمل حالياً مديراً تنفيذياً لمتحف التجسس الدولي في واشنطن العاصمة: «إن الحفاظ على الحريات المدنية هو عمل متوازن حتى في أفضل الأوقات، عندما يكون هناك تهديد للأمن القومي».

«ولسوء الحظ، توجد في أغلب الأحيان عناصر داخل بعض الإجراءات الأمنية من شأنها تقييد الحريات المدنية والشخصية. وهذا حسب اعتقادي متوقع في مثل هذه الظروف».

لقد وصلت نشاطات المناهضين الأمريكيين ذروتها في يونيو من عام ١٩١٩ عندما أرسل المتطرفون رسائل ملغومة إلى ٣٤ من رجال الأعمال والسياسة المعروفين بما في ذلك منزل المدعي العام في واشنطن السيد أ. ميتشيل بالمر Mitchell Palmer، وهو أعلى قاض في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد رد ميتشيل على هذه الهجمات بسرعة مستفيداً من

الصلاحيات الممنوحة له بموجب قانون التحريض الصادر عام ١٩١٨، فقام بسلسلة مداهمات حملت اسمه، أدت إلى سجن ٦٠٠٠ من المشتبه بهم من المناهضين والشيوعيين الذين تم إبعاد ٢٤٩ منهم إلى خارج الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تم اعتقال العديد من هؤلاء دون مذكرة قانونية، فيما حُرم آخرون من أبسط الحقوق المدنية كالتمثيل القانوني أو الحصول على محاكمة عادلة. وقد تم استدعاء ميتشيل أمام الكونجرس لتبرير أعماله وتمت إدانته «بسوء استخدام الأموال العامة».

الخوف الأحمر الشيوعي :

إن المداهمات التي نفذها ميتشيل مع ثبوت عدم قانونيتها لاحقاً، لم تحد من خطورة الخوف الأحمر. ففي الثلاثينيات من القرن العشرين ازداد حجم الحزب الشيوعي الأمريكي بتؤدة على الخارطة السياسية وأصبح أتباعه بالآلاف. وفي وقت متأخر من العقد ذاته، لاحظ المحافظون السياسيون وجود حركة سياسية يسارية بين أعضاء الحركة العمالية العاملين لدى الإدارة الفيدرالية لتنمية الأعمال، وهي عبارة عن برنامج عمل تموله الحكومة، وألقت باللوم على «النشطاء الشيوعيين». وقد اتهم عمال الإدارة الفيدرالية لتنمية الأعمال بالتحريض وفرض الإتاوات على الزبائن واستخدام الأموال العامة لأغراض سياسية. لمواجهة ذلك أصدر

الكونجرس في ٢ أغسطس من عام ١٩٣٩م قانون المؤامرة، وهو قانون أعد «لمنع النشاطات السياسية المدمرة»، وذلك من خلال تنظيم العلاقة بين الوكالات الفيدرالية والمنظمات السياسية بشكل أساس.

كان قانون سميث Smith Act ١٩٤٠م «يعرف أحياناً بقانون تسجيل الغرباء» بمثابة إجراء قانوني إضافي وضعه الكونجرس لمواجهة التهديد المحتمل من الجماعات السياسية ذات التوجه اليساري. وقد اعتبر قانون سميث أن قيام أي شخص «بعلم أو برغبة في نفسه بالتحريض، أو مساندة أو توجيه أو تعليم الآخرين أنه من واجبهم أو من الضروري أو المناسب قلب أو إسقاط الحكومة الأمريكية» جرم يستحق العقوبة. وبعد ٣٠ عاماً، أي في عام ١٩٧١م، تم إلغاء قانون سميث على خلفية تقول بأنه من غير المناسب اعتقال وسجن مواطن أمريكي «لمجرد التفكير في ارتكاب جريمة».

في أواخر الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩ – ١٩٤٥» انتقد الدكتاتور الروسي حينئذ، جوزف ستالين ـ الذي كان حليفاً عسكرياً للولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ـ نظراءه السياسيين الأمريكيين لفشلهم في تنفيذ «التزاماتهم للثورة الشيوعية العالمية». وكرد سريع على انتقادات ستالين الحادة، أقصى الحزب الأمريكي الشيوعي قائده المعتدل في عام ١٩٤٤ ووضع سياسات عسكرية إضافية أخرى. أدى هذا التصعيد وازدياد التوتر إلى قيام

الحكومة الأمريكية باعتقال وسجن أبرز قادة الحزب. وفي عام ١٩٥٠م أصدر الكونجرس قانون حظر النشاطات المعادية، وهو جزء من التشريعات التي أعلنت «وجود حركة شيوعية دولية، هي من حيث الأصل والنشاط حركة ثورية دولية تهدف– من خلال الخيانة والخداع والتغلغل في مجموعات أخرى والتجسس والتخريب والإرهاب وغيرها من الوسائل إلى إنشاء دكتاتورية شيوعية في مختلف البلاد حول العالم. وقد أدى قانون حظر النشاطات المعادية أيضاً إلى «تأسيس مجلس مراقبة النشاطات المعادية» الذي يحقق في النشاطات «غير الأمريكية» للعديد من المواطنين والتي لم تكن جميعها شيوعية أو إرهابية.

وفي عام ١٩٥٤م أصدر الكونجرس قانون منع الشيوعية، وهي مناورة سياسية هدفت إلى حظر الحزب الشيوعي ومنعه من المشاركة في النشاطات السياسية. بعد ذلك حُكم على هذا القانون بأنه غير دستوري بحجة أنه يعاقب مجموعة غير معروفة، وأنه مع ذلك أخفق في تحديد النشاطات التي وضع أصلاً لحظرها.

ومع أن قانون حظر الشيوعية قد أخرج الحزب من السياسة الأمريكية، إلا أنه فشل في منع الشيوعيين والمتعاطفين معهم من التغلغل في صفوف الأحزاب السياسية الأخرى. وقد أدى قانون حظر النشاطات المعادية وقانون حظر الشيوعية إلى مقاطعة جزئية للحزب الشيوعي «ويش هانتس» Witch Hunts الذي كان

يترأسه السناتور الأمريكي جوزيف مكارثي «١٩٠٨ ـ ١٩٥٧». وقد تم لاحقاً رفع الشرعية عن نشاطات مكارثي التي شملت مقابلات متلفزة أمام لجنة مجلس الشيوخ التي ترأسها.

«ومن خلال التعامل مع الحزب الشيوعي في الحرب الباردة، جرت محاولة للتمييز بين الأفراد الذين يطالبون بالتغيير، وأولئك الذين يطالبون بالتغيير مع رغبة في استعمال العنف لتحقيق هذا التغيير»، بحسب قول بيتر إيرنست الذي يشرف متحفه على معرض «العدو الداخلي» الذي يتحدث عن الإرهاب داخل الولايات المتحدة الأمريكية، «كان هناك الكثيرون ممن يسعون إلى التغيير في المجتمع، ولكن الأشخاص الذين لجؤوا إلى العنف لتحقيق ذلك هم الذين اعتبروا مرفوضين في المجتمع».

المناهضون للحرب ودعاة الحقوق المدنية:

في منتصف الستينيات من القرن الماضي، بدأت العديد من المنظمات المسلحة في استخدام العنف المسلح كوسيلة لتحقيق أهدافها السياسية. وكان من بين أهم هذه المنظمات السياسية حزب «النمر الأسود» Black Panther ، الذي دعا إلى الدفاع الذاتي المسلح وإلى العنف «لتحسين حياة الفقراء السود». وأدى وجود العديد من الجماعات المسلحة التابعة لحزب النمر الأسود إلى تأسيس منظمة سُميت بجيش تحرير السود الذي قام بسرقة

البنوك وتنفيذ الهجمات واستخدام القنابل الحارقة. وقد قتل هذا الجيش ٢٠٠ من رجال القانون في أرجاء الولايات المتحدة باسم الثورة «لمقاومة تسلط البيض، والعنصرية، والاستغلال الاقتصادي للسود».

المنظمة الأخرى التي حرضت على استخدام العنف كوسيلة لتحقيق الأهداف السياسية هي «ويذر أندر جراوند Weather Underground» أي الطقس تحت الأرض، وهي مجموعة تتألف من مئات من الشباب والشابات الذين حاولوا إشعال ثورة اجتماعية في أمريكا خلال الستينيات والسبعينيات «١٩٦٠ ـ ١٩٧٠» من القرن العشرين.

ونتيجة لغضبهم بسبب الحرب الفيتنامية والعنصرية في أمريكا، فقد اشتبك هؤلاء الشباب مع أفراد الشرطة في الشوارع، وفجروا العشرات من المباني «ومن ذلك مبنى البرلمان»، وحرروا الدكتور تيموثي ليري Timothy Leary، المناهض لإساءة استعمال الأدوية، من السجن، وأصدروا بلاغاً رسمياً نُشر في العديد من الصحف ابتداءً من صحيفة نيويورك تايمز إلى ما يسمى بالصحف «المعارضة للتقاليد».

قوبلت أعمال العنف التي قام بها شباب ويذر أندر جراوند بنشاطات مكثفة قامت بها الحكومة واعتبرتها الحركات الراديكالية غير مقبولة. فعلى سبيل المثال، أقدم شباب ويذر أندر

جراوند على تفجير مركز قيادة قوات الحرس الوطني بواشنطن في عام ١٩٧١ وذلك بعد وقت قصير من قيام تلك القوات بإطلاق النار على الطلاب المحتشدين في جامعة كنت ستيت Kent State احتجاجاً على الحرب في فيتنام. وفي عام ١٩٧٣ قام شباب ويذر أندر جراوند بتفجير مكاتب البرق والهاتف الدولي التابعة لأمريكا اللاتينية بعد وقت قصير من الكشف عن قيام وكالة الاستخبارات بالمساعدة على إسقاط الرئيس التشيلي سلفادور أليندن «١٩٠٣ ـ ١٩٧٣م».

وبوجود جماعات مثل «جيش تحرير السود» و «ويذر أندر جراوند» التي حولت دائرة العنف إلى احتجاجات ضد الحرب والحقوق المدنية، فقد رد مكتب الاستخبارات الفيدرالية بإجراءات عسكرية مضادة سميت «الإجراءات المضادة للاحتجاج»، وهي إجراءات تم إعدادها لمنع العنف الذي تقوم به الجماعات المتطرفة من اليسار واليمين. غير أن العديد من هذه التكتيكات ـ مثل المراقبة غير القانونية لخطوط الهاتف والرسائل المزيفة والبحث السري ـ قد زادت من وتيرة العنف من قبل الجماعات التي تحاول القضاء عليها، وعندما اكتشفت وسائل الإعلام لجوء مكتب الاستخبارات لهذا النوع من الإجراءات غير القانونية، أدى الغضب الشعبي إلى تفكيك هذه المنظمة ووقف أية تحقيقات لاحقة تتعلق بالجماعات المحلية.

جماعات العنف المسلح وتفجير أوكلاهوما سيتي:

في ١٩ أبريل من عام ١٩٩٥ صُدم العالم بالتفجير المدمر الذي تعرض له المكتب الفيدرالي في أوكلاهوما سيتي بولاية أوكلاهوما. وقد ركز المحققون في التفجيرات أولاً على إمكانية أن يكون الفاعلون من العرب المتشددين على أساس أن حجم التفجير ونوعية المتفجرات المستخدمة في الانفجار مماثلة للتفجير الذي تعرض له مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣ ونفذه بعض الراديكاليين الإسلاميين. ولكن بعد مُضي أيام قليلة بدأ يتضح وجود مشتبه به جديد : الحركة الأمريكية اليمينية المسلحة.

اعتقد مفجرا أوكلاهوما سيتي ـ تيموثي ماكفي وتيري نيكولاس ـ أنهما في حالة حرب مع الحكومة الأمريكية. وحسب ما قاله ماكفي فأن الحكومة الأمريكية انتهكت الدستور والحريات التي يضمنها. كما أعرب ماكفي عن إيمانه بأن للناس الحق في اللجوء إلى العنف لتقويض «هذا النظام غير القانوني وهيئاته»، وأن أية ضحايا بريئة تقع بسبب هذا العنف لا تزيد عن كونها «ضرورة مصاحبة» لذلك.

وفي هذا الوقت، كان لمعتقدات ماكفي هذه صدى كبير بين أتباع الجماعات اليمينية الأمريكية المتطرفة والجماعات المدنية المسلحة المناهضة للحكومة. وقد أصبحت هذه الجماعات الجيدة التسليح نسبياً ظاهرة بارزة على خارطة الحقوق السياسية الأمريكية. كما

اتفقت هذه الجماعات على عدم ثقتها بالحكومة الفيدرالية الأمريكية واعتبرتها حكومة بيروقراطية لا تحسن إلا القمع وحياكة المؤامرات، وتفرض على مواطنيها كثيراً من القيود والإجراءات التعسفية التي تتراوح بين الضرائب غير العادلة إلى قوانين حظر الأسلحة المجحفة.

بدأت الحركات المسلحة باكتساب زخم في بداية التسعينيات عندما بدأت الحكومة الأمريكية بفرض بعض القيود على بيع واقتناء الأسلحة النارية وخاصة بعد صدور قانون عام ١٩٩٤ الذي حظر استيراد الأسلحة شبه الآلية وضرورة انتظار مدة خمسة أيام قبل شراء السلاح الشخصي.

الأمر الآخر الذي دفع بالعديد من الجماعات الأمريكية المسلحة إلى «التطرف» هو مقتل عدد من أعضاء هذه الجماعات في شهر أغسطس من عام ١٩٩٢ خلال هجوم نفذه مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI على مدينة روبي ريج في ولاية إيداهو، والحصار الذي نفذه مكتب التحقيقات الفيدرالي في ١٩ أبريل ١٩٩٣ ضد مجمع واكو السكني بتكساس وهو تابع لجماعة تطلق على نفسها أتباع داود، وهي جماعة دينية مسلحة مما أدى إلى مقتل ٧٤ شخصاً.

وبعد تفجيرات أوكلاهوما ومركز التجارة العالمي، أصدر الكونجرس قانون مكافحة الإرهاب وعقوبة الإعدام عام ١٩٩٦،

وهو إجراء قانوني أضاف عقوبات إعدام جديدة ـ ومن ذلك إمكانية تنفيذ الإعدام ـ ضد الأشخاص الذين يرتكبون أحداث عنف ضد المواطنين الأمريكيين.

الإرهاب الأمريكي في عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر

بدأت العضوية في الجماعات المسلحة ومشاعر الكراهية في التراجع مع بداية القرن الحادي والعشرين، ولكن عاد الاهتمام بذلك فجأة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية على الولايات المتحدة الأمريكية.

«لقد صدمت أحداث الحادي عشر من سبتمبر المجتمع الأمريكي، كما صدمت أيضاً مثل هذه المليشيات»، حسب قول جيمس ليد James Lide، وهو مؤرخ في شركة تتخذ من روكفيل بولاية ماريلاند الأمريكية مقراً لها، وتقوم بأعمال البحث والتحليل التاريخي لصالح ٥٠٠ شركة، إضافة إلى الحكومة الأمريكية. «لقد اعتبرت العديد من هذه المليشيات أحداث الحادي عشر من سبتمبر علامة واضحة على وجود خطأ في الولايات المتحدة الأمريكية». حتى أنه كان هناك من يظن أن للحكومة الأمريكية يداً في هذا الحدث الجلل، فيما رأت جماعات أخرى في هذا دليلاً على مدى ضعف الحكومة الأمريكية».

إن كتابة عبارة «جماعات أمريكية مسلحة» مثلاً على أي من

محركات البحث على الإنترنت سيؤدي إلى عشرات الآلاف من النتائج التي توصلك مباشرة إلى مواقع هذه الجماعات المسلحة مثل أبناء الحرية الجنوبيون، وآلة تنفيذ التعديل الأول، الحراس الحديديون، فرسان كو كلوكس كلان الغامضون، ومؤتمر جنوب تكساس، وميليشيا صحاري جنوب كاليفورنيا وغيرها. وإلى جانب احتواء هذه المواقع على عبارات تحريضية ضد الحكومة الأمريكية وضد الأقليات، فإن هذه المواقع تحوي أيضاً إرشادات حول كيفية تصنيع أسلحة الدمار الشامل. أما مسؤولو الشرطة والاستخبارات فإنهم يقومون بمراقبة هذه المواقع باستمرار، ولكن الحكومة الأمريكية رفضت مطالب الشعب والقيادات السياسية بوضع قيود قانونية على ما يُعرض على هذه المواقع.

يقول السير بروس فين Bruce Fein «أنا أعتقد أن موقع الإنترنت الذي يؤجج مشاعر الكراهية لا يختلف، من وجهة نظر الحريات الشخصية، عن الشخص الذي يقف على ناصية الطريق ويوزع المنشورات أو يتحدث في مكبر صوت». «إن الخط الفاصل بين حرية الكلمة والنشاط الإجرامي هو التحريض. فإذا قمت بتشجيع الآخرين على ارتكاب جرائم عنف، لا يعتبر هذا حرية تعبير وإنما هو مشاركة في الجريمة».

بعد دراسة تاريخ الإجراءات القانونية المفروضة على الجماعات

العسكرية المشبوهة ـ وفي غالب الأحيان بعد إلغاء هذه الإجراءات بوقت قصير– يرى السيد فين أن المجتمعات الديمقراطية تستفيد في نهاية الأمر عند محافظتها على بيئة تسمح بحرية الكلمة والتعاون بأعداد كبيرة. وأشار السيد فين كذلك إلى أن «من بين أهم الفوائد التي تفرزها حرية التعبير السماح للأشخاص بالتعبير عن مخالفتهم وعدم رضاهم بطريقة سلمية وبعيدة عن العنف، وقد يؤدي هذا أيضاً إلى التقليل من التوترات التي قد تثور لاحقاً على شكل ثورة أو أعمال عنف». ومن ناحية أخرى، يمكن استخدام حرية التعبير ـ كما فعل أدولف هتلر ـ لخلق الفوضى وتدمير الديمقراطية.

ويضيف السيد فين قائلاً : «إن حرية التعبير بهذا المفهوم ليست علاجاً دائماً». فيمكن استخدامها أيضاً ضد الديمقراطية. والمشكلة التي تواجه الحكومة الدستورية أو الديمقراطية هي معرفة متى تتجاوز حرية التعبير الخط الأحمر وتتحول من علاج إلى سبب للفوضى والدمار.

فخلال الحرب الأهلية الأمريكية واجه الرئيس إبراهام لينكولن هذا الأمر بالذات بعد تعرضه لمعارضة شديدة من معارضيه السياسيين. وعندما اتخذ لينكولن خطوته الجريئة بإقفال عدد من صحف المعارضة وإبعاد معارضيه السياسيين المتعاطفين مع الانفصاليين، برر أعماله بقوله : «ما الفائدة التي سيجنيها

مواطنونا من حرية التعبير إذا فقدوا البلد الذي يستطيعون فيه التعبير عن حرياتهم؟».

أما اليوم، فإن العديد من المراقبين يرى أن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر قد تجاوزت الحدود المنطقية ـ مع وجود العديد من الإجراءات الحكومية المتخذة لمواجهة التهديدات المحتملة ـ وقد يبرز بوضوح مدى تقييدها للحريات التي ضمنها الدستور الأمريكي.

يقول المؤرخ جيمس ليد «أنا أتفق مع معظم الانتقادات الموجهة ضد ما أسميه **عناصر ردة الفعل المفرطة** التي ردت بها الولايات المتحدة على أحداث الحادي عشر من سبتمبر». «ومن وجهة نظري الخاصة. أعتقد أن ردة الفعل هذه من قبل الحكومة الأمريكية أمر طبيعي في مثل هذه الحالة. فعند حدوث عنف بهذا الحجم والتأثير المدمر، فإن الحكومة ستجد نفسها تحت ضغوط كبيرة جداً لفعل شيء ما . ولذلك فإن الحكومة تتصرف دائماً بأسلوب يفوق الحدث. وكنتيجة حتمية لذلك، فإن مثل هذا الرد يوقع العديد من الضحايا الأبرياء، وهذا أمر مزعج ومخيف جداً. والذي يتعين علينا فعله هو أن نتعلم شيئاً في كل مرة يحدث فيها مثل هذا الحدث وأن نأمل في أن نصبح أفضل».

الفصل الثاني: أحداث ١١ سبتمبر والحملة ضد

الإرهاب والرد العادل

نعوم تشومسكي *

لاشك أن الحادي عشر من سبتمبر سوف يؤرخ في سجلات تاريخ الإرهاب بوصفه لحظة حاسمة. فلقد أدان العالم بأسره تلك الاعتداءات الوحشية ووصفها بأنها جرائم ضد الإنسانية. وهناك اتفاق يكاد يكون دولياً على أن جميع الدول يجب أن تعمل على تخليص العالم من الأشرار، وعلى أن "بلاء الإرهاب" وخاصة الإرهاب المدعوم من دول، هو وباء انتشر على أيدي أعداء الحضارة في عودة إلى الهمجية، وهو ما لا يمكن السكوت عليه. ولكن، على الرغم من الدعم القوي لكلمات القيادة السياسية الأمريكية، ممثلة على التوالي بالرئيس جورج بوش والرئيس رونالد ريجان ووزير خارجيته شولتز[١]، فإن التفسيرات قد تنوعت بشأن مسألة الرد الملائم على جرائم الإرهاب من منظور ضيق، وبشأن المشكلة في تحديد طبيعة الإرهاب من منظور أوسع.

* المفكر والفيلسوف العالمي المعروف ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

ففيما يتعلق بشأن تحديد طبيعة الإرهاب، فقد ورد تعريف رسمي أمريكي يرى بأن الإرهاب هو "الاستخدام المدروس للعنف، أو التهديد بالعنف، لتحقيق أهداف سياسية أو دينية أو ذات طبيعة أيديولوجية.. من خلال التخويف أو الإكراه أو إثارة الذعر"[٢]. وهذه الصيغة تترك كثيراً من التساؤلات بدون إجابة. ومن بين هذه التساؤلات، مشروعية الأعمال التي تنفذ من أجل الحصول على "الحق في تقرير المصير والحرية والاستقلال، وفقاً لنصوص وثيقة الأمم المتحدة بالنسبة للشعوب المحرومة من ذلك الحق، وخاصة تلك الشعوب التي ترزح تحت نير الاستعمار والأنظمة العنصرية والاحتلال الأجنبي...". وفي أقوى إداناتها لجريمة الإرهاب، صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على مثل هذه الأعمال[٣].

ولتوضيح السبب وراء تصويتهما السلبي، أشارت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل إلى النص المذكور آنفاً، والذي يفهم منه أنه يبرر المقاومة ضد نظام جنوب أفريقيا، وهو التحالف مع الولايات المتحدة الذي كان مسؤولاً عن موت أكثر من ١ر٥ مليون نسمة، وأضرار بلغت أكثر من ٦٠ بليون دولار في دول مجاورة خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨م وحدها، وهما بذلك تغضان الطرف عن أعمالهما هناك، وقد تزعم المقاومة المؤتمر الوطني الأفريقي بقيادة نلسون مانديلا، أحد "أبرز المجموعات الإرهابية" حسب

تقرير البنتاجون لعام ١٩٨٨م مقارنة بمجموعة "رينامو" المؤيدة لجنوب أفريقيا، التي يصفها التقرير نفسه بأنها مجرد "مجموعة أهلية متمردة"، بينما يشير إلى أن ضحاياها قد يصلون إلى مئة ألف من المدنيين في موزمبيق خلال العامين السابقين[٤]. وقد استخدم النص ذاته لتبرير مقاومة الاحتلال العسكري الإسرائيلي الذي كان قد مضى عليه حينئذ عشرين سنة وما زال يواصل ضم المناطق المحتلة ويواصل ممارساته الوحشية بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية، ومساندة الدبلوماسية التي تحاول أن تسد الطريق أمام الوعي الدولي العميق بشأن التسوية السلمية[٥].

على الرغم من هذه الخلافات الجوهرية، فإن التعريف الرسمي للولايات المتحدة الأمريكية يبدو لي أنه كاف للغايات التي بين أيدينا[٦] مع أن تلك الخلافات تلقي بعض الضوء على طبيعة الإرهاب، كما ينظر إليه من وجهات نظر مختلفة.

ودعونا نرجع إلى مسألة الرد الصحيح، فالبعض يرى أن شر الإرهاب "حتمي" ويستحق "نظاماً حتمياً متبادلاً" للرد عليه[٧]. وذلك قد يبدو أنه يقصد هجوماً عسكرياً ضارياً حسب مبدأ بوش، الذي نوه إليه بصورة جلية في التجمع الأكاديمي الذي عقد حول "عصر الإرهاب" حين قال: "... إذا آويت إرهابيين فأنت إرهابي؛ وإذا ساعدت إرهابيين فأنت إرهابي، وسوف تعامل على أنك واحد منهم". وتلقى هذه النغمة صدى واسعاً في الغرب الذي يرى أن

الرد الأمريكي ـ البريطاني على الإرهاب صحيح و "مدروس" بشكل ملائم، ولكن نطاق ذلك الإجماع يبدو أنه محدود، بالنظر إلى الدليل المتاح الذي نرجع إليه.

وبصورة أكثر عمومية، من الصعب أن نجد أي شخص يستطيع أن يقبل المبدأ الذي يرى أن التفجيرات المدمرة هي الرد الصحيح على جرائم الإرهاب... سواءً أكانت جرائم الحادي عشر من سبتمبر، أو جرائم أسوأ منها، والتي لسوء الحظ، يمكن أن تقع بدون عناء، إلا أن ذلك يمكن أن يطبق إذا تبنينا مبدأ العالمية: إذا كان عملاً صحيحاً (أو خاطئاً) بالنسبة للآخرين، فإنه صحيح (أو خطأ) بالنسبة لنا. أما أولئك الذين لا يرتقون إلى الحد الأخلاقي الأدنى ليطبقوا على أنفسهم المعايير التي يطبقونها على الآخرين... بل يطبقون مبادئ أكثر صرامة، لا يمكن أن تؤخذ بجدية عندما يتحدثون عن صحة الرد، أو عن الصحيح والخطأ، والخير والشر.

ولتوضيح ما هو مطروح للنقاش، نأخذ قضية بعيدة عن التطرف، لكنها ليست موضع جدل، على الأقل بين أولئك الذين يكنون بعض الاحترام للقانون الدولي والتزامات المعاهدات الدولية. ما كان لأحد أن يؤيد التفجيرات "النيكاراجوية" في واشنطن عندما رفضت الولايات المتحدة أمر محكمة العدل الدولية لإنهاء "استخدامها غير المشروع للقوة" ودفع تعويضات كبيرة، واختيارها بدلاً من ذلك تصعيد جرائم الإرهاب الدولية وتوسيعها

رسمياً إلى هجمات على أهداف مدنية غير مسلحة، وكذلك إعلانها الفيتو ضد قرار مجلس الأمن الذي يدعو جميع الدول لاحترام القانون الدولي، لتصوت وحدها في الجمعية العامة (مع واحدة أو اثنتين من الدول الموالية) ضد قرارات مشابهة، وقد رفضت الولايات المتحدة قرار محكمة العدل الدولية على أساس أن "دولاً أخرى لا تتفق معنا، لذلك يجب علينا أن نحتفظ لأنفسنا بالقوة في تحديد ما إذا كانت المحكمة ذات اختصاص قضائي علينا في قضية معينة"، وما يقع "أساساً ضمن الاختصاص القضائي المحلي للولايات المتحدة الأمريكية"... وفي هذه الحالة، الهجمات الإرهابية على نيكاراجوا[٨].

وفي هذه الأثناء، استمرت واشنطن في تجاهل الجهود الإقليمية للوصول إلى تسوية سياسية، وذلك بعد المبدأ الذي صاغه المعتدل في الإدارة الأمريكية جورج شولتز (George Shultz): وهو أن الولايات المتحدة يجب أن "تستأصل (السرطان النيكاراجوي) بالقوة". وقد رفض شولتز بازدراء أولئك الذين يؤيدون "الوسائل الوهمية الشرعية مثل التوسط الخارجي، الأمم المتحدة، ومحكمة العدل الدولية"، وتجاهل في الوقت ذاته عنصر القوة في المعادلة. وقد أعلن قائلاً: "إن المفاوضات هي عبارة عن تعبير لطيف عن الاستسلام المشروط إذا كانت ظلال القوة غائبة عن طاولة المفاوضات" وقد استمرت واشنطن في الالتزام بمبدأ شولتز عندما

وافق رؤساء دول أمريكا الوسطى على خطة سلام في ١٩٨٧م على الرغم من اعتراضات الولايات المتحدة القوية، وهناك مثلاً اتفاقات إسكويبولاس (Esquipulas Accords) التي دعت جميع دول المنطقة إلى السير نحو الديمقراطية وحقوق الإنسان تحت الإشراف الدولي، مع التركيز على أن "العامل الأساسي الذي لا مفر منه" هو إنهاء هجوم الولايات المتحدة على نيكاراجوا، وقد ردت واشنطن على ذلك بتوسيع الهجوم بصورة كبيرة وضاعفت حملات المخابرات الأمريكية على الهجمات الإرهابية.

وأعفت واشنطن نفسها من الاتفاقيات، ومن ثم تجاهلتها فعلياً، واستمرت في عمل الشيء نفسه بالنسبة للأنظمة التابعة لها، مستخدمة مادة القوة لتفكيك لجنة التحقيق الدولية (International Verification Commission)، لأن مرئياتها التي توصلت إليها لم تكن مقبولة، وتطالب بمراجعة الاتفاقيات لتعطي الدول الموالية للولايات المتحدة الحرية في الاستمرار في اعتداءاتها الإرهابية، وقد تجاوزت هذه حتى حرب الولايات المتحدة المدمرة ضد نيكاراجوا التي خلفت عشرات الآلاف من القتلى وخلفت دماراً هائلاً في البلاد يصعب إصلاحه، ومع استمرار الولايات المتحدة في تبني مبدأ شولتز، أجبرت الولايات المتحدة حكومة نيكاراجوا، تحت التهديد الشديد، على أن تسقط مطالبتها بالتعويضات التي أقرتها محكمة العدل الدولية[٩].

ومن الصعب أن نجد مثالاً أوضح من ذلك على الإرهاب الدولي حسب تعريفه الرسمي، أو في الثقافة من: العمليات التي تهدف إلى : "إظهار أن النظام القائم لا يستطيع أن يحمي الناس الواقعين اسمياً تحت سلطاته، من خلال العنف الواضح غير التمييزي"، وبالتالي لا يسبب "التوتر فحسب، ولكن الانسحاب من العلاقات التي تكون النظام الموضوع للمجتمع"[١٠] كما يعتبر إرهاب الدولة في مناطق أخرى في أمريكا الوسطى في تلك السنوات إرهاباً دولياً، على ضوء دور الولايات المتحدة المؤثر والأهداف التي يعبر عنها أحياناً بصراحة من الكلية العسكرية لدول أمريكا ـ على سبيل المثال ـ التي تدرب ضباط أمريكا اللاتينية وتفتخر بحقيقة أن "نظرية التحرير قد هزمت بمساعدة جيش الولايات المتحدة الأمريكية"[١١].

يبدو أنه من الواضح جلياً أن أولئك الذين يؤيدون تفجيرات واشنطن رداً على تلك الجرائم الإرهابية الدولية ـ التي لا يقبلها أحد ـ هم فقط الذين يمكنهم قبول "عقيدة حتمية متبادلة" رداً على الاعتداءات الإرهابية، أو يعتبرون التفجيرات المدمرة على أنها الرد السليم والملائم من وجهة نظرهم على ذلك.

ولنلق نظرة على الحجج الشرعية التي قدمت لتبرير ضرب الولايات المتحدة وبريطانيا لأفغانستان، ولا أهتم بمدى صحتها، ولكن بمضامينها، لو تم الالتزام بمبدأ المعايير الموحدة، يقول

كريستوفر جرينوود(Christopher Greenwood) إن الولايات المتحدة لها الحق في "الدفاع عن نفسها" ضد أولئك الذين قتلوا أو هددوا بالموت والدمار"، مستشهداً بحكم محكمة العدل الدولية في قضية نيكاراجوا، والفقرة التي يستشهد بها تتسق بوضوح أكبر مع حرب الولايات المتحدة ضد نيكاراجوا أكثر من اتساقها على طالبان أو القاعدة، لذلك، فلو طبقت لتبرير الهجمات المكثفة للولايات المتحدة والهجوم الأرضي في أفغانستان، فإن نيكاراجوا كان يجب أن يكون لها الحق في تنفيذ هجمات أكثر ضراوة على الولايات المتحدة. ويؤيد توماس فرانك (Thomas Franck) ـ أستاذ القانون الدولي المعروف ـ حرب الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على أساس أن "الدولة مسؤولة عن عواقب إتاحة استخدام أراضيها لضرب دولة أخرى"، قول جميل، وينطبق بالتأكيد على الولايات المتحدة في حالة نيكاراجوا وكوبا والعديد من الأمثلة الأخرى، وفيها بعض الأمثلة التي كانت شديدة الضراوة[١٢].

وغني عن القول أنه في أي من تلك الحالات فإن العنف في "الدفاع عن النفس" ضد الأعمال المستمرة من "القتل والدمار"، لن يُعدّ مقبولاً كعمل وليس مجرد تهديد.

وهذا يظهر الفرق الدقيق الذي لا يكاد يدرك بين العروض التي تتناول الرد الملائم للاعتداءات الإرهابية. ويقترح مايكل هوارد

(Michael Howard) المؤرخ العسكري "عملية بوليسية تنفذ تحت ستار الأمم المتحدة... ضد مؤامرة إجرامية، يجب القبض على مدبريها وتقديمهم إلى محاكمة دولية، حيث ينالون محاكمة عادلة، وعند ثبوت تورطهم، يصدر بحقهم الحكم المناسب" هذا الكلام معقول جداً بالرغم من أن فكرة تطبيق العرض على مستوى دولي لا يمكن التفكير بها، ويقول مدير مركز سياسات حقوق الإنسان في جامعة هارفارد إن "الرد العاقل والوحيد على أعمال الإرهاب يكون من خلال عمل الشرطة الأمين والمحاكمة العادلة في المحاكم القضائية التي تعقد لتقرر استخدام القوة العسكرية ضد أولئك الذين لا يمكن جلبهم وتقديمهم إلى العدالة" (١٣) وهذا أيضاً يبدو معقولاً، إذا أضفنا قول هوارد عن الإشراف الدولي، وإذا كان اللجوء إلى القوة يتم بعد استنفاد الوسائل القانونية، وبناءً عليه، فإن هذا الاقتراح لا ينطبق على الحادي عشر من سبتمبر (رفضت الولايات المتحدة الأمريكية تقديم أدلة وردت عروضاً متكررة بشأن نقل المشتبه بهم)، ولكنه ينطبق بوضوح على نيكاراجوا.

كما ينطبق بوضوح أيضاً على قضايا أخرى. فلو أخذنا هاييتي، التي قدمت أدلة كافية في دعواتها المتكررة لتسليم المتهم الهارب إيمانويل كونستانت، الذي وجه القوات المسؤولة عن آلاف القتلى تحت المجلس العسكري الانقلابي الذي كانت تسانده الولايات المتحدة الأمريكية، وتجاهلت الولايات المتحدة تلك الطلبات، ربما

بسبب الأمور التي يمكن أن يكشف عنها كونستانت في حال خضوعه للمحاكمة، وكان آخر طلب في ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١م، بينما كانت الولايات المتحدة تطالب بأن تقوم طالبان بتسليم بن لادن (١٤)، وتم تجاهل هذا التوافق أيضاً، بما يتفق مع المبدأ القائل بوجود رفض الحد الأدنى من المعايير الأخلاقية.

بالعودة إلى "الرد المسؤول" فإن الدعوة إلى تطبيقه حيثما يبدو قابلاً للتطبيق سوف تخلق فقط العنف والتمرد.

وقد خرج البعض بمبادئ أكثر عمومية لتبرير حرب الولايات المتحدة الأمريكية ضد أفغانستان، حيث يقترح اثنان من أساتذة جامعة أكسفورد مبدأ "التناسب" ومفاده: "تتحدد مدى قوة الرد بمدى قوة تعارض الاعتداء مع القيم الأساسية في المجتمع الخاضع للهجوم"، وفي حالة الولايات المتحدة، "الحرية لمواصلة التطور الذاتي في مجتمع متعدد الأعراق من خلال اقتصاديات السوق"، التي هوجمت في الحادي عشر من سبتمبر من قبل "معتدين... يحملون معتقدات أخلاقية مختلفة عن تلك التي يؤمن بها الغرب". وحيث إن "أفغانستان تشكل دولة وقفت مع المعتدي"، ورفضت مطالب الولايات المتحدة لدرء الشكوك عن نفسها، فإن "الولايات المتحدة وحلفاءها، وفقاً لمبدأ قوة التدخل، يمكن أن تلجأ إلى القوة ضد حكومة طالبان" (١٥).

ومن منطلق مبدأ العالمية، فإن هاييتي ونيكاراجوا يمكنهما

"اللجوء بصورة مبررة وأخلاقية" إلى قوة أكبر ضد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، وتتسع هذه النتيجة إلى أبعد من هاتين الحالتين، بما يشمل حالات أكثر شدة وحتى أعمالاً أكثر طيشاً من إرهاب الدولة الغربية مثل ضرب الرئيس كلينتون لمصنع الشفاء للأدوية في السودان عام ١٩٩٨م، مما أدى إلى "عشرات الآلاف من القتلى" وفقاً لما أعلنه السفير الألماني ومصادر أخرى موثوقة، تتفق نتائجها مع التقديرات المباشرة للمراقبين المطلعين(١٦). بناءً عليه، فإن مبدأ التناسبية يخول السودان الحق، كل الحق في أن تقوم باعتداءات إرهابية رداً على ذلك العمل، وهذه النتائج التي يمكن تدعيمها إذا تبنينا وجهة النظر القائلة بأن هذا العمل الذي قامت به "الإمبراطورية" له "عواقب مرعبة على الاقتصاد والمجتمع السوداني بدرجة تجعل ذلك الاعتداء أكثر سوءاً من جرائم الحادي عشر من سبتمبر، التي كانت مرعبة أيضاً، ولكن لم يكن لها نفس العواقب(١٧).

ويرتبط الجزء الأكبر من التعليق على ضرب السودان بسؤال رئيس هو: هل كان المصنع يصنع أسلحة كيماوية؟ وسواء" أكان ذلك صحيحاً أم لا، فإنه لا يتناسب مع "الضخامة التي مارسها الاعتداء على القيم الرئيسة في المجتمع الذي تعرض للهجوم، مثل قيمة الحياة، ويشير آخرون إلى أن عمليات القتل لم تكن مقصودة، وهو الحال نفسه في أي عمليات شنيعة نعمل على رفضها. وفي

هذه الحالة من الصعب أن نرتاب في أن العواقب الإنسانية المحتملة كانت مفهومة لدى المخططين الأمريكيين، وهكذا، يمكن تبرير هذه الأعمال فقط بموجب افتراض هيجل، أن الأفارقة هم "مجرد أشياء"، ليست لحياتهم "أي قيمة"، وهو موقف يتلاءم مع طبيعة العمل بطرق لا يتم التغاضي عنها بين الضحايا الذين يبنون استنتاجاتهم حول "الالتزام الأخلاقي لدى الغرب".

وقد أفاد أحد المشاركين في مجلد يال (Yale, Charles Hill)(تشارلز هيل) بأن الحادي عشر من سبتمبر فتح الحرب الثانية "على الإرهاب" وكانت الحرب الأولى قد أعلنت من قبل إدارة الرئيس ريجان عند توليها الحكم قبل عشرين عاماً من ذلك التاريخ، مع الخطابات البلاغية التي أوضحت من قبل، و"نحن ربحنا" كما يفيد هيل بنشوة النصر على الرغم من أن الوحش الإرهابي جرح فقط ولم يذبح(١٨). وقد أثبت "عصر الرعب" الأول أنه كان قضية رئيسة في الشؤون الدولية عبر ذلك العقد من الزمن، وخاصة في أمريكا الوسطى، وأيضاً في الشرق الأوسط، حيث اختار المحررون الإرهاب ليكون قصتهم الكبرى لعام ١٩٨٥م ونال اهتماماً كبيراً أيضاً في سنوات أخرى.

وبالإمكان أن نتعلم الكثير عن الحرب الحالية على الإرهاب من خلال الاستفسار عن المرحلة الأولى، وكيف يتم تصويرها الآن. يصف أحد الرواد الأكاديميين حقبة الثمانينات على أنها حقبة

"إرهاب الدولة" التي شهدت "انخراط الدولة المقصود، أو رعايتها للإرهاب، وخاصة بواسطة ليبيا وإيران" أما الولايات المتحدة فإنها قامت فقط بتبني "موقف مناهض للإرهاب" ويقترح آخرون أن الطرق التي "نحن ربحنا" بها: إن العمليات التي أدينت فيها الولايات المتحدة من قبل محكمة العدل الدولية ومجلس الأمن (على الرغم من استخدام الفيتو) هي نموذج لـ "مساندة خصوم طالبان بطريقة مشابهة لنيكاراجوا (وخاصة حلف الشمال)". وقد وجد أحد المؤرخين البارزين جذوراً عميقة لإرهاب أسامة بن لادن في جنوب فيتنام، حيث "فاعلية رعب المقاومين الفيتناميين ضد المهاجم الأمريكي المسلح بالتكنولوجيا الحديثة قد أشاعت الشعور بالأمل في أن تكون أراضي الغرب معرضة للخطر أيضاً"[١٩].

وتمشياً مع المتبع، فإن هذه التحليلات تصور الولايات المتحدة على أنها ضحية بريئة، تدافع عن نفسها ضد إرهاب الآخرين: الفيتناميين (في جنوب فيتنام)، والنيكاراجويين (في نيكاراجوا)، والليبيين والإيرانيين والقوات الأخرى المناهضة لأمريكا في أنحاء العالم.

لا يرى كل الناس العالم بطريقة واحدة. فأكثر الأماكن بروزاً للنظر إليها هو أمريكا الجنوبية التي عايشت خبرات واسعة مع الإرهاب الدولي. لقد أدينت جرائم الحادي عشر من سبتمبر بشدة، ولكن عادة مع تذكر التجارب التي تخص كل شعب على حدة، وقد

يصف المرء اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر على أنها "هرمجدون" أو المعركة الفاصلة، كما أشارت جريدة الأبحاث العلمية بالجامعة اليسوعية في ماناجوا، ولكن نيكاراجوا قد "عاشت معركتها الفاصلة لكن بالحركة البطيئة القاتلة" تحت اعتداء الولايات المتحدة الأمريكية" وهي الآن مغمورة في عواقب العدوان الوخيم" كما عانى آخرون أسوأ من ذلك في ظل الوباء المنتشر لإرهاب الدولة الذي اكتسح القارة بداية من مطلع الستينيات من القرن الماضي، والذي يعود معظمه إلى واشنطن. وقد انضم أحد الصحافيين البنميين إلى الإدانة العامة لجرائم الحادي عشر من سبتمبر، ولكنه أعاد إلى الذاكرة وفاة الآلاف من الفقراء (جرائم الغرب التي لم تدرس) عندما قام والد الرئيس بتفجير باريو كوريلو في ديسمبر ١٩٨٩م في عملية مبررة، نفذت لخطف سفاح منشق حكم عليه بالسجن مدى الحياة في فلوريدا وذلك على جرائم كثيراً ما ارتكبت أثناء عمله في المخابرات الأمريكية، وقد أشار الكاتب إدواردو جالينو من أوروجواي إلى دعاوى الولايات المتحدة المتكررة لمعارضة الإرهاب، ولكنها فعلياً تسانده على مستوى العالم: "في أندونيسيا، في كولومبيا، في إيران، في جنوب أفريقيا،... وفي دول أمريكا اللاتينية التي عاشتها خلال حرب الكندور القذرة" التي أقامها الديكتاتوريون العسكريون في أمريكا الجنوبية الذين حكموا بالرعب بدعم من

الولايات المتحدة الأمريكية[٢٠].

وتنتقل بنا الملاحظات إلى موضوع التركيز الثاني لـ "حرب الرعب الأولى: وهو غرب آسيا. وقد كان أسوأ اعتداء هو غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢م الذي خلف نحو عشرين ألف قتيل وخلف دماراً في كثير من أنحاء البلاد وفيها بيروت نفسها. مثل غزوات رابين ـ بيريز القاتلة والمدمرة في ١٩٩٣م و ١٩٩٦م. كان هجوم ١٩٨٢م يحمل القليل من مبررات الدفاع عن النفس. وقد أظهر رافول ايتمان رئيس الأركان الإسرائيلي المفهوم العام لإسرائيل عندما أعلن أن الهدف هو "تدمير منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها مرشحاً للمفاوضات معنا بشأن أرض إسرائيل "[٢١]. وكما قال جيمس بينيت مراسل الشرق الأوسط، كان الهدف "هو زرع نظام حكم صديق وتدمير منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات" "وإذا نجحت تلك النظرية، فإن ذلك سيساعد على إقناع الفلسطينيين بقبول حكم إسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة"[٢٢] قد يكون ذلك هو أول الاعترافات في خط الحقائق التي انتشرت في حينه في إسرائيل، والتي كانت من قبل تظهر في الكتابات المعارضة في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد نفذت تلك العمليات باستخدام القوة العسكرية الغاشمة والمساندة الدبلوماسية لحكومات ريجان وكلينتون، وبالتالي فهي

تمثل إرهاباً دولياً، كما انخرطت الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً في أعمال إرهابية في الثمانينيات من القرن الماضي، ومن ذلك أكثر الاعتداءات المتطرفة في عام ١٩٨٥م: تفجير السيارة الذي نفذته المخابرات الأمريكية في بيروت ونتج عنه مقتل ٨٠ شخصاً وإصابة ٢٥٠ من المدنيين، وتفجير شيمون بيريز في تونس الذي قتل ٧٥ شخصاً، بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية وأثنى عليه وزير الخارجية شولتز، والذي أدين بالإجماع من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ووصفه بأنه " عمل عدوان مسلح" (امتنعت الولايات المتحدة الأمريكية عن التصويت) وعمليات القبضة الحديدية لشمعون بيريز التي وجهت ضد "القرويين الإرهابيين" في لبنان، التي وصلت إلى أعماق جديدة من "الوحشية المحسوبة والقتل العمد" حسب قول أحد الدبلوماسيين الغربيين الذي عنده علم بقضايا المنطقة، ومغطاة بدعم مباشر.[٢٢] مرة أخرى فإن كافة أشكال الإرهاب الدولي هي جرائم عدوان وحروب ضارية.

وينظر إلى عام ١٩٨٥م في الصحافة والثقافة المتعلقة بالإرهاب على أنه عام الذروة في الإرهاب بالشرق الأوسط. ولكن ليس بسبب هذه الأحداث: بل بسبب اعتداءين إرهابيين قتل فيهما شخص واحد، وكان في كلتا الحالتين أمريكياً.[٢٤] ولكن الضحايا لم ينسو هكذا بسهولة.

وهذا التاريخ الحديث جداً يمثل أهمية إضافية حيث إن بعض

الرواد في "الحرب على الإرهاب" المعلنة مجدداً لعبوا دوراً مهماً في تاريخ هذه الحرب، ويقود جون نيجروبونتي الجانب الديبلوماسي في المرحلة الحالية حيث كان يعمل سفيراً لأمريكا في عهد الرئيس ريجان لدى هندوراس التي تعتبر قاعدة الاعتداءات الإرهابية التي أدينت حكومته بشأنها من قبل محكمة العدل الدولية، وأدينت بسبب الإرهاب الذي تدعمه دولة الولايات المتحدة الأمريكية في أماكن أخرى من أمريكا الوسطى، وهي أنشطة "جعلت سنوات ريجان أسوأ حقبة بالنسبة لأمريكا الوسطى منذ الاحتلال الأسباني لها"، وغالباً ما كان ذلك تحت نظر نجروبونتي [٢٥] أما العنصر العسكري للمرحلة الجديدة فقد قاده دونالد رامسفيلد، مبعوث ريجان الخاص إلى الشرق الأوسط خلال السنوات التي شهدت أسوأ اعتداءات إرهابية هناك، التي قادتها أو دعمتها حكومته.

ولا يخفى عليكم أن تلك الاعتداءات لم تخمد خلال السنوات التي تلت. وعلى وجه الخصوص مساهمة واشنطن في "زيادة الإرهاب" باستمرار المواجهة بين العرب وإسرائيل. وهذا الاصطلاح "زيادة الإرهاب" هو للرئيس بوش وكان يقصد به وفقاً للمواثيق، أن تنطبق على الإرهاب الصادر من الآخرين. وبغض النظر عن مواثيق المؤتمر فإننا نجد مرة أخرى بعض الأمثلة المهمة، ومن أبسط السبل التي تزيد الإرهاب المشاركة والمساهمة فيه، على سبيل المثال، بإرسال طائرات هليكوبتر

تستخدم للهجوم على مجمعات سكنية مدنية وتنفيذ اغتيالات، كما اعتادت أن تفعل الولايات المتحدة وهي على دراية كاملة بالعواقب، والمساهمة الأخرى هي منع إرسال مراقبين دوليين للحد من العنف، وقد أصرت الولايات المتحدة على هذا النهج، ومرة أخرى صوتت ضد قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بهذا الشأن في ١٤ ديسمبر ٢٠٠١م.

يذكر أن التقارير الصحافية أغضبت كثيراً الرئيس بوش إذ كانت تدعم الموقف الفلسطيني لإرسال مراقبين دوليين إلى المناطق الفلسطينية بموجب قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وغضب بوش من انضمام عرفات إلى باقي العالم في دعواه لإيجاد وسائل لتخفيف العنف [٢٦].

وقبل عشرة أيام من استخدام الفيتو ضد إرسال مراقبين، قاطعت الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمراً دولياً في جنيف أعاد تأكيد إمكانية تطبيق ميثاق جنيف الرابع على المناطق المحتلة، بدرجة جعلت ممارسات الولايات المتحدة وإسرائيل في فلسطين جرائم حرب، وكشفت عن الخروقات الأخرى التي تعد من أخطر جرائم الحرب، وتشتمل هذه الممارسات على تمويل الولايات المتحدة لعمليات الاستيطان الإسرائيلية، وممارسة "القتل العمد والتعذيب والترحيل غير الشرعي والحرمان من حقوق العدالة والمحاكمات الشرعية، والتدمير الواسع ومصادرة الممتلكات... تلك

الممارسـات التي نفذت بوحـشـيـة غـاشـمـة مخـالفـة الشـرعـيـة الدولية " [٢٧].

إن الميثاق الذي وضـع ليجرم رسمياً جرائم النازيين في أوروبا المحتلة، وهو مبدأ أساسي لقانون حقوق الإنسان الدولي، وقد تأكد مراراً تطبيق الميثاق على المناطق المحتلة من قبل إسـرائيل، من بين أحداث أخرى، من قبل سفير الأمم المتحدة جورج بوش (سبتمبر ١٩٧١م) ومن قبل قـرارات مـجلس الأمن: ٤٦٥ (١٩٨٠م)، حـيث تبنى بالإجمـاع، وأدان ممارسـات إسـرائيل المدعومـة من الولايات المتحدة معتبراً أنها " خروقات فاضـحة " للميثـاق: ١٣٢٢ (أكتوبر ٢٠٠٠)، وامتناع الولايات المتحدة عن التصويت على القرارات التي دعت إلى التزام إسـرائيل وتحملها مسؤولياتها عن خرق ميثاق جنيف الرابع، الذي كانت تخترقه مـراراً في ذلك الوقت. وحيث إن الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الأوروبيةمرتبطة بمواثيق قـوية تلزمـهـم باعتقـال ومـحاكـمـة المسؤولـين عن تلك الجـرائم، وفـيـهـا قـيـاداتهم إذا كـانوا أطرافـاً فـي تلك الجـرائم، وباسـتمرار تلك الأطراف في رفض ممارسـة ذلك الواجب، فـإنهم يزيدون الإرهاب مباشرة وبشكل مؤثر.

إن استقصـاء النزاعات الأمريكية ـ الإسـرائيليـة ـ العربية سوف يقودنا بعيداً في هذا الميدان، فـدعونا نتجه قليلاً إلى الشمـال، إلى منطقـة أخـرى حـيث يمارس "إرهـاب الدولة " على نطاق واسـع،

وإنني أسـتعير المصطلح من وزير الدولة التركي لحقوق الإنسان، مشـيراً إلى الاعتداءات الواسعة في عـام ١٩٩٤م، عندما أعيد عالم الاجتماع إسـماعيل بيزكجي إلى السجن بعد نشره لكتابه "إرهاب الدولة في الشـرق الأدنى " ، حـيث كـان قـد قضى ١٥ عـامـاً في السجن لتسجيله القمع التركي للأكراد.[٢٨] وقد أتيحت لي الفرصة أن أرى بعض العواقب عند زيارتي للعاصمة غير الرسمية للأكراد (ديار بكر) بعد عدة أشهر من أحداث الحادي عشر من سبتمبر. كما في أمـاكن أخرى، وقد أدينت جرائم الحـادي عشر من سبتمبر بشـدة، ولكن لم تخل الإدانة من تذكر الهجوم الهمجي الذي عـانت منه الشعوب على أيدي أولئك الذين ينصبون أنفسهم لـ " تخليص العالم من الأشـرار " وعملائهم المحليين، وبحلول عـام ١٩٩٤م قدر وزير الدولة التركي وآخرون أن مليونين قد أخرجوا من المناطق المدمرة، والكثير بعد ذلك، وبالكثير من التعذيب البربري والإرهاب الذي ورد تفصـيلاً في تقارير حقوق الإنسان الدولية، ولكنه حفظ بعـيداً عن أعين أولئك الذين يدفعون الفواتير. كما قتل عشـرات الآلاف، والباقون والذين تفوق شـجاعتهم كل وصف أصبحوا يعيشون في زنازين محصنة حيث لا تسمع حتى محطات الراديو، ويعتقل الصحافيون عندما يعزفون موسيقى كردية، وكمـا يعتقل الطلاب ويعـذبون بسـبب تقـديمهم لطلبـات لكي يدرسـوا باللغة الخـاصـة بهم، ويمكن أن تكون هناك عقـوبات شـديدة إذا وجـد

أطفال يرتدون الملابس الوطنية الكردية تنفذها قوات الأمن القمعية، وقد حوكم المحامي النزيه الذي يرأس منظمة حقوق الإنسان بعد مغادرتي بقليل بسبب تلفظه لكلمات كردية بدلاً من الكلمات التركية في احتفالات السنة الجديدة وغيره وغيره.

إن هذه الأحداث تقع تحت فئة الإرهاب الدولي الذي ترعاه الدولة، وقد قدمت الولايات المتحدة الأمريكية ٨٠٪ من الأسلحة، التي وصلت لذروتها في عام ١٩٩٧م، عندما تجاوز تحويل الأسلحة ما تم تحويله خلال كامل فترة الحرب الباردة، قبل أن تبدأ الحملة المضادة للإرهاب في عام ١٩٨٤م، وأصبحت تركيا على رأس مستقبلي الأسلحة الأمريكية في العالم، وهو وضع احتفظت به حتى عام ١٩٩٩م عندما انتقلت الشعلة إلى كولومبيا، رائدة الممارسين لإرهاب الدولة في نصف الكرة الأرضية الغربي.[٢٩].

كما أن إرهاب الدولة "يزداد ويقوى" أيضاً من خلال الصمت والمراوغة. وقد كان الإنجاز مرموقاً بشكل خاص على خلفية الكورس غير المسبوق من تهنئة الذات بدخول السياسة الخارجية الأمريكية "مرحلة نبيلة" تتميز بـ "إشعاع مقدس"، تحت توجيه القادة الذين كرسوا أنفسهم لأول مرة في التاريخ لـ "المبادئ والقيم" أكثر من اهتماماتهم المحدودة.[٣٠]. وكان الدليل على مرحلة القداسة الحديثة عدم رغبتهم في السكوت على جرائم بالقرب من حدود حلف الناتو ـ ضمن حدوده فقط، حيث كانت

الجرائم الأسوأ التي لم تكن رداً على هجمات الناتو، لا يمكن السكوت عليها فحسب ولكن تلزم مشاركة شجاعة بدون تعليق.

لم يمض إرهاب الدولة التركي المدعوم من الولايات المتحدة دون ملاحظة، فقد خص التقرير السنوي لوزارة الخارجية الأمريكية تركيا بالذكر نتيجة لـ«ممارستها الإيجابية في مقاومة الإرهاب وذلك عن جهود واشنطن لمكافحته»، بالإضافة إلي الجزائر وأسبانيا، الزملاء الثمينون. وقد ورد ذلك بدون تعليق في قصة وردت في الصفحة الأولى في النيويورك تايمز على لسان المختص بالإرهاب، في صحيفة رائدة تتناول الشؤون الدولية، ويفيد السفير روبرت بيرسون بأن الولايات المتحدة "لم يكن لها أن تجد صديقاً ولا حليفاً أفضل من تركيا" في جهودها "للحد من الإرهاب" حول العالم، ويرجع الفضل في ذلك إلى "إمكانات قواتها المسلحة" التي برزت في "حملتها ضد الإرهاب" في المناطق الكردية الجنوبية الشرقية.

لذلك "لم يكن من المدهش" أن تنضم تركيا إلى "الحرب على الإرهاب" التي أعلنها جورج بوش، معبرة عن شكرها للولايات المتحدة الأمريكية لجعلها الدولة الوحيدة الراغبة في تقديم المساندة اللازمة لاعتداءات سنوات كلينتون ـ التي ما زالت مستمرة، على الرغم من أنها بدرجة أقل جعلتنا الآن "نحن نربح" وكمكافأة لإنجازاتها، تقوم الولايات المتحدة حالياً بتمويل تركيا لتقدم القوات

الأرضية لـ " الحرب على الإرهاب " في كابول، على الرغم من أنها لا تبعد عن ذلك .[٣١].

ومن هذا المنطلق فإن إرهاب الدولة الشرس لم يمض دون ملاحظة: فلقد أعلن بصوت عال. وهذا أيضاً " يأتي غير مفاجئ " . علاوة على ذلك، في عام ١٩٩٥م رحبت إدارة كلينتون بالجنرال سوهارتو في إندونيسيا، وهو واحد من أشرس القتلة والمجرمين في أواخر القرن العشرين، حيث إن " هذا النوع من الرجال " عندما اعتلى عرش السلطة قبل ٣٠ عاماً، " منفذ المذابح الجماعية " لمئات الآلاف من الناس، وأغلبهم من القرويين الفقراء، وكان يتحدث عنه بالمدح والثناء وبلهجة مليئة بالعبارات البليغة.

وعندما استسلم النيكاراجويون في النهاية لإرهاب الولايات المتحدة الأمريكية. وسلكت المسلك الصحيح. " اتحدت الولايات المتحدة في نشوة " بهذا " النصر في ملعب الولايات المتحدة الأمريكية النظيف " كما أفادت عناوين الصحف. أنه من السهل أن نعدد الأمثلة. وهذ ه الحكاية التي نسردها لا تكشف عن جديد في سجل الإرهاب الدولي والرد الذي يثيره بين مرتكبيه.

ودعونا نعود إلى مسألة الرد الصحيح أو الملائم على الممارسات الإرهابية، وعلى وجه التحديد الحادي عشر من سبتمبر، حيث تدعي الولايات المتحدة وبريطانيا أن رد فعلهما على الإرهاب قد نفذ بناء على مساندة دولية واسعة، ومع ذلك فإن هذه الدعاوى يمكن

أن تلقى دفاعاً عنها في حالة إذا اختار الشخص رأي النخبة. وقد وجد أن هناك دعماً ضئيلاً على المستوى الدولي للهجوم العسكري بدلاً من الوسائل الدبلوماسية[٣٢] . ففي أوروبا، تراوحت نسبة الدعم بين ٨٪ في اليونان إلى ٢٩٪ في فرنسا، في أمريكا الجنوبية، كان الدعم أقل من ذلك: من ٢٪ في المكسيك إلى ١٦٪ في بنما، وكان دعم الغارات الجوية التي اشتملت على ضرب أهداف مدنية ضئيلاً جداً. حتى في الدولتين اللتين دعمتا استخدام القوة العسكرية، الهند و " إسرائيل " ، فقد عارضت أغلبية كبيرة تلك الهجمات، وكانت هناك في حينه معارضة عارمة للسياسات الفعلية التي حولت التجمعات الحضرية في المدن الكبرى إلى " مدن أشباح " من اللحظة الأولى، كما أفادت الصحف.

لم تشمل الاستطلاعات كالعادة التأثير المتوقع لسياسة الولايات المتحدة على الأفغان، الذين يعاني الملايين منهم الجوع القاتل حتى منذ قبل الحادي عشر من سبتمبر، وعلى سبيل المثال فإن الأسئلة التي لم تسأل هي، هل كان الرد السليم على أحداث الحادي عشر من سبتمبر هو أن يطلب من باكستان أن تحد من " شحنات الغذاء والمؤن الأخرى إلى المدنيين من الأفغان " ؟ وأن تتسبب في سحب عمال الإغاثة وخفض مؤن الغذاء بشكل كبير، الأمر الذي ترك " ملايين الأفغان يواجهون الموت جوعاً " مما أثار احتجاجات منظمات الإغاثة الدولية، وأثار التحذيرات من وقوع

كوارث إنسانية، وهي أحكام أعيدت مراراً وتكراراً عند نهاية الحرب.[٣٣].

إنها بالطبع افتراضات التخطيط المتعلقة بتقييم الإجراءات المتخذة، والتي يجب أن تكون شفافة هي أيضاً، ولا يحتمل أن تعرف النتائج الفعلية، وهي أمر مستقل، بينما تمحص جرائم الآخرين بعناية، لكن جرائمها هي لا تعرف. وتظهر بعض الدلائل ربما من خلال التقارير التي تصدر بشأن الأعداد التي هي بحاجة إلى مساعدات غذائية: وهي ٥ ملايين قبل الحادي عشر من سبتمبر، ٥ر٧ ملايين في نهاية سبتمبر تحت التهديد بالهجوم العسكري، و ٩ ملايين بعد ستة أشهر، ليس بسبب نقص الطعام، الذي كان متوفراً بالفعل في أنحاء البلاد، ولكن بسبب مشكلات التوزيع حيث تحولت الدولة إلى سا حة حرب [٣٤].

ولاتوجد دراسات موثوقة عن رأي الأفغان، ولكن المعلومات ليست غائبة بالكامل. ففي البداية قام الرئيس بوش بتحذير الأفغان من أن أمريكا ستضرب حتى يقوموا بتسليم المتهمين بالإرهاب في الولايات المتحدة، وبعد ثلاثة أسابيع، تحولت أهداف الحرب إلى الإطاحة بالنظام وأعلن الأدميرال مايكل بويس قائلاً: سوف يستمر الهجوم "حتى يدرك الشعب بنفسه أن الأمر سيستمر إلى تغيير القيادة".[٣٥] لاحظ أن مسألة تبرير الهجوم والقتال للإطاحة بنظام طالبان السيء لم تُثر لأن ذلك ليس الهدف من

الحرب حتى بعد انجلاء الحقيقة، ومع ذلك، بإمكاننا السؤال عن آراء الأفغان التي تمكن المراقبون الغربيون من الوصول إليها بشأن هذه الخيارات... التي في كلتا الحالتين تقع ضمن التعريف الرسمي للإرهاب الدولي. وحيث إن أهداف الحرب تغيرت إلى تبديل النظام في نهاية أكتوبر فقد تجمع ألف من قادة الأفغان في بيشاور، بعضهم من المبعدين خارج البلاد وبعضهم من داخل أفغانستان، وجميعهم التزموا بالإطاحة بنظام طالبان. وحسب تقارير الصحافة فإن ذلك كان "عرضاً نادراً للوحدة بين شيوخ القبائل وعلماء الدولة، والسياسيين المشتتين وقادة الجماعات السابقة" كما حث المجتمعون "الولايات المتحدة على إيقاف الغارات الجوية"، وطالبوا وسائل الإعلام العالمية بالدعوة إلى إنهاء "ضرب الأبرياء من المدنيين"، كما طالبوا بإنهاء هجوم الولايات المتحدة على أفغانستان". وبتبني وسائل أخرى للإطاحة بنظام طالبان المكروه، وهو هدف اعتبروه ممكن التحقيق دون إيقاع القتل والدمار.[٣٦].

كما نقلت رسالة مشابهة بواسطة قائد المعارضة الأفغانية عبد الحق، الذي كانت واشنطن تقدره تقديراً كبيراً قبل أن يدخل أفغانستان بقليل، بدون مساندة الولايات المتحدة، وقبض عليه في حينه وقتل، وقد أدان الهجوم وانتقد الولايات المتحدة الأمريكية لرفضها مساندة جهوده وجهود آخرين "لإثارة التمرد دا خل

طالبـان نفسـهـا " . وحسب قـولـه كـان الـهـجـوم الـعـسكـري " تدميراً كبيراً لتلك الجـهـود " . وقـد أعلن عن اتصـالات مع قادة طالبـان من الصف الثاني وقـادة القبائل من المجاهدين السـابقين. وناقش كيف يمكن أن تتـواصل تلك الجـهـود. ودعـا الـولايات المتحـدة لمساعـدتهم بالتمويل والمساندة بدلاً من تجاهلهم من خلال الـهـجوم العسكري، ولكن حسب قـولـه فـإن الولايات المتـحـدة " تحاول أن تـستـعـرض عضـلاتها، وتحـقق نصراً وترعب الجـميع في أنحاء العـالم، إنهم لا يبـالون بمعـاناة الأفـغـان ولا بالأعـداد الكبـيـرة من الـناس الذين ستفقدهم البلاد " [٣٧].

هذا بالإضـافـة إلى أن حـالة المرأة الأفـغـانيـة أثارت اهـتـمـامـات جاءت متـأخرة بعد الحادي عشر مـن سبتمبر، وبعـد الحرب، وكان هناك بعض الاعـتـبارات للـنسـاء الشـجـاعـات اللاتي كن في مـقـدمـة النضال للدفاع عن حقـوق النساء على مدى خمسة وعـشرين عامـاً، وكونّ الـجـمعيـة الثورية للنسـاء الأفغان. وبعـد أسبوع من الـهـجوم العـسكري على أفـغـانسـتـان، أصـدرت الـجـمـعـيـة الـثـورية للنسـاء الأفـغـان بياناً عـامـاً (١١ أكـتـوبر) كان يـجب أن يحتـل الصفـحـات الأولى من الأخبار إذا كان الاهتمام بالنساء الأفـغان حقيقياً، وليس مـجـرد ذريعـة، فـقـد أدانت الـجـمـعـيـة اللجـوء إلى " وحش الـحـرب الضـاري والدمـار الشـامل " حـيث إن الولايات المتـحـدة الأمـريكـيـة " شنت عـدواناً واسـع النطاق على بلدنا " والـذي سـيـسـبب ضـرراً

هائلاً للأفـغـان الأبرياء، وقـد نادت الجـمعـيـة أيضـاً بإزالة وباء نظام طالبان والقـاعـدة من خـلال ثورة جماعـية للشعب الأفـغـاني نفسـه، الذي يستطيع وحده " أن يمنع تكرر الكارثة التي وقعت ببلدنا " .

وقـد تم تجـاهـل كل ذلـك، وربما يكون أقـل وضـوحـاً أن أولئك الذين يحـمـلـون البنادق يحق لـهم أن يتـجـاهلوا آراء الأفـغـان الذين يناضلون لنيل الحـرية وحـقوق الإنسـان على مـدى سنوات طويلة، ويسـعـون جاهديـن لاسـتـئـصـال نظام طالبـان الـهش المكروه بدون التعرض لجرائم الحرب المدمرة.

باختصـار، فإن مراجعة الرأي العام العالمي، بما فيه رأي الأفغان المعـروف، يُعطى الـقليل مـن الدعم للوعـي بين المفكرين الـغــربيين بشأن عدالة قضيتهم.

ومع ذلك فإننـا نجد أن بعض الآراء المنتقاة صـحـيحـة بالتأكيد: فـمن الضـروري الـبـحث عن أسـبـاب جـرائم الحـادي عشـر من سبتـمبر، أن هذا الأمر غنـي عن السؤال، على الأقل بين أولئك الذين يأملون في الحد من إمكانية وقوع المزيد من الاعتداءات الإرهابية.

ويتـمـثل السـؤال البـسـيط فـي دوافع المعـتـدين، فـفي هذا الأمـر يوجـد قـليل من الخـلاف. حـيث يتـفق المحللون على أنـه بعـد أن وضعت الولايات المتحدة قواعد دائمة في المملكة العربية السعودية، " أصبح ابن لادن مـهـتـمـاً بضرورة طرد القـوات المسلحـة الأمـريكـية من الـتـراب المقـدس للجزيـرة العربيـة " وتخليص العـالم الإسـلامي

من الذين لا يقبلون نسخته المتطرفة من الإسلام.[٣٨].

كمـا يوجد اتفـاق واسع أيضـاً ومـبرر علـى أنه "إذا لم تدرس الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصـادية التي أنتجت القاعدة والمجموعـات الأخرى المرتبطة بها، فإن الولايات المتحدة و حلفاءها في الغرب وفي أمـاكن أخرى سـوف يظلون مـسـتـهـدفين من قـبل الإرهابيين الإسـلامـيين". [٣٩]. وهذه الظروف لاشك أنهـا مـعـقـدة، ولكن بعض هذه العـناصر أصـبـحت مـعروفـة. وفي عـام ١٩٥٨م، وهو عـام حـرج في تـاريخ مـا بعـد الحـرب، أبلغ الرئيس إيزنهـاور مـسـؤوليـه بوجـود حـمـلة من الكراهيـة في العـالـم العـربي ضـدنا، ليـست من قبل الحـكومات ولكن من قـبل الناس، "الذين يسـاندون جمال عبدالناصر" ويساندون القومـية المستقلة. إن أسـباب "حملة الكراهية" قد حـددت من قبل مجلس الأمن القومي قبل عدة أشـهر: «بأنه ينظر إلى الولايـات المتحـدة الأمـريكيـة في رأي أغلبـية العـرب على أنها تعارض تـحـقيق أهداف القومية العـربية، فهم يؤمنون بـأن الولايات المتـحـدة تعمل على حـمـاية مصـالحـها فـي بترول الشـرق الأدنى عن طريق مساندة بقـاء الوضـع ومعارضـة التقدم السياسـي أو الاقتـصـادي..." عـلاوة على ذلك، فـإن المفهـوم يبدو دقيـقاً: "إن مصـالحنا الاقتصـادية والثـقـافية في المنطقـة قد أدت بشكل طبـيعي إلى نشـوء عـلاقـات أمـريكية وثيـقـة مع عناصر فـي العالم العـربي، ترتكز اهـتـمـامـاتهم الأسـاسـيـة حـول إبقـاء عـلاقـات مـع الغـرب

والحفاظ على الاستقرار في بلادهم..." [٤٠].

وقد اسـتمرت تلك المفاهيم قائمـة بعد الحادي عـشر من سـبتمـبر مباشـرة، وبدأت صـحيفة "وول سـتريت جورنال" في استطلاع آراء "أثرياء المسلمـين": المصرفـيين والمتخـصـصـين، ومـدراء الشـركـات المتـعـددة الجـنسـيـات، وغـيـرهم، فـهم يسـاندون بشـدة سـيـاسـات الولايات المتـحـدة بشكل عـام، ولكنهم يشـعـرون بالمرارة حـول دور الولايات المتحدة في المنطقة: بشأن مـساندة الولايات المتحدة للأنظمة الفـاسـدة التي تتـجـاهل الديمقـراطيـة والتنمـيـة، وبشـأن بعض السياسات، خاصة فيما يخص فلسطين والعراق. على الرغم من عدم استطلاع آراء البسطاء والقرويين فإنها ربما تكون مشابهـة، ولكنها أكثـر شـدة، على خـلاف "أثرياء المسـلمين"، ولا يوافق عـامـة الناس على أن يسـتنزف الغـرب وأعوانهم المحليـون ثروات المنطقـة، بدلاً من أن تلبي احـتـياجـات الناس في الداخل، كمـا يدرك "أثرياء المسلمين" بأسـى شـديد أن غـضب ابن لادن له أسـبـابه المعـقـولة، في دوائرهم أيضـاً، على الرغم من أنهـم يكرهونه ويخـافـونه، حـيث إنهم يمكن أن يكونوا من بين أهدافه الأسـاسية.[٤١]

لاشك أن من المريح أن نـعـتـقـد بأن الرد على اسـتـفـهـام جـورج بوش "لماذا يكرهوننـا؟" يكمن في امـتعـاضـهم من حـريتنا وحـبنا للديمقـراطية، أو إخـفـاقاتهم الثـقـافيـة التي تعـود لقرون عـديدة، أو عـدم قـدرتـهم على المشـاركـة في شكل من أشكال "العـولمة" التي

يشـاركـون فـيـهـا بسـرور. وذلك رأي مطمـئن لكنـه ربما لا يكون حكيماً.

على الرغم من أن الأمر قد يبدو مـدهشاً، إلا أن اعتداءات الحادي عشـر من سبـتمبر لم تكن غير مـتوقـعة بشكل كامل، فقد خططت المنظمات المعنيـة بجدية تامة لأعمـال إرهابية خلال التسعـينيات من القرن الماضـي، وكاد أن يشـهد عام ١٩٩٣م تفجير مـركز التـجارة العالمي، وبخطط كانت طمـوحة أكثر. وكان تفكيرهم مـفهوماً بشكل جيد، وبخاصـة من قبل هـيئات المخـابرات الأمريكـية التي سـاعدت على توظيـفهم وتدريبهم وتسليحهم منذ عـام ١٩٨٠م، واستمرت في العمل معـهم حتى عندمـا هاجمـوا الولايات المتحـدة الأمريكـية. وقد أفاد السياسي البريطاني ريتشارد الدريتش (Richard Al- drich) عند مـراجـعـتـه لتقـرير الحـكومـة الألمانيـة أن اسـتـبـيـان الحكومـة الألمانيـة بشـأن مـذبحـة سربرنتـشـا كشـف أنـه بينما كـان المتطرفـون الإسـلامـيون يـحاولون تفـجـير مـركـز التـجارة العـالمي، كـانت الولايات المتـحـدة تسـاعـد عـلى تدفق مـجـمـوعـات المتطرفين الإسـلامـيين من الشـبكات التي شكلتـهـا المخـابـرات الأمـريكـيـة من أفـغانسـتـان إلى البـوسنة، مع مقـاتلي حـزب الله المدعـوم من إيران وتدفق هـائل من الأسلحة، عبر كرواتيا، والذي كان له دور فاعل.

وقـد أحـضـروا إلى هناك لمسـانـدة الولايات المتـحـدة في حـرب البلقـان، بينمـا كانت إسـرائيل (بالإضـافـة إلى أوكرانـيا واليـونان)

تسلح الصرب (ربما بالأسلحة الأمريكيـة)، الأمر الذي يفسر سبب " قنابل الهـاون غـيـر المتـفـجرة التـي وجدت في سـرايـيـفـو وتحـمل أحياناً إشـارات عبرية " [٤٢].

بشكل عـام ، فـإن اعـتـداءات الحـادي عـشـر من سـبـتـمـبـر تمثل وسيلة تذكير فاجعة بـالمفاهيم التي كانت سائدة لفترات طويلة: مع تكنولوجيا معاصرة، لم يعد الأغـنياء والأقوياء متأكدين من احتكار العنف الذي كان سائداً بشكل واسـع عبر التاريخ. على الرغم من أن الإرهاب يخـيف الجـمـيع في كل مكـان، وهو حـقـاً " عـودة إلى البربرية " لا يمكن السكوت عليهـا، وإنه ليس من الغريب أن تختلف المفاهيم حول طبيعته كثيراً على ضوء التجارب والحقـائق المختلفة التي يتم تجـاهلهـا من قـبل أولئك الذين تأقلم تاريخـهم على المناعـة بينما هم يرتكبون جرائم مرعبة.

Footnotes

[1] Bush cited by Rich Heffern, _National Catholic Reporter_, Jan. 11, 2002. Reagan, _New York Times_, Oct. 18, 1985. Shultz, U.S. Dept. of State, _Current Policy_ No. 589, June 24,1984; No. 629, Oct. 25, 1984.

[2] _US Army Operational Concept for Terrorism Counteraction_,TRADOC Pamphlet No. 525-37, 1984.

[3] Res. 42/159, 7 Dec. 1987; Honduras abstaining.

[4] Joseba Zulaika and William Douglass, _Terror and Taboo_ (New York, London: Routledge, 1996), 12. 1980-88 record, see "Inter-Agency Task Force, Africa Recovery Program/Economic Commission, _South African Destabilization: the Economic Cost of Frontline Resistance to Apartheid_, NY, UN, 1989, 13, cited by Merle Bowen, _Fletcher Forum_, Winter 1991. On expansion of US trade with South Africa after Congress authorized sanctions in 1985 (overriding Reagan's veto), see Gay McDougall, Richard Knight, in Robert Edgar, ed., _Sanctioning Apartheid_ (Trenton, NJ: Africa World Press, 1990).

[5] For review of unilateral US rejectionism for 30 years, see my introduction to Roane Carey, ed., _The New Intifada_ (London, New York: Verso, 2000); see sources cited for more detail.

[6] It is, however, never used. On the reasons, see Alexander George, ed., _Western State Terrorism_ (Cambridge: Polity-Blackwell, 1991).

[7] Strobe Talbott and Nayan Chanda, introduction, _The Age of Terror: America and the World after September 11_ (New York: Basic Books and the Yale U. Center for the Study of Globalization, 2001).

[8] Abram Sofaer, "The United States and the World Court," U.S. Dept. of State, _Current Policy_, No. 769 (Dec. 1985). The vetoed Security Council resolution called for compliance with the ICJ orders, and, mentioning no one, called on all states "to refrain from carrying out, supporting or promoting political, economic or military actions of any kind against any state of the region." Elaine Sciolino, _NYT_, July 31, 1986.

[9] Shultz, "Moral Principles and Strategic Interests," April 14, 1986, U.S. Dept. of State, _Current Policy_ No. 820. Shultz Congressional testimony, see Jack Spence in Thomas Walker, ed., _Reagan versus the Sandinistas_ (Boulder, London: Westview, 1987). For review of the undermining of diplomacy and escalation of international state terror, see my _Culture of Terrorism_ (Boston: South End, 1988); _Necessary Illusions_ (Boston: South End, 1989); _Deterring Democracy_ (London,

New York: Verso, 1991). On the aftermath, see Thomas Walker and Ariel Armony, eds., _Repression, Resistance, and Democratic Transition in Central America_ (Wilmington: Scholarly Resources, 2000). On reparations, see Howard Meyer, _The World Court in Action_ (Lanham, MD, Oxford: Rowman & Littlefield, 2002), chap.14.

[10] Edward Price, "The Strategy and Tactics of Revolutionary Terrorism," _Comparative Studies in Society and History 19:1_; cited by Chalmers Johnson, "American Militarism and Blowback," _New Political Science_ 24.1, 2002.

[11] SOA, 1999, cited by Adam Isacson and Joy Olson, _Just the Facts_ (Washington: Latin America Working Group and Center for International Policy, 1999), ix.

[12] Greenwood, "International law and the `war against terrorism'," _International Affairs_ 78.2 (2002), appealing to par. 195 of _Nicaragua v. USA_, which the Court did not use to justify its condemnation of US terrorism, but surely is more appropriate to that than to the case that concerns Greenwood. Franck, "Terrorism and the Right of Self-Defense," _American J. of International Law_ 95.4 (Oct. 2001).

[13] Howard, _Foreign Affairs_, Jan/Feb 2002; talk of Oct. 30, 2001 (Tania Branigan, _Guardian_, Oct. 31). Ignatieff, _Index on Censorship_ 2, 2002.

[14] _NYT_, Oct. 1, 2001.

[15] Frank Schuller and Thomas Grant, _Current History_, April 2002.

[16] Werner Daum, "Universalism and the West," _Harvard International Review_, Summer 2001. On other assessments, and the warnings of Human Rights Watch, see my _9-11_ (New York: Seven Stories, 2001), 45ff.

[17] Christopher Hitchens, _Nation_, June 10, 2002.

[18] Talbott and Chanda, _op. cit._

[19] Martha Crenshaw, Ivo Daalder and James Lindsay, David Rapoport, _Current History_, _America at War_, Dec. 2001. On interpretations of the first "war on terror" at the time, see George, _op. cit._

[20] _Env،o_ (UCA Managua), Oct.; Ricardo Stevens (Panama), NACLA _Report on the Americas_, Nov/Dec; Galeano, _La Jornada_ (Mexico City), cited by Alain Frachon, _Le Monde_, Nov. 24, 2001.

[21] For many sources, see my _Fateful Triangle_ (Boston: South End, 1983; updated 1999 edition, on South Lebanon in the 1990s); _Pirates and Emperors_ (New York: Claremont, 1986; Pluto, London, forthcoming); _World Orders Old and New_.

[22] Bennet, _NYT_, Jan. 24, 2002

[23] For details, see my essay in George, _op. cit_.

[24] Crenshaw, _op. cit._

[25] Chalmers Johnson, _Nation_, Oct. 15, 2001.

[26] Ian Williams, _Middle East International_, 21 Dec. 2001, 11 Jan. 2002. John Donnelly, _Boston Globe_, April 25, 2002; the specific reference is to an earlier US veto.

[27] Conference of High Contracting Parties, _Report on Israeli Settlement_, Jan.-Feb. 2002 (Foundation for Middle East Peace, Washington). On these matters see Francis Boyle, "Law and Disorder in the Middle East," _The Link_ 35.1, Jan.-March 2002.

[28] For some details, see my _New Military Humanism_ (Monroe ME: Common Courage, 1999), chap. 3, and sources cited. On evasion of the facts in the State Department Human Rights Report, see Lawyers Committee for Human Rights, _Middle East and North Africa_ (New York, 1995), 255.

[29] Tamar Gabelnick, William Hartung, and Jennifer Washburn, _Arming Repression: U.S. Arms Sales to Turkey During the Clinton Administration_ (New York and Washington: World Policy Institute and Federation of Atomic Scientists, October 1999). I exclude Israel-Egypt, a separate category. On state terror in Colombia, now largely farmed out to paramilitaries in standard fashion, see particularly Human Rights Watch, _The Sixth Division_ (Sept. 2001) and Colombia Human Rights Certification III, Feb. 2002. Also, among others, Me'dicos Sin Fronteras, _Desterrados_ (Bogota' 2001).

[30] For a sample, see _New Military Humanism_ and my _A New Generation Draws the Line_ (London, NY: Verso, 2000).

[31] Judith Miller, _NYT_, April 30, 2000. Pearson, _Fletcher Forum_ 26:1, Winter/Spring 2002.

[32] http://www.gallup.international.com/terrorismpoll-figures.htm; data from Sept. 14-17, 2001.

[33] John Burns, _NYT_, Sept. 16, 2001; Samina Amin, _International Security_ 26.3, Winter 2001-02). For some earlier warnings, see _9-11_. On the postwar evaluation of international agencies, see Imre Karacs, _Independent on Sunday_ (London), Dec. 9, 2001, reporting their warnings that over a million people are "beyond their reach and face death from starvation and disease." For some press reports, see my "Peering into the Abyss of the Future," Lakdawala Memorial Lecture, Institute of Social Sciences, New Delhi, Nov. 2001, updated Feb. 2002.

[34] _Ibid._, for early estimates. Barbara Crossette, _NYT_, March 26, and Ahmed Rashid, _WSJ_, June 6, 2002, reporting the assessment of the

UN World Food Program and the failure of donors to provide pledged funds. The WFP reports that "wheat stocks are exhausted, and there is no funding" to replenish them (Rashid). The UN had warned of the threat of mass starvation at once because the bombing disrupted planting that provides 80% of the country's grain supplies (AFP, Sept. 28; Edith Lederer, AP, Oct. 18, 2001). Also Andrew Revkin, _NYT_, Dec. 16, 2001, citing U.S. Department of Agriculture, with no mention of bombing.

[35] Patrick Tyler and Elisabeth Bumiller, _NYT_, Oct. 12, quoting Bush; Michael Gordon, _NYT_, Oct. 28, 2001, quoting Boyce; both p. 1.

[36] Barry Bearak, _NYT_, Oct. 25; John Thornhill and Farhan Bokhari, _Financial Times_, Oct. 25, Oct. 26; John Burns, _NYT_, Oct. 26; Indira Laskhmanan, _BG_, Oct. 25, 26, 2001.

[37] Interview, Anatol Lieven, _Guardian_, Nov. 2, 2001.

[38] Ann Lesch, _Middle East Policy_ IX.2, June 2002. Also Michael Doran, _Foreign Affairs_, Jan.-Feb. 2002; and many others, including several contributors to _Current History_, Dec. 2001.

[39] Sumit Ganguly, _Ibid_.

[40] For sources and background discussion, see my _World Orders Old and New_, 79, 201f.

[41] Peter Waldman et al., _WSJ_, Sept. 14, 2001; also Waldman and Hugh Pope, _WSJ_, Sept. 21, 2001.

[42] Aldrich, _Guardian_, 22 April, 2002.

الحادي عشر من سبتمبر : الرسالة والخوف والمبادئ القانونية

أ.د. زينوفون كونتيادس *

أولاً : الحادي عشر من سبتمبر وتأثير الإعلام على تشكيل التاريخ

١– في كتابه بعنوان «LA TIRANIA DE LA COMUNICACION» ينتقد اجناسي رامونيت الأسلوب الذي انتهجته وسائل الإعلام في تغطية سريعة لأحد الأخبار كمثال رئيس على الإبادة الجماعية في رواندا عام ١٩٩٤، عندما قام الهوتو بإبادة ما يقرب من مليون شخص من التوتسي. ومع ذلك فإن النقطة المثيرة للجدل ليست عرض خبر ما أو عدم عرضه، إن الطريقة التي تعرض بها الحقيقة تحدد ما إذا كان هناك نوع من الرقابة الخفية مفروض على

* المدير الأكاديمي لمركز القانون الدستوري الأوروبي ـ اليونان.

تلك المعلومة أم لا، وتحدد ما إذا كانت تلك المعلومة تستخدم لممارسة نوع غير مباشر من الدعاية. وحسب رأي رامونيت، وكذلك راي جان بودريلارد في كتابه الصادر بعنوان «La Guerre du Golfe n a pas eu lieeu»، تعتبر حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١ مثالاً واقعياً على «الرقابة الخفية»، حيث إنها على الرغم من تغطيتها من خلال قدر كبير من الصور، ومع ذلك فقد استخدمت كدعاية حقيقية.

٢– من الواضح أن حدثاً بأهمية الهجوم الإرهابي الذي وقع في ١١ سبتمبر في نيويورك قد استحوذ بشكل ملحوظ ولفترة طويلة على اهتمام وانتباه وسائل الإعلام، فصورة أبراج مركز التجارة العالمية وهي تحترق كان من الممكن أن نتخيلها في فيلم من أفلام الخيال العلمي السينمائية. ومن الطبيعي أن خبر حدوث عمل إرهابي بغيض في القوة الكبرى بالعالم، وفي رمز القوة بالمدينة الأمريكية، والذي كبّد العالم حياة أكثر من ثلاثة آلاف من الأبرياء، سوف يتغلب على أي أخبار أخرى. ويمكن أن يكون لتشخيص مثل هذا العمل بعد واحد : وهو أنه عمل يسبب الازدراء الرهيب، وهو بمثابة جريمة نكراء استهدفت ترويع المواطنين في دولة لم تتعرض في تاريخها لهجوم خارجي داخل حدودها، ويهدف إلى إظهار أن تلك القوة العظمى العالمية ليست بعيدة المنال.

٣- قدم الهجوم الإرهابي في ١١ سبتمبر لوسائل الإعلام صورة قوة رمزية ضخمة يمكن أن تؤثر في اللاشعور الجماعي بطريقة لا مثيل لها. وخاصة أن هذا الهجوم الإرهابي قد شكل بالتأكيد علامة مميزة في تاريخ العالم، ليس فقط لأنه تحدى بطريقة مفزعة سلامة وأمن الإمبراطورية الأمريكية، ولكن لأنه شكل سبباً لبدء سلسلة جديدة من الحروب أيضاً، وكذلك لإحداث تغيرات مهمة في داخل جميع دول العالم الغربي، يمكن إجراء المقارنات التاريخية فقط فيما يتعلق باغتيال الأرشيدوق فرانسيس فرديناند في سراييفو عام ١٩١٤ الذي أدى إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى، وكذلك يمكن مقارنته مع هجوم بيرل هاربور عام ١٩٤١، الذي أدى إلى إعلان الحرب من جانب الولايات المتحدة الأمريكية على اليابان. إضافة إلى ذلك، ما يتعلق بالقنابل الذرية التي ألقيت على هيروشيما وناغازاكي التي اختتمت الحرب العالمية الثانية، ولكنها في الواقع ارتبطت بشكل قوي ببداية حرب أخرى، وهي الحرب الباردة ذات الرعب النووي.

وفي الوقت الراهن، احتل الحادي عشر من سبتمبر مكانة متقدمة على تلك الأحداث بوصفه الحدث الذي يمثل بداية حرب عالمية جديدة، يكون فيها العالم الغربي والعالم الإسلامي طرفي النزاع، وهو رأي يأتي كتأكيد لنظرية صموئيل هنتنجتون بشأن صدام الحضارات.

٤- ومع ذلك، فإن مدى تأثير حدث معّين على سير تاريخ العالم والقوة التي يمكن أن تكون لهذا التأثير، لا يعتمد على عدد الضحايا ولا على الضرر المادي المرتبط بذلك الحدث ويمكن إثبات ذلك أيضاً من خلال الأمثال التاريخية التي ذكرت آنفاً. على العكس من ذلك، فهو يعتمد أساساً على القوة الرمزية التي يجسدها ذلك الحدث وعلى الطريقة التي أعطى بها المادة المكونة في اللاشعور الجماعي لشعوب العالم، وعلى المكان الذي تحتله في التاريخ، وخاصة فيما يتعلق بكل شيء سبق وكل شيء سيأتي، وبالطبع على التفسير الذي يعطى للحدث. في عصر تنتشر فيه المعلومات حول العالم بسرعة البرق، وفي عصر تؤثر فيه وسائل الإعلام أكثر من أي زمن مضى قبل تشكيل اللاشعور الجماعي وهذا يحدث باستخدام طرق شائعة وصور تقدم إلى العالم بأسره، تعطي معنى معيناً للأحداث أو تمارس الدعاية على أساس أحداث عنف معينة يعتبر أكثر تأثيراً مما كان يحدث في الماضي.

وجدير أن نورد معياراً آخر للأسلوب الذي تختاره وسائل الإعلام من أجل إبراز القضايا ذات الأهمية الكبرى مثل الإرهاب. فإن وسائل الإعلام انتقائية، ليس فقط على المستوى الذي تميل به إلى تقديم الأعمال الإرهابية بطريقة أقوى وأكثر تأثيراً، ولكن أيضاً على مستوى التحديد الفعلي لماهية الإرهاب. إنها تؤثر على تكوين الرأي العام، وهي تقنع الناس بشأن

جدية مواقف سياسية معينة في أجزاء معينة من العالم، بينما في نفس الوقت تتجاهل التجاوزات الخطيرة لحقوق الإنسان التي تحدث في أماكن أخرى من العالم.

٥- إن وسائل الإعلام لا تقدم فقط رسالة بسيطة ودقيقة عن الواقع، بل من خلال التدخل بين مصدر المعلومات والاستقبال من المستقبل النهائي، تقوم بعمل اختيارات وأحكام، كما أنها تضع تركيزاً معيناً، وتسعى إلى التشخيص، وكل هذا يعني في النهاية أن الطريقة التي توضع بها الحقيقة ما هي إلا إنشاء. وإن مدى قرب ذلك الإنشاء من الواقع هو مسألة لا يمكن للقارئ أو المستمع أو المشاهد العادي أن يلاحظها. من المؤكد أن وسائل الإعلام تختار من بين قدر كبير من الأحداث تلك التي ستبرزها فقط، وتحدد في نفس الوقت الزمان والمكان اللذين تخصصهما للحدث، وكذلك الأحكام التي سترافق عرض الحدث، ويعتبر هذا كافياً لمساندة ودعم الرأي القائل بأن الحقيقة، وحتى التاريخ نفسه، في نهاية الأمر يتم إنشاؤهما وصياغتهما بواسطة وسائل الإعلام.

٦- وفقاً لرؤية المؤرخ مارك فيرو، كلما اتسع انتشار المعرفة، ازدادت دقة التحكم في إنتاج التاريخ. ومع ذلك، فإن الطريقة التي تعرض بها الأحداث من خلال وسائل الإعلام تشكل إنشاءً

للحقيقة، والتي تؤثر بدرجة هامة على تشكيل وبناء التاريخ. لو افترضنا أن الإبادة الجماعية في رواندا قد أنشئت بواسطة وسائل الإعلام بطريقة مختلفة، فإن قدر الدول في جنوب الصحراء كان من الممكن أن يتغير أيضا. وبنفس الطريقة، لو أن الحادي عشر من سبتمبر، كحدث ذي، أهمية قصوى، قد فُسّر بواسطة وسائل الإعلام بالتوافق مع سلسلة طويلة من الإنشاءات الأخرى، التي تتبناها وسائل الإعلام الغربية منذ سنوات طويلة، فربما كان لمستقبل العالم وجه مختلف.

ثانياً : الحادي عشر من سبتمبر وإنشاء أعداء داخليين وخارجيين:

١- إن وسائل الإعلام في الدول الغربية قدمت الهجوم الإرهابي في الحادي عشر من سبتمبر بطريقة زادت من قوة مفهومين رئيسين كانا موجودين قبل ذلك الحدث في اللاشعور الجماعي. لقد زادت الأحداث من قوة متلازمات الخوف لدى المجتمعات الغربية المعاصرة، والتي يطلق عليها «مجتمعات المخاطر». وفي مجتمع المخاطر، الذي حلله عالم الاجتاع الألماني أولريك بيك بعمق كبير في كتابه «مجتمع المخاطر»، يبرز انعدام الأمن وانعدام الثقة في كل خطوة على الطريق : بداية من المخاطر المرتبطة بالأمراض المعدية وسلسلة التغذية ووصولاً إلى الدمار

البيئي، والقوة النووية والمخاطر من استخدام تقنيات جديدة. في مجتمع المخاطر فإن ظاهرة مثل الإرهاب الدولي تثير متلازمات الذعر وهذا أمر طبيعي، حيث إن عدم الأمن هذا مرتبط غريزياً بقدرة الناس على حماية حياتهم الخاصة. ويتغلب هذا الخوف على أي تفكير متعقل آخر فيما يتعلق بالحاجة لحماية ممتلكات أفراد ومجتمعات أخرى. إن هذا الخوف هو الذي يفتح الطريق تجاه مخالفة وخرق جميع القيم الأساسية للحضارة الإنسانية. فمن المؤكد والثابت أن حماية حقوق الإنسان واحترام القانون الدولي تفقد أرضيتها لدى الشعور الجماعي عند مقارنتها مع الخوف من تعرض حياة الإنسان للخطر. وغالباً ما يؤدي الخوف إلى تخلي المواطنين عن ضمانات حرياتهم الشخصية، من أجل تحقيق الأمن الذي يسعون إليه لأنفسهم ولأقربائهم.

٢- إن العرض الوحشي الكبير لهجوم الحادي عشر من سبتمبر (الإرهابي) والطريقة التي عرض بها في وسائل الإعلام أدخلت الرعب والذعر في نفوس الناس وعملت تجاه الحد من حماية حقوق الإنسان وتقييد الرقابة القضائية على تنفيذ إجراءات اتخذت ضد الإرهاب. وكما يقول الفيلسوف زيجمونت بومان في كتابه الصادر بعنوان «العولمة وعواقبها على الإنسانية»، إن النتيجة النهائية هي توالد وتكاثر الخوف، وإن استخدام مسألة

الأمن الشخصي يغطي على جميع الأمور الأخرى ويعتم على جميع الأمور التي تشغل بال الإنسان. وكما يفيد بومان فإن الحكومات تشعر بالارتياح. وعلاوة على كل ذلك فإن مدى كفاءة الإجراءات الحكومية الاستعراضية تظهر أكثر أهمية مما هي عليه بالفعل، مع القول بأن معارضة تلك الإجراءات للقيم الأساسية للديمقراطية المعاصرة لم تعد قضية تشغل البال.

٣- الاتجاه الثاني الذي نال الدعم من خلال الطريقة التي قدمت بها وسائل الإعلام الهجوم الإرهابي الوحشي في ١١ سبتمبر كان الاستعراضات المكشوفة وغير المؤدبة ضد العالم العربي، فكما أفاد الأديب الأمريكي الكبير جور فيدال في كتابه الصادر بعنوان «حرب أبدية من أجل سلام أبدي»، إن وسائل الإعلام الأمريكية قد تدخلت منذ سنوات عديدة بجهود واضحة من أجل تحجيم العالم الإسلامي. وقد تعزز الجهد أيضاً من خلال صورة العرب التي طورت بشكل نظامي من خلال أفلام هوليود السينمائية، فقط لتصل إلى ما وصل إليه الرئيس بوش في خطابه السافر قائلاً: «نحن طيبون وهم أشرار». وقد واصلت وسائل الإعلام ترويع العالم الإسلامي بكثافة واستمرار، وخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، حيث أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تبحث عن عدو جديد بعد النازية والشيوعية. وإن الخلفية النظرية وراء إنشاء

عدو خارجي عبّر عنها بصراحة صموئيل هنتنجتون منذ عام ١٩٩٣، ولكن إدراك فكرة أن عالم الغرب قد انخرط بالفعل مرة أخرى في حرب عالمية كان بحاجة إلى هجوم الحادي عشر من سبتمبر وظهورها النظامي من خلال وسائل الإعلام كدليل ملموس على تصادم الحضارات.

٤- بعد الحادي عشر من سبتمبر، بدأت عملية جديدة لصيد العرافين. فكما يشير آلان جريش رئيس تحرير صحيفة «لومند ديبلوماتيك» إن قسماً كبيراً من الرأي العام الغربي والإسلامي أصبح يؤمن بأن الصراعات التي وقعت خلال السنوات الثلاث الماضية هي بالفعل تعبير عن صراع الحضارات. كما أن الظلم الاجتماعي الطاغي، وعدم العدل، والخلافات بين الشمال والجنوب وبين الأغنياء والفقراء وبين المتميزين والمهملين لا تلقى التقدير والاهتمام اللائق، وحل محلها التمييز بين «نحن» و «هم».أصبح العالم الإسلامي عنصراً خطراً مرئياً وملموساً تنبثق منه سلوكيات متطرفة ومنحرفة داخل المجتمعات الخائفة في العالم الغربي. وقد تم تعزيز هذا الخوف المرضي من خلال مجموعة معينة من المتعصبين، الذين يجسدون الصورة السلبية للعالم الإسلامي، التي نشرها وضخمها مساندو نظرية صراع

الحضارات، وهم بالتحديد أولئك الذين يشيرون إلى «قوى الشر» ويعملون جاهدين على تقسيم العالم بهذه الطريقة إلى قسمين متعارضين. من هذا المنطلق، فقد استخدم الحادي عشر من سبتمبر كمؤشر واضح على صحة معيار ثقافي جديد للتفريق بين الأصدقاء والأعداء.

ثالثاً: ترسيخ شرعية إرهاب الدولة من خلال الحقيقة التي ترسمها وسائل الإعلام:

١- جدير بنا أن نسأل عن الغرض الحقيقي للعرض النظامي لهجوم الحادي عشر من سبتمبر الإرهابي في وسائل الإعلام بطريقة تثير متلازمات الخوف والذعر في مجتمعات المخاطر الغربية، وإظهار صورة الدول الإسلامية كعدو خارجي. والإجابة على هذا السؤال هي أن الاتجاهين اللذين تم تحليلهما آنفاً، وهما تحديداً تعزيز الشعور بعدم الأمن، وتخويف وتحجيم العالم الإسلامي، يرتبطان بقوة بخيارات سياسية معينة لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية، التي بدأ تخطيطها وتنفيذها قبل فترة طويلة من اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر. إنها خيارات سياسية تتعلق بكل من التنظيم الداخلي للدولة وسياسة الشؤون الخارجية.

٢– كان اعتداء الحادي عشر من سبتمبر بمثابة مبرر استخدم داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك في العديد من الدول الأوروبية، لتبرير فرض قيود معينة على الحريات الشخصية. وعن طريق وضع الأمن كأولوية أولى، حيث يتم وضع التنظيمات والقواعد التي تذكر الناس بالدولة البوليسية، ولتصبح حماية الحياة الخاصة لا مكان لها، ويعمل على إيجاد شروط غير معقولة ومتطلبات أولية مستحيلة فيما يخص تشريعات الهجرة، وكذلك يتم تأسيس لجان وهيئات عسكرية خاصة تتدخل في أوضاع الإرهاب. إن القانون الوطني الشهير «قانون توحيد وتقوية أمريكا لمقاومة ومحاربة الإرهاب لعام ٢٠٠١» الذي صدر فقط بعد شهر ونصف من الهجوم على برجي التجارة، قد وصفه العديد من علماء القانون الأجلاء في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا بأنه إخلال واضح بقواعد الديمقراطية ونظمها. إضافة إلى ذلك، فقد واصل الاتحاد الأوروبي العمل بالقرار الإطاري فيما يتعلق بمحاربة الإرهاب «قانون ١٩٠ ، ٨ / ٧/ ٢٠٠٢» من أجل إقرار مبررات الاعتقال ومن أجل تقوية قدرة أوروبا على تعزيز دور قوة الدولة الوطنية. علاوة على ذلك وقعت في واشنطن في يونيو ٢٠٠٣ اتفاقيات بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي بشأن التعاون في الأمور

الجنائية والقضائية. وهذه الاتفاقيات تنص على تراجع الحقوق والحريات ذات الأهمية الحيوية لمواطني الاتحاد الأوروبي.

٣– إضافة إلى ذلك، لا يمكن القول بأن الإجراءات المتخذة ضد الإرهاب والتي وسعت التدخل السافر للقانون الجنائي، مما أضر بالحريات الشخصية، قد ظهرت لأول مرة بعد اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر. كما أن الهجوم الإرهابي في مانهاتن كان فقط بمثابة مبرر لتوسيع تلك الإجراءات، فقد فرضت بالفعل قيود واسعة على الحريات الشخصية بموجب قانون مقاومة الإرهاب وعقوبة الموت الفعال بعد هجوم أوكلاهوما في عام ١٩٩٦. وقد ظهرت تشريعات مشابهة، تخص ليس فحسب الأعمال الإرهابية، ولكن أيضا أي نوع من الأعمال الإجرامية، وقدمت في دول الاتحاد الأوروبي خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي. لذلك، يمكن القول إن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر استخدمت ووظفت كمبرر ومسوغ من أجل تبرير سياسات التجاوزات الإجرامية، وكبح جماح السلوكيات الاجتماعية، وتقييد الحريات، ومخالفة حقوق الإنسان. ومما لا شك فيه، أن الهجمات الإرهابية في مانهاتن، وكذلك هجمات مدريد وجاكرتا وبالي وأماكن أخرى في العالم، تشير إلى الحاجة لاتخاذ إجراءات ضد الإرهاب. ومع ذلك،

فإن غرس وسائل الإعلام لمتلازمات الخوف التي لا يمكن التحكم فيها قد أعطت الفرصة وأتاحت الظروف لفرض إجراءات وقيود أخلّت بحقوق الإنسان كما تميل إلى تحويل دول الغرب الديمقراطية إلى دول بوليسية. من المهم أيضاً أن نذكر أن تمويل نفقات الحرب قد ارتكز على تقليص نفقات السياسات الاجتماعية وقد أثر سلباً على أموال احتياطي الضمان الاجتماعي.

٤- بالإضافة إلى حقيقة خلق واقع الرعب بواسطة وسائل الإعلام داخل الولايات المتحدة الأمريكية وداخل العديد من دول أوروبا، فإن الحادي عشر من سبتمبر قد رسخ شرعية فرض الدولة البوليسية على صعيد السياسة الخارجية كسبب لتبرير الإخلال الصريح بالقانون الدولي. وقد أشار الفيلسوف الألماني الكبير جورجن هابرماس إلى أن حكومة بوش استغلت تفرد وحشية اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر لكي تثير عدم الأمن والاطمئنان المنظم من خلال الدعاية المنهجية لوسائل الإعلام، وتنتقل إلى التدخلات العسكرية الوقائية والإخلال السافر بحقوق الإنسان. وقد عملت الولايات المتحدة مع حلفائها على استخدام العنف ضد التكامل الإقليمي، والاستقلال السياسي لدول أخرى، وبهذه الطريقة أخلت بمواثيق الأمم المتحدة. ولم يكن غزو أفغانستان والعراق المرة

الأولى التي تخرق فيها الولايات المتحدة القانون الدولي، فهناك عدة أمثلة أخرى مشابهة، وأحدثها كان هجوم الولايات المتحدة الأمريكية على الصرب في عام ١٩٩٩ بدون إذن من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. ففي أبريل ١٩٩٩ أقر اجتماع حلف الناتو في واشنطن على اعتقاد بأن له الحق في التدخل العسكري، حتى بدون إذن الأمم المتحدة، في الدول التي يتم فيها خرق حقوق الإنسان. وعلى هذا الأساس، فقد رسخ شرعية التدخل العسكري الوقائي حيثما كان ذلك يخدم المصالح الأمريكية. إن العالم بأسره يخضع لنظام القانون الجنائي الأمريكي، وتعامل الدول المستقلة على أنها مجرد أدوات في هذا النظام الكلي، وهم مجبرون على إطاعة ذلك النظام من خلال التهديد باستخدام القوة العسكرية.

٥- إن هدفنا من كل ما سبق هو رغبتنا في الوصول إلى نقطة مفادها أن فرض «نظام جديد» قد أبطل النظام الدولي العام قبل وقت طويل من أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وبعد ذلك تم تعزيز سياسة الحرب الوقائية من خلال الدعاية التي ركزت على الحادي عشر من سبتمبر، وأيضا من خلال حملة مليئة بالمعلومات المزورة فيما يتعلق بحيازة العراق لأسلحة نووية. بعد كل ذلك، تركزت تدخلات الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية وسياستها

الداخليـة على رسم وتكريس صـور ذهنيـة عـبر وسـائل الإعـلام تهدف إلى نـشر متلازمات الخـوف وكراهية المسلمين. لقد اسـتغل الحـادي عـشـر من سـبـتـمـبـر لكي يرسخ في الـوعي الجـمـاعي للمـواطنين الغـربيين شرعـيـة خرق التـشـريعات الـدولية والقـوانين الدولية، والتي كان يستحيل قبولها لولا هذه الظروف.

رابعاً : إفساد طريقة التفكير أحادية الاتجاه بشأن الحادي عشر من سبتمبر:

١- في كـتابه الصـادر بعنوان «القـوة والرعب» ذكـر المفكر الأمـريكي نعـوم تشـومـسكي أن هجـوم الحـادي عـشـر من سـبـتـمـبـر الإرهـابي قـد صنف كـحـدث تاريخي، لـيس بسـبب درجـتـه أو بسـبب وحـشـيـتـه، ولكن أسـاسـاً بسـبب هوية ضـحاياه. وهـو ما يشـيـر إلى أن أعمـالاً وحـشـيـة مـشـابـهة قـد وقعت أكثـر من مرة في تاريخ العالم المعاصـر، وأيضاً بوجود ضـحايا مـتعـددين، ولكن الفـرق الوحـيد هو أنـها لم تؤثر على مكان الـقـوة العـظمى الأمـريكيـة، ولم يكن بـهـا ضـحـايا من المواطنين الأمريكيين. ويمكن للمـرء أن يذكر معيـاراً آخر أيضاً حسب مـا يأخذ الحادي عـشر من سبـتمبـر مكانه بين الأحداث التـاريخيـة الأكثر أهمـيـة والمذكورة آنفـاً. وبمسـاعدة الدعـاية

المنظمة، كان الحادي عشر من سبتمبر هو الذريعة التي سببت أو بررت عـمليات الخـرق المتـعددة لحـقـوق الإنسـان والقـانون الدولي، والـتي نتج عنهـا العـديد من الـضـحـايا وكـانت لـهـا عواقب تدمـيرية للقيم الأسـاسـية الـتي ترتكز عليها الحـضـارة الشـرعية للديمقراطيات المعاصـرة.

٢- بالطبع فـإن تلك الدعايـة وجدت من يرد عليـها. فـقد عـارض الكثير من العلماء والمفكرين الأجـلاء في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا استغـلال الحادي عشر من سـبتمبر كـحصان طروادة يبرر فرض الحكم البوليسي الدولي تحت شعـار محاربة الإرهـاب. ولقـد أعلـن مـراراً أن الحـروب الوقـائيـة والإجـراءات البـوليـسـيـة الإضـافـيـة أو القـيـود على حـقـوق المواطنـين الفـردية ليـست هي الوسـائل الصـحيحة التي نواجـه بها الإرهاب. على العكس من ذلك، فـإن السـيـاسات التي تـبنتـها حكومة الولايـات المتحـدة الأمـريكيـة خـلال السنـوات الثـلاث الماضـيـة في كل من الشـؤون الـداخليـة والخـارجـيـة تزيد الـعداء للأمـريكيين وتشـجـع الـداعـمين السـريين للتـعصب وتزايد الصـراعات. إن حـرب العراق قـد كبّدت العراقـيين أكـثـر من خـمـسـة عـشـر ألف قـتـيل من العـراقـيين وألف قـتـيل من الأمريكيين، بينما تبـدو إراقة الدماء هذه لم تؤد إلى أي بوادر سلام في المنطقة.

٣– إن حركة الاحتجاج على خيارات حكومة بوش قد وجهت ردوداً ساخنة حول الإرهاب ودعم الاستجابة الديمقراطية والتعددية، والتي يمكن أن تشتمل على جهد ما لبناء جسور و ليس أسواراً بين الحضارات. بمعنى آخر، استجابة يمكن أن ترتكز على الاحترام للنظام العالمي العام وحقوق الإنسان؛ ترتكز على التعاون الدولي بهدف الوصول إلى حلول لعمليات الخرق المزمنة للقانون الدولي، مثلما هو الحال في فلسطين وفي قبرص، وحلول لمواجهة الفقر، ومعاناة الشعوب في كل من الدول النامية والدول المتقدمة، وترتكز على تضافر الجهود من أجل حماية البيئة والاستخدام الرشيد للموارد الطبيعية. ولا يجب أن ننسى أن إدارة موارد المياه على المستوى الدولي يقدر أنها ستشكل السبب الرئيسي للنزاعات خلال السنوات القادمة. ومن ا لأهمية بمكان أيضا أن نبتعد عن القواعد التي تقول بأنه يوجد نوع واحد فقط من التطور المستديم، وكذلك التي تقول إنه يوجد نموذج واحد مقبول من التنظيم الديمقراطي للدولة. إن تصدير القوالب أو النماذج من الغرب إلى العالم الإسلامي، الذي يحدث الآن، والجهود التي تبذل لفرض تلك القوالب بدون أخذ الفروق الثقافية وتاريخ تلك الدول والشعوب في الاعتبار، محكوم عليها بالفشل، وهي بالتأكيد تعيق التعاون الدولي والحوار بين الحضارات، يقول الفيلسوف البريطاني جون جاري في كتابه الصادر بعنوان «القاعدة ومعنى الحداثة»، أن

الفوضى ستكون هي النتيجة الوحيدة لهذا الجهد الذي يحاول تصدير القيم الأمريكية إلى دول الشرق الأوسط.

٤– وقد لاقت حركة الاحتجاج في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا دعماً كبيراً لجهودها في استمرار العمل على الاستجابة الديمقراطية للإرهاب الدولي ولكي تتجنب شهوة الرعب أيضاً عن طريق اللجوء إلى المحكمة العليا الأمريكية، التي أصدرت قبل أربعة أشهر حكمين غاية في الأهمية، في قضايا **رسول وآخرون** ضد جورج بوش، **وحمدي وآخرون** ضد رامسفيلد. فقد حكمت المحكمة العليا بأغلبية الأصوات أن المحتجزين في معسكر جوانتانامو محرومون من حقوقهم الدستورية الأساسية. وعلى أساس حكمها وضعت المحكمة العليا تركيزاً خاصاً على حقيقة أنه حتى في أوقات الحرب، من الضروري ألا تهان القيم التي تعتبرها هذه البلاد عظيمة، وإن جهد الحكومة الأمريكية في التحايل على سلسلة من الحقوق الدستورية قد أدين أيضاً من خلال أحكام المحكمة العليا، وقد ثبت أنه مازالت هناك العديد من الضمانات للحفاظ على قواعد القانون. ويمكن فهم جدية وخطورة هذه الأحكام القضائية إذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن المحكمة العليا قد وضعت حاجزاً ضد الاعتداء الوحشي على حقوق الإنسان في فترة زمنية غرست فيها الدعاية المنظمة لوسائل الإعلام قناعة لدى الأغلبية العظمى من المواطنين الأمريكيين بأنهم دائماً معرضون للتهديد والخطر داخل وخارج بلادهم.

٥- بغض النظر عن حركة الاحتجاج القوية وردود الفعل التي جاءت من داخل المشهد السياسي الأمريكي، فإن إدانة خيارات حكومة بوش من قبل مؤسسة بأهمية ومكانة المحكمة العليا، تعتبر حقيقة على درجة عالية من الأهمية، ويساويها في الأهمية إدانة السكرتير العام للأمم المتحدة كوفي عنان لغزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق. ففي إحدى خطبه في الجمعية العامة للأمم المتحدة «٢١/ ٩/ ٢٠٠٤»، وبحضور ٦٤ رئيس دولة و ٢٥ رئيس وزراء، من بينهم الرئيس بوش نفسه، ذكر السكرتير العام للأمم المتحدة أشكال التعذيب التي يمارسها الجنود الأمريكيون ضد السجناء العراقيين كمثال تشخيصي على الخرق المخزي والمنظم للقانون الدولي. كما ركز السكرتير العام للأمم المتحدة على أن أي دولة تدّعي أنها تعمل وفقاً لمبادئ القانون في الداخل، تحتاج إلى احترام نفس مبادئ القانون في علاقاتها مع الدول الأخرى والعكس صحيح.

٦- على الرغم من كل ما ذكر، فإن متلازمات الخوف المرضي التي بثتها معظم وسائل الإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية، وبدرجة أقل قليلاً في أوروبا، مازالت على قوتها. ومازال الحادي عشر من سبتمبر يُعرض على أنه رسالة للمواجهة وليس دافعاً لبدء تعاون منظم بين الثقافات المختلفة.

وكما ذكر المدير العام لمنظمة اليونسكو، إن جميع الحضارات مازالت تستحق الاحترام بنفس القدر. وفي الوقت الراهن، هناك حاجة ملحة في الوقت الراهن لتأسيس شبكات جديدة من التعاون والاتصال بين الثقافات المختلفة. فالرسالة التي برزت بعد الحادي عشر من سبتمبر لا يمكن ولا يجب أن تكون إعلاناً عن سلسلة جديدة من الحروب المدمرة، ولكن قبل كل شيء، التهذيب الأخلاقي للإرهابيين، والذي يمكن تحقيقه من خلال سياسات تحترم القانون الدولي وحقوق الإنسان، وتنشر التعاون الدولي والقيم الإنسانية في كل بقعة من بقاع العالم. ومن الضروري تنفيذ هذه السياسات من خلال تعديل السياسات الأمريكية في فلسطين وفي العراق. وفي هذا الصدد، يشير أوليفر روي، مدير الأبحاث في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي في كتابه الصادر بعنوان «أوهام الحادي عشر من سبتمبر»، أنه نتيجة للسياسات التي تبنتها الولايات المتحدة الأمريكية في هاتين الدولتين، فقد تمتع أسامة بن لادن ببعض الشهرة في العالم العربي. وعلى الرغم من أنه يجب مواجهة الإرهابيين بإجراءات بوليسية، فإن الإرهاب نفسه كظاهرة يمكن التعامل معه من خلال سياسات تنشر السلام وتحض على التعاون الدولي والقيم الإنسانية والتآزر الاجتماعي.

مواجهة الإرهاب في العالم

بقلم: د. أحمد عصمت عبدالمجيد *

لقد أرهقت واشنطن العالم بحربها ضد الإرهاب، وزادت الحملات الإعلامية الضارية ضد العالم العربي والإسلامي تحركها عناصر صهيونية، والعالم العربي مطالب اليوم بوضع استراتيجية حية لتصحيح ما شوهه هذا الإعلام. فإن الحضارة العربية تشمل النصارى والمسلمين في منطقتنا.

لقد وقع الرئيس جورج بوش في خطأ جسيم بعد أحداث ١١ سبتمبر مباشرة فاندفع في وصفه لتلك الأحداث الإرهابية بأنه يجب شن حرب صليبية على من قام بها جاعلاً المشكلة ذات صبغة دينية بين النصارى والمسلمين، واضطر بعد ذلك إلى التراجع عن استعمال تلك الكلمة وسحبها.

إن نشأة الإرهاب الحالي بدأت فكرتها بتخطيط وتمويل وتدريب

* الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية ـ مصر.

من الولايات المتحدة الأمريكية لتحقيق أهدافها غير المشروعة في محاولة للسيطرة على الاتحاد السوفيتي آنذاك بداية بأفغانستان. وقامت بتدريب وإعداد الكوادر الخاصة لتحقيق تلك الأهداف. وعندما انهار الاتحاد السوفيتي لم تعد الولايات المتحدة الأمريكية في حاجة إليها، وفقدت السيطرة على تلك العناصر المارقة، بل لم تجد أمريكا عدواً بديلاً لها كقوة عظمى تبسط هيمنتها عليه خيراً من العالم الإسلامي والعربي إذا علمنا ما يمتلكه من ثروات، وبالذات النفط. فبدأت في فرض غطرستها عليه مدفوعة بعناصر متطرفة ويهودية مثل منظمة الإيباك (AIPAC) ومقرها واشنطن.

وصدم العالم الإسلامي بهذه الاتهامات والحملة الهوجاء التي شنت عليه مما دعا إلى بث الكراهية بين الشعوب وتوسيع الفجوة بينها.

ومع ذلك علينا أن نفرق بين الإدارة الأمريكية والشعب الأمريكي الذي يتعاطف جزء منه مع الحقوق العربية، بدليل المظاهرات التي قامت في واشنطن يومي ٢٦ و٢٧ أكتوبر ٢٠٠٢. وإن من حيثيات تكريم الرئيس السابق كارتر ومنحه جائزة نوبل للسلام والإشارة إلى تصرفات الإدارة الأمريكية الحالية في حيثيات تكريمه تباين الفرق بين كارتر الراعي والعامل على السلام وبين بوش على أن أي دولة مهما أوتيت من قوة قد تظن أنها تستطيع فرض إرادتها بقوة السلاح، ورغم عدم تقليلنا من حجم تلك القوة فإنها ليست الوسيلة الوحيدة لتحقيق أهدافها ومستنقع العراق خير دليل على ذلك.

لقد عانت الإنسانية على مر العصور من الإرهاب، وإن كانت أشكاله تنوعت مع مرور الزمن. فقديماً كان الإرهاب يهاجم قوافل المسافرين في الصحراء أو السفن في البحار، وكانت شعوب بأكملها تهاجر من مكان إلى مكان والعبودية خير دليل على ذلك.

ومع تقدم التكنولوجيا أصبحت الهجمات على الطائرات متكررة من أناس يحاولون فرض إرادتهم بأخذ الرهائن وإملاء شروطهم على الجانب الآخر.

وبدأ إرهاب وسائل الإعلام التي فرضت خلال السماوات المفتوحة آراءها وأفكارها واستغلت خبراتها في بث الأفكار التي تناسبها ودمغ غير ذلك من الأفكار بالرجعية والتخلف.

وإذا استمر هذا السباق الخطير بين الإرهاب الذي يزداد خطره ودقة تخطيطه يوماً بعد يوم وبين أكبر دولة في العالم فالمستقبل لا يبشر بأي خير للعالم أجمع. وإذا كان أعداء الإرهاب قد استغلوا الإعلام والتكنولوجيا الحديثة في الهجوم على الإسلام وإلصاق كل الموبقات به فإن الإرهابيين قد قويت شوكتهم مع الزمن مستغلين نفس الأدوات في الهجوم المتكرر على عدة أهداف وكان أكثرها بشاعة هجوم الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا التي كانت تظن أن أرضها هي آخر مكان يمكن الوصول إليه أو النيل منه وافتعلت الأسباب للهجوم على العراق رداً على ذلك.

إننا ندين أحداث الحادي عشر من سبتبمر في أمريكا كما ندين

بشدة ما يجري في منطقتنا العربية من إرهاب نشاهده كل يوم على أجهزة الإعلام في فلسطين والعراق والجزائر والسعودية وغيرها. ولقد شنت أمريكا الحرب على العراق بعد ضرب الإرهابيين لاثنين من ناطحات السحاب في نيويورك وادعت صلة العراق بالإرهابيين وبررت أعمالها بامتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل التي ثبت بالدليل القاطع والبحث العميق عدم وجودها، وقامت الدنيا ولم تقعد من يومها. في حين أننا نشاهد كل يوم على نفس الأجهزة نسف بيوت بأكملها وقتل الأبرياء واقتلاع الأشجار وتبوير الأراضي والاستيلاء عليها جهاراً نهاراً وجنازات شباب الشهداء تشيع أمام أعيننا في فلسطين والعراق وأصبح الكيل بمكيالين يتبع كثيراً من السياسات والحكم عليها.

وقرأنا كثيراً عن تفسير الغرب للإرهاب ومحاولة إلصاق ذلك بالعرب والمسلمين. وإذا نظرنا إلى ما ينشر عندهم في الصحف أو إلى تقارير الأخصائيين نجدها تركز على هذا التفسير مستغلة أحداث ١١ سبتمبر، وظهرت عناصر ضغوط جديدة على العالم الإسلامي، وظهر إرهاب الدول الذي تركز على منطقة الشرق الأوسط، وأصبح من الشائع أن نسمع عن مصطلح الدين ينفرد بذكره فقط مصاحباً لأي عمل لا يرضى عنه الغرب حتى لو كان هذا العمل دفاعاً شرعياً عن الوطن، فيقال إرهابي مسلم قام بكذا وكذا أما في حالة الديانات الأخرى فيذكر إرهابي فقط.

ونسوا أن الإسلام يأمر المسلمين بالسلام والتسامح، وأن كلمة إسلام تنبع من كلمة (سلام) والآية ﴿**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾، إن الإسلام يحترم كل أشكال الحياة.

هذه ناحية من النواحي الأخلاقية النبيلة التي نادى بها ديننا الحنيف وغيرها الكثير في شتى نواحي الحياة، هذا التحضر دفع بالكثيرين الذين هالهم مهاجمة المسلمين في شتى وسائل الإعلام الغربية إلى قراءة القرآن فوجدوا فيه ضالتهم وهالهم ما كانوا تحت تأثيره من قبل من إفك وعدوان. فسارعوا باعتناق الإسلام. ويقال إن مبيعات القرآن والكتب التفسيرية له زادت بشكل ملحوظ بعد ١١ سبتمبر الشهير. ورأينا المظاهرات المناهضة تجتاح أرجاء العالم مطالبة بحماية الفلسطينيين ومحتجة على احتلال العراق.

إن تكنولوجيا الغرب تفضح أمام أعيننا يومياً الممارسات البشعة التي يتعرض لها العراقيون في سجن أبي غريب وغيره، وتتعرض لها شعوب منطقتنا سواء بالإيذاء والتعذيب والقتل على أيديها أو بغض النظر عن كل ما يجري. بل تعدوا كل ذلك بتوجيه اللوم فيما يجري إلى المجني عليه، ووجدوا ذريعتهم المزعومة في الشباب الذي يفجر نفسه دفاعاً عن وطنه. هل تصوروا الألم النفسي والمعاناة التي تدفع شاباً أو شابة في مقتبل العمر إلى القيام بذلك؟ هذا جيل من الشباب كبر وترعرع تحت وطأة

استعمار بغيض جثم على صدره وأخذ أرضه وحطم بيته وباعد بينه وبين مصدر رزقه. إنه يومياً محاط بالدبابات وقوافل التفتيش، ويستبيحون ممتلكاته، حتى أمواله في البنوك تفتق ذهن المحتل الصهيوني أخيراً عن مصادرتها جهاراً نهاراً والجميع يتفرج.

إن بلاداً كثيرة تسارع إلى إرسال المعونات ونجدة الذين يصابون بالزلازل والفيضانات ولكنها تغمض عينيها للأسف عن كل ما جرى ويجري للفلسطينيين في الخمسين سنة الماضية. هل ترك للفلسطينيين أي مخرج آخر من هذا العناء بل من هذا التجبر يا سادة كفى وألف كفى إلى متى ستظل منطقتنا في هذا الهوان ونحن في جزر متباعدة كل ينظر إلى طرف أنفه لا يعبأ بما حوله؟ يجب أن نلم شملنا ونصلح أمرنا.

ويحضرني هنا التفكير في حرب الاستنزاف التي كانت قائمة بين مصر وإسرائيل في أوائل السبعينات. لم تكن هذه الحرب دامية ومؤلمة لإسرائيل وحدها فقد كان لمصر نصيبها كذلك مع فارق كبير في الأسلوب والأهداف، فقد كانت مصر توجه ضرباتها مباشرة وبغير توقف إلى تجمعات الجيش الإسرائيلي في سيناء المصرية المحتلة، بينما كانت إسرائيل تضرب أهدافاً عسكرية وغير عسكرية ـ دون ما تمييز ـ على الأراضي المصرية.

وبينما كان إصرار مصر على تحرير أراضيها ورفض

الاحتلال، فقد كانت ردود الفعل الإسرائيلية تعكس إصراراً على التوسع واحتلال أراضي الغير وتتسم بالكثير من الغدر والخسة.

كنت وقتها رئيساً للهيئة العامة للاستعلامات وكانت الدولة وقتها تتكتم على إذاعة أخبار الهجمات الإسرائيلية مراعاة لشعور الشعب المصري، ولكني كنت أرى ضرورة فضح هذه الممارسات خصوصاً على المدنيين الأبرياء. وفي فبراير ١٩٧٠ قامت الطائرات الإسرائيلية بغارة على مصنع مدني في منطقة أبي زعبل نتجت عنها خسائر جسيمة ومقتل ٧٠ عاملاً وإصابة ٦٩ آخرين. كانت المأساة مروعة وصورتها إسرائيل على أنها لضرب هدف عسكري.

وقد قمت بإقناع المسؤولين واصطحبت الصحفيين ومندوبي وكالات الأنباء إلى موقع المصنع حيث سجلوا آثار المذبحة التي تعرض لها المئات من العمال وأصدرنا منشورات مصورة وأشرطة سينمائية فضحت السلوك الدموي الإسرائيلي وبشاعته.

وفي الثامن من إبريل ١٩٧٠ أغارت إسرائيل على مدرسة للأطفال في قرية بحر البقر ولقي واحد وثلاثون طفلاً من تلاميذ المدرسة حتفهم وأصيب ستة وعشرون آخرون وكان لهذه المأساة أصداء بعيدة ا لأثر فقد اهتز لها الضمير العالمي وقوبلت بالغضب والاستنكار إزاء الهوة التي تدنت إليها وحشية العدوان الإسرائيلي وكانت الإغارة على مدرسة بحر البقر نقطة فاصلة توقفت بعدها الغارات الإسرائيلية على العمق المصري.

إن الواقع الذي نشاهده اليوم قد غير كل المفاهيم المتعارف عليها من زمن بعيد، وأصبح من يدافع عن أرضه وكرامته في هوة سحيقة تختلط فيها معاني العزة والكرامة والجهاد بنعوت الإرهاب والجريمة. ومن يغزو ويسيطر ويحتل تبرر أفعاله وجرائمه بأنها محاولة لنشر الديمقراطية وتحرير الشعوب وليس البطش بها وإخضاعها لأطماعه وجبروته. وعلى الرغم من أن تكنولوجيا العصر والأقمار الصناعية وغيرها تكشف لنا زيف هذه الادعاءات فإننا نسمع التصريحات تلو التصريحات تدعونا إلى تقبل الأمر الواقع وقبول براءة الذئب من دم ابن يعقوب. هل معنى محاربة الإرهاب هو أيضاً محاربة المقاومة المشروعة للاحتلال؟ ولم يكتفوا بذلك.

وابتدأ مصطلح الشرق الأوسط الجديد يظهر على السطح وإملاءات التغيير تفرض علينا من خارج أوطاننا غير مراعية للأطر الشرعية والثقافية التي تنفرد بها كل منطقة وأن ما يصلح لمجموعة لا يصلح لأخرى. مع العلم أن جامعة الدول العربية كانت من أولى المنظمات الدولية الإقليمية التي صدر عن مجلس وزراء العدل والداخلية العرب بها أول اتفاقية على المستوى الدولي لمقاومة ومكافحة الإرهاب.

وإن كثيراً من الدول العربية عانت من الإرهاب والإرهابيين. وقد كان الرئيس حسني مبارك من أول المنادين في التسعينات بعقد

مؤتمر دولي لمكافحة الإرهاب ولكن للأسف لم يتم ذلك في حينه.

وفي قمة ٢٠٠١م في بيروت تقدم سمو الأمير عبدالله ولي عهد المملكة العربية السعودية بمبادرة جماعية للسلام مع إسرائيل بشروط لا يستطيع قائل حق أن يقول إنها مجحفة بالطرف الآخر آملين بدء حقبة جديدة يتحقق فيها لأول قمة عربية تعقد بعد إضافة ملحق في ميثاق جامعة الدول العربية لأول مرة سنة ٢٠٠٠ يتحقق فيها نزع فتيل الحرب المشتعلة لقرابة نصف قرن قتل فيها من قتل وسلب ما سلب وتشرد من تشرد. ولكن كان رد الفعل: هل من مزيد؟ فهناك توصيات لجنة (ميتشل) ثم (خطة تينيت) ثم (مشروع زيني) وأخيراً وليس آخراً خريطة الطريق وقبلها الجانب الفلسطيني ثم فوجئنا جميعاً ببناء الجدار العازل. كل ذلك والعالم يتفرج، وإن كنا قد سمعنا أخيراً بعض الأصوات ترتفع ـ ولو على استحياء ـ في الدول الغربية مطالبة بوقف هذه الممارسات اللاإنسانية. وهذه الضغوط التي تتحول يوماً بعد يوم إلى صراعات مصالح أدت إلى فوضى إقليمية ودعوة للإرهاب ودفعت إلى تزايد العمليات التفجيرية الاستشهادية بين الشباب الذي لم يصادف في حياته غير القمع وسلب الممتلكات وقفل الطريق على أي أمل.

وما يكاد يحاول حل مشكلة من مشكلاته إلا وتفرض عليه مشكلة أخرى أكثر تعقيداً، كل ذلك جعل المواطن العربي لا يكاد

يفيق من الانشغال بذلك وبضغوط الحياة المادية والمعيشية التي تثقل كاهله يوماً بعد يوم وتصرفه عن التفكير في الإبداع والتنمية التي أصبحت مرادفة لرفاهيات لا يقدر عليها وتخص فقط مجتمعات أخرى.

يتكلمون عن الديموقراطية وكأنما لا يستحقها إلا عالمهم. إن الديموقراطية تدعو إلى نبذ كل أشكال الظلم، ينطبق هذا على الإنسان أينما وجد في العالم. إن حقه في الحياة لا يمنع حقه في خصوصيته الثقافية واحترام خصوصية الآخر الثقافية والدينية في نفس الوقت. فلا يوجد احتكار لثقافة معينة دون غيرها ودون أي اعتبار لما تتضمنه من سلبيات. النظرة الرشيدة تدعو إلى محاولة التلاقي والتفاهم لما فيه المساواة والعزة وتأصيل المشاركة في إدارة شؤون الوطن والاحتفاظ بثقافته بصرف النظر عن جبروت الغير وسطوته العسكرية أو كثرة ثروته المادية، وهي النظرة الاستعمارية القديمة التي تتداول حتى الآن، والتي يجب مقاومتها والسعي إلى نظام ديموقراطي يراعي قوانين حقوق الإنسان بل كل الحقوق الإنسانية التي نادت بها الكتب السماوية.

يتكلمون عن ديموقراطية الغرب متناسين وسائلهم للتجسس على الدول فضائياً، حتى على أدق خصوصيات وحقوق المواطن العادي. فنجد في أمريكا تعنتاً شديداً ضد أي

داخل إليـهـا. وإن مطاراتهم شـاهد على ذلك فلم يكتفـوا بالتفتيش الدقيق بالأجهزة والأيدي بل دعوا إلى أخذ الصور والبصمـات. وفي بريطانيـا وزيرة سابقة في وزارة بلير تعترف باستماعها وغيرها إلى تسجيلات صوتية لمحادثات خاصة لبعض مواطنيها. حتى كوفي عنان لم يسلم من ذلك في مقره بالأمم المتحدة، هل ظنوا أن تكنولوجيتهم ووسائلهم الحديثة لن تكتشف من غيرهم المنتمين إلى العالم الثالث. لقد مضت ثلاث سنوات على تلك الأحداث التي هزت العالم واتخذت ذريعة لشن الحرب على أفغانستان وبعدها العراق وظن البعض أن ذلك سيقضي على الإرهاب. لكن إذا دققنا النظر نجد أن الإرهاب وانعدام الأمان في العالم أجمع يتفاقم، ناهيك عن مشكلة فلسطين التي تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم ومعها الشعور العام بالقلق مما يحمله الغد وخصوصاً في الولايات المتحدة. فإنهم يقيسون معدلات تزايد الإرهاب بألوان مختلفة تتغير كل عدة أيام تبعاً لقوة تزايد المعلومات السرية التي تصلهم من مختلف أجهزتهم الحساسة والشعور العام هناك ينتظر هذه التغييرات.

لقد أدى الإرهاب إلى إحجام الكثيرين عن السفر وإلى ارتفاع أعباء وسائل النقل المختلفة والتأمينات وإلى تشدد البنوك وتقييدها للمعاملات المصرفية وتأثرت الكثير من الجمعيات الأهلية

والخيرية بسبب النقص في التمويل مما حال دون تأديتها لأعمالها السابقة كما أدى إلى تناقص فرص العمل وأثر كل ذلك على الاقتصاد العالمي.

وبديهي أنه يجب العمل على تضييق الفجوة الكبيرة في العالم بين الأغنياء والفقراء بدلاً من الإنفاق على أسلحة الدمار الشامل مما سوف يقلل من البطالة والإحباط النفسي عند البعض الذي يدفعهم إلى الانضمام إلى العناصر الإرهابية والمتطرفة ومحاولة القضاء على الاستعمار الجاثم فوق صدور الملايين الذين يحاولون إبعاده دون جدوى.

لذا يجب على الدول البحث الدقيق في مصادرها الاستخباراتية والتي بسببها تتخذ قرارات مصيرية مثل المعلومات الخاطئة والمصطنعة من بعض المغرضين الذين روجوا لتلك الأفكار التي تم الاستناد عليها لشن الحرب الأمريكية على العراق والتي ظهر فيما بعد عدم صحتها.

ويجب علينا تصحيح مفهوم كلمة «الجهاد» عند غير المتكلمين باللغة العربية وغير المسلمين فإنها تستعمل من كثير منهم لإلصاق كلمة الإرهاب بالمسلمين وهم لا يعرفون مفهومها الحقيقي وتشجيعهم على البحث الجيد قبل التسرع باستعمال كلمة في غير معناها الحقيقي والذي هو في الأصل مفهوم لكل عمل نبيل يقصد به مرضاة الله وخاصة أن ذكرها

في القرآن مرتبط بالجهاد في سبيل الله وهو أسمى هدف يسعى إليه الإنسان ولا يمكن في هذا السياق أن يكون هذا العمل إرهابياً.

كما يجب العمل وبسرعة على قيام هيئة من الخبراء الدوليين في حقوق الإنسان بالتحقيق في جذور الإرهاب والعنف. وأولها احتلال الأراضي بالقوة وانتهاك حقوق الإنسان.. ناهيك عن الفساد المتفشي في العالم أجمع وإن محاولة فرض تنفيذ قرارات مجلس الأمن على بعض الدول دون غيرها لدليل على اختلاف المعايير وأكبر دليل على ذلك صدور العشرات من قرارات المجلس تدعو إسرائيل إلى كذا وكذا ولكن إسرائيل تضرب بهذه القرارات عرض الحائط وتستمر في ممارساتها اللاإنسانية ضد الفلسطينيين وتحاول إقناع الرأي العام العالمي بشرعية احتلالها وأعمالها الفاضحة ضد سكان الأرض الأصليين مستندة في ذلك إلى الدعم الأمريكي المستمر لها خصوصاً عند قرب الانتخابات الرئاسية الأمريكية لحاجة الرئيس للأصوات اليهودية في الولايات المتحدة.

إن أكبر مظاهر الإرهاب في العالم وجود الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل أو التهديد باستعمالها أو وقوعها في أيد غير أمينة مما قد يسبب كوارث لا يعرف مداها إلا الله، هذا

بالإضافة إلى الكم الهائل من الأموال التي تنفق في هذا المجال والتي كان يمكن أن توجه إلى ما فيه خير البشرية. وليكن معلوماً أن استعمال العنف قد يفرض أمراً واقعاً ولكنه من الصعب أن يفرض الأمن والسلام.

ولا يفوتنا أن نشير إلى تطور الأوضاع في السودان والخطورة التي قد تنجم عن الضغط على شعب السودان الشقيق وحكومته وإثارة المشكلات في منطقة دارفور بتخطيط وإعداد عناصر معادية للسودان والدول العربية.

وفي الختام فإن تشجيع الحوار الإسلامي المسيحي والعربي الغربي يقرب بين الثقافتين ويبرز الإيجابيات المتوفرة في تلك الثقافات والحضارات بدلاً من السلبيات. ومن الطبيعي أن يتم تنفيذ ذلك بشخصيات معتدلة لها مكانتها واحترامها عند الطرفين.

إن السلام لا يتحقق إلا بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه وبدون ذلك سوف يشهد العالم مرحلة من المخاطر والأهوال لم تظهر من قبل وبذلك ندعو أنصار السلام للعمل سوياً في محاولة لإيجاد الحلول للنزاعات القائمة أو المزمنة وإنصاف المظلومين.

التلون الغربي والإرهاب
عرض موجز لكلفة باهظة

د. جون دوك أنثوني *

اتسمت الطريقة التي يتبعها الغرب في حربه على الإرهاب بالتلون منذ انطلاقها، رغم أن عواقبها كانت مكلفة. ولو كان الحال خلاف ذلك، لكانت الحرب قد تمخضت عن نتائج أفضل بكثير مما تحقق، إذ إن النتائج التي تحققت كانت على عكس ما خطط له واضعو استراتيجية الحرب. وبدلاً من ذلك ـ وهو ما أثار السخرية ـ أن الإعلانات والسياسات والإجراءات التي يتبعها الغرب قد أدّت إلى زيادة العنف الإرهابي ضد الغرب والأهداف الغربية.

والحقيقة هي أنه لم يتحقق حتى الآن أي من الغايات الثلاث المعلنة التي شُنَّت الحرب من أجلها، وهي التقليل من درجة وحدّة وتكاليف الإرهاب، و الإجراءات المضادة له. ومما لا شك فيه، أن أولئك الذين من

* رئيس المجلس الوطني للعلاقات العربية الأمريكية ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

أجلهم كرست الحرب على الإرهاب هم في الحقيقة على غير اتفاق. وكما سيوضح هذا المقال، فإن البرهان في هذه الحالة سيكون قاطعاً.

وما هو أسوأ من ذلك،أن ضحايا الحرب على الإرهاب لم يكونوا فقط أولئك الذين قتلوا أو شوهوا بالقنابل وطلقات الرصاص، بل إنها شملت العديد من الفئات الأخرى. فمن بين تلك الفئات، كثير ممن ارتبطوا بالرخاء المادي والعاطفي بقطاعات كبيرة من البشر. وهكذا، فإن التعقيد والتنوع في مثل هذه الحالات يفرض تحديات جمة على أولئك الذين سيقدرون تكاليف الإرهاب. حتى مع ذلك، ومهما كانت صعوبة المجهودات التي تبذل لحساب مدى تكلفة تلك الأضرار الإضافية، فإنه من المهم أن تبذل تلك الجهود من أجل عمل تلك الحسابات، لأن هذه الأضرار هي أيضاً من بين ضحايا الإرهاب وجهود مواجهته.

من بين فئات الضحايا الإضافية تأتي البنية الأساسية للسياحة والصناعة والاقتصاد، واستبدال وإعادة إنشاء المعدات والأجهزة والمرافق التالفة. ومن بين القطاعات التي تضررت كثيراً عملية تبادل الطلاب والأساتذة بين الشرق والغرب، وقطاع النقل والمواصلات وهيئات الرعاية الطبية والصحية، وكذلك خطط وتطلعات الاستثمار الأجنبي المباشر في دول أخرى.

وإجمالاً، فإن هذه الجوانب من الجهد الإنساني لا توازي المشروعات والأعمال المعطلة، فأعداد العاملين بها تبلغ عشرات

الملايين. و من الجدير ذكره أن الأضرار الواقعة في تلك القطاعات وقعت بمنأى عن أعمال العنف الأساسية التي حدثت. إن ذلك كله يوضح التأثير العالمي للإرهاب. وهذه مجرد فئات قليلة من الفئات المرتبطة بالإرهاب والتي تقدّر خسائرها المادية، مع التحفظ،، بتريليونات الدولارات.

الإرهاب ، والبراءة ، والجهل ، والنزعة إلى القتل المصحوبة بالغطرسة:

إن كثيراً من الأضرار التي أصابت الناس من جراء الإرهاب وإجراءات مقاومة الإرهاب، وكذلك التي أصابت الممتلكات المادية، منها ما ذكرنا، ومنها العديد مما لم نذكر، لم تكن نتيجة للحقد الفردي أو الجماعي. ولو كان ذلك صحيحاً، فإن التحدي في حالات الإرهاب في مقابل إجراءات مقاومة الإرهاب، سوف يتمثل أساسا في الإصرار على ملاحقة المتورطين ومقاضاتهم، بالإضافة إلى وضع وتنفيذ الخطط لمنع تكرار تلك الأحداث.

فضلاً عن ذلك وفي هذا السياق، فإن ما يساهم في تنشيط أعمال الإرهاب من ناحية، وفي زيادة جهود مقاومة الإرهاب من ناحية أخرى، هو شيء مختلف تماماً. إنها الأشكال المختلفة من التعالي والغطرسة والغرور الغربي. ونرى أن هذه التصرفات تبرز جلية من قبل الطرف الغربي الأكثر قوة في نزاع يكون طرفاه الإرهاب والإجراءات المضادة للإرهاب. ولا عجب أن يعدّ هذا أحد الأسباب

التي جعلت جهود إقناع قادة العالم للتعامل مع جذور السياسة الخارجية والأسباب المرتبطة بالإرهاب تتسم بعدم الشفافية.

ومما يجب توقعه أن إصرار الغرب سينصبّ على أن التحدي هو خلاف ذلك. فقد يعمد الغرب إلى تضليل الكثيرين من أتباعهم الغربيين، فضلاً عن الأطراف الأخرى، ولكن السؤال هنا هو إلى متى يستمر هذا؟ ومثال ذلك ما حدث في الانتخابات الأمريكية في خريف ٢٠٠٤, فقد ثبت أن الكثير من أحاديث وخطب الرئيس بوش والمسؤولين الأمريكيين الآخرين لم تؤثر على قناعة الملايين من الناخبين، على الرغم من (عدم) وجود أي أدلة داعمة بأن صدام حسين كان وراء اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية، وأن العراق على علاقة وثيقة ومستمرة بمنظمة القاعدة.

وفي أماكن أخرى من العالم، نجد أن القليل من الناس حتى الآن ما زالوا سذجاً ويسهل خداعهم، وباختصار، فإن درجة البراءة والجهل والغرور والنزعة إلى القتل المصحوبة بالغطرسة بين القادة الغربيين المرموقين وأتباعهم ما زالت تتصاعد. أما أثرها على المفكرين في كل مكان في العالم فهو الشك في تلك الأقوال، وقد كان ذلك وحده بمثابة عامل أساسي في ارتفاع حدة الإرهاب واستمرار قوته قبل الحادي عشر من سبتمبر وبعده.

فالقول أن الأمور الصغيرة يمكن أن تعني الكثير، ينطبق بشكل خاص على ما نقوله هنا. وفي الحقيقة، إن هذا هو الحال

الذي يراه ضحايا تصرفات الغربيين في إجراءاتهم ضد الإرهاب. ومن الأدلة على ذلك وقوع أحداث مشابهة بشكل أسبوعي في منطقة الشرق الأوسط. ونسوق هنا مثالاً لما حدث من أعمال في حفلات زواج في كل من أفغانستان والعراق لندلل على ما ذهبنا إليه، ففي مثل هذه المناسبات يجتمع العرسان و أهلوهم ومدعووهم أمام بيوتهم للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة. في مثل هذه المناسبات التقليدية يكون الجو منفتحاً ومليئا بالبهجة. و حيث جرت العادة على أن يقوم الضيوف من الرجال بإطلاق الأعيرة النارية في الهواء لإظهار الفرح في مثل هذه المناسبة، ولكن كثيراً من مثل هذه الأحداث في أفغانستان والعراق تحول إلى كابوس منذ انطلاق الحرب على الإرهاب. والسبب هو وقوع شكل مختلف من الإرهاب، وهو شكل غربي في منشئه وتطبيقه. ما يحدث الآن هو أن الطيارين الأمريكيين الذين لا يملكون الخبرة والدراية قد اعتادوا وهم يحلّقون بطائراتهم فوق احتفالات الزواج المذكورة أن يخطئوا فهم تلك الأعيرة النارية، وذلك بفهمها على أنها نيران معادية، فيقومون بإسقاط قنابلهم وتفريغ أسلحتهم فوق أولئك الواقعين أسفلهم، والذين كانوا قبل لحظات قليلة يستمتعون بأسعد أوقات حياتهم.

ولنأخذ مثالاً آخر. فنتوقف للحظة ونتأمل ما حدث في معتقل غوانتانامو بكوبا. فكثير من المحققين الأمريكيين، إن لم يكن

معظمهم، الذين يعملون هناك، هم على علم بدرجات مختلفة بالمبادئ القانونية المتعلقة بإجراءات التحقيق. ولا يمكن أن يكونوا غير ذلك، حيث إن تلك المبادئ مصدرها أروقة البيت الأبيض ووزارة الدفاع الأمريكية.

في هذا الخصوص، وفي أعقاب كارثة الحادي عشر من سبتمبر، نجد أن الإجماع الرسمي الأمريكي مقتنع بتفسير غير عادي لذلك الجزء من القانون الدولي الذي يتعلق بالإجراءات التي يجب على الدول اتباعها في أوقات الحرب. فبعد غزو الولايات المتحدة الأمريكية لأفغانستان بقليل في عام ٢٠٠٢، رأى الكثير من كبار المسؤولين الأمريكيين أن معاهدة جنيف لعام ١٩٤٩ المعنية بشؤون المحاربين لا تنطبق في حربها على أفغانستان، على الرغم من أن الولايات المتحدة، و قيادات دولة إسرائيل الجديدة التي تأسست في عام ١٩٤٨، كانوا يقودون الناشطين لدعم سن هذه المعاهدة.

قد أعلن كثيرون أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون في مثل هذه الحال. ولكن انتظار الرد لم يدم طويلاً. فبالنسبة للإرهابيين، كان التفسير الأمريكي بمثابة الغيث الذي نزل من السماء. فالغضب الناجم عن العديد من الانتهاكات الأمريكية لحقوق السجناء، والذي ساد بين حلفاء الولايات المتحدة وخصومها على حد سواء، كان أفضل مسوغ للإرهابيين المعادين للغرب أكثر من أي شيء آخر. فقد تزايد مؤيدو القاعدة كثيراً في أعدادهم أكثر من أي وقت مضى.

وعلى العكس من ذلك، ففي العراق كان أسلوب مقاومة الإرهاب مختلفاً من النواحي القانونية. وقد أثبتت الأدلة أنه كان أسلوباً سيئاً، إن لم يكن أسوأ من سابقه. هناك، حيث قام تمرد هائل ضد الاحتلال الذي تقوده الولايات المتحدة، تم التركيز على أن معاهدات جنيف سوف تطبق على أرض الواقع. ومع ذلك، فإن العديد من العسكريين ورجال المخابرات والمحققين قد تورطوا في فضائح تعذيب تم الكشف عنها، في السجون التي تديرها الولايات المتحدة الأمريكية، ونادراً ما كان يعرف أولئك ما هو المسموح وما هو غير المسموح لهم عمله تجاه السجناء العراقيين الذين تم القبض عليهم وإيداعهم السجون التي تقع تحت إشرافهم.

ما تلا ذلك كان مأساة خطيرة الآثار بدرجات متفاوتة، فبعد مرور عام على الاحتلال من قبل دولة تفخر بأنها تملك نظاماً يتميز بالعدالة وحكم القانون، وأن من أهم إنجازاتها هو تطبيق القانون، حدثت أحداث لم يكن أحد يتوقعها. ما حدث هو ارتكاب العديد من الانتهاكات الأخلاقية والقانونية المفزعة والخطيرة التي صورتها عدسات الكاميرات. فالصور التي عرضت ونشرت في أنحاء العالم والتي كشفت تعذيب الإنسان للإنسان، كانت بمثابة ضربة قوية لما خلّدته الأجيال السابقة من المعلمين والمربين والأطباء والمرضين الأمريكيين الذين عاشوا وعملوا في الدول العربية ودول الخليج. كان هؤلاء الأفراد وحدهم، وليس علماء الجيولوجيا أو المستثمرين

أو الدبلوماسيين أو الجنود، قد عملوا هناك قبل ظهور البترول وقبل ظهور أجهزة التكييف وقبل الطيران وقبل تعبيد الطرق وقبل إنشاء المستشفيات، عملوا في البحرين والكويت والعراق وعمان والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة للمساعدة في بناء قدر كبير من السمعة الطيبة تجاه الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة بأسرها.

يتضح أن ما حدث في غوانتنامو بكوبا من جهة وما حدث في العراق من جهة أخرى هو شيء واحد. إنها الطريقة التي يتصرف بها كبار المسؤولون الأمريكيين في أوقات الضغوط الاستثنائية مضافاً اليها معرفتهم وفهمهم المتواضعان للشعوب والثقافات التي يتعاملون معها. فمن المعروف أن كبار مسؤولي وزارة الدفاع الأمريكية قد ضغطوا كثيراً على المحققين، وقد شجعوهم على انتزاع أكبر قدر ممكن من المعلومات من السجناء.

في حالة الضغوط التي تعدّ وصفاً ملائماً لأي حرب تدور رحاها، لم يتورع المسؤولون الأمريكيون من الضغط على المحققين الأمريكيين لكي يقوموا بدورهم بممارسة أقصى حدود الضغط لكي يحصلوا من السجناء على أي معلومات يمكن أن تكون على علاقة ليس فقط بالاعتداءات التي تقع في أفغانستان والعراق، ولكن أيضاً بأي شيء يمكن أن يكون له صلة بهجمات إرهابية مستهدفة في أي مكان آخر.

و نظراً لأن قليلاً من السجناء كانوا من المسيحيين أو اليهود، والأغلبية كانوا من المسلمين، فليس من الصعب أن نفهم كيف أن بعض المحققين استطاعوا أن يدللوا على أنهم تلقوا الضوء الأخضر ليفعلوا كل ما هو ضروري لاستخلاص المعلومات. وقد أدى التأثير الذي خلفته مثل هذه السياسات والمواقف، والمخالفة لروح ونص معاهدات جنيف إلى تجنيد إرهابيين معادين للغرب.

ومن الأمور التي يصعب إدراكها أن المحققين الغربيين – غير الخاضعين لأي نوع من الرقابة – كان تفكيرهم ينصب على أنهم بأدائهم واجبهم كما فهموه يكونون في منأى عن أية عواقب لممارساتهم هذه، ومن خلال هذا التفكير كانوا يشعرون أنهم على أرض ثابتة. و رغم أن ملاحظات قد دوّنت من قبل إرهابيين وقادة عسكريين في مكافحة الإرهاب، وقد وقعت هذه الفظائع في الوحدات التي هم مسؤولون عنها، لكن حتى تاريخه، لم توجه تهمة المسؤولية ضد أي منهم.

هذه الأعمال وكثير من أعمال التجاهل والغطرسة الغربية في الحرب على الإرهاب، كانت مكلفة بدرجة كبيرة، وكان لها أثر كبير في صب الزيت على نار الغضب الموجودة بالفعل لدى كثير من المناهضين للولايات المتحدة الأمريكية، وتلك الدول الغربية والدول الأخرى التي ساندت واشنطن في سياستها ضد الارهاب.

الإرهاب والرغبة الغربية الإمبريالية في الهيمنة:

يمكن أيضاً التطرق لنواح أخرى فيما يتعلق بتكاليف التلون الغربي في تعامله مع الإرهاب ومكافحته. إذ إن بروز تيار غربي إسلامي مناهض للأمريكيين والغربيين الآخرين وحتى الشرقيين الذين يؤيدون سياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، يعدّ أمراً في حد ذاته ذا كلفة باهظة. مع أخذ ما نتج من ضياع للنوايا الحسنة تجاه الولايات المتحدة الأمريكية في الاعتبار وهذا يضاف إلى ما كلفته هذه السياسات.

ففي داخل الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي كانت تكاليف التمرد والعصيان مرتفعة أيضاً. وإن ارتفاع حدة الغضب وتمرد أعداد هائلة من أناس ينحدرون من منطقة الشرق الأوسط إنما هو ناتج عن معاملة الحكومات الغربية لهم في كثير من الحالات منذ الحادي عشر من سبتمبر. ومهما كانت الآثار بعيدة عن الحسابات المالية، فهي تكلفة باهظة ربما لا يمكن في الوقت الراهن إدراك تأثيرها على المصالح الغربية على المدى البعيد.

وخلال السنوات الثلاث الماضية، حدثت انتهاكات لحقوق الإنسان والحقوق المدنية من خلال التمييز العنصري، والإرهاب الإسلامي، المصطلح الجديد المستخدم لزرع الخوف من الآخر.

ومنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر تورط الكثير من العاملين في المخابرات الغربية وهيئات تنفيذ القانون، و قاموا بأفعال

تجعلهم يخجلون من أنفسهم. ويتمثل ذلك في أنهم اعتقلوا أشخاصاً لأنهم فقط يحملون اسماً عربياً، أو بسبب شكل شعرهم أو لون جلدهم أو بسبب الطريقة التي ينطقون بها كلماتهم، والتي اعتبرت مبررات كافية للقبض عليهم واستجوابهم على أساس الشك في أنهم يمكن أن يكونوا على علاقة بالإرهاب!

ومع الغضب المشروع من أولئك الذين تعرضوا لمثل هذه الأعمال، فإن الشكوك التي أثارت تلك الأعمال قد ثبتت صحتها في حالات نادرة جداً. ومن المؤكد أن من بين الآلاف الذين قبض عليها للاستجواب، أو وضعوا في السجون لفترات طويلة، كان هناك الكثيرون ممن لم توجه ضدهم تهم رسمية. علاوة على ذلك، فإن القليل فقط من مجموع من قبض عليهم واستجوبوا أدينوا بمخالفات. ومن بين هذه القلة، أدين عدد ضئيل جداً بعلاقته بالإرهاب.

وتبقى هناك تكلفة أخرى للغطرسة الغربية في معالجتها للإرهاب وإجراءات مقاومتها له، و التي تشتمل على الاغتيالات العديدة والاعتداءات الجسدية ضد القادة الأفغان والعراقيين. وهؤلاء القادة اختاروا العمل مع التحالفات الموالية للولايات المتحدة التي تحتل بلادهم من منطلق إحساسهم بالوطنية حسبما عرفوها وفهموها من ناحية ومن منطلق حاجتهم لإطعام أسرهم من ناحية أخرى، ولذلك فإنه ليس مستغرباً أن ينظر إليهم الكثيرون من أهل

بلدانهم في أفغانستان والعراق على أنهم ليسوا قادة ولا وطنيين، بل ينظرون إليهم على أنهم متعاونون مع الاحتلال. ومن هذا المنطلق أيضاً نظر إليهم الأفغان والعراقيون على أنهم مجرد نسخ مكررة من الخونة في الحرب العالمية الثانية في فرنسا والنرويج، أي الطابور الخامس للمحتل الغربي.

لكن لا جديد في هذا، فقد حدثت ومنذ مدة طويلة ظاهرة مشابهة في الأراضي الفلسطينية التي تحتلها إسرائيل. فقد امتدحت العديد من المجموعات المسلمة نتيجة لقيامها بإزهاق أرواح الكثيرين من الذين هم في أعين الفلسطينيين، كانوا موضع شك أو قبض عليهم وهم يتعاونون مع سلطات الاحتلال.

وما يحدث هناك في أي نقطة من نقاط التفتيش أمام مسمع ومرأى الآخرين، وما يقوم به الجندي الإسرائيلي في نقطة التفتيش في الأراضي الفلسطينية التي تحتلها إسرائيل لا يفسر دائماً على أنه عمل بريء، فهذا العمل يمكن أن ينظر إليه على أنه حكم بالموت من قبل أولئك الأقل تفضيلاً، الذين، عندما يرون تلك المعاملة المتميزة لأحد مواطنيهم، يشكّون أن ذلك الفرد قد أصبح متعاونا مع العدو. و بدون شك فإنه في حالة كل من أفغانستان والعراق، فإن معظم المواطنين قد عبروا عن امتنانهم للغرب الذي وضع نهاية لحكم طالبان والحكم البربري لصدام حسين. ومع ذلك، فإن هذا التقدير والامتنان قد قابله كراهية مماثلة من

المواطنين أنفسهم للسياسات التي يتبعها المحتلون في أراضيهم.

في هذا السياق، كان من الممكن تجنب أحد أكبر الأخطاء الأمريكية في العراق، و هو قرار الحاكم الإداري الأمريكي في العراق بطرد، ليس فقط الصف الأول من أولئك الذين خدموا في الشرطة والجيش خلال حكم صدام حسين، بل قرار طردهم جميعاً. والنتيجة بالطبع لا تحتاج إلى تفسير أو إيضاح. فقد نتج عن هذا القرار غير المسؤول ، الذي لم يكن له أي داعٍ أو ضرورة، أن أصبح أكثر من مليون عراقي بدون مصدر رزق. وما هو أسوأ من ذلك أن هؤلاء الأفراد كانوا مسؤولين عن توفير لقمة العيش لملايين آخرين غيرهم. وهذا القرار السياسي لا شك أنه أدّى إلى زيادة واستثارة الإرهابيين المعادين للغرب بصورة مباشرة يصعب تصورها.

وهناك العديد من الإهانات والمخالفات غير المسؤولة التي ارتكبها المحتل ضد شعب أفغانستان والعراق، والتي غابت عن أعين الإحصاءات العمياء، ذلك لأن المحتلين الغربيين قد اختاروا، كأمر من أمور السياسة، ألا يسجلوا تلك الأرقام، أو إذا كانوا قد سجلوا تلك المعلومات والأرقام، فإنهم يخرجون عن مسارهم ليؤكدوا أن تلك المعلومات لم تكن معروفة للعامة.

والأمر المثير للجدل هو السياسة الغربية التي تحصي فقط عدد الغربيين الذين ماتوا أو جرحوا في المعركة. وبالمقابل لا يعرف أحد

كم من الأفغان والعراقيين قتلوا أو جرحوا. يحدث هذا، على الرغم من أنه لم تكن السيادة الوطنية للدول الغربية واستقلالها السياسي ووحدة ترابها هي التي داستها الأقدام باسم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ولكنها كانت السيادة الوطنية والاستقلال السياسي ووحدة التراب لكل من أفغانستان والعراق. و كل هذا حدث باسم مكافحة الإرهاب.

إن القول بأن سياسات الغرب لمقاومة الإرهاب كانت مكلفة من ناحية التعاطف والكرامة، والإشارة إلى الحياة بدون اعتبار للجنسية أو الديانة أو العرق أو مكانة الشخص في المجتمع هو تهميش للواقع. وبغض النظر عن المبررات التي سيقت للدفاع عن تلك السياسات من قبل القادة العسكريين الغربيين في الميدان، فلا يمكن لأحد أن ينكر أن تلك السياسات كانت منذ البداية يحكم عليها من منظور مختلف تماماً من قبل زعماء كل من أفغانستان والعراق.

إن هؤلاء القادة يقفون على أرض صلبة في رؤيتهم لتلك السياسة كما يعتقدون من وجهة نظرهم. فهم يرون أن تلك السياسة خالية من الرحمة والشفقة، وينظرون إليها بقليل من الاحترام إذ إنهم وقبل كل شيء مثلهم مثل جميع البشر لا ينشدون أكثر من أن يكونوا أحراراً في أوطانهم.

وفي وضع العراق، كان كثير من الشك المتصل بالنقاد

الشرقيين الذين انتقدوا الحرب الغربية على الإرهاب مرجعه عند الكثير من العراقيين إلى النقص الواضح في المصداقية الغربية. فبعد مرور عامين من بدء الحرب على العراق، يجد الكثيرون من العراقيين على سبيل المثال، صعوبة بالغة في تصديق أن الولايات المتحدة الأمريكية ودولاً غربية أخرى قد حشدت الحشود ونشرت عشرات الآلاف من القوات وأنفقت بلايين الدولارات من خزائنها فقط لمجرد تخليص بلادهم من ديكتاتور غاشم وتوفير الحرية للشعب العراقي.

وكذلك الأمر في أفغانستان، فإن أعداداً كبيرة من الأفغان ينظرون باستنكار للتحركات الاستراتيجية الغربية الجديدة في بلادهم والدول القريبة منها. فهم يعتقدون أن لديهم أدلة مقنعة تجعلهم يشكون في المبررات التي تذكرها الدول الغربية في جعلها تتحالف وتزرع قواتها المسلحة بهذا الشكل المحكم في وطنهم، وكثير منهم يعزز شكوكه تلك بالنوايا الغربية الحقيقية للسعي وراء تأمين طرق تصدير نفط وسط آسيا، حيث عبّرت الولايات المتحدة ودول أخرى عن اهتمامها بإنشاء شبكة من خطوط الأنابيب عبر أفغانستان وباكستان.

إن قناعة شعوب الشرق بسعي الغرب المتواصل ونهمه من أجل تأمين إمكانية الوصول الدائم إلى مصادر الطاقة في الشرق الأوسط هو أمر مسلم به من ناحية. أما من ناحية أخرى فإن هذه

الشعوب قد تأكّد لها أن أفغانستان والعراق هما قواعد عسكرية استراتيجية هامة ومرغوبة يمكن من خلالهما مواجهة أي من المنافسين.

إذاً لا عجب أن يشعر الكثير من الأفغان والعراقيين أن لديهم مبررات كافية لاعتقاد أن كلا الهدفين الغربيين المذكورين أعلاه حقيقي وواقعي. وبناءً عليه، فإن زعماء كلتا الدولتين يعتقدون أن هناك أموراً أكبر بكثير من مجرد الانتقام لما حدث في الحادي عشر من سبتمبر من هجمات إرهابية، أو محاولة الكشف عن أسلحة الدمار الشامل المزعومة في العراق وتدميرها، التي حركت الولايات المتحدة وأثارتها لدحر نظام طالبان في أفغانستان ونظام صدام حسين في بغداد.

ولا يرى الأفغان المسؤولون عن وضع خريطة بلادهم أي سبب يجعلهم مضطرين لتكييف سياستهم أو رسم خريطة بلادهم الجغرافية وفق رغبة الغرب أو أي جهة أخرى، من هذا المنطلق فإن وجهات نظرهم تتصادم مع وجهات نظر المحتل الغربي الذي حل محل نظام طالبان وحل أيضاً محل المحتل السابق للبلاد وهو جيش موسكو الأحمر.

من هذا المنظور فإننا نعتبر أن السياسات التي تقول بأن منع تكرار الإرهاب المرتبط بأفغانستان من ناحية وبالعراق من ناحية أخرى يتطلب احتلالاً مستمراً لكلتا الدولتين، هي من وجهة نظر كل

من الأفغانيين والعراقيين على حد سواء، تتعارض مع المنطق ومع التجربة. إن أي أفغاني أو عراقي وطني يحتاج فقط إلى استشارة المختصين الأفغان والعراقيين ، ليس المقيمين منهم في واشنطن فحسب، ولكن ربما في لندن أو موسكو للحصول على رأي معارض.

وإن وجهات نظر الغربيين في هذه الأمور لم يكن لها الأثر الكبير بدرجة تتغلب على شكوك الأفغان والعراقيين وانعدام الثقة لديهم، ويرجع ذلك إلى الجرح الذي سببه الغربيون لهم. وإجمالاً للقول، فإن التكاليف المترتبة على استعداء الأفغان دون مبرر، واستثارة مشاعر وغضب العراقيين، لها علاقة أيضاً بسلسلة الأضرار البالغة التي سببها الغرب نتيجة لأسلوبه المتغطرس في حربه على الإرهاب. فانعدام مصداقية الغرب في أعين شعوب الشرق قد نبعت من الأقوال التي تخالف الأفعال، حيث لا يكف الغرب، وخاصة أمريكا، عن القتل بينما يصاحب ذلك مزاعم بأنهم سوف ينقلون السلطة والسيادة الوطنية إلى الأفغان والعراقيين خلال عام ٢٠٠٤م .

إن الوضع الراهن في كلتا الدولتين وما يترتب عليه يشير إلى عكس ما يقال، وهو ما زاد التكلفة بشكل خاص، وعند السؤال عن السبب، يحتاج المرء للنظر في حصيلة ما تم، ليرى أن هذه الأفعال قد سببت الإهانة التي وقعت للكثير من الأفغانيين والعراقيين،

وشوهت صورة الغرب و سمعته بشكل عام من ناحية قيمهم وأفكارهم المعلنة.

إن عدم تصديق الأفغانيين والعراقيين لما تقوله القوى الغربية فيما يتعلق بتسليم السيادة إلى الشعب الأفغاني والشعب العراقي، يعزى إلى ما يعتقده الكثيرون من أن ما يفعله المتحدثون الغربيون هو على عكس ما يريدونه من وضع العالم موضع المصدّق لما يقولون. ففي العراق، بشكل خاص، نجد الواقع يقول بأن الولايات المتحدة الأمريكية تقوم الآن بإنشاء ١٤ قاعدة عسكرية في أنحاء البلاد وفقاً للمعايير والمواصفات الأمريكية.

إضافةً إلى ذلك، فإن تلك الشكوك تنبع من التقارير الكثيرة التي تفيد بأن وزارة الدفاع الأمريكية عازمة على البقاء في العراق لمدة لا تقل عن عشر سنوات، واستخدام القواعد العسكرية التي تقوم بإنشائها هناك كمركز انطلاق و طوارىء لأي تدخلات أمريكية تستهدف أماكن أخرى في الشرق الأوسط .

إذا كان كل ذلك يبدو وكأنه ضرب من قصص الخيال العلمي، عندما نفكر فيما يدفع شخصاً ما إلى القيام بأعمال تعدّ إرهاباً جنونياً، فإن المرء يحتاج فقط إلى أن ينظر في آثار الوضع الذي أوجدته الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها الغربيون في العراق. على المرء فقط أن يتخيل، على سبيل المثال، لو أن تحالفاً آسيوياً تقوده جمهورية الصين الشعبية قام بغزو واحتلال الولايات

المتحدة الأمريكية. تخيل ولو للحظة واحدة فقط، أن الأهداف المعلنة للصين وحلفائها الآسيويين، قبل الغزو، كانت هي " تحرير " الشعب الأمريكي من ذلك الشخص الذي كان في ذلك الوقت يتربع على الرئاسة في البيت الأبيض، وتخيل كذلك أن الهدف الآخر المعلن هو تعريف الشعب الأمريكي بالقيم والنظم الاقتصادية وأساليب الحكم الآسيوية.

تصور ذلك وأنت تتخيل أيضاً إنشاء اثنتي عشرة قاعدة عسكرية صينية في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، كل واحدة منها تنشأ وفقاً للمواصفات الصينية ولغرض الاستخدام من قبل القوات المسلحة الصينية كقاعدة للتدخل المستقبلي المحتمل في أماكن أخرى في أمريكا الشمالية أو الوسطى أو الجنوبية. وحاول أيضاً أن تتخيل ما يمكن أن يحدث لأولئك الأمريكيين البائسين الذين يرفضون إيقاف سياراتهم عند أي من نقاط التفتيش عندما يصيح عليهم رجال الشرطة العسكرية الصينية باللغة الصينية أن يتوقفوا أو تطلق عليهم النيران.

حاول أن تستوعب ما يجري في عقول الأمريكيين الذين حرروا من رئيسهم الأمريكي؛ تخيل المحتلين الصينيين، العسكريين والمدنيين على حد سواء، الذين يتوجب عليهم عدة مرات في اليوم أن يعتمدوا على أمريكيين يتحدثون ويفهمون قليلاً من اللغة الصينية لإرشادهم عن المكان الذي يمكن أن يجدوا فيه حماماً أو

في حالة أضاعوا الطريق، كيف يجدون طريق العودة إلى معسكراتهم.

ثم تساءل كيف يمكن أن يكون رد الشعب الأمريكي الذي أصبح شاكراً ممتناً، إن حدث ذلك، وسعيداً للحرية الجديدة التي منحت له بفضل المحررين الصينيين؟ هل سيكون الرد مختلفاً عن رد أولئك الذين حرروا في أفغانستان وفي العراق، من ناحية، وأولئك الذين يتوقون إلى طعم الحرية منذ زمن طويل في الأراضي الفلسطينية التي تحتلها إسرائيل، من ناحية أخرى؟

علينا مما سبق أن ندرك أن نتائج التلون الأمريكي فيما يتعلق بالأسلوب المتبع في مكافحة الإرهاب كانت وخيمة، وتعتبر حالة أفغانستان في هذا الصدد أكثر دلالة، وذلك مثلما يقول المثل القائل إن الطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الطيبة. هناك على سبيل المثال، لا يمكن حتى للأمريكان أن ينكروا أن تكرر عمليات الإرهاب في كثير من المناطق خارج العاصمة كابول ناتج إلى حد كبير، عن العجز الواضح للقوات الغربية المحتلة عجز القوات الغربية المحتلة الواضح عن كبح جماح تجارة المخدرات.

على الرغم من جميع الأهداف الغربية المعلنة للقضاء على تجارة المخدرات الدولية إلا أننا نجد أن الحقيقة التي لا يختلف عليها اثنان هي أن زراعة الأفيون في أفغانستان والأرباح العائدة من بيعه إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأماكن أخرى هي التي مهدت لهم

طريق تعقب الإرهابيين في أمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية، وكذلك أفغانستان والعراق. ومنذ الغزو والاحتلال الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية لبلادهم، نجد سجلات مثل هذه النشاطات في ازدياد مستمر.

ولا عجب إذن أن تمارس تجارة المخدرات على مسمع ومرأى وأمام أعين القوى الغربية المحتلة في أفغانستان، ولا عجب أن تكون العائدات التي تحصل من تلك التجارة جزءاً لا يتجزأ من قوة الأعداد الغفيرة من الإرهابيين في المنطقة أو المرتبطين بالمنطقة.

إن كل ما سبق لا يوضح لنا الحقيقة بكاملها، فجذور التلون الغربي في حربه على الإرهاب ضاربة في الأعماق.وقد لا يعلم الكثيرون أن درجة العداء للأمريكيين في الوقت الراهن ترجع إلى طريقة التضليل والخداع المتمثل في إصرار الولايات المتحدة الأمريكية ودول أخرى، منذ أواخر عام ١٩٧٩ وما بعده ـ إن تصور للعالم أولئك الأفغان الذين سيجعلون الجيش الأحمر يركع على ركبتيه، بمساعدة ومساندة قوية من الأمريكيين. أما نقطة التحول المهمة في حرب الغرب على الإرهاب ، فقد حدثت بعد وقت قصير من الغزو السوفيتي لأفغانستان، ونقطة التحول هذه هي اتفاق الأوساط الرسمية الأمريكية على أن أباطرة المخدرات الأفغان وأباطرة الحرب المسلحين تسليحاً جيداً لن يطلق عليهم من الآن فصاعداً اسم أباطرة المخدرات أو أباطرة الحرب. وبدلاً من ذلك

الاسم الذي يعطي معنى النبل والشرف، سوف يختلف ما يُسمون به تماماً، حيث سيُسمون اسماً لم يُسم به أي منهم من قبل.

إن قادة الغرب وفي مقدمتهم الأمريكيون، قرروا أن أباطرة المخدرات سوف يُسمّون من الآن فصاعداً باسم "المجاهدين"، وهو لقب ديني كان يعني في حينه "المقاومين الراشدين". وحسبما يرى الغرب، لو أمكن توجيه العالم لتصديق أن هذا هو بالضبط ما كان عليه أباطرة المخدرات، لكان من المعقول بالنسبة لهم أن يعتبروا تلك الجهود جهوداً طيبة وخيّرة.

ومن وجهة نظر عسكرية استراتيجية غربية، فإن القرار بمنح ذلك الاسم اللطيف لأباطرة المخدرات إلى جانب أباطرة الحرب – الذين يفضل الرئيس الأفغاني حامد كرزاي حتى اليوم أن يسميهم "زعماء مناطق" – قد حقق الهدف المرجو منه. فقد ساعد على إقناع كل من الغرب وأعداد كبيرة من المسلمين من جميع أنحاء العالم، وفيهم أمثال أسامة بن لادن وكثيرون ممن أصبحوا أتباعه، بأن يأتوا وينضموا إلى أولئك المجاهدين.

وقد عمل المستشارون الغربيون خلال العقد الذي تلا تلك الأحداث على الانخراط عن قرب في كل خطوة من الحرب التي حرضت الإرهابيين المدربين من الأمريكان على رصفائهم ممن دربهم السوفييت. ولم تأتِ تلك الحرب بثمارها إلا في عام ١٩٨٨ بعد معارك استمرت منذ غَزو الاتحاد السوفيتي لأفغانستان في

عام ١٩٧٩، ونتيجة لتلك الحرب الطويلة، ومن بقايا هذا الانخراط الغربي الطويل الآثم في الإرهاب، خرج الإرهابيون وأتباعهم من مكان لآخر حيث وجهوا طائراتهم التي ضربت أمريكا بتلك القوة في الحادي عشر من سبتمبر.

إن قليلاً من الغربيين الذين يعرفون كيف حدث ذلك يحاولون أن يبعدوا عن أذهانهم مثل هذه الأفكار، وبعضهم يستنكرها أيضاً لدرجة، أنك لا تتوقع أن تطلب من أشخاص غير معتادين أن يهتموا، أو حتى يفهموا أسباب ما يحدث في العالم من تفاهات وسخافات. لكن هناك آخرين يرون غير ذلك. حيث يدرك هؤلاء أن الخليط من البراءة والجهل في هذا الشأن يكمن في الغطرسة الغربية، كما يراها الإرهابيون وأتباعهم. ليس من الغريب إذاً أن محللي الإرهاب من الغربيين، والأمريكيين بشكل خاص، يرون أن ما يثير غضب شعوب الشرق ويثير الردود العنيفة لديها هو أن جهودها في الحوار والتفاهم لا تجد آذاناً صاغية.

السياق، والخلفية التاريخية والرؤية:

مع ما ذكرنا من النصوص والخلفيات التاريخية ووجهات النظر المتنوعة، هناك أيضاً تكاليف أخرى تنجم عن الطريقة التي يتعامل بها الغربيون مع الإرهاب، وذلك من خلال استمرار فشل الغرب حتى الآن في كسب قلوب وعقول الأعداد الكافية من الأفغان

والعراقيين، فضلاً عن الفلسطينيين. والأسوأ من ذلك هو عجز الغرب عن تسجيل أي درجة من التقدم الذي يحمل معنى في هذا الشأن أو يعطي أملاً في المستقبل. فالمبررات التي قدمت في حالة العراق بشكل خاص لتبرير الإجراءات الخاصة التي وضعت لكي تخدم الغرب وآخرين نجد حتى المؤيدين للاحتلال يقرون بأن العراقيين أنفسهم لن يوافقوا عليها.

هذه الإجراءات من وجهة نظر المنتقدين لها، عبارة عن استراتيجية مقنّعة لتدمير البنية الأساسية للبلاد حتى يتم بناؤها حسب الطريقة التي تروق للغربيين. و من الأمثلة على ذلك: القرار المنفرد لسلطة الاحتلال الغربي الذي سمح للشركات الأجنبية أن تشتري ما تستطيع أن تشتريه من الأصول غير النفطية في البلاد. والمثال الثاني هو خطط السلطات لخفض ضريبة الشركات العراقية إلى ١٥٪ فقط.أما المثال الثالث فهو الوضع الذي منحته السلطات بوضعها "مستشارين" أمريكيين وغربيين في كل وزارة من وزارات العراق. وبموجب هذا الترتيب منح هؤلاء المستشارون صلاحيات واسعة لاسيما فيما يتعلق بترسية العقود ودفع ثمن البضائع المشتراة والخدمات التي تقدّم.

هذه مجرد نماذج محدودة قليلة يستشهد بها الكثير من الأفغان والعراقيين لدعم وجهة نظرهم بأن الأهداف الحقيقية للاحتلال الغربي لبلادهم تختلف كثيراً عن النوايا الرسمية المعلنة من الغرب.

وحسبما يراه الكثيرون، وليس فقط الأعداد الكبيرة من الأفغان والعراقيين وكثيرين غيرهم في أنحاء متفرقة من العالم، فإن الهدف غير المعلن والواضح للجميع قبل أن يعبر أول جندي غربي الحدود إلى أفغانستان والعراق، هو تحويل هاتين الدولتين الإسلاميتين اللتين كانتا تتمتعان بالاستقلال السياسي إلى محميات أمريكية وغربية.

وقد حملت أعداد كبيرة ـ لم تكن متوقعةـ من العراقيين السلاح ضد المحتلين الغربيين و من أيدهم من السكان المحليين، وذلك كرد فعل للقوات الضخمة المجهزة تجهيزاً متقدماً، التي دخلت بلادهم. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإن حمل السلاح هذا قد جاء لرفض هؤلاء المواطنين الاستسلام لما يريده الآخرون بهم. ولنفس هذه الأسباب رفضت أعدادٌ كبيرة من الأفغان تسليم سلاحها للمحتلين الغربيين والمتعاونين معهم من الأفغان.

و بناء على ما ذكر فإنه ليس مستغرباً في كلتا الدولتين أن أولئك الأشخاص الذين قطعوا على أنفسهم عهداً أن يقاوموا حتى الموت، وألا يستسلموا للاستعمار أو يسقطوا فرائس للهيمنة الغربية، وقد أسماهم قادة الغرب بمنتهى البساطة "إرهابيين". بالتأكيد هم كذلك في عيون الكثيرين من الغربيين الذين يحتلون مناصب مهمة في كلتا الدولتين، فإن أولئك الذين حملوا السلاح ضدهم أظهروا استعدادهم لمواجهة نيران القوة الغربية الطاغية

الغاشمة والتكنولوجيا العسكرية. وحتى إن دعت الحاجة لاستخدام الترويع أو أي وسائل أخرى لوقف انتصار قوات الاحتلال وحلفائها سواء أكانوا من الخارج أم الداخل.

ولإيضاح المنطق وراء استعدادهم لاستعمال العنف ضد المحتلين الغربيين، وفيهم أولئك المدنيون الأجانب والمحليون من المقاولين والمحققين، يظهر الأفغان والعراقيون أنهم على رأي واحد من ناحية أهدافهم الاستراتيجية. وتتمثل هذه الأهداف في أن يفعلوا أي شيء يرونه ضرورياً لإقناع المحتلين بأنهم لن يقعوا فريسةً مرة أخرى في أيدي الأعداء الذين ينكرون عليهم تقرير مصيرهم بأيديهم. وفي هذا الخصوص، نجد أن العهد الذي قطعوه على أنفسهم يشبه العهد نفسه الذي قطعه الرئيس بوش على نفسه عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر: "سوف أفعل كل ما هو ضروري للدفاع عن الولايات المتحدة الأمريكية (هو لم يقل: أفغانستان، العراق، فلسطين) وحماية مصالح الأمريكيين! (ولم يقل: الشعب الأفغاني والشعب العراقي والشعب الفلسطيني)".

الإرهاب من زوايا مختلفة:

كل هذه الأحداث والتغيرات وقعت في غضون أقل من ثلاث سنوات؛ حيث وقعت كلها عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ذلك كله وقع على الرغم من أن الغبار والمخلفات التي تركها اعتداء

الحادي عشر من سبتمبر لم تتم إزالتها بعد، على الرغم من أن مئات الملايين حول العالم حزنت وفجعت لما وقع للدولة الغربية التي تعرضت لأسوأ عنف إرهابي منذ الهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربور في ديسمبر ١٩٤١ .

وكل هذا من أجل تحقيق الغايات التي ذكرناها، حيث يحاول أكثر القادة الغربيين تقلباً ونزوة في إقناع العالم أنه قد تم ذلك باسم الرغبة في زرع فضائل وقيم ومفاهيم العالم الغربي داخل الدول الإسلامية التي احتلوها.

ومن المثير للضحك والسخرية أن كل ما حدث هو بغرض تعزيز سبل الحرية والتحرير ونشر المشاركة السياسية. فكل ما حدث يفترض أنه من أجل دعم توجهات الديمقراطية وتعزيز حقوق الإنسان والحقوق المدنية، والشفافية وسيادة القانون والأسواق الحرة والخصخصة والمشاريع الخاصة، والانتخابات التي تمتد جذورها، ليس في أفغانستان والعراق فقط، بل في فلسطين وأماكن أخرى في المنطقة أيضاً.

إن الرد بالحجة على مثل هذه الأحاديث البلاغية، وإظهار مزاعمها التظاهرية ليس بالأمر اليسير. ومن أسباب ذلك أنه بالنسبة للسواد الأعظم من غير الغربيين فإن كثيراً من الأفكار والمفاهيم التي صدرت في خطب رنانة في واشنطن ولندن وكانبيرا ووارسو وأماكن أخرى ما زالت لها جاذبيتها. وعلى

العكس من ذلك، فإنه بالنسبة للناس الذين نادراً ما عايشوا مثل هذه الممارسات أو سمعوا عنها، نجد أن جاذبيتها قوية جداً لديهم.

وإن تشكيل أكثر من مئة حزب سياسي عراقي للمنافسة في انتخابات البلاد التي عقدت عام ٢٠٠٥ هو أمر يستحق الوقوف عنده. كما أن الإقبال الكبير على الانتخابات التي جرت في أفغانستان خريف عام ٢٠٠٤م، هو أمر آخر يستحق التأمل. كذلك، فإن الرغبة الجامحة لدى الفلسطينيين خلال انتخابات عام ٢٠٠٥ لاختيار خليفة لياسر عرفات هو أمر يستحق الوقوف عنده كذلك. ومع هذا، فإن العديد من المحللين في أنحاء العالم الذين ينظرون إلى الكلمات الطيبة المعسولة للمحتلين الغربيين لكل من أفغانستان والعراق، وإلى المستعمرين/المستوطنين الإسرائيليين لفلسطين، يجدون أنها كلمات خاوية من معناها و تختلف تماماً عن الواقع. إذ هي كلمات عارية من المثالية المزعومة، بل وتنطبق على أوصاف الجشع والنهم أكثر من انطباقها على قيم الإيثار وحب الغير، من وجهة نظر كثير من النقاد المنصفين.

وفي هذا السياق يصر النقاد على أهمية إزالة ورفع التمويه والتعمية من كثير من الأقوال والإعلانات الغربية المتكررة التي ترتبط بالحرب على الإرهاب. وعندما يتم ذلك، يصبح ما يراه المرء مختلفاً تماماً. وعلى الرغم من الإعلانات والتعليقات لمسؤولي الحكومات الغربية، والمهيمنين على وسائل الإعلام والنقاد

السياسيين المخالفة للواقع، فإن الأهداف الحقيقية وراء غزو واحتلال أفغانستان والعراق، والدعم الأمريكي الرسمي الأعمى الذي يقدم لكل حكومة إسرائيلية تتولى السلطة تعد في نظر النقاد المناهضين للتوجهات الغربية أنها تكمن في أمور أخرى.

وإن الوضع على عكس ما يعلن عنه صناع السياسة الخارجية الغربيون تماماً من وجهة نظر المناوئين الذين لا يستخدمون العنف كسلاح وآخرين ممن تعهدوا بكشف فشل الغرب، ومن هذا المنطلق فإن الولايات المتحدة الأمريكية، أكثر من حلفائها تعمل وبكل قوة من أجل تعزيز وتقوية هيمنتها الموجودة بالفعل في منطقة الشرق الأوسط ككل.

وحسب وجهة نظر أولئك الذين لا ينظرون للبيانات والإعلانات الغربية الرسمية بكثير من المصداقية، فإن السبب الغالب في حالة العراق والمنطقة المحيطة هو أنها دولة غنية بمواردها الطبيعية، ولا ينكر أحد من المختصين أن أهمية تلك الموارد تتمثل في أنها تدفع عجلة الاقتصادات الصناعية الغربية الكبيرة وتوجه تطلعات النمو الاقتصادي العالمي المستقبلي.

وإن هذه الموارد مصدر إغراء ليس فقط للشركات الأمريكية والمستثمرين الأمريكيين. فالمنافسون التجاريون لأمريكا والعديد من خصومهم المستهدفين يتلهفون على تلك الموارد. وأسباب ذلك واضحة وهي: أن النجاح أو الفشل في السيطرة على تلك الموارد

يمكن أن يشكل الفرق بين التقدم و التخلف الاستراتيجي والاقتصادي لعالم القرن الحادي والعشرين، الذي تظهر فيه بوادر دول تسعى في منافسة محمومة بغية الوصول الى احتياطيات الطاقة الهائلة وغير المحدودة وغير القابلة للاستنفاد في منطقة الشرق الأوسط.

و بسبب ذلك فإن عملية زرع الخوف التي يقودها الغرب بشكل خاص في الولايات المتحدة والأماكن الأخرى التي كانت فيها درجة الذعر ضعيفة أو تكاد تكون معدومة، قد خلفت آثاراً عميقة ، وأصبح الخوف الناتج من ذلك علامة مميزة للحرب على الإرهاب وإجراءات مقاومته.

وفي المستقبل المنظور فمن المرجح أن يظل هناك جانبان لهذه الظاهرة. أحدهما يتعلق بشعور الأمريكيين والغربيين الآخرين الذين يسافرون إلى منطقة الشرق الأوسط للعيش والعمل فيها، إذا ما أبقت بلدانهم سياستها الراهنة تجاه المنطقة على ما هي عليه الآن، وسوف يشعر هؤلاء أن هناك أسباباً تجعلهم في خوف من التعرض لأعمال إرهابية.

وفي حالة الغربيين و حدهم، فإن من نتائج التلون الغربي في نظرته وتعامله مع الإرهاب، أن يصبح أي غربي في المنطقة مستهدفاً ويُنظر إليه على أساس أنه أمريكي أو إسترالي أو بريطاني أو بولندي.

و مثل هذه المخاوف ليست من صنع الخيال، بل هي واقع ماثل للعيان. وهذا ما جعل الكثير من الغربيين في المنطقة ـ بدافع الخوف ـ يشيرون إلى أنفسهم على أنهم كنديون أو نيوزلنديون.

ولكن مثل هذا القلق المشار إليه وعدم الارتياح المصاحب له بين الغربيين ومن ينظر إليهم على أنهم من أتباعهم في الحرب على الإرهاب لا يعدّ شيئاً مقارنة مع أولئك الذين يعيشون في الجانب الآخر من هذا الشطر من ناحية ظاهرة الخوف.

و هذا الجانب الآخر يمكن النظر إليه من ناحية التكلفة الحقيقية الملموسة التي يدفعها ويتحملها أهل المنطقة الذين تصادف أنهم من المسلمين، كأحد العواقب الناتجة عن السياسات الغربية المدمرة تجاه العرب والعالم الإسلامي.

إن من بين أولئك المسلمين أعداداً لا حصر لها دفعت أقصى تكلفة: فقد قتلوا فقط بسبب رفضهم أن يصبحوا مستعمَرين؛ وأصبح هناك أعداد لا حصر لها من الأرامل والأيتام، وفوق ذلك أصبح هناك عدد أكبر من المقعدين والعاجزين عن كسب العيش.

لكن أياً مما ذكرناه لم يحدث من فراغ. ففي أعين النقاد، يعتبر ذلك مرتبطاً بتشكيل وتنفيذ سياسات غربية مزدوجة أدت إلى إثارة المزيد من الإرهاب وبالتالي تصعيد الإجراءات المناهضة له في كل مكان.

ولا يقتصر الأمر على أن كلتا فئتي العنف لا تبديان سوى القليل

فقط من دلائل التهدئة المبكرة الدائمة. كما أنه لا يقتصر على أنهما لهذا السبب، ستبقيان فئتين تشكلان واحدة من القضايا ذات الأهمية الحيوية بالنسبة للعالم بأسره.

إن الأمر يظل مرتبطاً بعلاقة قوية بالسياسات الغربية وبدرجات عميقة من الغطرسة ونقص المعرفة والفهم لثقافات شعوب الشرق الأوسط وموروثاتها وقيمها. وإضافة إلى ذلك، فإن كل فئة تبقى بعيدة عن أن ترفل بأثواب الصواب، وتبقى مستترة داخل النهم الغربي المغلف والصعب إنكاره، بغية الحصول على وضع متميز ومكاسب اقتصادية، ذلك الشره والنهم الذي يمثل مشكلة كونه غير منطقي وغير عقلاني ومدمراً للاقتصاد ودليلاً على الإفلاس الأخلاقي.

المفهوم الغربي المُلوَّن للإرهاب

وولف شوبيرت *

١ـ مقدمة:

من الملاحظ أن مصطلح "الإرهاب" بات يستخدم بشكل مبالغ فيه من قبل الساسة ووسائل الإعلام في العالم الغربي، وأيضاً في الشرق الأوسط. وهو الأمر الذي حدث بالتأكيد بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، في الهجوم على برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك وانهيارهما. حيث نشأ هذا المفهوم في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه انتشر سريعاً في أوروبا وباقي مناطق العالم حيث شغل مصطلح "الإرهاب" فكر الجميع.

فقد بات يُنظر إلى أي هجوم أو انفجار أو تدمير على أنه "إرهاب" كما أن أي حركة ضد أي سلطة معرضة لأن يطلق عليها "جماعة إرهابية".

ولكن السؤال هل هذا الأمر حديث؟ ألم تظهر اتجاهات مماثلة قبل

* محامي ـ ألمانيا.

٩/١١؟ فالمثال على ذلك دولة إسرائيل، حيث إن أي هجوم من جانب الفلسطينيين يطلق عليه "عملية إرهابية". وفي فترة السبعينيات، كان الشيء نفسه يطلق على خطف الطائرات على مستوى العالم نتيجة لغياب المعرفة الدولية ـ وليست العربية ـ بالنضال السياسي للفلسطينين لإقامة دولتهم المستقلة، وبمجرد اعتراف بعض الحكومات بمنظمة التحرير الفلسطينية، لم تطلق تلك الدول على منظمة التحرير الفلسطينية لفظ إرهابيين، ولكنها استخدمت بدلاً من ذلك مصطلح "حركة وطنية"، ويمكن تتبع سيناريوهات مماثلة في نضال حركة المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب إفريقيا ضد نظام التمييز العنصري السابق.

وهذا يعني أن وضع خط فاصل بين الإرهاب والنضال من أجل التحرر أمر مهم، وإذا تعلق الأمر بالثقافات المختلفة فإننا نجد أحياناً إجابات بطرق مختلفة.

سأحاول هنا المساهمة في تحليل تطور تعريف الإرهاب في الغرب، وبصفة خاصة في ألمانيا، مع تحديد الأسباب وراء عدم تقبل ذلك التعريف بسهولة في مناطق أخرى من العالم، وبصفة خاصة في الدول العربية والإسلامية.

٢ـ ما هو "الإرهاب"؟

تتطلب مناقشة "الإرهاب" توضيح ما يتحدث عنه الإنسان عندما يستخدم مصطلح "إرهاب".

٢-١ مفهوم "الإرهاب" في الولايات المتحدة الأمريكية:

بصورة عامة فإن الولايات المتحدة الأمريكية، حتى الثمانينيات من القرن الماضي، لم تكن تواجه مشكلة كبرى مع الإرهاب، وقد حدثت عمليات إلقاء قنابل وهجمات قليلة في القرن الماضي، وبعضها لم تكن أعمالاً إرهابية من حيث الخلفية السياسية.

لقد مارست جماعة كو كلوكس كلان KU KIUX KIAN بعض العمليات التي يمكن وصفها بالطبع الإجرامي البحت أكثر منه بالطابع الإرهابي، وكانت معظم العمليات السياسية مجرد هجمات قليلة في السبعينيات والثمانينيات من قبل مجموعات بورتوريكو PUERTO RICAN، وقد بدأ الإرهاب باسم الإسلام في التسعينيات في نيويورك مع أول تفجير بالقنابل لمركز التجارة العالمي في نيويوك وأعمال الهجوم ضد المرافق الأمريكية خارج أمريكا وتصاعد العمليات بشكل كبير مع هجوم ١١ / ٩. لذلك يمكن تلخيص الخبرة الأمريكية بشأن الإرهاب بأنها بشكل رئيس مشكلة تواجهها في الدول الأخرى، باعتبارها متورطة في العمليات العسكرية، وليست مشكلات داخلية.

وبشكل عام، يشترك الباحثون في وجهة نظر واحدة، وهي عدم وجود اتفاق مشترك بالنسبة لتعريف الإرهاب، لذلك، فإن أي تعريف لا يعكس سوى التجربة الخاصة بالدولة، وكذلك أي تعريف يمكن أن يجد معارضة من خلال تجارب الدول الأخرى. ومع هذا، تميل

الحكومات بصفة خاصة إلى محاولة تقديم نوع من التعريف الرسمي.

وإن مصطلح "الإرهاب" وفقاً للتعريف الرسمي المستخدم في البحرية الأمريكية على سبيل المثال، يعني العنف المتعمد ذا التوجه السياسي ضد أهداف غير قتالية من جانب جماعات إقليمية أو عملاء سريين، ويكون الغرض منه عادةً التأثير على الجماهير، مصطلح "الإرهاب الدولي" يعني الإرهاب الذي يشمل مواطنين أو مناطق في أكثر من دولة واحدة، أما مصطلح " جماعة إرهابية" فيعني أي جماعة، أو مجموعات فرعية كبيرة تمارس الإرهاب الدولي، وقد استخدمت الحكومة الأمريكية هذا التعريف للإرهاب للأغراض الإحصائية والتحليلية منذ عام ١٩٨٣م

يذكر بعض المؤلفين بوضوح أنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي كان الغرب في حاجة إلى عدو جديد، وهذا العدو كان مطلوباً لدعم الأمن والقوة العسكرية. وهكذا، ظهرت الصراعات العرقية. وكان هذا الأمر يمثل عاملاً مساعدا، لكنه غير مرئي، بمعنى أنه لم يتم تسويقه بين الجمهور، ولكن الغرب يحتاج إلى الرأي العام، وإلا فإن السيطرة سوف تصبح مستحيلة. لذلك يجب خلق عدو حقيقي، وهذا العدو كما يبدو هو الإسلام وبعض الأشخاص أمثال أسامة بن لادن والزرقاوي والظواهري، ويلقى هؤلاء الأفراد أهمية كبيرة بوصفهم العقول المدبرة للإرهاب الدولي الإسلامي وهو اهتمام يتجاوز بكثير المكانة والتأثير الحقيقي لهؤلاء الأفراد.

٢-٢ التعريف التقليدي للإرهاب في ألمانيا:

كان تعريف مصطلح "الإرهاب" في ألمانيا يعني أن الجماعة الإرهابية هي جماعة سياسية تحاول زعزعة الحكومة من خلال فرض تهديدات على المجتمع وإجبار الحكومة على فرض إجراءات صارمة، تعتبر في جوهرها غير دستورية، وهذه هي الخطوة الأولى في تقويض النظام السياسي. والخبرة الألمانية فيما يتعلق بالإرهاب هي الخبرة السابقة نفسها مع منظمة الجيش الأحمر Red Army Fraction (RAF) في السبعينيات باعتباره بقايا المحاربين من حركة ١٩٦٨م، وكانت تستهدف الممثلين ذوي المناصب الرفيعة في النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في ألمانيا الغربية في ذلك الحين، وكان رواد الاقتصاد والساسة وممثلو النظام القضائي هم ضحايا الهجمات المميتة، وفي ذلك الوقت أدى هذا إلى فرض قوانين صارمة للقضاء على الجماعات الإرهابية. ويمكن أيضاً تتبع سيناريوهات مماثلة في إيطاليا حيث إن بعض الجماعات اليسارية السياسية اختارت استخدام العنف بطريقة مماثلة، وكان الدافع وراء كل تلك الحركات خليطاً من حركة مناهضة للرأسمالية مع الإحباط بسبب عدم تطهير الطبقات الاجتماعية بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، وقد لاقت الحركة تأييداً فكرياً بانقسام العالم إلى رأسمالي واشتراكي، أي إلى القوتين العظميين في ذلك الوقت وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

تلك القوى الكبرى سيطرت، أو بتعبير أخف أثرت على جزء كبير من الدول على هذا الكوكب، وكانت الحكومات في جميع أنحاء الكرة الأرضية تنتمي إما إلى هذه الكتلة أو تلك ونتيجة للحرب العالمية الثانية قسمت أوروبا بالكامل، وشكلت ألمانيا أوضح مثال على الدولة التي قسمت إلى دولتين مستقلتين، الجمهورية الإتحادية الغربية، وتنتمي إلى نصف الكرة الرأسمالي، والجمهورية الديمقراطية الشرقية تحت تأثير السوفييت في حين لا تزال كوريا تواجه هذا المصير حتى الآن.

٢-٣ الإرهاب وفقاً للقانون الدولي:

وفقاً للقانون الدولي، لا يوجد اتفاق على تعريف الإرهاب، وعلى الرغم من أن الأمر قديم، إلا أن عصبة الأمم (التي سبق تأسيسها في الأمم المتحدة، حيث تأسست عام ١٩١٩م واستمرت حتى عام ١٩٣٩م) حاولت في عام ١٩٣٧م تعريف الإرهاب وحددت تعريفاً لم يتم الاعتراف به في ذلك الوقت. ينص هذا التعريف على أن الإرهاب هو:

"كل العمليات الإجرامية الموجهة ضد دولة ما، وتهدف أو تسعى إلى خلق حالة من الرعب في عقول أشخاص أو جماعة معينة من الأشخاص أو الجمهور عموماً"

نص قرار الأمم المتحدة هو:

١ـ التنديد بقوة بكل الأعمال والطرق والممارسات الإرهابية باعتبارها إجرامية وغير مبررة حين ترتكب في أي مكان ومن قبل أي شخص مهما كان.

٢ ـ التأكيد بأن الأعمال الإجرامية التي تهدف أو تسعى إلى إثارة حالة من الرعب وسط الناس عموماً أو جماعة من الأشخاص أو أشخاص معينين لأغراض سياسية، تعتبر غير مبررة في ظل أي ظروف، مهما كانت الاعتبارات السياسية أو الفلسفية أو الأيديولوجية أو العرقية أو الدينية أو من أي طبيعة أخرى، والتي يمكن إثارتها لتبرير الإرهاب". (قرار الجمعية العمومية رقم ٥١/ ٢١٠ GA RES. 51/ 210 إجراءات القضاء على الإرهاب الدولي).

وهناك أيضاً العديد من المحاولات العلمية لإيجاد تعريف للإرهاب، فهناك تعريف جماعي يلقى قبولاً كبيراً وهو مقتبس عن الأمم المتحدة ومنشور على الموقع: http:/www.unodc.org/unodc/terrorism definitions.html

وجاء فيه "الإرهاب هو طريقة من طرق العنف المتكررة، تبعث على القلق ويستخدمها الأفراد (شبه) السريين، أو جماعة من المنفذين لأسباب خاصة أو إجرامية أو سياسية، حيث ـ على النقيض من الاغتيال ـ إن الأهداف المباشرة للعنف ليست هي الأهداف الرئيسة، بل عادة ما يتم اختيار ضحايا العنف من البشر

بشكل عشوائي (أهداف اللحظة) أو بشكل انتقائي (أهداف رمزية أو تمثيلية) من بين المجموعة المستهدفة التي تعتبر رسالة موجهة. ويتم استخدام عمليات الاتصال التي تقوم على التهديد والعنف بين الإرهابيين (المنظمة) والضحايا (المعرضين للخطر) والأهداف الرئيسة للتعامل مع الهدف الرئيس (المشاهدين) وتحويلهم لجعلهم هدفاً للرعب أو هدفاً للطلبات أو هدفاً لجذب الانتباه سواءً أكان الهدف أساساً للرعب أو الإجبار أو الدعاية"

وهكذا أدى غياب تعريف موحد للإرهاب إلى عدم إبرام أية اتفاقية محددة لمناهضة الإرهاب.

كما نص قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٤٩/ ٦٠ (في ديسمبر ١٩٩٤م) والقرار ٥١/ ٢١٠ (في ١٧ نوفمبر ١٩٩٦م) أيضاً على أسس منع وإخماد الأعمال الإرهابية، وقد أرست مجموعة الأمم معايير لمقاومة الإرهاب في اثنتي عشرة معاهدة دولية ضد الإرهاب، وتتعلق جميعها بطريقة ومكان وهدف العمل الإرهابي بغض النظر عن الباعث وراء ارتكاب العمل الإرهابي. ومع هذا، فإن مشكلة إيجاد تعريف مقبول عموماً للإرهاب يضع خطاً فاصلاً بين الإرهاب وكفاح التحرير ظلت بعيدة عن هذه المعاهدات حتى الآن، وتم عقد المعاهدة الدولية لمنع تمويل الإرهاب في ٩ ديسمبر ١٩٩٩م.

إن التشريع الدولي الذي يقاوم الإرهاب يعكس في واقعه حالة

الخوف السائدة في ذلك الوقت، فقد نشأت التشريعات الأولى منذ عام ١٩٦٣م وهي تتعلق بأمن الطائرات، واستمر الأمر مع الأمن البحري وأمن أرصفة البترول ومقاومة خطف الرهائن، وينتهي بالهجوم بالقنابل والتمويل الدولي للإرهاب.

ويدعو قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ١٣٧٣ (٢٠٠١) الدول الأعضاء لبذل قصارى جُهدها من أجل التعاون وتبادل المعلومات في مقاومتهم للإرهاب. كما يبين أيضاً أنه يتعين على الدول الامتناع عن تقديم المساعدة للعمليات الإرهابية في الدول الأخرى، وينص على التزام الدول بمقاومة تمويل الإرهاب، والذي يعني حرفياً جمع الأموال من قبل المواطنين أو في مناطق الدولة بهدف استخدام تلك الأموال من أجل تنفيذ الهجمات الإرهابية، ويشكل القرار المذكور أعلاه الأساس القانوني على مستوى القانون الدولي لمنع، على سبيل المثال، جماعة الأقصى في ألمانيا التي قامت بجمع الأموال لمنظمة حماس في فلسطين، ومع هذا، فإن ما لا يمكن الاتفاق عليه هو: ما هي بالفعل المنظمة التي تناضل من أجل التحرر وما هي المنظمة الإرهابية؟ وأيضاً هل يوجد شيء ما يطلق عليه إرهاب الدولة، بمعنى الإرهاب والأعمال الإرهابية التي ترتكبها الدولة وأجهزتها ضد جزء معين من السكان، حيث يتم مناقشة هذا الأمر بصورة متكررة فيما يتعلق بالهجمات الإسرائيلية ضد قادة حماس، على سبيل المثال، حيث يتم تصفية هؤلاء القادة دون محاكمة.

٤-٢ بعض الأسباب وراء عدم وجود تعريف موحد "للإرهاب":

التساؤل الذي يثار هو "لماذا لم يستطع المجتمع الدولي الوصول حتى الآن إلى تعريف مقبول عموماً عن الإرهاب، على الرغم من حقيقة أن عصبة الأمم حاولت بالفعل تعريف ذلك المصطلح؟

ومما ذكر سابقاً يمكن التوصل إلى أن الخبرات المختلفة للأمم تؤدي إلى مفاهيم مختلفة وتعريفات مختلفة تبعاً لذلك، فعند مقارنة التعريفات المستخدمة عموماً في ألمانيا والتعريف الأمريكي، يمكن ملاحظة أن تعريف البحرية الأمريكية يركز على خاصية العنف السياسي بهدف التأثير على الجماهير، كما يركز التعريف الألماني الشائع على الدافع السياسي كذلك، لكنه يبدو أكثر تحديداً، حيث يحاول من خلال عملية العنف وضع الدولة في موقف تتصرف فيه بشدة أكثر وتخالف قوانينها الخاصة مثل اتخاذ إجراء غير دستوري.

وفي الغالب، يخضع كلا التعريفين إلى التغيير، لكنهما يحتويان أيضاً على اتجاهات تعكس واقعاً معيناً، فالتعريف الألماني يعكس، على سبيل المثال إلى حد كبير الوضع السياسي لانقسام الجيش الأحمر في ألمانيا في السبعينيات، ولذلك فإنه يتأثر كثيراً بالتجربة التي مرت بها ألمانيا في هذا الشأن.

وفي هذا الوقت الذي يتحدث فيه العالم بأسره عن الإرهاب باسم الإسلام المناهض للغرب فمن المهم أن نعرف ما هي صورة الغرب في العالم العربي والإسلامي.

٣-٠ مفهوم الغرب في العالم العربي:

كان العالم العربي في أوائل القرن الماضي في المرحلة النهائية من تحرير ذاته من الاستعمار الغربي سعياً وراء بناء أمته الخاصة، وقد قامت الدول العربية الحالية بشكل كبير بالتتابع في الاستقلال بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية في عام ١٩١٦م، وبعدها خضعت هذه الدول لسيطرة القوى الاستعمارية الغربية، وبصفة خاصة فرنسا وبريطانيا العظمى. وكان بناء الدول يتطور جنباً إلى جنب مع مناقشة هل يمكن أن توجد أمة عربية؟ وقد افترض هذا النقاش المفهوم الغربي للدولة، بمعنى أنه افترض أن الدولة ينبغي تعريفها حسب منطقتها وسكانها وقوتها كدولة، ومن ثم حكومتها. ولم تركز المناقشة في ذلك الوقت على المفهوم الإسلامي الكلاسيكي للدولة، والذي يعرف ذاته من خلال المجتمع الإسلامي كمواطنين، كما لم تلعب الطبيعة الإسلامية للدولة دوراً مهماً باستثناء أن بعض الدساتير تحتوي على بند ينص على أن الإسلام هو دين الدولة ولذلك فإن القوانين السارية يجب ألا تتعارض مع القوانين الإسلامية.

وشاركت القوى الاستعمارية الغربية إلى حد كبير في هذا التطور، كما تم إلى حد ما تجاهل روابط اجتماعية معينة مثل الروابط القبلية أو الروابط الدينية. لذلك تم فرض الحدود وأساليب الحكم في الشرق من قبل الاستعمار الفرنسي والبريطاني، إذ قسمت اتفاقية سايكس ـ بيكو Sykes-Picot، التي أبرمت بين

الدولتين عام ١٩١٦م، الشرق إلى نصفين من النفوذ، وأصبحت سوريا ولبنان تحت النفوذ الفرنسي في حين أن فلسطين والأردن والعراق كانت تحت النفوذ البريطاني، ويمكن تتبع سيناريوهات مماثلة في أفريقيا وأيضاً في آسيا، عند النظر إلى ظهور باكستان كدولة مستقلة للمسلمين الهنود في أواخر الأربعينيات، وواقعية الافتراض أنه بعد انسحاب القوة الاستعمارية البريطانية يجب على الأديان أن تحتل بيئتها السياسية. وبالوسيلة ذاتها، تم إنشاء لبنان في الأصل كدولة مسيحية في بيئة إسلامية، تلك السمات الدينية التي وجدت جزئياً المدخل إلى بناء الدولة بعد الحرب العالمية الأولى لم تعد لها أهمية بعد الحرب العالمية الثانية، وقد عرفت المجتمعات نفسها في ذلك الوقت بأنها تنتمي إما إلى الكتلة الغربية الرأسمالية أو الكتلة الاشتراكية الشرقية. كما حاولت العديد من الدول أن تظل مستقلة عن ذلك النفوذ، ونظمت بداية من عام ١٩٦١م ما يطلق عليه حركة عدم الانحياز، ومع هذا فإن جزءاً كبيراً كان بالفعل تحت النفوذ القوي لإحدى القوتين العظميين.

٣-١ قضية فلسطين:

إن نصف الكرة الأرضية الغربي كان يساند الهجرة اليهودية إلى فلسطين وذلك في ظل الحركة الصهيونية لإيجاد حل للتعذيب الذي تعرض له اليهود في أوروبا الشرقية في نهاية القرن التاسع

عشر. وقد أيدت بريطانيا بشكل خاص هذا الوضع من خلال وعد بلفور عام ١٩١٧م الذي منح اليهود حق الاستيطان في فلسطين.

وفي الآونة الأخيرة أشار السفير السعودي في المملكة المتحدة الأمير تركي الفيصل للمرة الثانية في خطابه أمام حزب المحافظين بتاريخ ٥ أكتوبر ٢٠٠٤م إلى أن وعد بلفور قد ضم فقرة تنص على أنه: لن يتم فعل أي شيء يؤثر على الحقوق المدنية والدينية للمجتمعات القائمة غير اليهودية في فلسطين، إلا أن المجتمعات الغربية لم تعترف بهذا الجزء من وعد بلفور على الإطلاق.

بعد ذلك، وعندما بدأ تعذيب اليهود في ألمانيا إعتباراً من ١٩٣٣م، لم تعترض الدول الغربية للمرة الثانية على الهجرة إلى فلسطين التي كانت في ذلك الحين تحت الانتداب البريطاني. وتلك الظروف لم تجد قبولاً في الشرق الأوسط، إذ من وجهة النظر العربية كان من الضروري بناء الأمة ذاتها، بينما لم يكن ذلك ملائماً للأفكار الصهيونيةحول تأسيس حكومة يهودية، ومن وجهة النظر الإسلامية واجه بناء الدولة قلقاً من النفوذ غير الإسلامي الذي لايؤيد عملية بناء أمة من دول إسلامية لذلك لم يمكن الاعتراف بالحركة الصهيونية كتطور سياسي مقبول من وجهة النظر العربية العلمانية أو من وجهة النظر الإسلامية، وتبعاً لذلك لاقت الحركة الوطنية الفلسطينية التأييد في العالم العربي والإسلامي. وكان هذا الأمر في ضوء حقيقة القدس باعتبارها المكان الذي عرج منه النبي محمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء، وهي

واحدة من ثلاثة أماكن مقدسة للمسلمين في جميع أنحاء العالم، ومع هذا سمح الغرب المسيحي بحدوث هذه التطورات من منطلق مصلحتهم في إيجاد حل لمشكلة كانت موجودة في أوروبا لعدة قرون، كما أن القدس لا تنتمي إلى نصف الكرة الغربي منذ ظهور الإسلام، على الرغم من بعض فترات الحكم القصيرة أثناء الحملات الصليبية.

وقد تسبب الوجود اليهودي القوي في الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى الرغبة الأمريكية في وجود ممثل محل ثقة لها في الشرق الأوسط، في إصرار الولايات المتحدة على تأسيس دولة يهودية واستقرارها بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت نتيجة هذه الثقة في المواطنين الإسرائيليين من الأصول اليهودية الغربية ـ والذين سيطروا بلاشك على المجتمع والسياسة في إسرائيل في العقود الأربعة الأولى من وجودها ـ حدوث تأييد أقرب إلى الإجماع من الدول الأوروبية أيضاً. كان هذا بينما ينكر الغرب على الشرق الأوسط طلبه حل المشكلة، وإن سيطرة الغرب على الأحداث في الشرق الأوسط تمثل تطوراً سياسياً واجتماعياً محبطاً في منطقة الشرق الأوسط.

٢ ـ ٣ مشكلة المعايير المزدوجة/ انعدام الثقة:

تبدو مسألة المعايير المزدوجة مشكلة حادة، فالغرب لا يظهر رغبة كبيرة في تطبيق المعايير نفسها على إسرائيل مقارنة بالدول

العربية، ويشير هذا الأمر إلى عدم تنفيذ قرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة مثل القرار ٢٤٢ (لعام ١٩٦٧م) والقرار ٣٣٨ (لعام ١٩٧٣م) الذي يقضي بأنه يتعين على إسرائيل إخلاء الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م ولم يتم تنفيذ أي من هذه القرارات على الإطلاق، بينما تم تنفيذ القرارات ضد العراق عن طريق فرض العقوبات، وقد أدى هذا إلى الشعور بالإحباط من ناحية الأمم المتحدة، حيث إن العالم العربي، بالإضافة إلى مناطق أخرى من العالم، تجد نفسها بدون ممثلين، وفي هذا الخصوص يجب أن ننظر إلى التشكيل المفسر من الناحية التاريخية، لكن تشكيل الأعضاء الدائمين لمجلس الأمن هذه الأيام هو موضع شك.

وعلى الرغم من أن الدول العربية قد ساهمت بقدر كبير خلال العقود الماضية في قبول إسرائيل كدولة، فإن غياب العدل في عملية السلام في الشرق الأوسط قد أعاد الأمور إلى نقطة الصفر بل إن الواقع يقول ان الوضع يزداد سوءاً.

ومثال آخر لازدواجية المعايير ما حدث في النصف الأول من عام ٢٠٠٤م من معاملة السجناء العراقيين في سجن أبي غريب في بغداد من قبل القوات الأمريكية، معاملة الغرب الذي يركز كثيراً على الأخلاقيات وحقوق الإنسان لسجناء الحرب وفقاً لمعاهدات جنيف، وهو ما تظهر معه توجهاً يعكس عدم احترام العرب تصريحات كبار المسؤولين العسكريين الأمريكيين بأنه من الأفضل

للمصالح الأمريكية أن يقوم الإرهابيون بعملياتهم في العراق على أن يقوموا بها في أمريكا، هذه التصريحات مرت دون أن يفهمها العرب، وعندما تواجه أمريكا مشكلة الإرهاب، يجب عليهم بحثها في البيت، بدلاً من خلق أراض للمعارك في الشرق الأوسط (أفغانستان والعراق).

وماذا عن حقوق الإنسان في خليج غوانتانامو-Guantanamo هل يستثني القانون الدولي هؤلاء عندما يتعلق الأمر بالحرب ضد الإرهاب؟

يمكن الاستمرار في قائمة أسباب انعدام الثقة، لماذا تهاجم أمريكا العراق وتقضي على حكم صدام حسين؟ إنه من الواضح الآن أن الأسباب التي ذكرتها إدارة كل من بوش وبلير في ذلك الوقت كانت غير موضوعية، هذا إذا لم تكن قد تم تلفيقها بشكل متعمد. حيث لم يكن للعراق صلة بالقاعدة، كما أنه لم يمتلك أسلحة دمار شامل، لذلك نحن نتساءل لماذا شنت الحرب على العراق؟ هل بسبب الاحتياطي الهائل من الغاز والزيت تحت أرض العراق؟ بمعنى هل من أجل الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية يتعين على أعداد كبيرة من سكان العراق المدنيين أن يموتوا؟

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال بالنظر ببساطة إلى حال مجتمع العراق الحر هذه الأيام، ومن الطبيعي وجود الكثير من العراقيين الذين يؤكدون أن الحرب ضد النظام البائد قد منحتهم بعض الحرية، ولكن هذا وحده لا يبرر استخدام حجج زائفة لشن

الحرب ضد حكومة لا تبدي تعاوناً كبيراً مع الإدارة الأمريكية مثلما تفعل الحكومات الأخرى، حيث تعتبر أمريكا شرطي العالم القوي الذي جاء في حين لم يطلب أحد حضوره.

٤ـ. الاستنتاج الأول:

كل تلك الأسباب تقبع وراء عدم شعور العالم العربي بثقة حقيقية تجاه الغرب، ولقد حاول الغرب خلال المئة سنة الماضية بصورة مستمرة التأثير في تطور الشرق الأوسط ولكنه لم يفهم جيداً المجتمع العربي والإسلامي. وقد اعتمد هذا الأمر على الاتجاه الاستعماري الذي استمر حتى الآن بصورة جزئية، وقد وصل ذلك إلى حد أن العرب لا يجدون أنفسهم ممثلين بشكل عادل في الأمم المتحدة ذلك النظام الذي أسسه الغرب على أساس القوانين الغربية والفهم الغربي للديمقراطية وحقوق الإنسان. فالنفوذ الإسلامي على مستوى الأمم المتحدة ضعيف، كما يبدو أن المعايير المزدوجة تنطبق عندما يتعلق الأمر بتنفيذ قرارات مجلس الأمن الموجهة إلى إسرائيل من ناحية والدول العربية من ناحية أخرى، وهذه المعايير المزدوجة تسبب المزيد من انعدام الثقة.

٥ - . الحجج الغربية النمطية ضد المفاهيم العربية:

٥ - ١ سوء استغلال الصراع العربي الإسرائيلي:

يرى بعض الغربيين الآن أن السياسيين والحكام العرب يستغلون الصراع العربي الإسرائيلي لإبقاء دولهم تحت نير الحكم

الغاشم، ولا يسمحون بالتطور الديمقراطي، وهذا في النهاية يعد سبباً للشعور بالإحباط.

ولا يوجد بداية صراع عربي إسرائيلي، بل يوجد فقط احتلال إسرائيلي للأرض الفلسطينية، حيث إن الصراع يعني في الأساس صراعاً بين قوتين متساويتين، ولكن حقيقة أن إسرائيل تحتل الأرض الفلسطينية لا يعد نزاعاً من الناحية القانونية. انظر فقط إلى قرارات مجلس الأمن الكثيرة وخصوصاً القرار رقم ٢٤٢ (لعام ١٩٦٧م) والقرار رقم ٣٣٨ (لعام ١٩٧٣م) ومع هذا لم تنفذ هذه القرارات بينما تشدد الأمم المتحدة في مسألة الالتزام بقرارات مجلس الأمن، وانظر العراق وليبيا وأخيراً السودان، نجدها تدهش العالم بإنفاذ القانون الدولي، ولكن عندما يتعلق الأمر بإسرائيل وانتهاكاتها لا يحدث أي إنفاذ للقرارات، وهذا الأمر يصيب الإنسان العادي بالإحباط، وإن عدم تنفيذ القرارات يصل إلى حد قرار الجمعية العامة رقم ١٨١ (لعام ١٩٤٧م) الخاص بخطة التقسيم في فلسطين الذي ينص على أنه إذا كان تأسيس الدولة اليهودية يتفق مع الإطار العملي المحدد، فإن الأمر يمكن أن ينطبق أيضاً على العضوية في الأمم المتحدة، وقد انطبق الشيء نفسه بوضوح على الدولة العربية التي سيتم تأسيسها ولكن هذه الأخيرة لم تتأسس ومع هذا ظهرت الدولة اليهودية إلى

الوجـود ووجـدت المدخل إلى الأمم المتـحـدة علـى الرغم من عـدم تقيدها بالإطار العملي الإقليمي أو الإجرائي.

لذلك فـإن هـذا الرأي يؤدي إلـى إبطال سـريان قـرارات الأمم المتـحـدة وإبطال الـقـانون الدولي، ويظهـر الاتجـاه بأنـه يتـعـين على العرب في نهاية الأمر قبول مـصيرهم المفروض عليهم في الأسـاس وفي الأصـل من قـوى أوروبيـة، ومـن المؤسف أن هـذا الاتجـاه يتجاهل حقائق تاريخية وثقافية.

٢ـ٥ غياب الديمقراطية

يرى آخـرون أن العـالم العـربي يفتـقـر إلى الديمقـراطيـة، ويعـتبـر السـعي للديمقـراطية مـفـهومـاً غـربيـاً بسـيطـاً لا يمكن تطبـيقـه في المجتمعـات الأخرى بـدون إجراء تعـديلات عليه. فـالعالم العـربي في مـرحلة بحث عن هويتـه، كمـا قـامت أوروبا بصنع و تطوير هويتـهـا الخاصـة، وهذا الأمر مـفهـوم حاليـاً في الغرب حيث لم يعد السـاسة يطالبون بالديمقراطية، بل بالمشاركة، ولقـد اعترف المستشار الألماني شرودر SCHROEDER وغيـره من قادة الدول الثمـاني الكبرى أن المفاهيم الغربية لا يمكن تطبيقها بسهولة على الشرق الأوسط.

كمـا أشار السـفـير السـعودي في لندن مؤخـراً في خطابه الملقى في برلـين في صـيف عـام ٢٠٠٤م إلى أن المفـهـوم السـعـودي للحكومة هو مفهوم الإجماع، ولا توجد أحزاب في السعودية ولكن

النظام هو أن الحكومة تقـوم على أساس الإجماع، كما أن الحكومة ومـجلس الشورى يعكسان كل فـئات المجتـمع السعـودي وهو إلى حـد كبـير مجـتـمع قبلي لـذلك فإن الرأي القـائل بأن الحكام العـرب يسـتـغلون الصراع العـربي الإسرائيلي للإبقاء على ديكتاتورياتهم ينبع مـن مـفـهـوم غـربي بحـت للديمقـراطيـة ويـتـجـاهل تركـيب المجتمعات العربية وخلفياتها التاريخية والدينية والاجتماعية.

نعم للمشـاركة، ولكن وفـقاً لشروط أخـرى، فلم يحقق العـالم العربي نفس التطور الفلسفي الذي حققه الغرب، كما أن مفهوم الدولة العلمانية لا يشكل جزءاً من الثقـافـة العـربية والإسـلامـيـة وأن الهيكل الديمقـراطي البحت كمـا هو الحال في الغرب يمكن أن يتسبب في إلغاء أوضـاع هرمية تقليدية نشأت من المجتمعات القبلية ويعني رفض مبادئ دينية معينة.

٣ـ٥ هل الإسلام دين يدعم الإرهاب؟

هناك مـصـادر توضـح أن الإسـلام في أسـاسـه لا يؤيد الطريقـة الغـربيـة في التـفكير كـمـا أن هناك الكثـيـر من الآراء والـحـجج التي استخدمت لتأييد هذا الموقف.

وإن أوضـح مثال علـى ذلك هو مصطلح "الجهاد" (عـادة ما يترجم بالحرب المقدسة)، لكنه في الواقع يفهم على أنه " الجهد الدائم".

مـثال آخـر: أن الشريعـة ككل جـاءت لكبت الناس، وفـي هذا الخـصـوص تتم الإشـارة إلى الطلاق وعـقـوبة الإعـدام في

القانون الجنائي الإسلامي ودور المرأة في المجتمع كأمثلة كلاسيكية.

ويحتاج التعليق على هذه الأمور إلى شيء من التفصيل، بيد أنه واضح ورد عليه المؤلفون المسلمون والمستشرقون الغربيون الذين أظهروا بعض الفهم للإسلام وأن هذه الآراء في النهاية تعتبر مسألة سوء استغلال لأهداف سياسية معينة.

باختصار فإن موضوع الطلاق يحوي تفاصيل أكثر من مجرد أن الزوج يملك الحق الوحيد لتطليق زوجته، كما أن الزوجة تملك حقوقاً، وإن التشريع يختلف في الكثير من الدول العربية، وعقوبة الإعدام توجد أيضاً في الدول الغربية، وبصفة خاصة في أمريكا. فالمسألة لا تتعلق بوجود عقوبة الإعدام، ولكن بالمحاكمة العادلة حتى صدور عقوبة الإعدام. وبالنظر إلى النظام في المملكة العربية السعودية بوجود العديد من المحاكم وخضوع العقوبة أخيراً للقرار الملكي قبل صدورها، نجد أنها بعيدة جداً عن اتهامها بأن إجراءاتها غير عادلة.

وأخيراً تلعب المرأة دوراً مهماً في المجتمع وتتمتع بحقوقها، حيث إنها تشارك في المجتمع من دولة إلى دولة بطرق مختلفة، وكلها تخضع للتطوير ولكن القول بأن المرأة يجب أن تكون معزولة عن المجتمع هو ببساطة خاطئ، لأنها تشكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع.

٤ ـ ٥ انعدام التفكير المنفتح:

توجد مصادر تشير إلى أن العالم العربي يميل إلى عزل نفسه عن التطورات الدولية. لذلك يجب تعديل المناهج المدرسية، فإذا كان هذا يعني أنه يتعين حذف التأثير الديني من المناهج، فإن هذا الأمر بالنسبة للمجتمع الإسلامي يعتبر بكل تأكيد خطأ وتجاوزاً، ويجب على الغرب بصفة خاصة أن لا يتدخل فيه. إنه من المهم اليوم لكل من العالم الغربي والعربي أن يفهما أن على الأطفال التعلم في سن مبكرة لغات أجنبية وبصفة خاصة اللغة الإنجليزية باعتبارها لغة الأعمال الدولية. كما أن تعلم الكمبيوتر ووسائل الاتصال وتعلم الإنترنت تحت المراقبة أمور غاية في الأهمية. وهذا يؤدي إلى استيعاب الأطفال للأمور الدولية ويتيح لهم الوصول إلى المعلومات، التي تمثل في النهاية كل شيء، والشيء نفسه ينطبق في الغرب، وأن الأطفال في ألمانيا الآن يتعلمون اللغة الإنجليزية أو الفرنسية كلغة أجنبية أولى، حيث تعتبر من الصف الثالث وما بعده درساً عادياً مع عدة دروس كل أسبوع. أما الأشخاص الذين يفتقرون إلى مهارات اللغات الأجنبية وعدم الوصول إلى المعلومات فإن الأمر ينتهي بهم إلى تضييق وجهة نظرهم تجاه العالم من خلال النظرة المحدودة للغتهم الأم فقط..

٦ ـ ٠ نشأة ما يسمى بالإرهاب الإسلامي الدولي:

يبدو أن أصل إرهاب اليوم والذي يشار إليه على أنه ذو طبيعة "إسلامية" هو نوع مختلف عن الإرهاب المعروف في العصور

السابقة. ولكي نفهم ذلك علينا أن ننظر إلى بعض الحالات في العصر الحديث والتي خاض فيها المسلمون قتالاً.

وقد اتحد المسلمون بمساندة الغرب وخصوصاً أمريكا لقتال الشيوعية، باعتبارها فلسفة تنكر وترفض الدين ككل في عصر الاتحاد السوفيتي، أي عندما كانت الشيوعية لا تزال قوية في بعض الدول. كما أن الاحتلال السوفيتي لأفغانستان في السبعينيات والثمانينيات قد عرض المجتمع الإسلامي للخطر، وقد ذهب المقاتلون الإسلاميون (وليس الإرهابيين) من أجل الحرية إلى أفغانسان لمقاومة جيش الاحتلال السوفيتي، وبالنسبة للغرب كانت هناك قوى قوضت استقرار الاتحاد السوفيتي، ولذلك وجدت التأييد لذلك. وعلى الرغم من أن دافع هؤلاء المقاتلين كان مختلفاً عن دافع الغرب، تحول هؤلاء المقاتلون إلى إخوة في السلاح مع الغرب، ويجب أن نفهم بوضوح أنه في ذلك الوقت لم يكن المقاتلون الإسلاميون مقاتلين من أجل الحرية للغرب، ولكن كان هناك عدو مشترك لهما باعتبارهما مقاتلين من أجل الحرية، ولم يتصرفوا على الإطلاق بناءً على الدافع الغربي.

وبعد انسحاب القوات الروسية، كان على هؤلاء المقاتلين البحث عن مناطق جديدة للعمل فيها، هل يعودون إلى بيوتهم ويبدؤون حياة مستقرة كموظفين أو رجال أعمال؟ لقد بدا هذا الأمر مستحيلاً، وانهار الاتحاد السوفيتي وانهار معه توازن القوى بين

القوتين اللتين تتمتعان بالنفوذ العالمي، كما انقسمت يوغوسلافيا وتعرضت لحروب أهلية، وكانت الحرب تمثل صراعاً عرقياً ودينياً. من ناحية أخرى قام الصرب المسيحيون بذبح المسلمين في البوسنة والهرسك، وانتبه العالم الإسلامي وثار قلقه، وتحول المقاتلون إلى ميدان القتال الجديد هذا أو أعدوا أنفسهم لعدو جديد.

وخلال تلك المرحلة، التي كانت في البداية سبباً عادلاً ومفهوماً، تجد التأييد من عامة الشعوب في العالم الإسلامي، حيث إن العدو لم يعد قوة احتلال واحدة أو حكومة واحدة، ولكن أصبح الغرب ككل مع بعض التركيز على أمريكا بوصفها أكبر رمز يمثل الغرب.

وقد تحول (الإخوة في السلاح) إلى خصوم للغرب، وخصوم لتلك الحكومات في الشرق، أي في العالم العربي الذين تعاونوا مع الغرب، وقد تحول المقاتلون من أجل الحرية سابقاً شيئاً فشيئاً إلى إرهابيين بالمعنى العام. ولم يتغير هدفهم فقط بل تغير عدوهم بالفعل، لقد استمروا في الكفاح ضد عمليات التطور غير الإسلامية، وحاولوا حماية إخوانهم المسلمين، مع تغير العدو المستهدف، فلم يعد الاتحاد السوفيتي ولكنه أصبح الغرب ككل، وأصبح المثل الغربي (عدو عدوي صديقي) مثلاً زائفاً وانتهى تأثيره.

وأن الأمر لا يتعلق بحل الفجوة الاقتصادية بين الشمال والجنوب، بين الدول الصناعية والدول النامية، كما لا يتعلق كذلك بالبطالة، حيث يجب أن ننتبه دائماً إلى أن الإرهابيين، حسبما نعلم،

نشؤوا من عائلات أصيلة، كما أنه بالنظر إلى النشأة السعودية لبعض الإسلاميين المتورطين، فإن المملكة العربية السعودية لا تعتبر دولة نامية نمطية.

فالأمر لا يتعلق بثورة الفقراء، ولكنه يتعلق بكره متأصل بعمق ضد النفوذ الغربي على مجتمع الإسلام العربي، إنه نتاج شعور بعدم الاحترام واستخدام المعايير المزدوجة. كما أن الشعور بالهيمنة على الحكومات هو جزء من تلك السياسة الغربية.

٧- الاستراتيجية الألمانية ضد الإرهاب الدولي:

كما أوضحنا من قبل فإن مفهوم الإرهاب قد تغير، وهناك تهديد دولي يستهدف ألمانيا أيضاً، والتي كان لها موقف معارض تجاه الحرب ضد الحكم السابق في العراق، ومع هذا انضمت ألمانيا إلى أمريكا فيما يسمى بالتحالف ضد الإرهاب من خلال إرسال الجنود إلى أفغانستان وإلى القرن الأفريقي، حيث الوحدات البحرية الألمانية تسيطر على السفن في البحر أمام اليمن والصومال والسودان.

وكان على الحكومة الألمانية أن تدرك أيضاً أن بعض الإرهابيين الذين شاركوا في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م كانوا يعيشون في هامبورج بألمانيا لفترة طويلة، وكانوا يعدون لهجمات نيويورك بصورة جزئية من قاعات الدراسة في ألمانيا،

لذلك فإنه في ضوء هجوم مدريد في ١١ مارس ٢٠٠٤م ركزت ألمانيا بشكل مستمر على السيطرة الداخلية على أي جماعة يمكن أن تشكل تهديداً بذاتها.

وقد أدى هذا الأمر إلى أنه منذ أحداث سبتمبر أصبحت المنظمات الإسلامية في ألمانيا تحت الإشراف الصارم لقوى الأمن الألمانية.

ويمكن تلخيص هذا الأمر بأنه مقاومة للاتجاهات الإسلامية، كما أن وزير الداخلية الألماني قام منذ ذلك الحين بمنع نشاط ثلاث منظمات كانت تمثل جمعيات خيرية، الأولى كانت منظمة تدعى دولة الخليفة، ويقع مكتبها الرئيس في مدينة كولون، وقد أسسها واعظ تركي في أوائل الثمانينيات وتضم نحو ألف ومئة عضو. وقائدها السيد/ ميتين قبلان Metin Kaplan ابن المؤسس الأصلي كمال الدين قبلان Cemaleddin. وقد أطلق على نفسه "أمير المؤمنين وخليفة المسلمين" وكانت تهدف إلى إعادة تركيا دولة إسلامية.

يسمح القانون الألماني لتأسيس الجمعيات بحظر نشاط الجمعيات بمجرد أن تتصرف الجمعية بما يخالف القانون الجنائي وتخالف المبادئ المحددة في الدستور أو تعارض مبدأ التفاهم بين الدول. وقد كانت تلك المنظمة على الأقل تقاوم صراحة تركيا في شكلها الحالي، ولذلك اعتبرت أنها تؤثر على العلاقات الألمانية التركية. كما أن وزارة الداخلية الألمانية ذكرت أن المنظمة كانت

تناضل ضــد إسـرائـل واليـهـود بشكل عــام. وقـد تم حظر نـشـاط المنظمة في ديسمبر ٢٠٠١م.

أمـا المنظمـة الـثـانيـة التي تأسست عـام ١٩٩١م فكـانت تسـمى جـمـاعة الأقـصـى، ومنع نـشـاطهـا في مـايو ٢٠٠٢م، وكـانت تقـوم بجـمـع الأمـوال لمسـاعـدة الفلسطينـيين من خـلال قنوات حـمـاس، وأشـارت وزارة الداخليـة إلى أن حمـاس منظمـة إسـلاميـة إرهابيـة تسـتخـدم العنف، وتعتـرف بوضـوح أن حمـاس تقصـر نشاطاتهـا العسكرية على فلسطين وإسـرائيل، وكان للتـعديلات التي أجـريت على القـانون الألمـاني للجـمـعـيـات أن جـعل من الممكن حظر نشـاط الجـمعيات التي يكون فـيـهـا الأعـضـاء أو الإدارة أسـاسـاً أشـخـاصـاً أجانب، أو عندما تقـوم تلك الجـمعيات بمساندة الـحـركات في خارج ألمانيـا والاتحـاد الأوروبي، أو عـندمـا تكون تلك الـحـركـات ضـد الكرامــة الإنســانيــة أو في حــالة التـرويج للعنف ضــد الـقــرارات الحـكومـيـة. وقـد ذكـرت وزارة الداخليـة ضـمن أسـبـابهـا أن حظر نشاط جـمـاعـة الأقصى كان تنفيذاً لقرار مـجلس الأمن رقم ١٣٧٣ الصادر في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠١م.

وفي يناير ٢٠٠٣م تم حظر نـشاط جـمـاعـة حـزب التـحـرير. فوفـقـاً لتفـسـير وزارة الداخليــة الألمانيـة، فـإن المنظمـة نفت حق إسـرائيل في الوجود، ودعت إلـى تدميرها، كما دعت إلى اسـتخدام العنف فـي النضال السيـاسي، ولذلك تعـارض مبدأ التفاهم بين الدول، كما أن المنظمة تروج

لأفكار مناهضة لليهـودية وتدعو إلى قتل اليهود. وفي اجتمـاع في جامعة برلين الفنيـة تعـاونت تلك الجـمـاعـة مع أعضـاء علـى مسـتـوى رفـيع من الحـزب الوطني الاشـتـراكي، وهو حـزب الجناح اليـمـيـني المتطرف الذي يعتبر خلفاً للحزب النازي في ألمانيا في فترة الثلاثينيات والأربعينيات.

فضـلاً عن أعـمـال الحظر التي صـاحبـهـا الـحـجز على الممتلكات في الأماكن المخـتلفة في الدولة بما في ذلك المنازل الخـاصـة والمسـاجد، وقد تم اتـخـاذ إجراءات أخـرى للإشراف والسـيطرة، كمـا أن بعض المنظمـات العـربـيـة والإسـلامـيـة والأفـراد العـرب يواجـهـون حظر النشـاط بشكل دائم.

٨ـ١ الأوضاع الراهنة للمسلمين في ألمانيا:

الفكرة الـسـائدة في الغـرب هي أن العـالم سـوف يواجـه تهـديداً إرهابيـاً من الجماعـات الإسلامـية، ويعني التـوجه الإسـلامي في هذا السـيـاق الإسـلام الراديكالي العنيف. ولـكن مـاذا يعني هذا؟ فلقـد تم استخدام الكثير من القوالب الثابتة وتنوعت التعريفات إلى حد كبير.

٨ـ٠ مناقشة الحجاب:

إن قـضـيـة مناقـشـة الحجـاب الذي ترتديه النسـاء المسلمـات في ألمانيا في الوظائف الرسمية وخـصـوصـاً المدرسـات أو العاملات في الحـضـانة مـوجـودة بشكل قـوي. حـيث يقـوم المشـرعـون بتـعـديل

القوانين من أجل منع ارتداء الحجاب في تلك الوظائف، فالقوانين الحالية لا تسمح بهذا الحظر. من الناحية القانونية حيث يعني صراع المصالح أن يرتدي كل فرد ما يرغب فيه، ومصلحة المجتمع في ألا يتأثر بأي دين، هذا الاتجاه الأخير هو الذي يحكم المناقشة في فرنسا، وهي دولة تعتبر نفسها دولة علمانية لكل الأفراد، ففي عام ١٩٠٥م أي منذ نحو ١٠٠ عام، كان من المحظور إظهار أي رمز ديني في المدارس العامة وفقاً للقانون سواءً للمدرسين أو للطلبة، والشيء نفسه ينطبق في تركيا مع أتاتورك حيث تم تنفيذ تلك القوانين أيضاً، إذ تعتبر تركيا نفسها دولة علمانية.

والوضع مختلف في ألمانيا. فلا تبدو ألمانيا دولة علمانية بالمعنى المطلق، إذ إنها حتى فترة قريبة كانت تسمح بالصلبان المسيحية التي تعلق على جدران المدارس العلمانية الحكومية. وقد تم إلغاء هذا الأمر من قبل المحكمة الدستورية العليا الألمانية نتيجة لإدارك أن ألمانيا كدولة علمانية لا يجب أن تؤيد أي نفوذ ديني لأي ديانة، ونفس المحكمة قررت في عام ٢٠٠٣م أن المرأة المسلمة التي تتمتع بكل مؤهلات المدرسة يجب ألا يرفض تعيينها في المدارس الحكومية بسبب أنها ترتدي الحجاب، حيث إن هذه هي حريتها الشخصية ولا يجب مقارنتها بالصليب المعلق داخل الفصول المدرسية، ومع هذا قررت المحكمة أيضاً أنه يمكن للمشرع أن يضع قوانين تمنع هذا الإجراء، وبناءً عليه فإن بعض الولايات داخل

الإطار الدستوري لألمانيا الاتحادية أصدرت قوانين تمنع المدرسين من ارتداء رموز دينية. ويمكن اعتبار هذا القانون محاولة لمنع المسلمات من ارتداء الحجاب، حيث إنه لا يمنع المدرسين من ارتداء الصلبان أو غطاء الرأس اليهودي، وقد تم توضيح السبب في ذلك بأنه يسمح بالرموز المسيحية والعرضية التقليدية، وأفضل مثال على ذلك هو القانون الذي صدر أخيراً في أكتوبر ٢٠٠٤ في ولاية هيس Hesse، والذي يمنع المرأة المسلمة من ارتداء الحجاب بمجرد أن تصبح موظفة، وهو لا يقتصر على التدريس، حيث يمكنها أن تعمل في مكتب بدون أن تتعامل مع الجمهور، ولكن يمكن منعها من ارتداء غطاء الرأس. لذلك فإن هذا القانون يتجاوز كل الحدود، وهو يشير إلى أنه يحظر ارتداء أي رمز ديني ما لم يعكس التقليد المسيحي لولاية هيس أو أن يكون صغيراً وغير واضح للناس وليس مثل غطاء الرأس.

وقد أوضح ممثلو حزب المحافظين، وخصوصاً عضو البرلمان د. جونج Jung بعض الأسباب التي تعكس جيداً نمط التفكير لدى قطاع كبير من السكان في ألمانيا، وفيما يلي جزء مما ذكره بعد ترجمته إلى اللغة الإنجليزية.

"السيدات والسادة، بدون شك يعتبر الحجاب رمزاً للحركات الإسلامية، وفي تلك المجتمعات يتم وضع ملايين من النساء في وظائف بسيطة مقارنة بالرجال، كما يتم استبعادهن من الحياة

الاجتماعية. كما أن المسلمات معرضات لإجبارهن بالقوة على تغطية أنفسهن فضلاً عن حق الزوج في أن يعاقب زوجته وحقه في أن يطلق زوجته، وأخيراً فإن الشريعة لا تتفق مع دستورنا" (من بروتوكول برلمان هيس في الجلسة رقم ٣٠ خلال الفترة الانتخابية السادسة عشرة بتاريخ ١٨/٢/٢٠٠٤م)

يبين التصريح أن المتحدث قد استخدم العديد من القوالب الثابتة والتي ليس لها علاقة بالموضوع، ولكنها قوبلت بتصفيق كبير في البرلمان.

هذا هو التطور الذي يجب أن يثير القلق لأنه يستبعد المسلمين من نيل حقوقهم المتساوية في المجتمع، ويمكن للإنسان بدوره أن يرى أنه بمجرد اتباع الدول الغربية لهذا الجدل، فإنه يجب على الغرب أيضاً أن يعترف بأنه لا يجب التنديد بسياسات الشرق الأوسط التي تمنع المسيحيين من ممارسة معتقداتهم في الأماكن العامة، حيث إنها نتيجة واضحة لفهم المملكة العربية السعودية كدولة مسلمة مثلاً.

٨-٢ المناقشة الخاصة باندماج الأجانب:

هناك أيضاً في الإطار العملي للاتجاهات الإسلامية نقاش يجب التوقف عنده، وهو في الأساس عن موضوع مختلف تماماً في ألمانيا. فقد ناقشت ألمانيا لفترة طويلة سياستها بالنسبة للأجانب، وكان من المفهوم بصورة واضحة في الماضي أن ألمانيا ليست دولة

هجرة كلاسيكية، ولكنها كانت هدفاً لمن يسعون للجوء الاقتصادي في الماضي، وعند التقدم بطلبات للجوء السياسي كانت هذه الطلبات تقابل بالرفض. ويدور النقاش حول اتباع سياسة هجرة خاضعة للرقابة، في تلك الفترة تمت مناقشة الموضوع من حيث: هل يسمح للأجانب بأن يعيشوا حياتهم في ألمانيا تحت مفهوم مجتمع متعدد الثقافات، أم يجب على هؤلاء الإسلاميين الاندماج بأنفسهم، وقد تحولت مناقشة قضية الاندماج سريعاً إلى اللغة،وهو أمر مفهوم، وكذلك إلى دروس الدين الإسلامي في المدارس ومراقبة المناهج والحجاب الخ... وجرت المناقشة في مناخ استخدم العديد من القوالب الثابتة حول المسلمين، وهذا الأمر لم يكن صحياً للاندماج المستهدف.

٨-٣ المجتمعات الإسلامية في ألمانيا:

يخضع المسلمون إلى مراقبة صارمة من جانب قوات الأمن، ويمكننا أن نرى من خلال منع العديد من الجمعيات أن أي جمعية ترتبط بالشرق الأوسط تواجه المنع لعلاقاتها بالمنظمات المتطرفة في الشرق الأوسط وحيث إن الإسلام في ألمانيا ليس منظماً داخل شكل هرمي واحد مثل الكنائس المسيحية، فإنه يصبح من الصعب الدخول إلى الجماعة من جهة تحليلها بسهولة ومن حيث ما تمثله بالفعل هذه المنظمات من جهة أخرى.

وهناك العديد من المنظمات التي لها علاقة بدول معينة، والكثير من المنظمات تمثل عدداً كبيراً من المساجد في ألمانيا، والمنظمة التي تعد الأكثر قبولاً هذه الأيام هي المجلس المركزي للمسلمين في ألمانيا، والذي يبذل الكثير من الجهود لجعل الإسلام يتصف بالشفافية في ألمانيا، وهذا الأمر جيد حيث إن هذه المجتمعات الإسلامية تدرك أنها تعيش في بيئة غير إسلامية في أوروبا، إذ يوجد نحو ١٠ ملايين مسلم في أوروبا بالكامل، التي يبلغ إجمالي عدد السكان فيها نحو ٣٥٠ مليوناً.

ومع هذا فكما أشار المستشار الألماني شرودر في معرض الكتاب بفرانفكورت عام ٢٠٠٤م فإن العالم العربي أصبح الشريك ومنطقة الاهتمام، لذلك يعتبر التفاهم الثقافي أهم أداة لجمع الثقافات المختلفة، وهذا يظهر وجود قدر كبير من المعرفة بأنه يجب على الإنسان في الغرب أن يحرص كثيراً عند الحكم على الناس ومنع الأشخاص والجماعات العرقية والدينية.

٩ـ. الخاتمة:

على الرغم من عدم وجود تعريف يحظى بالقبول الدولي للإرهاب، فإنه يبدو أن الفهم المحدد للمصطلح أمر شائع، غيّر الإرهاب وجهه في السنوات الأخيرة، ولذلك تغير مفهوم الإرهاب،

فلم يعد الإرهاب مشكلة محلية أو شبكة من الجماعات الصغيرة. لقد غدا يمثل تهديداً دولياً، يهاجم المدنيين والعسكريين من أي دولة، سواءً أكانت دولة غربية أم شرقية.

إن الخطر ينبع من الناس الذين لديهم عدو غير محدد بصورة واضحة، إنه عدو دولي، وهو أي شخص يمثل جزءاً من النظام الاقتصادي والاجتماعي للعالم الذي يمثله الغرب في الأساس، وبصفة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، باعتبارها آخر قوة عظمى قائمة، ولا توجد حماية ضد الإرهاب من حيث السياسة وبما يتفق مع الأهداف السياسية لتلك الجماعات، وقد تصبح هذه الدولة هدفاً محتملاً في اللحظة التي تتبع فيها سياسات الاندماج في نظام الأمم المتحدة التي تمثل مفاهيم غربية.

لذلك لن يحاول الشخص أن يجد الحل في اتهام الدول بخصوص سياساتها. فالحل موجود في الظروف الاجتماعية والاقتصادية ذات الأصل التاريخي.

ولم ينجح الغرب، وخصوصاً أمريكا وبصورة أقل بريطانيا، بل وأيضاً فرنسا في بناء الثقة في الشرق الأوسط، وهو نتيجةً للسياسة الاستعمارية في الماضي، وبعضها مستمر حتى الوقت الحالي. كما أن سياساتهم تصب في مصلحة إسرائيل وضد الدول العربية وهي علاوة علي ذلك مخالفة للقانون الدولي، فالدولة التي تتصرف بنوع من التبرير الأخلاقي من المتوقع أن تتصرف بناءً

على ذلك التبرير، وأقرب مثال على هذا أعمال التعذيب في سجن أبي غريب في بغداد والتي تعتبر بمثابة صب الزيت على النار الخاصة بأية انتقادات.

وإن في الغرب، وبصفة خاصة في أمريكا، يمكن إدراك وجود جهل كبير بماهية العالم العربي، فلا يزال الناس يستخدمون القوالب الثابتة ويفترضون أن طريقهم الذي اختاروه هو الطريق الصحيح، ويتجاهلون الاتجاهات الثقافية والمفاهيم المختلفة، ولم يتم اعتبار أو قبول العالم العربي كشريك متساوٍ أثناء المناقشات، بل لقد تم فرض الأشياء عليهم، لكن ليس معنى ذلك أن يفرضوها قسراً على أنفسهم، هذه المعايير المزدوجة تسبب عدم الاحترام والإحباط بين السكان. فضلاً عن التعاون الدولي ضد الإرهاب، من الواجب إذن تحليل سبب تنامي ظاهرة الإرهاب وحل المشكلات العالقة، وبالتأكيد فإن بعض الأسباب هي أن الغرب لم يطور فهماً كاملاً عن الشرق الأوسط، كما لم يتبع سياسات عادلة في المنطقة، وهو ما يعني حقائق محددة هي:

ـ يجب على الغرب أن يقبل وحدة الحكومات المستقلة كما نص عليها مرسوم الأمم المتحدة.

ـ يجب على الغرب أن يتبع سياسة عادلة ومنصفة من خلال تطبيق القانون الدولي على إسرائيل كما يتم تطبيقه على الدول الأخرى أيضاً، وهذا بالتأكيد أحد الموضوعات الرئيسة.

ـ يجب أن يتقيد الغرب بالقانون الدولي بشكل عام وحقوق الإنسان أيضاً.

ـ يجب أن يدرك الغرب أن نمط الحياة الغربي بكل خصائصه لا يمثل الهدف المنشود في جميع الثقافات.

ـ يجب أن ندرك أن الأمم المتحدة ومجلس الأمن يخضعان لسيطرة الغرب وهو أمر غير صحي للقبول الدولي الحقيقي للأمم المتحدة من كل الدول والشعوب.

ـ وأخيراً يجب على كل من الثقافتين الغربية والعربية الإسلامية بذل جهود كبيرة لكي يفهم كل طرف بصورة أكبر ثقافة الطرف الآخر، وهذا الأمر يتفق مع التفكير على مستوى دولي، وتعلم اللغات، وتجاوز حدود الدولة والمنطقة، ويجب خلق حب الاستطلاع لاكتساب المعرفة عن الآخر والتساؤل حول صحة موقفه.

من خلال هذه الطرق يمكن للمجتمعات المدنية أن تصبح أكثر اكتساباً للمعرفة وتسامحاً، وتبعاً لذلك يمكن القضاء بصورة أسهل على ظواهر الإرهاب.

مؤسسات الفكر السياسي في الغرب تكرّس الكره والصدام مع الآخر

بول فيندلي *

في ٦ أكتوبر من عام ٢٠٠٢م استضاف البرنامج الجماهيري الشهير «٦٠ دقيقة»، الذي تذيعه قناة CBS الأمريكية، رجلاً تحدث بنوع من الكراهية ضد الإسلام والمسلمين. وقد أثارت آراء هذا الرجل استياء الملايين من الأمريكيين، ولكنها في الوقت نفسه وجدت ترحيباً من ملايين آخرين ممن يعتقدون أن الإسلام والمسلمين جزء لا يتجزأ من حدث يعتقدون أنه يؤثر بصورة حاسمة على مستقبلهم.

«أعتقد أن محمداً إرهابي. **لقد قرأت الكثير مما كتبه المسلمون وغير المسلمين وتوصلت إلى قرار أنه رجل عنف ورجل حروب**». هذا ما قاله الكاهن جيري فالويل ـ الذي يقدر أتباعه بالملايين ـ في المقابلة التي أجريت معه في البرنامج المشار إليه. وأضاف: «**لقد كان عيسى مثالاً يحتذى به في الحب وكذلك موسى ولكنني أعتقد أن محمداً مثال عكس ذلك**».

* عضو سابق في الكونجرس الأمريكي ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

ألم يكن الكاهن فالويل مسيحياً؟ ألم يكن يفترض فيه العمل على نشر السلام في العالم عن طريق نشر رسالة عيسى المسيح؟! ألم يكن يعلم أن تصريحاته هذه لا تغضب المسلمين فحسب ولكن كل أصحاب الأديان الذين يعملون جاهدين من أجل عالم يعيش في سلام وتعاون من أجل أنفسهم وجيرانهم؟

إنه لمن الواضح أن خلق التوتر والفرقة بين المسيحيين والعالم الإسلامي هو بالضبط ما يسعى إليه جيري فالويل وزعماء المجموعات المسيحية. إنهم يحاولون زرع بذور الكراهية ضد الإسلام من أجل أهدافهم الشخصية، ويسعون كذلك إلى اختطاف النظام السياسي الأمريكي من أجل تطبيق ما يبشرون به.

خذ على سبيل المثال تصريحات فرانكلين جراهام ـ ابن القس المسيحي الأمريكي المعروف بيلي جراهام ـ فمن الوهلة الأولى تبدو نشاطات فرانكلين جراهام نبيلة، ولكن ليست هذه هي الحقيقة. فجراهام هذا رئيس لمنظمة ساماريتان Samaritan الإغاثية العالمية التي تقدم العون للمحتاجين في كافة أنحاء العالم وفيهم المسلمون. لكن سلسلة التصريحات التي أطلقها جراهام حول الإسلام تجعل من مصداقيته محل تساؤل.

لقد وصف جراهام الإسلام بأنه «**دين شرير وحقير**». وفي مقال له بصحيفة وول استرتيت جورنال Wall Street Journal في ديسمبر ٢٠٠١م كتب: «**إن قتل أو تصفية غير المسلمين**

قد ظل لقرون حجر الزاوية في انتصارات الإسلام وحكمه. إن القرآن يقدم دليلاً صارخاً على أن الإسلام يشجع العنف من أجل تحقيق هدفه الأكبر وهو أسلمة العالم».

وفي الشهور التي أعقبت أحداث ١١ سبتمبر، دعا جراهام المسلمين والمنظمات الإسلامية للمساهمة في بناء منطقة مانهاتهن التي تضررت بالهجمات وتعويض أسر الضحايا. يبدو الأمر هنا وكأن جراهام يلقي باللوم على الإسلام عن فعل قامت به مجموعة من القتلة.

وبعد عامين واصل جراهام تصريحاته المفعمة بالكراهية ضد الإسلام والمسلمين. فقد أورد في مقال له في نوفمبر عام ٢٠٠٣م القول : «**أعتقد أن القرآن يعلّم العنف وليس السلام**». وأضاف : «هناك الكثير من الجعجعة عن الإسلام كدين سلام ولكن ما إن تحدث عمليات انتحارية إلا ويبدأ الناس في القول : انتظر دقيقة، هناك شيء غير متسق هنا.» لقد عايشت مثالاً على ذلك في المنطقة التي أعيش فيها. فهناك طبيب أعرف عنه رجاحة عقله ذكر لي ذات مرة : «إنني عادة ما أتعاطف مع الفلسطينيين ولكن عندما أقرأ عن منفذي الهجمات الانتحارية وكيف يقتلون الإسرائيليين الأبرياء دون تمييز أصاب بالغضب».

ما ذهب إليه جراهام يدعوني للإشارة إلى نتائج الاستطلاع الذي أجرته جينسيس للأبحاث Genesis Reserch في صيف عام ٢٠٠٤م. فمن بين ١٠٠٠ من الذين ردوا على السؤال الموجه قال ٢٦٪ من الأمريكيين إن الإسلام يعلّم العنف والكراهية بينما ٢٧٪ قالوا إن

المسلمين يضعون أهمية أقل للحياة البشرية مقارنة بالآخرين.

مثل هذه النتائج ـ لا شك ـ تشير إلى أن جراهام وفالويل وآخرين لديهم تأثير على الطريقة التي ينظر بها الأمريكيون إلى الإسلام. فعندما شرعت في تأليف كتابي : «**لا سكوت بعد اليوم : مواجهة الصور المزيّفة عن الإسلام في أمريكا**» في عام ١٩٩٨، خلصت إلى أن الصور النمطية القبيحة عن الإسلام تمثل تحدياً كبيراً. إنها تقف عقبة رئيسة في طريق إصلاح السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. لقد صدر الكتاب قبل أسابيع من أحداث ١١ سبتمبر، تلك الكارثة التي فور وقوعها رسخّت تلك الصور المزيفة.

في الصفحات التالية سوف أناقش الأسباب التي تجعل الكثير من الجماعات في أمريكا تخلط الكراهية والسياسة والدين. ولكي يكون هناك فهم أفضل لبروز هذه المنظمات التي تستخدم الكراهية في أدبياتها، فمن الضروري إعطاء لمحة موجزة عن تاريخ هذه المنظمات. إن الجهود التي تبذل لإثارة الكراهية ضد الآخر لم تكن أمراً جديداً في الولايات المتحدة. فوفقاً لمقال للكاتب جوزيف شافر Joseph Schafer في عام ٢٠٠٢م في مجلة Criminal Justice and Poupulr Culture فإن جهود إثارة الكراهية باسم الدين قد بدأت منذ بدايات الاستيطان الاستعماري. ويمضي الكاتب إلى القول : «رغم أن الكثير من المستوطنين الأوروبيين الأوائل كانوا فارين من الاضطهاد الديني فإن هؤلاء المستعمرين

قد أذنبوا عندما قاموا بجهود منظمة لقمع انتشار المعتقدات الأخرى. وفي بعض المستعمرات فإن التشريع يفرض غرامة مالية ضد أي شخص يُضبط وهو يمارس معتقداً يعد غير مقبول».

ويشير المقال إلى أنه قبل الحرب الأهلية شاعت نظريات مؤامرة تقول إن هجرة الكاثوليك [كان معظم سكان الولايات المتحدة في ذلك الوقت من البروتستانت]، من أوروبا هي محاولة حقيقية من البابا للسيطرة على الولايات المتحدة.

وبعد إلغاء الرق سنت في معظم الولايات الجنوبية القوانين المعروفة بقوانين «جيم كرو» والتي تحرم أي رقيق تم تحريره من الفرص المتساوية مع البيض. وبعدها وفي القرنين التاسع عشر والعشرين أجيزت قوانين تمنع دخول المهاجرين ، منها ـ على سبيل المثال ـ قانون إبعاد الصينين عام ١٨٨٢م وقانون الهجرة لعام ١٩٢٤م والذي يحد من الهجرة الأوروبية.

إن التشريعات التي تنطوي على تمييز مثل تلك التي أشرنا إليها والتي عادة ما تسن باسم الدين، غالبا ما تسبقها وتصاحبها أعمال عنف موجهة ضد السكان المهاجرين. فأعمال العنف والتمييز ضد الأمريكيين من أصول أفريقية معروفة وموثقة، كذلك التمييز ضد الكاثوليك الأوائل من المهاجرين، وينطبق الشيء نفسه على المهاجرين من آسيا.

وفي حالات كثيرة فإن مقاطع من التوراة يتم تفسيرها لتبرير ممارسات الكراهية. ووفقاً للمطبوعة الإلكترونية التي تُعنى بتاريخ

الاسترقاق والعنصرية والمسماة Chronicle on the History of Slavery and Racism والتي يعدّها إيدي بيكر Eddie Becker فإن هناك حركات كثيرة في جنوب الولايات المتحدة تدعي سمو ونقاء العرق الأبيض من خلال تفسيرها لمقاطع من التوراة.

" ففي مئات الكتيبات التي كتبت بين عامي ١٨٣٦م و ١٨٦٦م فإن مالكي العبيد في جنوب الولايات المتحدة قد أعطوا أسباباً دينية لتبرير التميز الاجتماعي الذي يمارسونه.

وفي سعيهم لتسويغ الرق، فان السكان في جنوب الولايات المتحدة نظروا إلى قصة لعن نوح ابنه حاماً" . فقد جاء في سفر التكوين ٢٥:٩ أن نوحاً لعن حاماً وابنه كنعان بقوله: " عبد العبيد يكونوا إخوته " . وفي ذلك الوقت فإن الكثير من سكان جنوب الولايات المتحدة المسيحيين كانوا يعتقدون أن كنعان قد استوطن إفريقيا وان سلالته هم الأفارقة ولذا فهم عبيد. يجب التنبيه هنا إلى أنه وفي تلك الفترة والتي قبلها فإن التمييز ضد اليهود كان أمراً شائعاً. فهم عادة ما يُستبعدون من النشاطات الاجتماعية وعضوية الأندية.

لكن مسألة تفسير النصوص الدينية لتبرير مثل هذه الممارسات لم تكن تقتصر على حقبة الحرب الأهلية أو فترة الاسترقاق أو تلك الفترة الزمنية التي سنّت فيها قوانين الهجرة، فحتى هذا اليوم فإن الحركات التي تستخدم الدين كمبرر لأيديولوجياتها تعدّ عنصراً قوياً في السياسة في الولايات المتحدة. فبينما كان تبرير الكراهية من خلال

تفسير النصوص الدينية في الماضي يستخدم على نطاق الشؤون المحلية امتد اليوم ليشمل السياسة الخارجية للولايات المتحدة.

نرى هذا واضحاً في الحركات التي يتزعمها زعماء دينيون مسيحيون من أمثال جيري فالويل. فتعليقاته في برنامج " ٦٠ دقيقة " الذي أشرنا إليه تكشف الأيديولوجية التي تربط مصير الولايات المتحدة بإسرائيل لأغراض الإنقاذ الديني.

في سبتمبر من عام ٢٠٠٤م تطرق الصحافي الأمريكي المخضرم بيل مويرز Bill Moyers لهذا الموضوع المثير للجدل وذلك في كلمة له ألقاها في جمعية الصحافيين المحترفين في مدينة نيويورك. وقد حذّر في تلك الكلمة من أن انتخابات الرئاسة الأمريكية يمكن أن يحسمها " المسيحيون الأصوليون " الذين يؤمنون بما يسمى " مؤشر السعادة " وهو نظام ابتدعه المسيحيون الأصوليون من وحي تفسيرات نبوية تزعم أنها مقياس يحدد متى ينتهي هذا العالم.

وأشار مويرز في كلمته إلى أن هؤلاء الذين يؤمنون بهذا الاعتقاد يسلمون بنظرية لاهوتية خيالية خرج بها في القرن التاسع عشر اثنان من المبشرين المهاجرين الذي أخذوا نصوصا من التوراة وفسروها بطريقة تعسفية واقتنع الملايين من الناس بأنها صحيحة. وتعد إسرائيل وعلاقتها بالنزول الثاني للمسيح جزءاً لا يتجزأ من هذه التفسيرات التي تقول إن المسيح سوف يعود للأرض عندما يتم إنشاء إسرائيل كدولة بعد أن تحتل " أرضها التوراتية " وبعدما يعاد

بناء الهيكل الثالث في موقع قبة الصخرة بالمسجد الأقصى. كل هذا يعقب الهجوم على إسرائيل من الجيوش المعادية للمسيح.

وبهذا التفسير حول العودة الثانية للمسيح ربط الإسلام بمعاداة المسيح. ولذا فليس بمستغرب أن قال أحد القساوسة الكبار وهو بات روبرتسون Pat Robertson في برنامجه 700 Club بعد عام من هجمات الحادي عشر من سبتمبر: "إذا ما حاولنا استيعاب الأمر فإنه من الممكن أن يكون أسامة بن لادن أكثر صدقاً بالنسبة لمحمد من الآخرين " .

وعلى ضوء مثل تلك التصريحات التي يطلقها روبرتسون فقد أوضح مويرز أن الحرب وسيلة مهمة لتحقيق غاية بالنسبة لهؤلاء المسيحيين.

فالنبوءة تقول: " **الحرب ضد الإسلام في الشرق الأوسط أمر لا يجب الخوف منه، بل الترحيب به، فإذا ما حدث حريق هائل هناك فسوف يكون هناك منتصرون على الطرف الآخر داخل البوابات المرصعة باللؤلؤ في ذلك العلو والعظمة السماوية، يتعشون من طعام الآلهة مصحوباً بنغم قيثارة تعزفه الملائكة** " .

وقال مويرز في هذا الصدد: " هذا يوضح لماذا أعلنوا التضامن مع إسرائيل والمستوطنات اليهودية وأيدوا ذلك بالمال والمتطوعين " .

ومن سوء الحظ أن المسيحيين الذين يؤمنون بهذه النبوءة ليسوا مجموعة قليلة العدد أو منعزلة أو عاجزة سياسياً. فقد أشار الصحافي البريطاني جورج مونبيوت George Monbiot في

مقال له بصحيفة الجارديان The Guardian إلى "أن معتقداتهم مشوشة ولكنهم في قلب السلطة فسلطتهم نافذة أكثر مما يعتقده الكثيرون".

ويقدّر البعض عدد الكنائس والمؤمنين بمثل هذه التعاليم بنحو ١٥–١٨٪ من عدد الأمريكيين الذين يحق لهم الانتخاب. وقد أوضح مسح أجري في عام ١٩٩٩م أن ٣٣٪ من الجمهوريين يؤمنون بهذه المعتقدات. لكن البعض يضع العدد ما فوق الستين مليونا. وقد ثبت نفوذهم بصورة واضحة في حادثة وقعت في عام ٢٠٠٢م عند حصار إسرائيل لمخيم جنين في الضفة الغربية. يقول مونبيوت في هذا الصدد: " لقد شرعوا في مهاجمة أبواب البيت الأبيض بمجرد أن خفت حدة دعم البيت الأبيض لإسرائيل. وعندما طلب بوش من آريل شارو ن سحب دباباته بعيداً عن جنين في عام ٢٠٠٢م تلقى ١٠٠,٠٠٠ رسالة غاضبة عبر البريد الإلكتروني من مسيحيين أصوليين، ولم يذكر بوش الأمر ثانية".

وبينما يشير كل من مونبيوت ومويرز لهذه الكتلة الدينية الانتخابية كـ «مسيحيين أصوليين» فإن المؤلف شارلز إي. كارلسون Charles E. Carlson يطلق عليهم «المسيحيين المتهودين». ففي مقال له في ١٦ سبتمبر ٢٠٠٤م بعنوان «لماذا يعيد المسيحيون المتهودون انتخاب جورج بوش»، أشار كارلسون إلى أن حجم هؤلاء المسيحيين يفوق ٢٠ ضعفاً حجم الصوت الانتخابي لكل من اليهود والمسلمين في الولايات المتحدة.

وحسب كارلسون فإن قياديّي هذه المجموعة من أمثال فالويل وروبرتسون يُعلّمون أتباعهم أن الخلاص والإنقاذ الأبدي مع المسيح سوف يتحقق بإظهار محبتهم لإسرائيل. وبصورة أساسية فإن هذه المجموعة هي الوحيدة ضمن الكتلة الانتخابية في أمريكا التي تصوّت لمصلحة دولة أجنبية. وهؤلاء المسيحيون أكثر انتظاماً من اليهود في التصويت للمرشحين الذين يتعهدون بتأييد ودعم إسرائيل. وأضاف كارلسون أنه أيضاً تم تربية المسيحيين المتهودين على التفكير أنه لا بأس في نظر المسيح من كراهيتهم للمسلمين. ورغم أن كلمة «كراهية» ليست قاسية ولكنها تتعارض مع تعاليم المسيح وهذا يجعل المسيحيين المتهودين يحملون النقيضين بطريقة ليس فيها أي نوع من المنطق مثلهم في ذلك مثل الذي يقول بأن هناك «اعتداء صديق» أو «حرب حبيب».

ومن المؤسف أن المجموعات التي تحمل مثل هذا التناقض الديني منتشرة في المسرح السياسي والاجتماعي الأمريكي. والمجموعات المسيحية المؤيدة لإسرائيل تستخدم تفسيرات التوراة لتبرير كراهيتها للإسلام، بينما هناك مجموعات في الولايات المتحدة تسلك طرقاً للتلاعب بالأيديولوجيات الدينية لتشجيع الكراهية ضد الآخرين بسبب لون بشرتهم أو خلفياتهم العرقية أو قناعاتهم الدينية.

وعلى الرغم من أن حجم هذه المجموعات مجتمعة أصغر كثيراً ـ من حيث المعتنقين لأفكارها ـ من المسيحيين المؤيدين لإسرائيل، فإن تأثيرها في المجتمعات التي تعيش فيها يعتبر مؤذياً وضاراً. خذ على

سبيل المثال ريتشارد بتلر Richard Butler أحد الزعماء الدينيين الذي توفي في ٨ سبتمبر ٢٠٠٤م عن عمر يناهز الـ ٨٦ عاماً في مدينة صغيرة في منطقة هايدن Hayden في ولاية ايداهو Idaho. فهو مثل روبرتسون فالويل حيث إن أتباعه يتشبثون بأي كلمة من خطبه العاطفية. وعلى العكس من روبرتسون وفالويل فإن بلتر أسس طائفته المسيحية في عام ١٩٧٧ وأطلق عليها اسم «كنيسة مسيحيي المسيح». ويظهر أن الاسم لا يوحي بأنه مؤذ لكن بتلر أسس ذراعاً عسكرياً سمي أمم أريان Aryan Nations.

وبعد وفاة بتلر جاء تشارلز جوبا Charles Juba وهو أحد زعماء إحدى المجموعات المنشقة والتي تتخذ من بنسلفانيا مقراً لها وتطلق على نفسها أيضاً أمم أريان، إذ قال : «رغم أننا جميعاً سوف نحتاج لوقت حتى نبرز ونكرم هذا الرجل، لكننا سوف نستمر في بناء أمم أريان وتحقيق مجد لها أكثر من مجدها السابق». وأضاف : «إن القس بتلر هو أحد آخر المحاربين العنصريين الحقيقيين من أبناء جيله».

تشارلز جوبا ومنظمته هي إحدى مئات المنظمات المنتشرة في الولايات المتحدة والتي تأثرت بأفكار بتلر. وتسمى فلسفة هذه المنظمات الهوية المسيحية Charistian Identity وتستند على كراهية الآخرين وبصورة رئيسة الأمريكيين من أصول أفريقية واليهود والأقليات الدينية والعرقية الأخرى.

وقد وصف تقرير ميجدو Megiddo Report عن الإرهاب الداخلي، الذي أعده مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI في عام ١٩٩٩م منظمة الهوية المسيحية بشيء من التفصيل، إذ ذكر التقرير أن :

«منظمة الهوية المسيحية أيضاً تعتقد بحتمية نهاية العالم والمجيء الثاني للمسيح. وتعتقد أيضاً أن هذه الأحداث هي جزء من عملية تطهير لابد منها قبل تأسيس مملكة المسيح على الأرض. وخلال هذا الوقت سوف يحاول اليهود وحلفاؤهم تدمير الجنس الأبيض باستخدام كافة الوسائل المتاحة. وسوف تكون النتيجة صراعاً عنيفاً ودموياً وحرباً بين جيوش الرب، الجنس الأبيض، وجيوش الشيطان ، اليهود وغير البيض».

ومن أشهر منظمات الكراهية المرتبطة بمنظمة الهوية المسيحية منظمة كوكلوكس كلان KU KLUX KLAN وهي من أعرق المنظمات التي تكرّس الكراهية في الولايات المتحدة. في بعض الحالات فإن المنظمات التي تلتزم بمبادئ منظمة الهوية المسيحية تشجع أتباعها على العيش منفصلين عن بقية الناس. لكن هناك آلاف الحوادث التي لجأ فيها مؤيدو هذه المنظمة لاستخدام العنف.

أما أحد مؤيدي بتلر ويدعى روبرت جي ماثيوس Robert J. Mathews فقد قرر في بداية الثمانينيات من القرن الماضي البدء في إشعال حرب عنصرية وذلك بتأسيسه مؤسسة النظام The Order. ولتمويل عملياتها لجأت المؤسسة إلى نهب الشركات والمحلات

التـجـارية وتزوير العـمـلات. وبيـنمـا تورطت فـي مـثل هذه الأعـمـال الإجرامية قامت أيضا باغتيال أحد المذيعين التلفزيونيين اليهود وتفجير مـعبد لليـهود. ولـكنها لم تتـوقف عند ذلك فـقـد احتل أحد مـؤيدي بتلر ويدعى راندي ويفر Randy Weaver العناوين الرئيسة في وسـائل الإعلام في عـام ١٩٩٢م عندما حاولت الشـرطة الفيـدرالية اعتقاله في مخبـئه قرب نابلس Naples في ايداهو Idaho. وقد اسـتمرت عـملية الحـصـار التي أطلق علـيـهـا عـمليـة رابي ريدج Raby Ridge أحد عشر يوماً قتلت فيها زوجة ويفر وابنه وأحد أفراد الشرطة الفيدرالية.

وبعـد عدة سنوات جـاء تفجـير المبنى الفيـدرالي في أوكلاهومـا ليـخلّف ١٦٧ قتـيـلاً ومئات الجرحـى. وقد أشـار الرجل الذي أدين بهذا التفجير وهو تيموثي ماكفي Timothy Mcveigh إلى أن عملية رابي ريدج كانت أحد دوافعه لتفجير المبنى.

إن الحـركات المرتبطة بفلسفات منظمة الهوية المسيحية تعتبر مثالاً على حركات تسـتـخدم الدين لتبرير أفعالها. فبـدءاً من الثمانينيات من القـرن الماضـي فـإن بـروز منظمـات تدعي سـمـو العـرق مـثل منظمـة حليقي الرؤوس Skinhead قد أضافت بعداً آخر لنسيج مجموعات الكراهيـة في الولايات المتـحدة. فـمـثل «كو كلوكس كـلان» و «أمم أريان» و «النظام» فإن الكثـير من منظمات حليقي الرؤوس تسـتـخدم الدين لتبرير أفعالها.

والكراهيـة لا تقتـصر على المجـمـوعات التي تدّعي سـمو العـرق، ولكنها تمـتد لتشـمل مجـمـوعات أخرى. فـإن من أشـهـر مجـمـوعات الكراهيـة في الولايات المتـحـدة ـ على سـبـيل المثـال ـ رابطة الدفـاع اليـهـودية التي يقـدر عدد أعـضـائهـا بعدة آلاف وتأسـسـت في عـام ١٩٦٨م بواسطة الصـهيـوني المتطرف الحـاخام مئير كاهانا Meir Kahane . وكـاهانا هذا، الذي اغـتـيل فـي مـدينـة نيـويورك عـام ١٩٩٠م، تحدث عن أهمـية الحـفاظ على العـرق اليـهودي. وفي عام ١٩٨٥م انتـقل كاهانا إلى إسـرائيل حيث أسس حـركة كـاخ Kach التي كان من بين أهدافها تهجـير السكان العرب من إسرائيل وجعل اليهود يستوطنون كامل الأراضـي الفلسطينية.

وبينمـا نجـد أن حـركـة كـاخ التي أسـسـهـا كـاهانا قد ترعـرعت في إسـرائيل، نجد أن حـركته الأخـرى وهي رابطة الدفـاع اليـهودية كـانت فاعلة في الولايات المتحدة من خلال جهود الراحل إرفين روبين Irvin Rubin الذي ظل يتـرأس الحـركة منذ عـام ١٩٧٠م. ومـن شـعـارات إرفين الشـهيرة : «**لكل يهودي رشاش عيار ٢٢**» و «**حافظ على حياة اليـهود برشـاش عيـار ٤٥**» في إشارات واضـحـة إلى أنواع الأسـلحـة النارية المشــهـورة. وقـد تورطت رابطـة الدفـاع اليـهـوديـة في عـدد من جـرائم الكراهيـة ضـد أمريكيـين من أصول عـربيـة ولكن الحـالات التي أدينت فيها الرابطة لتورطها في مثل هذه الجرائم تعد نادرة جداً.

ومن أشـهـر تلك الجرائم تفـجير مكتب اللجنة الـعربية الأمـريكية لمناهضـة التـمييـز العنصـري في لوس أنجلوس في العـام ١٩٨٥م

الذي أدى إلى مقتل الناشط الأمريكي من أصل عربي أليكس أوديه Alex Odeh . ورغم أن رابطة الدفاع اليهودية قد اتهمت في حادث مقتل أوديه إلا أن المجرم.

ولم يبد ارفين روبين أي حزن على اغتيال أوديه إذ قال في ذلك الوقت : «إنني لا أبكي على وفاة أليكس أوديه»، وأضاف بكل سخرية : «لقد جفّت مجاري الدموع عندي». ولأنها لم تدن رسمياً، فقد تورطت رابطة الدفاع اليهودية في مؤامرة نسف مسجد الملك فهد في مدينة كالفر Culver City في كاليفورنيا ، وفي محاولة اغتيال عضو الكونجرس الأمريكي من أصل عربي عن ولاية كاليفورنيا داريل عيسى Darrell Issa. وفي عام ٢٠٠١م اعتقل مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI روبين وكذلك ايرل كروجيل Earl Kru-gel على خلفية المؤامرة. وعلى ما يبدو أن روبين لم يرد أن يظهر في موقف المدان أمام المحكمة لذا أقدم على الانتحار في نوفمبر عام ٢٠٠٢م عندما كان رهن الاعتقال. وبعد مرور مدة قليلة على انتحار روبين، أدين كروجيل بعدة قضايا تتعلق بالمؤامرة.

إن الأعمال التي تقوم بها منظمات مثل رابطة الدفاع اليهودية وغيرها لا تتفق مع واقع الولايات المتحدة من حيث أنها تشكل «بؤرة انصهار» للثقافات والأديان، بل تناقض هذا المبدأ تماماً. وحقيقة الأمر أن النشاطات التي تقوم بها منظمات مثل رابطة الدفاع اليهودية وعدد آخر من منظمات الكراهية هي في ازدياد حسب البحث الذي قام به مركز ساوثرن بوفرتي

للمحاماة Southern Poverty Law Center وهو المشهور بالتصدي أمام المحاكم ورفع الدعاوى ضد منظمات الكراهية. ففي تقرير للمركز، الذي يكرّس جهوده من أجل استئصال مجموعات الكراهية في الولايات المتحدة نشر في ربيع عام ٢٠٠٣م بعنوان : «عام الكراهية»، أشار إلى أنه وحيث إن العام قد أوشك على الانتهاء فإن عدد مجموعات حليقي الرؤوس العنصرية قد تضاعف مقارنة بالعام السابق. وإن جماعة النازيين الجدد المتمثلة في أمم أريان، ورغم فقدها لمجمعها في ايداهو Idaho، فإنها أسست ١١ فرعاً جديداً. وأضاف تقرير المركز أن ثمة قادماً آخر يضاف إلى منظمات الكراهية، ألا وهي الثورة البيضاء، التي تتخذ من ولاية أركنساس Arkansas مقراً لها. ومضى إلى القول بأن عدة مجموعات أخرى انضمت لمنظمة كلان وأن نشاطات هذه الأخيرة لا يستهان بها.

وقال التقرير إن عدد مجموعات حليقي الرؤوس قد تضاعف من ١٨ فرعاً عام ٢٠٠٢م إلى ٣٩ فرعاً عام ٢٠٠٣م، وإن مجموعات كو كلوكس كلان قد زادت وعززت من أنشطتها من مجرد التظاهر إلى عمليات حريق في كافة أنحاء الولايات المتحدة.

ومضى التقرير إلى القول إن مجموعة أبطال أورين Orion والتي تعني حسب الحروف الأولى منها «عرقنا هو أمتنا» Our race is our nation وهي فرع من منظمة كو كلوكس كلان وتتخذ من ألاباما Ala-bama مقرا لها بدأت نشاطها في عام ٢٠٠٣م وحققت نجاحاً في جذب

أعضاء لها خاصة في فلوريدا Florida. ويجيء دور شبكة الإنترنت ليشكل عملاً مكملاً لازدياد عدد ونشاطات مجموعات الكراهية في الولايات المتحدة. فبحسب التقرير المشار إليه فإن المواقع التي تدعم وتحرض على الكراهية قد ارتفع عددها من ٤٤٣ في عام ٢٠٠٢ إلى ٤٩٧ في عام ٢٠٠٣م وهي زيادة تقدر بنحو ١٢٪. ومنذ انطلاقها في منتصف تسعينيات القرن الماضي، أثبتت شبكة الإنترنت أنها إحدى الأدوات التي استفادت منها مجموعات الكراهية واستخدمتها في تجنيد أعضاء جدد من خلال بث رسالتها والترويج لنشاطاتها.

ومن أوائل مواقع الإنترنت ـ والذي لايزال يبث روح الكراهية ـ موقع يسمى ستورم فرونت Stormafront والذي أطلقه في أواخر تسعينيات القرن الماضي دونالد بلاك Donald Black استشاري الكمبيوتر من فلوريدا. ويسمح الموقع للمتصفحين بالدخول على المقالات والخطب التي تطلقها مجموعات الكراهي ةوإرسال الرسائل لحلقات النقاش واستخدام غرف الدردشة. وحسب جوزيف شافير Joseph Schafer في بحثه حول «تدوير مواقع الكراهية : دعوة منظمات الكراهية من خلال الإنترنت» Spinning the Web Hat : Web-based Hate Propagation by Extremist Organizations ، فإن موقع ستورم فرونت كان المعيار لمواقع الإنترنت التي تنتهج الكراهية في طرحها. وقال شافير في هذا الصدد:

«إن موقع ستورم فرونت يمثل الاستخدام الأقصى لشبكة

الإنترنت كوسيلة للتبشير بالكراهية والأيدلوجيات المتطرفة». وقال شافير أن دونالد بلاك قد عرّف أسلوب استخدام وسائل الإنترنت لترويج الرسائل التي تدعو إلى الفرقة. وقال في هذا الصدد : «عند ظهوره في عام ١٩٩٨م في برنامج نايت لاين Nightline على قناة أي بي سي ABC ، شرح بلاك كيف أن موقعه على الإنترنت قد أتاح له «تجنيد أناس» ما كان له ـ دون ذلك ـ الوصول إليهم».

فبفضل شبكة الإنترنت كان للمنظمات التي تتبنى الكراهية وسائل معروفة لإيصال رسائلها. وقال شافير إن هذه المنظمات كانت في الماضي تستخدم وسائل أخرى مثل المنشورات والكتيبات والإذاعات والقنوات التلفزيونية العامة لترويج أفكارها. والآن لم تعد مسألة محدودية الوصول إلى الناس من الأمور الموجودة. فأي شخص يتصفح شبكة الإنترنت يمكنه أن يسمع زعماء المجموعات يروجون لأيديولوجياتهم على مدار الأربع والعشرين ساعة ولسبعة أيام في الأسبوع. وربما وعلى مستوى قبيح مثل رسائلهم، فإن مجموعات الكراهية تصل إلى الشباب وحتى الأطفال من خلال مواقعها على الإنترنت. فهناك ضرب من موسيقى الروك التي تُنمي أيديولوجيات الكراهية. وهذه القطع الموسيقية يمكن شراؤها وتحميلها من مواقع الإنترنت. مهما كان الأمر مفزعاً، فإنه ليس شيئاً جديداً بالنسبة للمجموعات التي تتبنى الكراهية أن تعمل على الوصول إلى الشباب. وهنا يقول شافير :

«لقد أدركت منظمات الحركات الاجتماعية منذ وقت بعيد أهمية أن تخطب ود الشباب من أجل استمرار وجودها. ففي العشرينيات من القرن الماضي، وأثناء قمة وجودها، كان لدى مجموعة «كو كلوكس كلان» خدمة موجهة للأطفال صممت لغرس قيم المجموعة في الشباب خلال سنوات تشكيلهم».

ومن أساليب تخويف الأقليات على المستوى المحلي الدعوة إلى احتقار الإسلام لأنه يلعب دوراً على المستوى الخارجي ضد النبوءات التوراتية المضللة، فإن مجموعات الكراهية تبرز نفسها بعدة طرق في الولايات المتحدة. ولكن وعلى الرغم من حالة الكراهية المثيرة للاشمئزاز في أمريكا فإن هناك العديد من المنظمات التي تعمل على استئصال هذه الأيديولوجيات، فهي تعمل من أجل ذلك ولا تقف مكتوفة الأيدي لتجعل الكراهية في أي من أشكالها، حتى ولو كانت في ثوب الدين، تكسب الرهان.

فتعليقات جيري فالويل لم تقابل بالترحيب من قبل ملايين الأمريكيين بمختلف معتقداتهم وخلفياتهم العرقية. فهذه واحدة من أكبر المنظمات المسيحية في الولايات المتحدة وتمثل ٣٦ كنيسة مختلفة وأكثر من ٥٠ مليون عضو، وهي المجلس الوطني للكنائس المسيحية National Council for Christian Churches، قد أصدرت بياناً عقب تعليقات فالويل في أكتوبر ٢٠٠٢م حول الإسلام والنبي محمد. ومما جاء في البيان : «نعتقد أن كلمات

جيري فالويل ليست من المسيحية في شيء وهي غير جوهرية بل تثير الاشمئزاز. ونحن في المجلس التنفيذي للمجلس الوطني للكنائس المسيحية في الولايات المتحدة نؤكد لإخواننا المسلمين أننا ندين ونرفض التعليقات المليئة بالكراهية والمدمرة التي أطلقها فالويل في برنامج ٦٠ دقيقة على محطة سي بي اس».

وإضافة إلى المنظمات المسيحية، فقد أصدر مجلس العلاقات المسيحية الأمريكية بيانات يرفض ويدين فيها ما ذهب إليه فالويل. ويُعدُّ المجلس في مقدمة المنظمات في الولايات المتحدة التي تتابع وتتصدى للتصريحات المغلوطة عن الإسلام والمسلمين والتي تظهر في وسائل الإعلام أو يطلقها مسؤولون حكوميون.

وهناك صحف محترمة مثل بوسطن جلوب Boston Globe حملت في صفحات افتتاحياتها في عام ٢٠٠٢م على تصريحات روبرتسون المليئة بالكراهية. وقالت الصحيفة : «مثل هذه الكراهية هي التي خلقت طغاة طالبان في أفغانستان وهي التي أتت على حياة مراسل صحيفة وول ستريت جورنال Wall Street Journal دانيال بيرل Daniel Pearl وهي التي أدت إلى التطهير العرقي في يوغسلافيا السابقة ورواندا وهي التي قادت الجلادين في الحروب الصليبية وأبقت على العنف حامياً في الشرق الأوسط وإيرلندا الشمالية وفي الكثير من المناطق التي تمزقها الحروب. إن الدين لا يخلق قتلة وإنما النفس البشرية

المنحرفة هي التي تفعل ذلك عندما تنسى أن أساس المعتقدات جميعها هو الحب».

وخارج وسائل الإعلام والمنظمات الدينية، هناك عدد لا يحصى من المنظمات في الولايات المتحدة التي آلت على نفسها اقتلاع العنصرية والكراهية وعدم التسامح. ربما يكون من أبرزها مركز المحاماة المعروف باسم ساوثرن بوفرتي، الذي لا يكتفي بتوعية الجمهور وتزويده بمعلومات عن منظمات الكراهية ولكنه يقاضي هذه المنظمات أيضاً. ففي عام ٢٠٠٢م كاد المركز أن يؤدي إلى إفلاس ريتشارد بتلر في قضية رفعها ضده أدت إلى إغلاق منظمته التي تروج للكراهية.

وفي ولاية ايداهو Idaho، حيث بدأت منظمتا بتلر : كنيسة المسيح عيسى وأمم أريان، فقد تمت المصادقة على تشريع متقدم ضد الكراهية. وقامت الولاية أيضاً بتخصيص يوم لحقوق الإنسان حمل اسم الناشط في مجال حقوق الإنسان مارتن لوثر كنج Martin Luther King. وفي بويز Boise عاصمة الولاية أقيم في عام ٢٠٠٢م نصب تذكاري لضحية المحرقة النازية أني فرانك Anne Frank. واليوم فإن سياسييّ ايداهو قد تبنوا شعاراً يقول : «ايداهو أكبر من أن تكره» Idaho Too Great To Hate. إن شعارا مثل هذا سيكون عظيماً لكل أمريكا، لكن يجب قبل كل شيء أن يعني شيئاً للذين يسمعونه. فينبغي لمثل هذا الشعار أن يلهمهم

التفكير ملياً معنى أن يكون الشخص أمريكياً أو مسيحياً أو مسلماً أو يهودياً أو ينتمي إلى أي طائفة أيديولوجية أو دينية.

و في مقال : «لماذا يعيد المسيحيون اليهود انتخاب جورج دبليو بوش» قال كارلسون : «إذا أفاقت المسيحية المتهودة من هرطقتها فإنها ستستعيد وطنيتها ونماذجها الأخلاقية المؤيدة لأمريكا والتي كانت معروفة بها قبل أن تصبح إسرائيل دولة في عام ١٩٤٨م. هنا على المسيحيين مثلهم مثل العلمانيين الأمريكيين أن يضعوا مصلحة أمريكا قبل كل شيء والطلب من ساستنا وقف تأييدهم لأجندة الحرب التي تشنها إسرائيل».

دعونا نأمل أن تتحقق مثل هذه الرغبات قريباً. فالكراهية للإسلام قد أفسدت سياسة أمريكا الخارجية مثلما أفسدت مظاهرها الداخلية. استعادة ذلك تتم فقط من خلال الجهود المستمرة على مستوى الأنشطة العامة والخاصة. فكل المواطنين، وليس المسلمين فقط، عليهم العمل على تحقيق ذلك.

الفصل الثالث: موقف الإسلام من

المصادر المتعلقة بالمفاهيم الأمريكية حول «الإسلام والإرهاب»

د. رالف سالمي *

مقدمة

لقد كُتب الكثير وصدرت العديد من التحذيرات المتعلقة بأيديولوجيات استخدام الدين في النواحي السياسية [١] وقد ساور القلق كليفورد جيرتز Clifford Gertz «حول الميول المتزايدة لأدلجة الدين كما هو في بيانات بعض الإسلاميين المتطرفين حول الشؤون الدولية في عالم اليوم» [٢]. إن الحقيقة التي مفادها إمكانية إساءة استخدام القرآن والسنة، وهما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي، لا تنفي إمكانية الاستفادة منهما لتحقيق أهداف سياسية إيجابية. كما إن الحالة التي نجد أنفسنا فيها اليوم ليست متصلة بالدين طبعاً. ففي ضوء ذلك ومن خلال عملية تفسير وبناء التقاليد، فإن القرآن وغيره من الكتب السماوية تساعد

* أستاذ العلوم السياسية بجامعة كاليفورنيا الحكومية ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

على توليد قصص مجتمعية ذات تبعات سياسية. ولذلك فإن مهمتنا الرامية إلى تركيز البحث على أولئك الذين يفسرون هذه النصوص الدينية كأساس لتشريع العنف السياسي، ستصبح أكثر تعقيداً من محاولة عزل هؤلاء الذين يفسرون النصوص لتحقيق أهدافهم السياسية الدولية المغطاة بالعبارات الدينية. ولتأكيد هذه الحقيقة، فإن جميع الكتب المقدسة تحتوي على مزيج من الأفكار السياسية المختلفة ـ وليس على أجندة سياسية واحدة ـ ولا ينظر إلى الإسلام بأقسامه وفصائله الأساسية كحالة استثنائية.

وبعد هذا الحديث تبقى مهمتنا متصلة بدور الدين كعنصر أساسي أو متنوع لتحليل وشرح الأزمة الحالية. وسيكون هناك رفض لما قيل من أن الدين، كما هو من وجهة نظر المؤمنين، فطري وذاتي وعنصر أساسي لفهم الكثير من طبيعة العدوانية والعنف السياسي الموجودة في عالم اليوم.

وعند النظر إلى الآلاف من النصوص الدينية والطوائف والفرق ـ وهي موجودة بسبب اختلاف تفسير الدين ـ يجب علينا توخي الحذر الشديد عند إطلاق الأحكام ذات القوالب الجاهزة، ولوم الجميع بدلاً من لوم الأقلية التي ـ لأي سبب من الأسباب ـ تحولت عن مسار الإنسانية وعن مبادئها الدينية. عدم التسامح الديني والصراع بين «الحق» و«الباطل» كان ولا يزال يمثل دماراً للوجود الإنساني. ومما لا شك فيه أن الجهل الشديد بين الذين يتصدون

للنقد والتحليل والإعلاميين في الغرب، وخصوصاً في الولايات المتحدة، يجعلهم ضحية الوقوع في استخدام التعميمات والاستنتاجات عندما يتعرضون لتهديد يرون أنه من أيدلوجية معادية. أي أنهم يبنون أفكارهم حول الإسلام من خلال المعلومات المبنية على أفكار مسبقة ونتائج غير موثقة.

حقيقة، إنها لحالة فريدة من نوعها، في التحليلات السياسية المعاصرة، أن تتهم وسائل الإعلام الأمريكية والخبراء السياسيين ديناً بلغ عدد أتباعه نحو ١,٣ بليون شخص، ويصفونه بأنه مسؤول عن الإرهاب بسبب حفنة تمثلهم القاعدة.

١ـ نبذة تاريخية وأسباب النزاع:

عاش العالمان الغربي والإسلامي جنباً إلى جنب لأكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان، ورغم أنهما لم يكونا في حالة حرب خلال هذه المدة، فإننا يمكن أن نقول إنهما كانا في حالة سلام غير مستقر، ومع ذلك كان هناك تبادل ثقافي مثمر بينهما، واليوم نجد أنفسنا في هذا التوازن اللامستقر والمتأرجح بين الحرب والسلام مع ١,٣ بليون مسلم في العالم. وعلى الرغم من عقود متعددة من التعامل والتبادل، لا تزال الأفكار والآراء حول أفعال الطرف الآخر مثار شك، إن لم يكن خوفاً. لقد افترق الحلفاء السابقون واستمرت الشعوب من الجانبين في تكوين أفكار سلبية عن بعضها البعض. وبينما نجد أنفسنا الآن

في حالة حرب مع نسبة ضئيلة من المسلمين، فإن الحقيقة هي أن عملياتنا العسكرية ـ في عقول كثير من المسلمين ـ لا تعدو كونها فصلاً آخر من فصول المواجهة مع القوى الاستعمارية والإمبريالية الغربية. وقد استغل أسامة بن لادن من جانبه الوجود الغربي في المنطقة بإشارات عديدة إلى الصليبية ونشاطات البعثات التنصيرية التي يبدو أنها تزيد من عداوة العرب والمسلمين، وتعمل كقاعدة سياسية تمثل فلسفة العنف الذي نراه اليوم. وحسب ما ذهب إليه الخبير بشؤون الشرق الأوسط جون فول John Voll عام ١٩٩١م، فإن«الصحوة الإسلامية المعاصرة هي رد على الظروف التي سادت في نهاية القرن العشرين، ويجب النظر إليها في سياق الخلافات والتحديات في العالم الحديث. وفي الوقت نفسه، هي جزء من تاريخ التجديد في المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ. وعليه، لا يمكن الفصل بين تجربة الصحويين الإسلاميين الحاليين والتراث الذي يؤكدون عليه. فكلاهما مهم ولا يمكن إغفاله عند محاولة فهم تلك الحقبة».[٣]

إذن، فالرأي العام الإسلامي يحتفظ بنوع من الحساسية التاريخية تجاه قرون من الصراع مع الغرب، سواء أكان سبب ذلك هو الاتفاقيات المجحفة والاستسلامية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[٤]، أم الحرب الأمريكية على مسلمي الفلبين في بداية القرن العشرين، والتي أدت إلى مقتل آلاف الفلبينيين

المسلمين من الرجـــال والنســـاء والأطفـــال على أيدي الجنود الأمريكيين العائدين من الحروب الهندية في مونتانا ووايمونج. (٥)
من الواضح أن التاريخ الإنساني لم يتّسم بالحب والرحمة، وليس المجال هنا بمتسع للتحدث عن العار والذل اللذين عانتهما البشرية، فالحرب ظلّت ملازمة للتاريخ الإنساني، وليس تنظيم القاعدة أو الرد الأمريكي عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر استثناء.

٢ـ «الإرهاب»: نزعة غربية تلصق بالآخر:

في أغلب الأحيان، وبخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حاول السياسيون والناطقون الرسميون باسم الأحزاب الدينية اليمينية المتطرفة، والإعلام، والمراقبون السياسيون ـ من خلال استخدام الأسماء والصفات المبتدعة ـ إيهام العالم بأن كل ما يتصل اليوم «بالإرهاب» و«التطرف» و«التشدد» و«التعصب» هو امتداد للدين الإسلامي. أي أن العنف السياسي الذي نواجهه اليوم هو من الناحية الأيديولوجية ـ شكلاً ومضموناً ـ نتيجة مباشرة للمبادئ الإسلامية. سأناقش هنا كيف أن الاستخدام الخاطئ للمصطلحات قد أفضى إلى نتائج سلبية وإلى تشويه تحليلاتنا للعنف السياسي الديني.

إن دراسة أصل الكلمات والعبارات وتطورها، وأشكالها ومعانيها، وما طرأ من إفساد لمعانيها الحقيقية، يقودنا إلى مناقشة كلمة «إسلام».

لن يعترض إلا القليلون على أن المعنى اللغوي والشرعي لكلمة الإسلام هو «الاستسلام لله»، ولذلك فإن من أولئك الذين يرغبون في استخدام كلمة إسلام كبادئة كما في «الإسلامية» أو اشتقاق صفات بإضافة بعض الأحرف إلى الاسم الأصلي في اللغة الإنجليزية مثل (IC) كما في «الإرهاب الإسلامي» Islamic Terror و«المتشددون الإسلاميون ، و«الإرهاب الإسلامي المتطرف»... إلخ، وهي صفات «تتعلق بـ» أو «تتصل بـ » أو «طبيعة».. تؤدي بنا إلى إحدى المشكلات التحليلية الأساسية المتعلقة بتعريف العنف الديني ـ السياسي الذي يمارسه من يطلقون على أنفسهم صفة «مسلمون» (٦).

وحقيقة القول أن هناك قلة من الناس، إن لم نقل لا يوجد أحد، ممن ينظرون إلى «العمليات الانتحارية» و«العنف» أو «الأفعال الإجرامية» التي يقوم بها نصارى أو يهود على أنها نتاج لديانة هؤلاء الفاعلين. ومثال ذلك أن تفجيرات مبنى المكتب الفيدرالي في مدينة أوكلاهوما في أبريل عام ١٩٩٥ التي نفذها تيموثي ماكفي Timothy Mcveigh أحد أتباع الحركة الوطنية النصرانية الأمريكية، وهي حركة عنصرية، لم تصفه المؤسسات الإعلامية على أنه عمل قام به «إرهابيون نصارى». مع أن «النصرانية» كما يفهمها المفكرون الراديكاليون في الولايات المتحدة تستمر في لعب دور أساسي في تبرير أعمال العنف كما تعبر عنه سياسات قائد

كـو كلوكس كـلان Ku Klux Klan القس ثوم روب Thom Rob، وكمـا يقـول خـبيـر الإرهاب المشـهـور بروس هوفـمـان Brucie Hoffman من مؤسسة راند: «إن قيادة الحركة الوطنية النصرانية، التي يلعب فيها روب دوراً أساساً، هي حركة سياسية ذات جذور دينية، وإن قادتها ـ وكثير منهم رجال دين ـ يعمدون عن قصد إلى استغلال ألقابهم الدينية لإضفاء الشرعية لتبرير العنف» [٧]. إن وجهة النظر القائلة بأن «الوطنيين النصارى لا يظهر أنهم يحترمون أياً من الاعتبارات السياسية أو الأخلاقية أو العملية التي تحول دون قيام معظم الجماعات الإرهابية الأخرى بتنفيذ هجمات باستخدام أسلحة دمار شامل، لا يقل إزعاجاً عن تحليل هوفمان Hoffman، ولا يختلف كثيراً عن تصريحات ابن لادن حول تبريرات قتل الأبرياء. وكذلك استخدام أسلحة الدمار الشامل [٨].

وقد أشار إلى ذلك هوفمان بقوله: «هناك في حقيقة الأمر تشابه مذهل بين هذه الجماعات وبين الجماعات الشيعية الإسلامية والجماعات اليهودية المتعصبة في الشرق الأوسط. فكل هذه الجماعات تحوّل الأيديولوجيات السياسية والأهداف المجردة إلي واجبات دينية. فلم يعد العنف مجرد شيء مسموح به، وإنما مقدس. كما أصبح من الأمور المقدسة قتل الأشخاص الذين يصفهم الشيعة بأنهم «كفار» ويصفهم اليهود بأنهم «كلاب» أو يصفهم «النصارى» الوطنيون بأنهم أبناء الشيطان» [٩].

إضافة إلى ذلك، وتعزيزاً لنقاشنا حول استخدام عبارات دينية منتقاة، فإنه من الواضح أن كلمة «يهود» أو «يهودي» لم تسبق اسم باروخ جولدشتاين Baruch Goldstein اليهودي الأورثوذوكسي، الأمريكي المولد الذي أطلق متعمداً ١١٩ طلقة من بندقيته إم ١٦ على جمع من المسلمين في الحرم الإبراهيمي أثناء أدائهم لصلاة الفجر، مما أسفر عن مقتل تسعة وعشرين وجرح ١٥٠، ولا يختلف جولدشتاين الذي سعى لتنصيب نفسه محامياً لليهودية عن ابن لادن الذي اقتنع بفكرة أنه مدافع عن الإسلام.

ومع أن الكثير قد كتب حول «الهجمات الإسلامية الانتحارية» إلا أنه لم يُكتب إلا النزر اليسير عن التطرف الديني غير الإسلامي، مثل التقارير التي ترد من مستوطنة تابواه Tapuah في الضفة الغربية التي يقول حاخامها: «إن العمليات الانتحارية خلال الحرب مسموح بها لتحقيق النصر لإسرائيل» [١٠] وهذا لا يختلف كثيراً عمّا قام به باروخ جولدشتاين الذي عرف أن دخول المسجد وإطلاق النار على المصلين المسلمين سيؤدي إلى قتله، وهذا ما حدث، ويهود الضفة الغربية يعتبرون هذا العمل نوعاً من «الشهادة»، ويكتبون أن «الشخص الذي يتطوع لتنفيذ مثل هذه العمليات سيسمى بطلاً وشهيداً» [١١]. ومما يفاجئ الكثيرين أن «شهادة» جولدشتاين التي احتفل بها في قبره قد حولت قبره إلى مكان مقدس، يحرسه ويقدسه الوطنيون المتدينون، الذين

يشاركونه الكراهية نفسها تجاه الحكومة العلمانية الإسرائيلية وسياستها المعلنة بإعادة الأرض المقدسة التي منحها الله لليهود إلى الفلسطينيين، كما هو مكتوب لديهم في سفر التكوين وسفر تثنية الإشراع في التوراة. إن النصوص التوراتية التي يشار إليها دائماً عند التحدث عن مزاعم اليهود المتدينين عن الأرض هي:

«وقال له أنا الرب الذي أخرجتك من أرض الكلدانيين لأمنحك هذه الأرض وتَرِثها» (سفر التكوين: ١٥:٧).

«وقال لإبراهيم إن أولاده سيصبحون غرباء في الأرض التي ليست لهم وسيخدمونهم ويذلونهم ٤٠٠ عاماً» (سفر التكوين: ١٣ :١٥).

«وفي نفس اليوم اتفق الله مع إبراهيم بقوله: أعطيت هذه الأرض لأبنائك من نهر مصر (النيل) إلى النهر العظيم، نهر الفرات» (سفر التكوين: ١٥:١٨).

ليس الهدف هنا هو الدخول في نقاش حول التبريرات الدينية للأفعال التي يفسرها البعض، بحسب الأفكار الموجودة حول هذا الموضوع ومن يؤمن به، وإنما التأكيد على حقيقة أن النصوص التي يفسرها المتطرفون يمكن، بل ويتم استخدامها من قبل المتطرفين النصارى واليهود والهندوس والمسلمين على حد سواء، لتبرير أكثر أنواع العنف دموية. فالمتطرفون المسلمون لا يحتكرون العنف المبني على المبادئ الدينية، ولذلك فإن الإسلام كشريعة يجب أن لا يُتهم كمحرض على الأعمال التي نفذها البعض، أكثر

مما تُتهم به الديانتان النصرانية واليهودية، كمحرض على الأعمال التي قام بها تيموثي ماكفي وباروخ جولدشتاين. من الواضح تماماً أن هذه وجهات نظر دينية ـ سياسية متشددة، تدعمها، إن لم نقل تشجعها، إعلانات مكتوبة. ولا يجب النظر إليها على أنها نتاج دين معين، وبالتالي فمن الواجب تجنب التعميم مهما كلف الأمر.

وقبل أن نتناول بالنقاش الدين المنظم في الولايات المتحدة كمصدر آخر من مصادر تعزيز مفهوم «الإرهاب الإسلامي» فإن عرض مثال لما كتبه العلماء العرب والمسلمون حول تعريف التطرف الديني، يعدّ أمراً مفيداً عند مقارنتنا بين القيم الدينية.

٣ـ مناقشة «التطرف» في المجتمعات الإسلامية:

إن العلاقة بين غموض وعدوانية مصطلح مثل التطرف الديني، أصبحت مثار نقاش في الأوساط الإسلامية. وهذا الأمر مرتبط بنقاشنا هذا حول عدم ملاءمة اللغة المستخدمة في الغرب حول الإسلام.

لقد تناول المسلمون هذا الموضوع بإسهاب عبر الزمان. فابن تيمية (١٢٦٣ ـ ١٣٢٨)، وهو من العلماء البارزين في علوم القرآن والشريعة، أشار إلى أن «سبب كثير من الخلافات بين الأشخاص عائد إلى عدم وضوح الكلمات وغموض معانيها. وهذا يعني أن شخصاً ما قد يجد شخصين آخرين يتحاوران ويتخاصمان حول معنى كلمة، أو أنهما يرفضان طريقة استخدامها، ولو سُئل كل

واحد منهما عن معنى الكلمات التي قالها فسيتضح أن أياً منهما لا يعي ما قال أو لا يعي معنى ما قال»[١٢].

وبالتالي، يمكن توضيح المصطلحات الإسلامية وما يدور حولها من نقاش من خلال التمييز بين «معناها الشرعي» ومعناها «اللغوي». فالمعنى الأول من الله والمعنى الثاني يحدده العلماء المتخصصون في مختلف أوجه العلوم والشريعة الإسلامية، فأين التحليل الأمريكي لهذا النقاش وخاصة ذاك المتعلق بالإرهاب؟ وأين الإسهام الأمريكي حول ضرورة التمييز بين المعاني الدينية واللغوية في الموضوعات، وخاصة المتعلقة بغموض الألفاظ وإساءة استخدامها عندما تتصل بالإرهاب؟ لماذا لا نرى مثل هذا التمييز عند استخدام عبارة «الإرهاب الإسلامي» تتكرر مرة بعد أخرى بحرية تامة؟

٤ـ التطرف الديني الأورثودوكسي:

إن كلمة أورثودوكسي مشتقة من الكلمة اللاتينية أورثو Ortho («صائب»، «صحيح») ودوكس dox («فكرة»، «تعاليم») وقد وردت معانيها في الأديان الثلاثة الرئيسة. ففي النصرانية مثلاً، نجد أن هناك عبارات محددة تستخدمها معظم الكنائس الأرثودكسية في مختلف الكنائس البطرياركية في القاهرة، ودمشق وأديس أبابا وإسطنبول والإسكندرية والقدس، ولكن اللغة المستعملة تختلف إذ تتراوح بين الأرمينية والعربية واليونانية والسيرامية وغيرها. كذلك

فإن اليهودية فيها فروع كثيرة للأرثودكسية. فالجماعات ذات الأصول البولندية (هاديسزم، شاباد ـ لوبافيش، وأوجادات إسرائيل، وهي تحالف مؤلف من الجناح اليميني التقليدي)، والليثوانية (ميسناغديم، حركة الأورثودوكس الأمريكية «الحديثة» أو «سنتريست»)، استمرت في صراعها مع الحركة الدينية الصهيونية التي شكلها المتطرف اليهودي الحاخام أيه. آي كوك A.I.Kook، والصهيونية المسيانية للجماعة المتطرفة غوش إمونيم والكاهانا. إلى جانب ذلك، وجد اليهود الأورثودوكس تعبيراً في سيفارادك أورثودوكسي، والمجموعات المناهضة للصهيونية والجماعات اللثوانية المناهضة للصهيونية[١٣].

وبما أنه بالإمكان تتبع آثار التطرف واكتشاف جذوره في الديانة الأورثودوكسية التي بدورها أرجعت أسبابه إلى فكرة الالتزام الصحيح بالدين، فإن المسلمين، كما أشير آنفاً، عانوا من هذه المشكلة لقرون عديدة. إن أساس رسالة الإرهابيين المسلمين اليوم، والكتّاب الذين يساندونهم، هو الموقف الذي يتبنونه بأن الذين انحرفوا عن الإسلام القويم (كما يُعرفونه هم) بتبني مبادئ يعتبرونها باطلة هم كفرة حسب تعريفهم لهم. وهكذا، وكما يتضح من الأعداد الهائلة من المسلمين في شتى أنحاء العالم، الذين يعارضون نشاطات ابن لادن، فإن فكرة وصفهم بالكفر هو استخدام متعمد وفيه إساءة للقرآن. وعند دراسة رسالة ابن لادن التي أعلنها في الثاني من شهر سبتمبر ١٩٩٦

بعنوان «إعلان الجهاد ضد الأمريكيين الذين يحتلون أرض الحرمين الشريفين، وإخراج الكفرة من الجزيرة العربية» [١٤]، فإننا نرى أمثلة واضحة على استخدامه رسائل سياسية ودينية في النص التالي: «تعلمون ما وقع من ظلم واضطهاد وتعدٍّ على المسلمين من الحلف النصراني اليهودي وعملائه، حتى أصبح الدم المسلم أرخص الدماء، وأصبحت أموال المسلمين مشاعاً لنهب الأعداء». و«إن وضع القوانين الوضعية لمساندة الكفار ضد المسلمين أمر محظور في الإسلام كما أجمعت عليه الأمة، قال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ وقال: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾».

لقد أصبح من الواضح تماماً أن أسامة بن لادن يمثل من خلال استشهاده بنص من القرآن الأمثلة ذاتها للتاريخ الطويل من الصراع والقتال الداخلي التي حصلت في جميع الأديان، فالتاريخ الإسلامي المعاصر مليء بالصراعات السياسية التي تتخذ من الدين ستاراً لها.

يعود الصراع السياسي السُّنّي اليوم إلى بعض الملاحظات المتعلقة ببعض المنتسبين إلى العلم من المسلمين الذين ركزوا بين أمور أخرى، على دور «السياسة الشرعية» ودور الدين في شؤون الدولة ومسؤوليات الحاكم في الدولة الإسلامية. فمع قدوم الإمبريالية الأوروبية إلى العالم العربي والإسلامي، رد العلماء المسلمون مستخدمين عبارات العلمانية والطائفية. من بين

هؤلاء جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) الذي يُعد مؤسس القومية الإسلامية الحديثة.[١٥] جاء بعد الأفغاني أعلام مثل الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) الذي يعده الكثيرون مؤسس المدرسة الحديثة في الإسلام. [١٦] ثم جاء حسن البنا (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩) الذي أصبح شخصية أساسية لعبت دوراً مهماً في وضع بدائل سياسية ـ دينية للشؤون الإسلامية في بداية القرن العشرين . وقد كان حسن البنا، وهو رجل عميق الإيمان، وراء تأسيس جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ التي أصبحت بعد فترة وجيزة أكثر الجماعات السياسية حجماً وأفضلها تنظيماً في مصر. [١٧] وقد نادى حسن البنا بالعودة إلى أصول الإسلام (القرآن والسنة) ورفض التأثير الغربي. ثم جاء بعد البنا سيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) الذي ربما كان الأكثر تأثيراً على النشاطات الإسلامية لجماعة الإخوان المسلمين التي وضعت أسس العنف السياسي ـ الديني المعاصر، وإضفاء الشرعية على العمليات «الجهادية الهجومية» ضد الكفار. كذلك كان سيد قطب كاتباً مبدعاً، ومن بين أهم أعماله كتاب «معالم في الطريق» الذي بين فيه أهمية الجهاد (الفصل ٤) و«العدالة الاجتماعية في الإسلام» عام ١٩٣٩م. وبينما انتشرت فلسفة الإخوان في منطقة الشرق الأوسط بعمومه، أصبح أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣ ـ ١٩٧٩) هو صوت الرفض الإسلامي السياسي في منطقة شبه القارة

الآسيوية وهو المسؤول عن تأسيس الجماعة الإسلامية (الرابطة الإسلامية) عام ١٩٤١ وهي أكبر حزب إسلامي سياسي في باكستان في الوقت الراهن[١٨].

يركز الغرب نقاشه في غالب الأحيان حول ظاهرة «السلفيةالوهابية» التي يعتبرونها إحدى مصادر الإرهاب المعاصر، إن لم تكن المصدر الوحيد. ولذلك فإن هذا التأكيد يتطلب اهتماماً منا[١٩]. ويصبح مضمون «السلفية الوهابية» أكثر تعقيداً عند استخدام المذهب الحنبلي (المدرسة السنية) لتفسير الفلسفة الراديكالية الدينية ـ السياسية «للوهابية» عندما كان تأسيس هذه الحركة مرتبطاً، أو يعد مصدراً «للإرهاب اليوم» فإن التحديات الواضحة والمهمة لهذه الفرضيات تستحق الدراسة. وقد ناقش الدكتور إنجريد ماتسون Ingrid Mattson، أستاذ الدراسات الإسلامية هذه المسألة على النحو التالي:

«هذه ليست طائفة، إنها حركة إصلاحية بدأت قبل ٢٠٠ عام مضت. إنه اسم حركة إصلاحية لتخليص المجتمعات الإسلامية من الممارسات الثقافية والتفسيرات الخاطئة التي ظل الناس يمارسونها لقرون. ونظراً لأن علماء الوهابية اندمجوا مع الدولة السعودية، فقد أصبح هناك بعض الصعوبة في منع تطبيق بعض التفسيرات الدينية بشكل واسع وفرضها على الناس ككل. ومن الجدير بالذكر أن علماء الوهابية قد أنكروا الإرهاب، ولا سيما أحداث الحادي عشر من سبتمبر على وجه الخصوص[٢٠].

إضافة لذلك، فإن الدراسة المتأنية للكتابات الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب تظهر أن معارضيه هم من اخترع العبارات

المعادية مثل «الوهابيون» أو «الوهابية» وهم بهذا يفترضون أن أي شخص يوافق على طرد الكفار من جزيرة العرب هو من أتباع شيخ واحد. فمعارضوه في السابق، وكما هم اليوم، يعتبرون الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأتباعه كفاراً لا أكثر. ومرة أخرى، فإن حقيقة كون ١٥ شخصاً من بين الـ ١٩ الذين نفذوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر هم من السعوديين، لا يعني ولا يجب أن يعني أن «الوهابية» هي مبدأ العنف الديني ـ السياسي[٢١].

وبناء على ما سبق فهناك تاريخ واضح وجلي للفكر الديني ـ السياسي الإسلامي. وهذا يعني ـ حسب ما أود التأكيد عليه هنا ـ أن التنوع والتعقيد في التفسير ليست أموراً واضحة فحسب بل إنها تعكس ـ بعبارات سياسية ـ تنوع المجتمعات الإسلامية في العالم.

٥ـ دراسة « التطرف الإسلامي»:

ما «التطرف الإسلامي»؟ وما العبارات والمفاهيم الدينية الإسلامية العربية التي تفيدنا عند مناقشة مسألة التطرف الإسلامي؟ وما الذي يفتقده الكتّاب والمحللون الأمريكيون عند تفسيرهم «للإرهاب الإسلامي»؟

الدراسة المهمة التي أجراها الدكتور عبدالرحمن بن معلا اللويحق، من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، حول مسألة الإرهاب الديني، حددت بالتفصيل معاني التطرف في المجتمعات

الإسلامية المعاصرة. ومن بين العناصر الأساسية لهذه الدراسة، والذي يدل على وجود فهم ناقص في التحليلات الغربية لهذه الظاهرة، هو فهم معنى «الإرهاب» في القرآن والسنة، وهما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي، وقد أشار اللويحق إلى أن المسلمين يختلفون فيما بينهم من حيث مستوى استجابتهم لتعاليم دينهم ومتطلبات تمسكهم «بالطريق القويم». ومن بين هذه الاختلافات كما أشار إلى ما يلي:

«بعضهم يلتزم بالدين ويبقى ثابتاً على الطريق القويم»، وهم الذين على الحق.

«بعضهم يهمل ويتجاهل التعاليم التي أمر بها الله» وهم المفرطون.

«بعضهم يتطرف تجاوزاً أو دون ما أمر الله به» وهم المغالون[٢٢].

وقد أورد اللويحق نصوصاً من القرآن والسنة إضافة إلى بعض النصوص التي كتبها علماء مسلمون بارزون تثبت أن المسلمين مأمورون بالالتزام بالنهج المستقيم ونبذ التطرف. وفي هذا السياق، من المهم الاستناد إلى عمل اللويحق الذي صنف فيه العبارات العربية المتعلقة بالإرهاب الديني. وعليه فإن الكلمات والعبارات العربية الأساسية المستخدمة في مناقشة الإرهاب هي على النحو التالي:

الغلو: وهذه المفردة تعني التطبيق المتشدد أو المغالي للتعاليم الدينية بحيث يتجاوز الفاعل حدود ما أمر به الشرع[٢٣].

التطرف: وتعني حافة الشيء أو طرفه، ويركز المعنى هنا على أن يكون الشخص على الطرف، أو أن يحمل وجهة نظر متطرفة، أو

أن يصبح متطرفاً أو أن يحمل أفكاراً متطرفة تتجاوز ما أمر به الشرع ويرفض وجود الاعتدال[٢٤].

التنطع: وتعني الانتشار السلس، ويضيف اللويحق أن المعنى هنا مشتق من الصوت الحاد جداً[٢٥].

التشدد: وجذر هذه الكلمة يعني القوة والصلابة وعدم المرونة أو «التصرف بشدة وصرامة وغيرها من العبارات، أو أنه استخدم قوته أو طاقته أو شدته أو قيد نفسه أو شدد على نفسه»[٢٦].

العنف: وهي مضادة لكلمة السهولة، وتعني أن يكون الشخص قاسياً في كلامه[٢٧].

وقد لخص اللويحق نقاشه لهذه الكلمات والمفاهيم المهمة بقوله بوجود تشابه بين الغلو والإفراط والتطرف، لذلك يمكن استخدام كل واحدة مكان الأخرى مع أن الأخيرة أعم من حيث المعنى، مبيناً أن جميع الكلمات الواردة أعلاه «قد وردت في نصوص الشريعة ». وتابع تحليله للتطرف الديني على النحو التالي:

«أما بالنسبة للكلمات الأخرى مثل التنطع، والتشدد، والعنف، فإنها ببساطة مرادفة لعبارات التطرف (الغلو). يتميز المتطرف بالتزامه الشديد بدينه بأسلوب متشدد وحاد (التشدد). كذلك يتميز في تعامله مع الآخرين بالتشدد والقسوة (العنف). كذلك يتميز بتجاوز الحدود في تطبيق التعاليم الدينية المطلوبة منه[٢٨].

وقد بينت دراسة اللويحق أهمية اللغة، ولكنها في الوقت نفسه

تجاوزت الاستخدامات اللغوية المجردة بالتركيز وتعريف تشكيلة واسعة من ميول التطرف المنهي عنه في الإسلام.

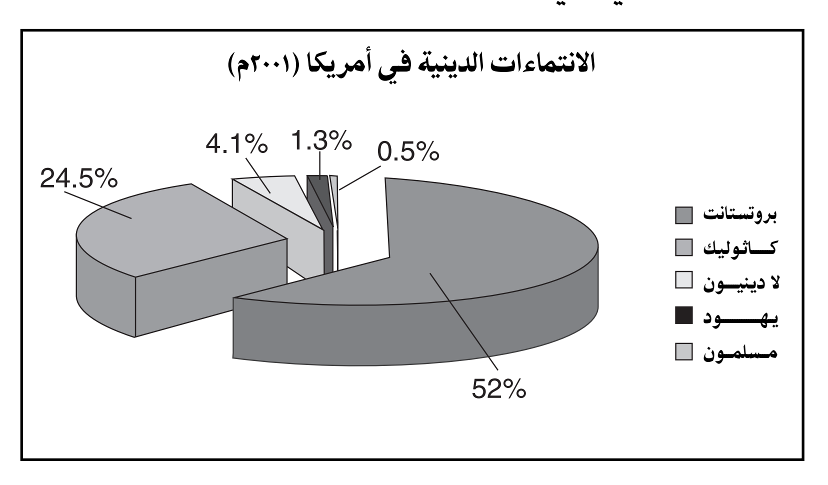
واستناداً إلى النقاط الأربع عشرة التي أوردها المطيري كخاتمة لدراسته (الفصل ٥) وتوصياته الست عشرة لحل مشكلة التطرف في المجتمع المسلم، فقد وجدنا ما يستحق الذكر هنا من ملاحظاته المهمة حيث يقول: «إن الرغبة في حل مشكلة التطرف في المجتمع قلق ساور جميع شرائح المجتمع بدءاً من الحكام ونزولاً إلى المتطرفين أو المتهمين بالتطرف.» [٢٩] ويتابع قائلاً: «ولذلك أرى أن الوسيلة الأعظم والأقرب لإنهاء التطرف هي إزالة مصادره من جذورها». وهذا صحيح بشكل خاص نظراً لأن كثيراً من الظروف التي ينادي المتطرفون بتغييرها هي في الحقيقة خاطئة (وتحتاج إلى تغيير فعلاً) [٣٠].

وفي محاولة لوضع إطار لمدى تعقيد النقاش الإسلامي السني الداخلي حول مسألة العنف الديني ـ السياسي وتناول بعض العبارات الغامضة المتوارثة من خلال نقاش العنف الديني ـ السياسي، وكيف أن هذا النقاش قد تعرّض له الإعلام الغربي، فإننا نتحول الآن لمناقشة دور النصرانية في تعقيد المحاولات الأمريكية لفهم «الإرهاب الإسلامي».

المجتمع النصراني الأمريكي والتعصب الديني:

كما يتضح من الرسم البياني أدناه فإن الأغلبية السائدة من النصارى الأمريكيين (٥٢٪) هم من البروتستانت، ومن خلال

الحركة البروتستانتية هذه توجد شريحة قليلة من شديدي التعصب الذين دائماً ما يرددون لأتباعهم كراهيتهم للإسلام، وهذه الأقلية هي التي سنركز عليها.



بما أن «الأصولية الإسلامية» هي أحد الأسماء المستخدمة لاتهام المنشقين السياسيين أو «الإرهابيين الإسلاميين» فمن المهم أن نوضح هنا أن هذه العبارة تعود في جذورها إلى الحركة البروتستانتية وليس إلى الإسلام، وهذه الحركة اشتقت اسمها من «الأصول» (١٩١٠ ـ ١٩١٥)، وهو كتاب مؤلف من ١٢ مجلداً من المقالات والدراسات تهدف إلى مواجهة الليبرالية الدينية، وقد تطورت الحركة بعد الحرب العالمية الأولى. علاوة على ذلك، ورغم التعريف الذي سيأتي، دعونا نكن عقلانيين، فوصف شخص ما بالعنف لمجرد إيمانه بأصول معتقده، يعدّ إثباتاً آخر لإفلاس اللغة التحليلية التي يستخدمها الغرب. أليس الأمريكيون

المتدينون يؤمنون بأصول معتقداتهم؟ إذن أليسوا أصوليين؟

ومنذ الأربعينيات من القرن العشرين، أصبحت عبارة الأصولية النصرانية تدل بشكل خاص على نهج عدواني متعلق بالاعتقاد الذي يرى أن الانفصال عن الانحطاط الثقافي والكنائس المرتدة ـ أو قل المتحررة ـ هو الدليل على الإيمان بالمسيح. رغم أن هذه الكنائس الغالب تطلق على نفسها «معمدانية الإنجيل» أو «كنائس الإنجيل» إلا أنها تجمعات معمدانية منفصلة مثل الكنائس التابعة للجمعية العامة للكنائس في المعمدانية العادية الأمريكية أو الكنائس الرئيسة المستقلة في أمريكا. من بين المؤسسات المرتبطة بهذه الحركة جامعة بوب جونز Bob Jones University في جرين فيل إس سي Greenville SC، ومعبد تينيسي Tennessee (شاتانوغا Chatanoga)، ومن بين المطبوعات التي تمثلها مطبوعة سيف الرب The Sword of Lord والمبشر التوراتي The Biblical Evangelist.

وكما ورد أعلاه، فإن اصطلاح «أصولي» قد تم تحويره وربطه بالتطرف الإسلامي وحده، وحتى قيام الثورة الإيرانية التي قادها الخميني عام ١٩٧٩، كان هذا الاصطلاح مستخدماً في الولايات المتحدة الأمريكية للإشارة إلى أي شخص يحمل نوعاً من الأديان التقليدية، أو معتقداً أرثودوكسياً متطرفاً، سواء أكان هذا الشخص مبشراً نصرانياً على شاشات التلفاز، أو يهودياً أو مسلماً. فالكثيرون يعتقدون أن هذا الاصطلاح لم يعد ذا فائدة عند استخدامه في الإطار الديني داخل أمريكا

الشمالية. وقد برزت الحركة الأصولية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بين الجماعات البروتستانتية كرد فعل لما أدخل على الأديان من «الحداثة» والتغيرات الثقافية والاجتماعية. ومن بينها هذه الأنواع المتحفظة من الديانات النصرانية، لكن من بين المجموعات النصرانية المتحفظة من شذّ عن هذه القاعدة لدوره المهم فيما يتعلق بـ:

(١) خطابها نحو الإسلام.

(٢) حجم أتباعها.

مصطلح «تبشير» عبارة عن مصطلح واسع يشمل عدداً كبيراً من الجماعات البروتستانتية. فهذا المصطلح يوناني الأصل ويعني باللغة اليونانية «الخبر الجيد» أو «الإنجيل» وهو المعنى الأكثر شهرة. وخلال الثورة الإصلاحية أطلق مارتن لوثر كينغ هذا الاصطلاح مطلقاً على حركته الانفصالية اسم «الكنيسة التبشيرية» ـ وهو الاسم الذي لا يزال مستخدماً في الكنيسة اللوثرية في ألمانيا. أما في العالم الذي يتحدث الإنجليزية فإن الاستخدام الحديث لهذا الاصطلاح يعني الحركات الدينية عادة، والقيم التي أفرزتها سلسلة من حركات الإصلاح التي انتشرت في العالم الإنجليزي ـ الأمريكي شمال الأطلسي في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.[٣١] لذلك دلت عبارة «مبشر» على منهج ومجموعة معتقدات. وكنتيجة لذلك، فقد انضوت جماعات مثل المعمدانيين السود والكنائس الإصلاحية الهولندية والكنيسة الكاثوليكية والمعمدانيين الجنوبيين وغيرها تحت مظلة الكنيسة البروتستانتية التبشيرية، الأمر الذي يوضح بما لا يدع

مجالاً للشك مدى التنوع والاختلاف داخل هذه الحركة.

عادة ما يقوم رجال الدين المسيحيون المحافظون تحت إشراف الأساقفة بتعليم الناس فكرة أنهم «يُنقذون» أو «يولدون ثانية» عندما يندمون على السيئات التي اقترفوها ويثقون بالمسيح كمخلص لهم. كذلك يتم تعليم الناس بعض القيم التي تقول إنه في الوقت الذي يتم إنقاذهم أو بعد ذلك بوقت قصير، يتم «تعميد المؤمن من الروح المقدسة»، ويتمثّل هذا التعميد ـ بالنسبة للبعض ـ في هبة التحدث باللغة المعروفة بجلوسوليليا Glossolalia[٣٢] على أساس أن التحدث باللغات هو جزء أساس من الحياة النصرانية الساحرة. وكما يشار إليه في موقع ReligiousTolerance.org على شبكة الإنترنت، هناك اعتقاد شائع بين الذين يؤمنون بالقدرات الخارقة وبعض النصارى، وهو أن الروح المقدسة داخل المؤمن تستخدم لغة جلوسوليليا للتخاطب مع الرب في السماء، وأن اثنين من الثالوث يتواصلان من خلال المؤمن. وبعضهم يساند هذا المفهوم مستشهداً بالنص الروماني (٢٦:٨) الذي يقول إن الروح المقدسة تتداخل مع الآلهة بنوع من الأنين الذي لا يمكن للكلمات أن تعبّر عنه [٣٣].

ومن بين المتحدثين الأكثر عدائية للإسلام بين هذه الجماعات العنصرية بات روبرتسون Pat Robertson، وهو الرئيس والمدير التنفيذي لإحدى أكبر شركات الإذاعة والنشر النصرانية الدولية في العالم حيث يستخدم شبكته هذه وبرنامج نادي ٧٠٠ 700 Club [٣٤] لإطلاق الاتهامات ضد الإسلام على مرأى ومسمع الملايين الذين

يشاهدون محطاته [٣٥]. وفيما يلي مختارات من أقواله وتعليقاته التي تمثل نهجه المتعصب تجاه العالم الذي لا يدين بدينه.

ـ عند ترشيحه لمنصب الرئاسة:

«عندما قلت خلال ترشحي للرئاسة إني لن أوظف إلا النصارى واليهود في الحكومة واجهت عاصفة من الانتقادات. قالت لي وسائل الإعلام حينئذ ماذا تعني؟ أنت لن توظف ملحدين في الحكومة، أليس كذلك؟ كيف تجرؤ على قول أن من يؤمن بالمسيح هم أكفأ من الهندوس والمسلمين في إدارة الحكومة؟ وكان جوابي ببساطة، نعم إنهم أكفأ. (بات روبرتسون، «النظام العالمي الجديد»، صفحة ٢١٨، دالاس: المطبعة الدولية، ١٩٩١).

ـ حول دستور الولايات المتحدة الأمريكية:

«يُعدَّ دستور الولايات المتحدة ـ على سبيل المثال ـ أروع وثيقة أعدها النصارى لحكم أنفسهم، ولكن في اللحظة التي تضعونها بين يدي غير النصارى والملحدين، سيستخدمونها لتدمير أسس مجتمعنا، وهذا ما كان يحدث فعلاً » (بات روبرتسون، برنامج نادي ٧٠٠، ٣٠ ديسمبر ١٩٨١).

ـ حول حوار الأديان:

«أنتم تقولون إنه يجب عليك أن تكون لطيفاً مع أتباع الديانات الأخرى. هذا كلام فارغ، فأنا لست مضطراً لأكون لطيفاً مع أرواح الملحدين، أستطيع أن أحب الناس الذين يحملون آراء غريبة خاطئة ولكنني غير مضطر لأن أعاملهم بلطف» (بات باترسون برنامج نادي ٧٠٠، ١٤ يناير ١٩٩١).

ولو أننا سلمنا برأي العنصريين والمسيحيين الذين يؤمنون بالقدرات الخارقة وأولئك الذين يؤمنون بأن الشخص لا يصبح نصرانياً ومستحقاً للخلاص إلا إذا «ولد ثانية» فإننا نستطيع أن نفترض أن جميع أتباع الكاثوليكية ومعظم البروتستانت، ناهيك عن المسلمين واليهود، بعيدون جداً عن تحقيق الخلاص لأنفسهم في هذا العالم أو العالم الآخر.

التعريفات العامة والسياسية «للإرهاب» و«الإسلام»:

نتابع سرد الأحداث مستندين إلى فرضية أن الإرهاب المعاصر هو ظاهرة دينية ـ سياسية وخليط بالغ التعقيد من المفاهيم الدينية مع مجموعة واضحة تماماً من الأهداف السياسية التي يتم ربطها كثيراً ـ في الوقت المعاصر ـ بالإسلام، نظراً لأن منفذها هو أسامة بن لادن ومن احتذى حذوه من الجماعات التي تحمل الفكر ذاته. وعليه، فإن الآلام والمعاناة التي تُعتبر نتيجة مباشرة لأيديولوجية العنف هذه، يجب أن لا تعفينا من مسؤولية أن نضمن أن تكون التحليلات التي نُجريها مثيرة للغضب وللمشاعر التي تؤججها المصالح الدينية أو السياسية على أمل أن نكتشف الوسائل الضرورية لتحييد الخطر. ولكن لسوء الحظ، فإن الإعلام الذي يفتقد إلى المعلومات إلى جانب جهل الجمهور، والمتدينين المتطرفين والمتحمسين أكثر مما ينبغي، والمتعلمين الذين انحرفوا في بحثهم عن الموضوعية قد وقعوا جميعاً فريسة للتفسيرات المتعصبة للدين والقيم.

وكما سبق أن بينا فإن تحليلاتنا الخاطئة، وهي: المفهوم القائل بأن المبادئ الإسلامية هي مصدر الشر، قد اشتملت على:

١ـ التعصب الديني.

٢ ـ غموض في العبارات والمعاني.

٣ـ جهل العامة السافر بالكثير من المفاهيم والمبادئ الإسلامية.

ولذلك فإن الآراء الإسلامية السائدة قد ازداد تعقيدها أكثر بسبب العنف الديني ـ السياسي الذي يحدث على نطاق جغرافي واسع مملوء بالصراعات التي لا تقتصر على العراق وأفغانستان، وفلسطين، والشيشان، وأوزبكستان، والعربية السعودية، وإندونيسيا وجنوب الفلبين. لذلك فإن التركيز على حل معضلة التعريف هذه هي التي تؤدي إلى استخدام المعنى والمصطلح الصحيح للتعامل مع أي نزاع ينشأ. وكمثال على ذلك فإن المعجم الأمريكي الرسمي غني بالأوصاف عند مخاطبته لهذه الظاهرة، ولكنه قلما يستخدم هذه الأوصاف في وسائل الإعلام أو في البيانات الحكومية الرسمية. ومع وجود خلاف حول استخدام المصطلحات والجذور الأيديولوجية أو الأسس التي بني عليها العنف السياسي، فإننا نعود ثانية إلى التعريفات الحالية، وفيما يلي التعريفات التي تضمنها القاموس العسكري ـ والاصطلاحات المتصلة به ـ الصادر عن وزارة الدفاع الأمريكية [٣٦].

المتمرد والتمرد: هو عضو سياسي يتمرد على قيادته، أو هي حركة منظمة تهدف إلى إسقاط الحكومة الدستورية باستخدام

العنف والصراع المسلح.

مواجهة العصيان المسلح: هي كافة الإجراءات العسكرية، وشبه العسكرية، والسياسية، والاقتصادية، والنفسية التي تتخذها حكومة ما لوقف العصيان المسلح.

الإرهاب: هو الاستخدام المبرمج للعنف غير القانوني أو التهديد بالعنف اللاقانوني لإيقاع الخوف على الآخرين، ويهدف إلى إجبار الحكومات أو المجتمعات على تحقيق أهدافهم التي تكون عادة إما سياسية أو دينية أو أيديولوجية.

الجماعات الإرهابية: هي أي عنصر، بغض النظر عن حجمه أو الهدف الذي يسعى لتحقيقه، يعمل من خلال تنفيذ العمليات الإرهابية وأعمال العنف، سواء أكان هذا الهدف سياسياً أو دينياً أو أيديولوجياً.

حركات المقاومة: هي جهد منظم من قبل جزء من المجتمع في بلد ما لمقاومة حكومة البلد القانونية أو القوات المحتلة وإرباك النظام والتسبب في عدم الاستقرار.

الثوري: هو الشخص الذي يسعى لتحقيق تغيير سياسي أو اجتماعي من خلال استخدام إجراءات متطرفة جداً.

حرب العصابات: مجموعة من الأفراد المقاتلين الذين يشاركون في حرب العصابات.

الحرب غير التقليدية: تشكيلة واسعة من العمليات العسكرية وشبه العسكرية، تكون عادة طويلة الأمد، ويتم تنفيذها بسيطرة كاملة

من قبل قوات محلية أو بديلة تم تنظيمها وتدريبها وإسنادها بالسلاح والعتاد، وتوجه من قبل إدارة خارجية على مستويات مختلفة.

هذه التعريفات هي التي تقدمها الحكومة الأمريكية وتمثل عدداً كبيراً من النشاطات المناسبة لها، وتصف العديد من الصراعات التي تواجه المجتمع الدولي في الوقت الحاضر. ومع أهميتها الوصفية فإن التعريفات الواردة أعلاه قليلة الفائدة من حيث تقديم شرح واف للمصطلح. فعلى سبيل المثال ما المعنى الدقيق لاصطلاح «إرهابي أصولي إسلامي متمرد ومتطرف»؟ معنى هذا أنه خلال حرب اليوم «على الإرهاب»، لا تعطى التعريفات أو معانيها الكثير من الاهتمام لفهم مقاصدها وأهدافها الأيديولوجية أو الدينية فيما وراء عبارة «الإرهاب الإسلامي»، «العنف الإسلامي»، «الأصولية الإسلامية» وغيرها. ما عوامل التفرقة بين مسلم متدين غير إرهابي وبين آخر يسعى لتدمير مدينة أمريكية كاملة؟

ولأن استخدام التعميم هو أبسط أشكال تفسير الأشياء، فقد أصبح الإسلام، وبناء على آراء عديدة مبنية على فرضية هذا التعميم، هو وحده الملوم عن العنف السياسي، ويبدو أن هناك فرضية مشتركة بين العديد من الخبراء والأيديولوجيين وأرباب الإعلام والأكاديميين بأن ما يعرفونه عن الإسلام هو أكثر مما يحتاجونه لإقناع العالم، وهو أن المعتقد، أي الإسلام، هو أصل الإرهاب. فالتعميم الاحتمالي (نسبة من شيء مساوية لشيء آخر) هي أيضاً لها مكانها في مثل هذه الأدبيات.

أمثلة متصلة بالموضوع:

إن الكتابات التي تهدف إلى وضع الإسلام في إطار مشابه لما ذهب إليه صمويل هنتينجتون Samuel Huntington في «صراع الحضارات» Clash of Civilizations موجودة. ومن أمثلة ذلك كتاب ستيفن إميرسون Steven Emerson: «الجهاد الإسلامي: الإرهابيون يعيشون بيننا»، وكتاب دور جولد Dor Gold: «مملكة الكراهية» ومارك أيه جبرائيل Mark A.Gabriel في كتابه «الإسلام والإرهاب»، والأعمال العديدة لدانيال بايبس Daniel Pipes مثل «اليد الخفية: الخوف الشرق أوسطي من المؤامرة» و«الإسلام المسلح يصل أمريكا». ويرى إميرسون أن الإسلام دين يسمح بالقتل فكتب في هذا الصدد يقول: «إن مستوى كراهية اليهود والنصارى للإسلام في الوقت المعاصر أمر لا نستطيع ـ مع الأسف ـ أن ندركه تماماً أو أننا لا نريد أن نتقبله، لا نريد أن نتقبله لأننا لو فعلنا ذلك فهذا يعني أن إحدى الديانات العظمى في العالم التي يفوق أتباعها ١,٤ بليون شخص تجيز بطريقة ما القتل، أو القتل مع سبق الإصرار، كأحد مبادئها الدينية».

من الواضح أن التحليلات المتسمة بالانحياز المخطط له، والتناقضات المتوارثة والجهل ناهيك عمن يُطلق عليهم صفة الخبراء، كلها تهدف لتحقيق مصالح سياسية خاصة. في حالة ستيف إميرسون وصلاته المزعومة بإسرائيل ـ على سبيل المثال ـ، وعندما سُئل ضابط الاستخبارات الأمريكية المتقاعد فينس كانسيترارو Vince Cannistraro عن علاقة إميرسون واثنين من زملائه بإسرائيل أجاب: «إنهم يتلقون الدعم المالي من إسرائيل، كيف لي أن أعرف هذا؟ لأنهم حاولوا تجنيدي» (مقابلة على شاشة أيه بي سي ABC) (٣٧).

لقد أثبت إميرسون مرة أخرى افتقاره إلى الانضباط في التحليل المنظم عام ١٩٩٥م، بعد يوم واحد من تفجيرات أوكلاهوما، عندما ظهر على شاشات التلفاز وهو يقدم النظريات ـ الخاطئة ـ بأن الفاعلين كانوا عرباً. ومن بين أشياء أخرى، أوضح أنها محاولة «إيقاع أكبر عدد ممكن من الضحايا ـ فهذا يعني أن الفاعل هو من الشرق الأوسط» (٣٨). وعليه فإن نظريات المؤامرة قد وجدت هي أيضاً طريقها في هذا النوع من الكتابات. فعلى سبيل المثال ذكر مارك فينستر Mark Fenster في كتابه: «نظريات المؤامرة: السرية والقوة في الثقافة الأمريكية» أن نظريات المؤامرة هي شكل من أشكال التفسير السياسي الجماهيري. وكما ورد على موقع ألبوس Alpeus على شبكة الإنترنت، فقد أوضح، أي مارك فينستر، أن فهم كيفية انتشار هذه التفسيرات عبر ثقافة المجتمع يساعدنا في فهم مجتمعنا ككل بشكل أفضل. وقد أطلق فيستر سلسلة من البرامج الإذاعية والعروض والمجلات والكتب والمواقع على شبكة الإنترنت والألعاب التي تروج لهذه النظريات. كما أشار إلى أن رفض وجود المؤامرة هو في حد ذاته دليل على وجودها وأن الحقيقة « موجودة» دائماً، ويؤمن فينستر بأن نظرية المؤامرة قد أصبحت مثار اهتمام للثقافات المتعبة التي تتميز إحداها بالتفسيرات التي يقدمها أعضاؤها للتاريخ «المقبول» واحتقارها الشديد للسياسات المعاصرة

وبحثها عن مستقبل مثالي»[٣٩].

والنقاش السابق حول نظرية المؤامرة يتوافق تماماً مع عمل دانييل بايبس الذي لقي كتابه «اليد الخفية: الخوف الشرق أوسطي من المؤامرة»[٤٠]. اهتماماً كبيراً من قبل العلماء والباحثين المسلمين والشرق أوسطيين. ومن الأمثلة على هذا عرض وليام بي كواندت William B. Quandt في مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs إذ يقول: «استخدم بايبس هذه العبارات مثل «أناس فاشلون » لوصف سكان الشرق الأوسط بأسلوب احتقاري أضعف حجته، وهو غالباً ما يكتب حول ذلك كما لو أن التكرار هو المطلوب فقط لإثبات حجته. غير أن بعض اقتباساته الطويلة تظهر الكتّاب المقتبس منهم كما لو كانوا يتعرضون لنوع من الدعاية التي لم يصدقها لا هم ولا رؤساؤهم. وفي حالات أخرى يظهر مدخل بايبس إلى نظرية المؤامرة ضعيفاً إلى حد بعيد.[٤١].

وفي مقابلة أخرى، فإن إحدى العبارات التي تظهر بايبس بوضوح كأحد الذين يتمتعون بموهبة غامضة، وذكاء خاص قد جعله في مأمن من الإتيان بدليل على ما يقوله، مثلك «انظروا، أنا أستطيع أن أميز الأشياء إذ أملك مرشحاً، لقد درست الإسلام لمدة ٣٠ سنة، عندي شعور بكيفية عملهم وما هي أهدافهم، وأنا أرى، وأنت لا ترى.. فلا أستطيع توفير ذلك لك، أستطيع أن أُبلغك بجميع أنواع الأدلة على ذلك. أستطيع أن أقول لك إني أحسها»[٤٢].

خاتمة:

إن وجهة نظري هنا هي أننا عندما نُجبر على مناقشة مسائل تتعلق بالإسلام، وعدد المسلمين الذين يرغبون في إلحاق الأذى بنا لأننا أمريكيون غير مسلمين، فإن شعوراً بالخوف ينتابنا. أعتقد أن مفهوم الخوف من أي دين والعدوانية المصاحبة لذلك هي بالتأكيد نتاج لجهلنا، ويظهر أن آراءنا وتحليلاتنا مبنية على العواطف والانحياز السياسي والأيديولوجي وتعصبنا لديننا ومعتقداتنا وليس على أية محاولات صادقة وعادلة لفهم هذا المبدأ. إلى جانب ذلك، وإذا أخذنا توجهات الكتابات الغربية في الاعتبار ومستوى وحجم المعلومات المضللة التي تملأ مكتباتنا الجامعية وعلى صفحات صحفنا، ومطبوعاتنا الدورية ومحطات الإذاعة والتليفزيون بشكل يومي تقريباً، فإنه لم يتبق أمامنا إلا القليل من الخيارات عدا الاعتراف بحدوث هذا الأمر، وتقديم جهد صادق لتجاوز خلافاتنا وسوء الفهم من خلال المعرفة. وبالتأكيد سيخسر هذان العالمان أكثر مما سيكسبان من خلال تمسكهما بمواقفهما العدائية المبنية على أحداث تاريخية بائدة، أو بتمسكهما بقصص خيالية وسوء فهم لا سبب له إلا التعصب الديني.



Footnotes

1- Richard Bauckham, The Bible in Politics, (Louisville: WJKP, 1989):4

2- Clifford Geertz, "Which Way to Mecca? Part II," New York Review of Books, July 3, 2003, p. 36.

3- John O. Voll, "The Revivalist Heritage," in Yvonne Y. Haddad, et al., The Contemporary Islamic Revival: A Critical Survey and Bibliography (New York: Greenwood Press, 1991), 23.

4- Arthur Goldschmidt, The Concise History of the Middle East, 6th ed., (Boulder: Westview Press, 1999), 125.

5-One such battle was at Bud Dajo, Mindanao which occurred on March 5-6, 1906 in which American records confirm that over 1,000 Mulims Filipinos were killed by the 790 men under the command of Colonel J.W. Duncan.

6- Similarly, as a noun suffix "ism" is defined as a distinctive theory, doctrine, or system or as a suffix of action. Similarly, "ian" is a suffix for nouns and adjectives. associated with defining religio-political violence perpetrated by those who consider themselves Muslims.

7- Bruce Hoffman, Inside Terrorism, (New York: Columbia University Press, 1998), 105

8- See underground paper by Nasir bin Hamd Al-Fahd, titled "A Treatise on the Legal Status of using Weapons of Mass Destruction Against Infidels," dated Rabi'i 1424 [May 2003]. This is an extremely important work as it draws on all four of the major Sunni Madhhabs for justification on the use of WMD against non-Muslims including the innocent.

9- Hoffman, supra 115

10- Hoffman, 115.

11- Hoffman, supra, 114.

12- Note the use of "martyrdom" as opposed to "suicide" the latter of which is most frequently assigned by Western observers to similar Muslim operations. The use of "suicide" implies that a mental disorder not the more honorable self-sacrifice for one who dies, suffers, or sacrifices everhthing for a principle, cause or religion.

13- As cited in Abdul Rahmaan ibn Mualaa al-Luwaihiq al-Mutairi, Religious Extremis in the Lives of Contemporary Muslims, trans. Jamaal al-Din M. Zarabozo. (Denver: Al-Basheer, 2001), 56.

14- Orthodox Judaism focuses on a strict adherence towhat it sees as the correct interpretation of the Oral Torah thus their claim to the word orthodox, as with other orthodoxies, are used to differentiate themselves from other, 'heretical' movements.

15- London, al-Islah, September 2, 1996,cited in FBIs Report, "Compilation of Usama Bin Ladin Statements 1994-January 2004. (January 2004).

16- For a comprehensive treatment of al-Afghani see Nikki R. Kiddi, ed., An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamil al-Din al-Afghani, trans. and ed. Nikki R. Keddi (Berkeley: University of California Press, 1968).

17- See for example, The Theology of Unity, trans. Ishaq Musa'ad and Kenneth Cragg (London: Geore allen Unwin, 1966).

18- For one of the most authoritative works on the Muslim Brotherhood, see Richard P. Mitchell, The Society of Muslim Brothers (New York: Oxford University Press, 1969). 19- For an excellent overview of the life and work of Mawdudi, see John J. Donohue and John L. Esposito, eds., Islam in Transition: Muslim Perspectives (New York: Oxford University Press, 1982), 94-97, 252-260.

20- See, for example, the unremitting attacks on "Wahhabism" by New York Jewish columnist Stephen Schwartz at...

21- CNN interview, October 18, 2001. CNN Web page.

22- In the most comprehensive study of Ibn Abd al-Wahhab's interpretation of jihad ever written, DeLong-Bas details a vision in which jihad is strictly limited to the self-defense of the Muslim community against military aggression. Modern extremists do not have their origins in Wahhabism, she shows. The focus on the cult of martyrdom, the division of the world into two necessarily opposing spheres, the destruction of both civilian life and property, and the call for global jihad are entirely absent from Ibn Abd al-Wahhab's writings. Instead, the militant stance of contemporary Jihadism lies in adherence to the writings of the medieval scholar, Ibn Taymiyya, and the twentieth-century Egyptian activist Sayyid Qutb.

23- Abdul Rahmaan ibn Mualaa al-Luwaihiq al-Mutairi, Religious Extremism in the Live of Contemporary Muslims, trans. Jamaal al-Din M. Zarabozo (Boulder: AlBasheer, 2001), 68.

24- Al-Mutairi's translator, Zarabozo, relies here on the work of Edward Lane, Arabic-English Lexicon (Cambrdige: The Islamic Texts Society, 1984), 2287.

25- Zarabozo, supra, relies here on J.M. Cowan, eds., Arabic-English Dictionary: the Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic (Ithaca: Spoken Language Serves, Inc. 1994), 652.

26- Al-Mutairi, supra, 66.

27- Zarabozo, supra, relies on Lane's Arabic-English Lexicon, p. 1518.

28- Al-Mutairi, supra, 67.

29- AMutairi, 67.

30- Al-Mutairi, 587.

31- Al-Mutairi, 596.

32- The above attributed to the Institute for the Study of American Evangelicals at Wheaton College, Wheaton, Illinois at www.wheaton.edu.

33- For a broader treatment of the above see, www.ReligiousTolerance.org.

34- The "groanings" phrase may mean that these intercessions cannot be spoken in the words of a human language, but only when the individual is in a state of religious ecstasy and speaking in the language of God. See, www.ReligiousTolerance.org, supra.

35- The 700 Club is a live television program that airs weekdays before a studio audience from The Christian Broadcasting Network's (CBN) broadcast facilities in Virginia Beach, Virginia. On the air continuously since 1966, it is one of the longest-running programs in broadcast history. Hosted by Pat Robertson, Terry Meeuwsen, Lisa Ryan, Gordon Robertson, and Kristi Watts, with news anchor Lee Webb, The 700 Club is a mix of news and commentary, interviews, feature stories, and Christian ministry. Seen in 95 percent of the television markets across the United States, the program is carried on ABC Family Channel cable network, FamilyNet, Trinity Broadcasting Network, and numerous U.S. television stations, and is seen daily by approximately one million viewers. CBN World Reach broadcasts, which include the international edition of The

700 Club, have been translated into more than 70 foreign languages, can be seen in more than 200 countries, and are accessible throughout the year by more than 1.5 billion people around the world. //source: www.cbn.com/700dub/

36- Thomas S. Kuhn, The Structure of Scientific Revolutions, 2nd ed. (Chicago: University of Chicago Press, 1970).

37- Source: U.S. Department of Defense, Dictionary of Military and Associated Terms . The DOD Dictionary and Joint Acronyms and Abbreviations master data base are managed by the Joint Doctrine Division, J-7, Joint Staff. Where noted, these definitions are also used by the North Atlantic Treaty Organization. All approved joint definitions are contained in Joint Publication 1-02 as amended through June 2004.

38- Emerson's anti-Islamic diatribe notwithstanding, his close ties to the Israeli government was also reported in a pro-government Jerusalem Post article (9/17/94) which stated that Emerson has "close ties to Israeli Intelligence.

39- See Washington Post article dated 11/14/2001.

40- Source: Alpheus Website at www.alpheus, org/index.html

41- Daniel Pipes, The Hidden hand: Middle East Fears of Conspiracy (New York: St. Martin's Girffin, 1996).

42- William B. Quandt, Foreign Affairs, November/December 1996.

43- Daniel Pipes on Salon.com discussing his "special Muslim filter"

الإسلام: دين سلام .. وليس استسلام

أ.د. جعفر شيخ إدريس *

أود ابتداءً أن أوضح نقطتين هامتين كمقدمة قبل الولوج إلى الموضوع. **النقطة الأولى** أنني هنا لا أتحدث عن سياسة دولة أو مجموعة إسلامية معينة فيما يتعلق بالحرب والسلام، إنما عن التوجهات الإسلامية حول هذه الأمور كما هو موضح في المصادر الإسلامية الأساسية. وآمل أن يخرج القارئ بمعيار واضح يستطيع من خلاله قياس مدى إسلامية التصرفات المتعلقة بهذه الأمور والتي يقوم بها أناس ينتمون إلى الدين الإسلامي والذين هم مأمورون أخلاقياً بالالتزام بتوجيهاته. هذا التفريق بين نصوص الدين والتصرفات التي يقوم بها بعض الذين يزعمون أنهم ينتمون لهذا الدين هو أمر في غاية الأهمية. فإذ لا يمكننا نفي أن هناك علاقة عامة بين الناس ومعتقداتهم، إلا أنه يجب الإقرار أن

* رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة، مفكر إسلامي معروف ـ السودان.

ممارسات الناس لا تمثل دائماً انعكاساً للمبادئ التي يقولون إنهم يؤمنون بها. وهذا يعود إما إلى الجهل أو ضعف الوازع الأخلاقي أو الخداع المحض والنفاق. والمثال على هذا هو حقيقة أن الكثير من أهل الأديان: اليهود والنصارى والمسلمين يرتكبون أفعالاً مثل القتل والسرقة والكذب وهي جميعها أعمال محرّمة في هذه الأديان. فإذا ما حوكم الإسلام بالأفعال التي يرتكبها أولئك المنتمون إليه، فليطبق الشيء نفسه على المسيحية والليبرالية والديمقراطية وغيرها من المعتقدات الدينية والعلمانية.

النقطة الثانية: أن ما ورد هنا يستند بصورة رئيسة إلى آيات القرآن الكريم وهي المصدر الرئيس للمعرفة الإسلامية. وهنا لابد من كلمة حول النهج الصحيح الذي اتبع هنا. فالقرآن الكريم ليس كتاباً مبوباً حسب الموضوعات بالطريقة المألوفة لدينا. فأسماء السور مثل نوح، وإبراهيم، ومريم، ومحمد.. إلخ لا تقتصر فقط على موضوعات تتعلق باسمها ولكن الاسم يدل على إشارة وردت داخل السورة. فموضوع كالحرب والسلام ـ على سبيل المثال ـ يمكن أن نجد إشارات له في العديد من السور، وهذا يرجع إلى أن آيات القرآن قد نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم على مدى ثلاثة وعشرين عاماً.

ولتكوين صورة شاملة ونزيهة عمّا ذكره القرآن حول موضوع معين، فإن على المرء أولاً أن يحصي الآيات المختلفة في السور

المختلفة التي أشارت إلى الموضوع، وعليه ثانياً أن يفهم كل آية من هذه الآيات في سياقها النصي والتاريخي، وثالثاً عليه أن ينظر إليها في إطار السياق العام للمبادئ والأهداف الرئيسة للدين الإسلامي. ثم أخيراً ينظر إلى تفسير هذه الآيات من خلال أقوال وأفعال النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

بعد هذا الوصف لطبيعة الآيات القرآنية، فإنه من السهل على أي شخص أن يستدل بآية أو بعدد من الآيات لكي يورد دليلاً محرفاً لما نصّ عليه الإسلام حول أمر معين. فعلى سبيل المثال يمكن أن يقول قائل إن الإسلام يأمر المسلمين بقتل أي شخص غير مسلم أينما وجده، ويستدل بالآية: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾. كذلك يمكن لآخر أن يقول إنه لا وجود للحرب في الإسلام ويستدل بالآية: ﴿**كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾.

إن المنهج السليم الذي أشرنا إليه آنفاً هو الذي اتبعه علماء المسلمين الأوائل وهو ذاته الذي سوف نحاول أن نطبقه هنا في سياق الأسئلة المعاصرة المطروحة حول موقف الإسلام من قضية الحرب والسلام. وحيث إن آيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم المختلفة هي جزء من الصورة الكبرى من رسالة الإسلام، فإننا سوف نبدأ بعرض تلك الصورة (مع إشارات خاصة للموضوع الذي نحن بصدده) ومن ثم سوف نحاول أن ننظر إلى هذه الآيات والأحاديث في السياقات التي وردت فيها.

المجادلة بالوسائل السلمية:

تتميز طبيعة الدين الإسلامي بخصائص كثيرة تحتاج أن ندعو لها بالوسائل السلمية، ومن هذه الخصائص:

١ـ الإكراه مستحيل:

الأمر الأول والأكثر أهمية أن الدين الإسلامي قد قرر أنه ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾. وقد ذهب بعض المفسرين الأوائل للقرآن الكريم إلى أن هذه الآية تقرر حقيقة أن الأمر بعدم الإكراه مبني على هذه الحقيقة. والمعنى أنه من المستحيل إكراه شخص وإجباره على أن يكون مسلماً حقيقياً ولذا فما الجدوى من محاولة المستحيل. وهذه الحقيقة هي واحدة من تلك التي تستوجبها طبيعة رسالة الإسلام نفسها. فما هي هذه الرسالة؟ الكلمة العربية «إسلام» لا تعني فقط الدين الإسلامي، إنها تعبير في جوهره يعني الاستسلام لله في العبادة وليس لأحد غيره. وبحسب القرآن فإن هذه هي الرسالة التي جاء بها جميع أنبياء الله من نوح وإبراهيم إلى موسى وعيسى. وبصفة خاصة فهي الرسالة التي أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وهو آخر هؤلاء الأنبياء، بإبلاغها لكافة البشرية.

ولهذا نقول إن رسالة هذا النبي هي رسالة عالمية لكل الناس منذ اليوم الذي بعث فيه إلى قيام الساعة. وعلى أساس هذا الاستسلام لله بنيت كل التشريعات التي جاء بها جميع الأنبياء. والتفاوت في

نوعية وحدود هذه التشريعات يعتمد على الأحوال الخاصة بالقوم الذين أرسل إليهم كل نبي. ولأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء وأرسل للبشرية جمعاء، فإن رسالته شاملة وعالمية (فهي لا تقتصر على زمن معين أو ثقافة معينة).

الإسلام أمر متعلق بالقلب وهو فعل إرادي يختاره الشخص بالإقرار والالتزام به طواعية. ولا يمكن أحداً إجبار أحد ليكون مسلماً.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

٢ـ الله وحده المسيطر على القلوب:

هذا اعتقاد أساس في الإسلام، فالأنبياء لا يمكنهم إجبار الناس أن يكونوا مؤمنين.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ #٢١# لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

فالله يهدي أولئك الذين يستحقون الهداية ويعلم أنهم يقبلون الهدى. فهو لا يهدي الذين يعلم نيتهم رفض الهدى والإيمان. وهذا يعني أن الله لا يرغم شخصاً ما على قبول الإيمان.

والشيطان ليس في وسعه إرغام الناس على رفض الإيمان والهدى.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾.

٣ـ دور الأنبياء:

إذن ما هو دور الأنبياء؟ والذين يحملون رسالتهم من بعدهم؟ إنه إبلاغ هذه الرسالة بكل وضوح وإعطاء المدعوين البرهان والحجة على صدق هذه الرسالة وكذلك حثهم على قبولها ومجادلة أولئك الذين يختارون طريق الجدال.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

إذن لا النبي ولا أي مسلم مسؤول عن إعراض الناس عن الحق الذي دُعوا إليه.

٤ـ التسامح مع المعرضين:

هل هناك مجال لدين مثل هذا لشن الحرب ضد أناس كوسيلة لحملهم على اعتناقه؟ ربما يقول قائل لا: ولكن هناك سبباً قوياً لقتلهم. شخص كالرئيس الأمريكي السابق كلينتون قال: لأنهم رفضوا قبول الحقيقة [1]. هذا الاعتقاد مردود لسببين:

الأول أن نهج الإسلام في التعامل مع المعتقدات يختلف عن

نهجه في التعامل مع أصحاب هذه المعتقدات. فكل معتقد يتعارض مع أوامر الله هو في الحقيقة باطل.

ولكن أتباع هذه المعتقدات لا يقتلون ولكن يدعون بالحسنى.

ثانياً ولأن الإسلام قد أخبرنا أن كونك مسلماً فهذا أمر اختياري ولأن الشخص يمكن أن يلجأ لهذا الاختيار في أي وقت من حياته حتى قبيل ساعات من وفاته، فإننا يجب أن لا نيأس من قبول شخص ما لهذا الاختيار. ولذا يجب علينا عدم قتله إذا ما اختار الآن أن يكون غير مسلم. فمجرد رفض الإسلام لم يكن أبداً سبباً لتعذيب أو قتل أي شخص. وأكبر شاهد على هذا حقيقة أن آلاف اليهود والنصارى قد عاشوا بين المسلمين في أماكن مختلفة من أرجاء العالم الإسلامي، ولم يكن تسامح المسلمين معهم بسبب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولكن لأن دينهم قد أوصاهم بذلك. فكيف لدين يسمح للمسلمين أن يأكلوا من طعام الذين أوتوا الكتاب وينكحوا نساءهم، أن يأمرهم في الوقت نفسه بقتلهم أينما وجدوهم؟

ونظراً لأن هذه الحقيقة راسخة في أذهان المسلمين فإنك لن تجد بين أولئك المتورطين في قتل غير المسلمين من يزعم أن سبب قتله لهم يرجع إلى أنهم غير مسلمين. إنهم دائماً يذكرون أسباباً أخرى لتبرير أفعالهم هذه. وهذا يؤكد حقيقة أنهم لا يستهدفون قتل غير المسلمين هكذا خبط عشواء.

٥ـ دين الأخلاق:

وصف القرآن الكريم الدين الإسلامي بأنه دين الفطرة ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾. هذا الأمر الفطري عند البشرية يتكون بصورة أساسية من إقرارهم بحقيقة أن الله وحده هو الذي يجب أن يُعبد. وهذا الأمر ـ أيضاً ـ مرتبط بكل ما هو حسن عند البشرية كالعقلانية والقيم الأخلاقية والحس الجمالي وهكذا. فكلما كان الشخص أكثر إخلاصاً في عبادته لله، كان أكثر إنسانية ووجد أنه من السهل عليه التصرف بكل عقلانية وأخلاقية. فالقيم الأخلاقية أساس في دين الإسلام، والإسلام يأمر بقيم أخلاقية راقية مثل العدل وقول الحق والوفاء بالعهد ومساعدة المحتاجين والتراحم، وسهّل كذلك الطريق للناس لكي يطبقوا هذه المبادئ بتقوية الوازع القلبي الذي يزيد من التمسك بالسلوك الأخلاقي، فلا عجب ـ إذن ـ أن يكون من أُرسل لتبليغ هذا الدين قد وصفه الله عز وجل بأنه رحمة ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾،وأنه على خلق عظيم ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، وإن الانحراف عن المبادئ الأخلاقية هذه ـ لا سيما العدل ـ هو الذي يجعل الناس يلجؤون للنزاعات والحروب غير العادلة. ولهذا فإن الإسلام يحض على الالتزام المطلق بهذه المبادئ.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ**

﴿قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

وقد علق أحد مفسري القرآن المشهورين على هذه الآية بقوله: هذا يعني أن العدل واجب على كل أحد مع كل أحد في كل حال» [٢].

أسباب اللجوء للحرب:

هل في دين الإسلام مكان للحرب؟ نعم.. ولكن لأسباب ليس من بينها جعل الناس يعتنقون الإسلام. إننا نعيش في عالم غير كامل، فهناك من تجب محاربتهم ليعيش غيرهم في سلام . هؤلاء الذين ينبغي محاربتهم هم من يلجؤون إلى أفعال تتسم بالظلم والجور، وذلك مسوغ للحرب في الإسلام. وأعمال الظلم والإجحاف التي تبرر شن الحرب على مرتكبي هذه الأعمال تأخذ عدة أشكال مثل:

١ـ قيام من هم في السلطة باضطهاد أولئك الذين يختارون الإسلام كدين.

٢ـ طرد هذه الفئة من ديارها.

٣ـ شن الحرب على فئة (من المسلمين أوغير المسلمين) بهدف احتلال ديارهم أو نهب ثرواتهم أو استعبادهم.

ولا أحد يشكك في عدالة شن الحرب ضد مرتكبي مثل هذه الجرائم، ولكن وحتى في مثل هذه الحالات فإن الأمر الإسلامي باللجوء للحرب لم يكن بأي حال من الأحوال مطلقاً. فهذه الحرب

تكون شرعية إذا ما التزمت بأهداف الإسلام ـ أي نشر الخير والحد من الشر في هذا العالم. وإذا ما كانت عواقب شن حرب ما حسنة أم سيئة فهذا أمر يتوقف على الظروف والملابسات في ذلك الوقت. وبسبب هذا المنطق الأخلاقي أمر المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالتعامل مع أعدائهم بطرق مختلفة وفقاً للظروف المختلفة.

ففي البداية أمروا بأن يقتصروا على الجهاد اللفظي ضد أعدائهم **﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾**.

وهذا يوضح أنه رغم أن الجهاد يكون بالقوة العسكرية ولكن معناه الأساس هو جهاد بالكلمة والحجة والجدال. وهذا ينسجم مع الحقيقة التي ذكرناها آنفاً وهي أنه بالاختيار فقط دون غيره يكون الشخص مسلماً.

أمروا أيضاً أن يكفوا أيديهم حتى عند الدفاع عن النفس **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾**. والسبب الرئيس وراء هذا أن عددهم كان قليلاً وكانوا يعيشون تحت سلطان أولئك الذين يضطهدونهم. فأي محاولة للمقاومة المسلحة سوف تنتهي بهم إلى الإبادة التامة.

ولتجنب الاضطهاد سمح لهم بالهجرة إلى أماكن آمنة. فهاجر بعضهم ـ بإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم ـ إلى الحبشة حيث هناك ـ حسب كلمات النبي صلى الله عليه وسلم ـ: «ملك لا يظلم عنده أحد» وبعدها هاجروا جميعاً ـ وفيهم النبي صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة.

وبعد أن استقروا وأصبحت لهم أرضهم سمح لهم بالقتال. وأسباب هذا السماح سبق توضيحها من قبل.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ #٣٩# الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وبعدها لم يسمح لهم فقط بل أمروا أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم ولكن عليهم ألا يعتدوا.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ #١٩٠# وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾.

﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾.

وأخيراً أمروا أن يقاتلوا جميع الذين يرتكبون أفعالاً تنطوي على فتنة.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

وقد فسر أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية بقوله: إن هذا الأمر كان عندما كان المسلمون قليلي العدد ومعرضين للفتنة ولكن عندما أصبح عددهم كبيراً فلا وجود لمثل هذه الفتنة [٣].

فالحرب العادلة ينبغي شنها حتى ضد المسلمين البغاة.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ولكي تكون الحروب ضد المعتدين عادلة تماماً وفعالة فهناك شروط ينبغي تحقيقها:

(أ) أن يكون المسلمون الذين يشنون هذه الحروب يتمتعون بالقوة المادية، إذ إن القوة المعنوية وحدها لا تكفي. وفي إشارة إلى أولئك النفر الذين يرتكبون أعمال الجور والبغي، أشار القرآن للمسلمين بأن يأخذوا العدة لمواجهتهم **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.**

(ب) يجب بذل جهود كبيرة ومخلصة لحل المشكلة بالطرق

السلمية وذلك بالتفاوض مع المعتدي سواء أكانت حكومة أو جماعة ومحاولة جعلهم يدركون عدم أخلاقية أفعالهم وأن العواقب سوف تكون وخيمة عليهم إذا ما نشبت الحرب.

(ج) استهداف المقاتلين فقط.

(د) عدم إلحاق الضرر بالأراضي والمزارع والحيوانات أو أي شيء مفيد لحياة البشر.

(هـ) عدم اللجوء للحرب من أجل مكاسب دنيوية أو لنوازع تحركها اعتبارات عنصرية.

(و) يجب إيقاف الحرب بمجرد أن يجنح العدو للسلم.

(ز) بحسب الأحوال، فإنه ينبغي أن تكون اتفاقيات السلام ـ حتى مع البغاة ـ هي الخيار الأفضل.

معاهدات السلام:

مواصلة لنهجه في إبلاغ رسالته عقد النبي صلى الله عليه وسلم معاهدات مع بعض المجموعات التي لم تستجب وتقبل دعوته. وكان أول ما قام به بصفته رئيس الدولة في المدينة ـ توقيع معاهدة مع اليهود المستوطنين في المدينة آنذاك، وأعقب ذلك بتوقيع عدد من المعاهدات مع قبائل ومجموعات عربية مختلفة.

ولكن أهم هذه المعاهدات السلمية هي التي عرفت بصلح الحديبية بين النبي صلى الله عليه وسلم وأعدائه الألداء من قومه

في مكة الذين ناصبوا المسلمين العداء وعذبوهم ودخلوا في حروب شعواء ضدهم. ولعل تناول هذا الصلح هنا يثبت بصورة واضحة ما ذهبنا إليه من أن أفضل السبل لنشر الإسلام هي سبيل السلم.

فبينما كان النبي صلى الله عليه وسلم في طريق عودته إلى المدينة بعد توقيع هذا الصلح نزل عليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً**﴾.

وعندما سأل أحدهم: أو فتح هذا يا رسول الله؟ كان رد النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح».

لماذا سأل هذا الرجل؟ وأي نوع من الفتح هذا؟

سأل الرجل لأن نصوص الصلح تبدو غير عادلة بالنسبة للمسلمين. لقد جاء المسلمون لأداء العمرة وهي حسب التقاليد العربية التي ظلت سائدة منذ عصور سحيقة ـ حق لكل الناس. ولكن قريشاً رأت في أداء المسلمين لهذه العمرة نوعاً من النصر لهم رغم تأكيدات النبي صلى الله عليه وسلم مراراً أن نيتهم دينية خالصة وليس لديهم أي نية للقتال. لكن قريشاً أصرت على ألا يؤدي المسلمون العمرة في ذلك العام وأن عليهم أن يعودوا في العام الذي يليه بشروط معينة. وافق النبي صلى الله عليه وسلم ووقع معاهدة عدم اعتداء لمدة عشر سنوات. لكن المعاهدة تحوي نصاً يقول إنه إذا فر مسلم من مكة إلى المدينة تجب إعادته إلى مكة، أما إذا ذهب مسلم من المدينة إلى قريش فلا يعاد إلى المدينة.

أي نوع من النصر هذا؟

هذه هي الإجابة:

فقط عندما تكون هناك حرب يكون هناك كفر وإعراض، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام بعقل إلا دخل فيه. ولقد كان عدد الذين دخلوا في الإسلام خلال العامين الأولين من هذه المعاهدة مساوياً أو أكثر من عدد الذين اعتنقوا الإسلام من قبل[٤]. وهذه حقيقة ثبتت فيما بعد، فعندما جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية كان معه ألف وأربعمائة من المسلمين، لكنه عندما ذهب لفتح مكة بعد عامين من ذلك التاريخ كان معه عشرة آلاف مسلم [٥].

لقد وُجد الكثير ممن يرغب في الإسلام ولكنه كان خائفاً من قبوله أو الذِهاب إلى المدينة بسبب حالة الحرب[٦]. لقد تمثل النصر بصورة رئيسة في دخول الناس في دين الإسلام. إنه لأمر طبيعي يتسق مع تعاليم الإسلام أن يسمى فتحاً أو نصراً، إذ إن الهدف الرئيس للمسلمين هو دعوة الناس إلى دين الله وليس قتلهم أو تعذيبهم. إننا نلجأ للحرب ليس كوسيلة لجعل الناس يعتنقون الإسلام ولكن عندما تكون هي الطريق الوحيد لإيقاف عدوانهم وجورهم.

ومن المهم أن نذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم هو من اتخذ

المبادرة المتعلقة بهذه المعاهدة أو الصلح. فقد خاطب النبي رسول قريش الذي جاء لمقابلته قبل دخول المسلمين إلى مكة محاولاً إقناعه أن السلام من مصلحتهم كان النبي يردد «يا ويح قريش» وطلب من رسول قريش إبلاغها أن: «الحرب قد أكلتهم، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة».

التعايش السلمي:

إننا في زمن يختلف عن الأزمان السابقة. فاليوم نرى الناس من مختلف المعتقدات والجنسيات والألوان والأعراق يجدون أنفسهم ملزمين بالعيش جنباً إلى جنب في قرية كونية حيث ترتبط مصالحهم بعضهم مع البعض. لكنه في الوقت نفسه عالم به كميات هائلة مما يعرف بالأسلحة التقليدية التي يمكن أن تحدث خراباً هائلاً للبشر ومقومات الحياة على هذه الأرض. وهو عالم مليء بمخزون من أسلحة الدمار الشامل يكفي ما هو موجود منها في الولايات المتحدة وحدها للقضاء على الإنسانية كلها. ويبدو أنه لا مناص للبشر ـ لتفادي هذه النتيجة المروعة ـ غير القبول بالعيش بسلام بعضهم مع البعض مهما كانت الخلافات بينهم. ولا يكفي مجرد رغبة سكان العالم في التعايش السلمي بل عليهم أن يعززوا

من الحاجة إلى مؤسسات دولية تقوم بصون هذا السلام. لكن عليهم أكثر من ذلك الالتزام بالمبادئ الأخلاقية التي بدونها لن تعمل هذه المؤسسات بصورة جيدة.

(١) ينبغي أن تقوم المنظمات الدولية على العدل. وعلى الدول العظمى أن تعي أن هذا العدل في النهاية هو في مصلحة شعوبها وهي مصلحة يجب الإقرار بها حتى تكون أكثر أهمية بالنسبة لهم من مصالحهم المادية. يمكن لأية دولة عظمى أن تستخدم قوتها الاقتصادية والعسكرية لقهر وإخضاع الدول الضعيفة وأن تبرر ذلك بالادعاء أن ذلك حماية لمصالحها القومية. وحقيقة الأمر أنه لا يوجد أدنى فرق أخلاقي بين هذا المنطق وذاك الذي يقول به شخص قام بسلب ممتلكات شخص آخر بذريعة تحسين وضعه المعيشي.

(٢) سوف تفقد المؤسسات الدولية ـ مثل الأمم المتحدة ـ وظيفتها كوسيلة لصون السلم العالمي إذا ما أصبحت أداة في أيدي الدول العظمى. لكن وللأسف هذا هو الوضع الآن. وليس هذا هو الوضع الذي ارتضته الدول الضعيفة ولكنه الوضع الذي أراده ممثلو الدول العظمى. بل وأكثر من ذلك فهم يتباهون به. إن هيمنة وجهات نظر الدول العظمى فيما يخص هيئة الأمم المتحدة قد عبر عنه في العام ١٩٩٢م فرنسيس فوكوياما ـ الذي عمل في وزارة الخارجية الأمريكية في فترة إدارة كل من الرئيسين السابقين رونالد ريجان وجورج بوش الأب ـ عندما ذكر أن الأمم المتحدة هي أداة لخدمة

السياسة الأحادية للولايات المتحدة وحقاً ربما تكون الآلية الرئيسة التي يمكن بها تطبيق السياسة الأحادية هذه في المستقبل [٧].

إن الغرب يحاول وسوف يستمر في محاولة الحفاظ على أوضاعه والدفاع عن مصالحه بحجة أنها تمثل مصالح (المجتمع الدولي). لقد أصبحت عبارة (المجتمع الدولي) التي حلت محل عبارة (العالم الحر) هي نفسها الاسم الملطف الذي يمنح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وسائر القوى الغربية الأخرى [٨].

(٣) إن الالتزام بالمبادئ الأخلاقية ـ وعلى وجه الخصوص العدالة ـ هو الضمان الوحيد ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل. إن الدول الضعيفة لن ترى أنها بحاجة إلى امتلاك هذه الأسلحة إذا ما شعرت أن عدم امتلاكها لن يعرض بقاءها وسيادتها للخطر، وسترى أن من الحكمة إنفاق ما يُنفق على هذه الأسلحة على أشياء أكثر أهمية منها. ولكن إذا ما شعرت هذه الدول بتعرضها للإذلال بسبب عدم امتلاكها هذه الأسلحة فسوف تعمل جاهدة لامتلاكها مهما كان ثمنها وبغض النظر عن المعاهدات التي وقعتها في هذا الشأن.

(٤) المدفوعون بنزعة الهيمنة عليهم أن يتذكروا أن هناك الكثيرين المدفوعين بغريزة حماية وصون كرامتهم وهي دافع أقوى مما لديهم. فالكثيرون يمكن أن يضحوا بحياتهم من أجل كرامة شعوبهم.

(٥) ليست القيم الأخلاقية وحدها التي يمكن أن تكبح أولئك الذين يمتلكون قوة عسكرية هائلة عن عدم استخدامها بصورة

جائرة. وبفضل التطور الذي حدث في الأسلحة وصناعتها يمكن أن نرى قريباً أفراداً أو مجموعات صغيرة تمتلك أسلحة صغيرة الحجم ولكنها ذات دمار شامل وليس من الصعوبة الوصول إليها.

(٦) لا ينبغي استخدام الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية الأخرى كمنابر تستغلها الدول العظمى لفرض قيمها ـ وبخاصة القيم العلمانية ـ أو غيرها. إن أعضاء منظمة الأمم المتحدة لا ينتمون لمختلف البلدان فحسب، بل لمختلف الثقافات والقيم والمعتقدات. ولكي يجتمع هؤلاء الناس تحت مظلة واحدة ويتعاونوا على مواجهة المشكلات فإنه من الضروري جداً لهم أن يعترفوا بهذه الاختلافات الجوهرية وأن يلجؤوا للوسائل السلمية لحل هذه الخلافات. إن التغيير الثقافي سواء كان للأفضل أو الأسوأ يأتي تدريجياً واختيارياً. وإن استخدام منظمة مثل هيئة الأمم المتحدة لإحداث التغيير الثقافي للشعوب سوف يولد نوعاً من عدم الاحترام لهذه المنظمة، وبالتالي يشجع الدول على عدم الالتفات إلى قراراتها. وإنه لمن المؤسف أن هناك الكثيرين في الغرب الذين يعتقدون أن أسلوب حياتهم هو الأسلوب الأمثل لكل من ينشد حياة عصرية. إنهم ببساطة يريدون من الآخرين أن يختاروا النظام السياسي الذي اختاروه هم، وأن يفسروا الدين بالطريقة التي يفسرون بها الدين، وأن تكون العلاقات بين الجنسين هي العلاقة السائدة في مجتمعاتهم وأن يمتنعوا عن التصرف بأية طريقة تعتبرها دولة ـ مثل الولايات المتحدة ـ لا تخدم مصالحها القومية.

الهوامش:

١ـ في خطاب ألقاه بجامعة جورج تاون في ٧ نوفمبر ٢٠٠١م أشار الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون إلى بعض المسلمين بقوله: «إنهم يعتقدون أنهم يملكون الحقيقة فإنك إما أن تشاركهم هذه الحقيقة أو لا. فإذا لم تكن مسلماً فإنك كافر، وإن كنت مسلماً ولم توافقهم فأنت مبتدع، وإنك في الحالين هدف مشروع حتى لو كنت طفلة في السادسة من عمرها ذهبت مع أمها للعمل في مركز التجارة العالمي في ١١ سبتمبر. إنهم يعتقدون أن المجتمع هم أولئك الناس الذين يتشابهون، يتصرفون بنمط واحد ويلبسون زياً واحداً». لا أعرف أي مسلم أصولياً كان أو غيره يفكر بهذه الطريقة.

٢ـ انظر تفسير ابن كثير للآية ٨ من سورة المائدة.

٣ـ تفسير ابن كثير للآية ٣٩ من سورة الأنفال.

٤ـ ابن حجر ـ فتح الباري ـ كتاب الشروط في الجهاد.

٥ـ المصدر السابق.

٦ـ المصدر السابق.

٧ـ نعوم تشوميسكي ـ الهيمنة أو البقاء، محاولة أمريكا الهيمنة على العالم ـ هنري هولت وشركاه ـ نيويورك ـ ٢٠٠٣م ـ ص ٢٩.

٨ـ صمئويل هينتنجتون ـ صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي ـ تشوستون ، نيويورك ١٩٩٦ ص ١٨٤.

الإسلام والإرهاب.. نقيضان لا يجتمعان

زين العابدين الركابي *

يلحظ القارئ: أن عنوان المقال أو البحث (دَعْوَى) لا تقرير، أو أن الكاتب يفضل أن يكون الأمر كذلك: تحرياً للحياد الموضوعي والمنهجي.

هي (دعوى) من ثم.

والدعوى لا تثبت إلا بدليل.

فما الدليل على صحة هذه الدعوى التي قد تبدو (صدمة) في مناخ: كثر فيه الذين يخلطون بين الإسلام والإرهاب: خلطاً متعمداً عن علم، أو خلطاً ناشئاً من الجهل؟

دليل المقاصد:

أول مقاصد الإسلام في المجتمع الإنساني هو (مقصد الرحمة).. وأدلة هذا المقصد من الكتاب والسنة هي:

* مفكر الإسلامي وأستاذ مشارك بقسم الإعلام بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ـ السعودية.

١ـ من القرآن: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾.. ومن مفاهيم هذه الآية: أن ليس لرسول الإسلام مهمة أو وظيفة إلا نشر الرحمة للعالم وفيه.

٢ـ من السنة، قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من لا يرحم الناس لا يرحمه الله**».

ومن الواضح جداً: أن الآية والحديث ينتظمان الناس جميعاً، من حيث هم ناس، بغض النظر عن الجنس، أو الدين، أو اللون، أو الموقع الجغرافي.

ولقد عبرت السنة النبوية عن الرحمة بلفظ آخر مثيل أو قرين وهو لفظ أو مفردة (الرفق). إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**». ولا شك في أن الرحمة والرفق نقيضان للعنف والإرهاب في اللفظ والدلالة، وما يترتب عليهما من فعل وسلوك.

دليل مفهوم القوة في الإسلام:

في كل أمة، أو في كل حضارة مفهوم أو فلسفة لـ «القوة» إذ إن وراء كل مظهر من مظاهر القوة المادية: «فلسفة» تعللها وتفسرها وتوجهها.

فما فلسفة القوة في الإسلام؟

إن مفهوم القوة في الإسلام هو أنها هي (الطاقة الكونية والبشرية المسخرة بإرادة وعلم، المضبوطة بالعدل والأخلاق: في

الباعث والوسيلة والغاية).

وثمة علاقة وثيقة بين الأخلاق والقوة في هذا المفهوم، وهي علاقة تكامل فلسفي، وتعاون وظيفي، حيث إن الأخلاق تضبط القوة وتهذبها.

ومن هنا، لم يعب الإسلام القوة بإطلاق، وإنما عاب الاستعمال الجاهل الظالم للقوة. ومما ينبغي التنبه إليه ـ ها هنا ـ أن القرآن بيّن وأصّل: أن الاستعمال الجاهل الظالم المتخلف للقوة من خصائص أعداء الأنبياء، لا من صفات الأنبياء وأتباعهم.

نقرأ في القرآن عن هذه القضية:

أ ـ ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾ هذا هو منطق (الإرهابيين) بعامة، ضد الأنبياء والمرسلين كافة.

ب ـ ﴿**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾.. هذه صورة من صور العنف: تمثلت في تهديد هؤلاء المؤمنين بأمرين: إخراجهم من أوطانهم، أو إكراههم على الدخول في الملة الوثنية.

جـ ـ ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾.. ففرعون هو الذي دبر العملية الإرهابية ضد موسى عليه السلام.

د ـ ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ..**﴾

والمخاطب هو النبي محمد عليه الصلاة والسلام.. أما المتآمرون الإرهابيون العدوانيون فهم أعداؤه المشركون الذين لا يعرفون غير منطق التهديد والعنف والقتل.

هـ ـ ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾ هذا وصف لقوم هود الذين يستعملون القوة بهمجية تامة، وفجور لا حدود له.

ولما كان هذا هو سلوك خصوم الأنبياء ودعواتهم في فلسفة القوة واستعمالها، فإن المسلمين مأمورون بمخالفة هؤلاء في فلسفة القوة واستعمالها ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ**﴾.

والمخالفة تقتضي: الرحمة، لا القسوة.. والرفق، لا العنف.. والعدل، لا الظلم.. والتواضع، لا الاستكبار.

وهذه القيم والأسس والمفاهيم هي التي انبنى عليها منهج الجهاد أو (منهج الدفاع المشروع) في الإسلام.

وخلاصة هذا المنهج:

أولاً: أن الحرب: موقف (اضطراري) مكروه: ليست هواية، ولا أمنية:

١ـ يقول القرآن: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ**﴾.

٢ـ ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تتمنوا لقاء العدو، ولكن إذا لقيتم فاثبتوا واسألوا الله العافية**».

ثانياً: إذا اضطر المسلمون لرد العدوان، فإن هذا الرد الاضطراري مشروط بـ «عدم الاعتداء»، لأن الاعتداء ينطوي على ظلم أو فجور

ليس من محبوبات الله، بل من مكروهاته ـ سبحانه ـ..

نقرأ في القرآن: «**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**».

ثالثاً: إذا اضطر المسلمون إلى رد العدوان، والدفاع المشروع عن أنفسهم يجب أن ينضبط الدفاع بـ «فلسفة» القوة في الإسلام، وهي فلسفة قوامها العدل والأخلاق، وفي مقدمتها: «خلق الرحمة»:

١ـ مر النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة مقتولة في بعض الغزوات فوقف عليها وقال: «ما كانت هذه لتقتل» ثم نظر في وجوه أصحابه وقال لأحدهم: «الحق بخالد بن الوليد، فلا يقتلن ذرية، ولا عسيفاً (أجيراً) ولا امرأة» وقال: «لا تغدروا، ولا تمثلوا».

٢ـ ووصى أبو بكر جيشه بهذه الوصية: «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تذبحوا بقرة، ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع (يقصد الرهبان) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

وكذلك فعل عمر بن الخطاب في وصاياه لجيوشه.

هذا هو منهج الدفاع المشروع في الإسلام وهو منهج نقيض للعنف والإرهاب:

أ ـ فمنهج الإسلام ينهى عن تمني لقاء العدو، في حين أن الإرهاب يتمنى ذلك ويهواه.

ب ـ ومنهج الإسلام (يقيد) الدفاع: بالعدل، والرحمة، والرفق، وبعدم محاربة غير المحاربين: من النساء والأطفال والشيوخ والرهبان، وبعدم إفساد البيئة بالتخريب والتحريق وقطع الشجر، في حين أن الإرهاب يمارس ذلك كله.

وثمة ضميمة أخرى لـ «خلق القوة» في الإسلام وهي: «مصدر الإلزام الخلقي».

وهذا المصدر هو: (عقيدة التوحيد) التي لا يصح إسلام الإنسان إلا بها.

فالأخلاق في الإسلام ثمرة من ثمرات التوحيد.

فالعزة ـ مثلاً ـ: مفهوم أصيل من مفاهيم التوحيد، وهي عزة لا يمكن أن تتحول ـ في ظل عقيدة التوحيد ـ إلى كبر وطغيان وعدوان، لأنها عزة مصدرها الله. والله لا يحب الكبر ولا الطغيان ولا العدوان.

دليل (نفي الإكراه):

من أقوى دوافع العنف والإرهاب، ومن أوسع أبوابهما: النزوع الجامح إلى إكراه (الآخر) ـ بالقوة ـ على شيء لا يريده.

والمستقرئ للتاريخ البشري ـ الديني منه وغير الديني ـ يلتقي بحقيقة: أن الإكراه على هذا المبدأ أو ذاك كان وقوداً للإرهاب ومسوغاً له. وقد قص علينا القرآن قصة المؤمنين المسيحيين الذين طلب منهم حاكم وثني: أن يتركوا عقيدتهم لكي يدخلوا في الدين

الوثني، فلما رفضوا: استعمل معهم أقسى وأقصى صور العنف وهو التحريق بالنار وهم أحياء ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ #!٤!#) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ #!٥!#) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ #!٦!#) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ #!٧!#) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ #!٨!#) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ #!٩!#) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾.

الإكراه على المذهب ـ من ثم ـ من أقوى دوافع الإرهاب، ومن أوسع أبوابه.

وَوَأْدًا لهذا الدافع، وإيصاداً لأبوابه: حرم الإسلام: تحريماً صارماً قاطعاً مطلقاً: الإكراه في الدين.

ولقد تجلى هذا التحريم في القرآن المكي، والقرآن المدني.

١ـ في القرآن المكي:

أ ـ ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ #!٢١!#) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ**﴾.

ب ـ ﴿**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ**﴾.

جـ ـ ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾.

د ـ ﴿**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾.

هـ ـ ﴿**أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾.

٢ـ في القرآن المدني: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾.

وبنفي الإكراه وتحريمه: يُهدم واحد من أعتى أسس (الاستبداد الديني) الذي يقترن دوماً بالعنف والبطش والإرهاب.

والإسلام الذي يهدم هذا الأساس الاستبدادي ويقوضه تقويضاً: يستحيل أن يهادن العنف والإرهاب، لأنه عندئذ يتناقض مع منهجه ومقاصده، ومن خصائص الإسلام: الدالة على أنه من عند الله: أنه لا يتناقض: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾.

دليل المنع من العنف مع الطبيعة والحيوان:

أسّسَ الإسلام: سلوك المسلم على الرحمة والرفق في كل شيء: تحرراً من كل نوع من أنواع العنف وصوره.

يعيش المسلم فوق كوكب، أو على طبيعة، وفي داخل بيئة تسمى الأرض.

فكيف ينبغي أن يكون تعامله مع كوكبه أو بيئته وأرضه؟

ينبغي عليه أن يكون تعامله هيناً ليناً رشيقاً رقيقاً لطيفاً رفيقاً، لا خشونة فيه، ولا عنف:

١ـ في حركته وخطاه ومشيته على الأرض:

أ ـ ﴿**وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً**﴾.

ب ـ ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**﴾.

جـ ـ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾.

٢ـ وبالكف عن الفساد في الأرض، إذ الفساد في الأرض بالإتلاف والتخريب والهدم والتشويه والتلويث: صورة مغلظة من صور العنف والإرهاب: يجب أن تنقض وتقاوم:

أ ـ ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

ب ـ ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾.

جـ ـ ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾.

دليل الرفق مع الحيوان والطير:

إن منهج الإسلام مطرد في تأسيس كل موقف، وكل سلوك على اللطف والرفق.

ومن دلائل اطراد المنهج وشموله: هدايته وتشريعه للتعامل الكريم اللطيف الرحيم الرفيق مع الحيوان والطير:

أولاً: حسبان الحيوانات والطيور: أمة من الأمم لها اعتبارها واحترامها وشخصيتها: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

ثانياً: وجوب التعامل الرفيق مع الحيوان في ظل هذا الاعتبار (الأممي) للحيوان:

١ـ مر النبي صلى الله عليه وسلم على ناس وهم يرمون كبشاً

بالنبل، فكره ذلك وقال: «لا تمثّلوا بالبهائم».

٢ـ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن «التحريش بين البهائم» أي إغراء بعضها ببعض، لكي ينتطح الكبشان، ويقتتل الجملان مثلاً.

٣ـ قَدَّم النبي صلى الله عليه وسلم هاتين الصورتين المتضادتين: إحداهما تصوّر مصير الذين يعنفون مع الحيوانات، والأخرى تصور مصير الذين يرفقون بها:

أ ـ فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن امرأة دخلت النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، فهذه المرأة دخلت النار لأنها مارست (العنف) مع هرة، وهو عنف تمثل في الحبس والحرمان من الطعام والشراب.

ب ـ وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن بغيّا رأت كلباً يلهث من العطش في يوم حار، فسارعت إلى ملء خفها بالماء فسقت الكلب العطشان، فغفر الله لها: غفر الله لها بسبب اللطف والرحمة بالكلب.

ثالثاً: وجوب الرفق في التعامل مع الطير:

أ ـ مر عبدالله بن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً أو دجاجة يترامونها بالنبل، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إن رسول الله لعن من اتخذ الروح غرضاً.

ب ـ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قتل عصفوراً عبثاً عجّ (رفع صوته) إلى الله عز وجل يوم القيامة يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة».

دليل الرفق في الشعور واللفظ والصوت:

لم يدع الإسلام سلوكاً للمسلم إلا أقامه على اللطف والرحمة واللين والرفق.. ومن ذلك:

١ـ الرفق واللطف واللين في الشعور: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾.

٢ـ الرفق واللين واللطف في (اللفظ) والكلمة، فينبغي أن تكون الكلمة جميلة، طيبة، لينة: لا خشنة ولا عنيفة:

أ ـ ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾.

ب ـ ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.

جـ ـ ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.

٣ـ الرفق واللطف في (الصوت) الذي ينبغي أن يكون هادئاً لطيفاً، راقي النبرة معتدل الجرس: ليس صاخباً مزعجاً عنيفاً:

أـ ﴿**وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾.

ب ـ ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾.

ومن التكامل المنهجي: طرح السؤال التالي عند هذه النقطة من السياق وهو: إذا كان هذا هو منهج الإسلام في نقض العنف

وإبطاله ـ بإطلاق ـ فلماذا يمارس مسلمون العنف والإرهاب؟

والجواب هو: أن سلوك المسلمين ـ كلهم أو بعضهم ـ ليس حجة على الإسلام.

لماذا؟

لأن الإسلام هو: قال الله. قال رسوله . هو الكتاب والسنة.. ولو جُعل سلوك المسلمين حجة على الإسلام لحمّل الإسلام ـ تبعاً لذلك ـ مسؤولية التخلف العلمي والصحي في العالم الإسلامي وهذا ليس عدلاً ولا منهجاً علمياً دقيقاً وأميناً.

لأن من مقاصد الإسلام: تحرير المسلمين من التخلف العلمي والصحي (ومن كل تخلف آخر): معنوي أو مادي.

وبالنسبة للتخلف العلمي والصحي، يمكن توضيح الفكرة بالمثلين التاليين:

١ـ أن القرآن حرض الناس ـ بصفتهم ـ تحريضاً متتابعاً مستفيضاً على التفكير في الكون، وفهم سننه، وقوانينه وطاقاته وذراته، من أجل تسخير ذلك كله، والانتفاع به: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.

والمسلمون ناس من الناس ـ الذين خوطبوا بهذه الآية ونظائرها ـ بيد أن المسلمين قصروا فيما ندبهم القرآن إليه فتخلفوا في حين تقدم غيرهم.

فهل المسؤول عن هذا التخلف هو الإسلام الذي حرض على

التفكير في الكون، وإتقان التعامل معه؟.. أم المسؤول عن التخلف هم المسلمون الذين جمّدوا تفكيرهم، وأغمضوا أعينهم دون الكون؟

٢ ـ المثل الثاني هو (النظافة). فالإسلام دين يقوم على الطهارة والنظافة في كل شيء: نظافة الفم، والجسم، والملبس، والمكان: البيت، والمسجد، والشارع، والحي، والمدينة.

ونصوص الكتاب والسنة في هذا المجال لا تكاد تحصى. منها ـ مثلاً ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم منع مَنْ أكل ثوماً أو بصلاً أن يدخل المسجد، وذلك حماية للمصلين، ووقاية لهم من الروائح المنفرة، والتلوث الضار الكريه.

لكن واقع المسلمين في القرى والمدائن ـ بوجه عام ـ لا يصلح عنواناً ولا نموذجاً لتعاليم الإسلام في النظافة.

وبدهي: أن الإسلام لا يُسأل عن واقع المسلمين (غير النظيف) وإنما المسؤول ـ بالتأكيد ـ هم المسلمون الذين (عصوا) تعاليم دينهم في النظافة وخالفوها. فاتسخوا.

وهذا المنهج ينبغي أن يطرد ويعم ـ بمعنى: أن ليس عدلاً ولا عقلاً: اتهام الإسلام بالإرهاب. فالأدلة الستة السابقة والمثلان الأخيران كل ذلك يكفي في إقناع ـ كل ذي عقل راجح، وفكر حر نزيه، وضمير منصف ـ بأن الإسلام والإرهاب: نقيضان لا يجتمعان.

نعم. في المسلمين من يمارس العنف والإرهاب، ولكن هؤلاء

(عصاة) للمنهج، لا مطيعون له.

هذه حقيقة موضوعية، ومنهجية يؤدي جهلها أو تجاهلها إلى إفساح المجال لاتهام الديانات التي نزلت على موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ بالعنف والإرهاب، بحجة أن مسيحيين ويهوداً ـ في التاريخ والواقع ـ قد مارسوا العنف والإرهاب ـ في هذه الصورة أو تلك: لتحقيق هذا الهدف أو ذاك.

وهذه الحجة متهافتة بدليل:

١ ـ أن التوراة: رحمة لا عنف: ﴿**ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً**﴾.

٢ ـ أن المسيح ـ عليه السلام ـ وإنجيله: سلام وبر لا عنف ولا تجبر: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا #٣١#) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا #٣٢#) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾.

وإذا كان العنف الذي يمارسه مسيحيون ويهود مناقضاً لما أُنزل على موسى وعيسى من رحمة وبر وسلام، فكذلك العنف الذي يمارسه المسلمون: مناقض لما أُنزل على محمد عليه الصلاة والسلام. فقد أنزل عليه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾.

السلام في علاقات المسلمين بغيرهم

د. أميمة بنت أحمد الجلاهمة *

صورة قاتمة الزوايا مظلمة الأبعاد تلك صورة الإسلام والمسلمين هذه الأيام، صور لم تتغير كثيراً عن الموروث الثقافي بالنسبة لذلك الآخر، موروث لم نبذل الجهد الكافي لتصحيحه، بل لم نكن نأبه كثيراً بتلك الترسبات وهي تنحدر في عمق وجدان مجتمعات مغايرة ، ولنجد أنفسنا اليوم نحصد ثمار التجاهل واللامبالاة اللذين داما قروناً، وإن كان حوار الإنسان مع غيره لا يعد غاية حضارية بقدر ما هو ضرورة حتمية يفرضها واقع الإنسان وتغيراته الأيدلوجية والعقدية الممتدة على مر العصور.. فحوار المسلمين مع غيرهم واجب إسلامي لا يمكن الخروج عنه لغيره، دون ضوابط شرعية حتمية وملزمة.

لقد ظهرت في السنوات الأخيرة على السطح فئة من المسلمين جهلت حقيقة المعتقد، فحادت عن الطريق السوي لغيره، فئة جهلت

* أستاذ مساعد بجامعة الملك فيصل ـ السعودية.

أن السلام في علاقة المسلمين مع غيرهم ليس اختياراً، ليقبلوا عليه أو ليتركوه، بل هو مبدأ شرعي يلتزم به المسلم أين كان موطنه، فئة جهلت أن للسلام كما للحرب تنظيماً خاصاً في التشريع الإسلامي، تشريع يضمن حق الإنسان في التعايش بأمن وسلام، ويضمن في الوقت نفسه حقه في الحياة الكريمة، فالسلام هو الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم واعتماد الحرب هو الاستثناء، استثناء لا تتسع دائرته إلا وفق ظروف معينة تستوجب ذلك، مفهومنا للسلام مع غيرنا وضحه الإمام (ابن تيمية) رحمه الله، بقوله: «من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يجاهد بالقتال، كان داخلاً فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن، وليس داخلاً فيمن أمر الله بقتاله».

لقد بين ابن تيمية أن الجهاد الإسلامي لا يتحقق بقتال المستأمنين وأهل العهد والذمة، وأن الواجب على المسلمين تجاه هؤلاء فتح باب الحوار والمجادلة، والتي هي كفكرة وتطبيق لن تكون مجدية إسلامياً لو فرغت معانيها من الإحسان، هذا المفهوم السامي للحوار مع الآخرين، ثبته القرآن الكريم في قلوب المؤمنين، فبين أن دعوة المسلمين لغيرهم في أصلها لابد أن تتسم بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا بطبيعة الحال لا يتحقق على أرض الواقع دون فتح حوار، معتدل ومنصف قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.

إن لفظي (ادع) (وجادلهم) في الآية الكريمة فعلا أمر، وفعل الأمر ـ هنا ـ يقتضي الوجوب، وعليه فحال مجادلة المسلم مع الآخر في الأصل ولغير المتعنتين الظالمين، لا يمكن إلا أن تكون بالحسنى، خاصة للباحثين منهم عن الحقيقة، المسالمين الذين لا يبغون تطاولاً في الأرض ولا علواً..

وإن كان ذلك كله، لا يعني تهاون المسلمين في رد أي عدوان وجه للمقدسات والأوطان، ولثروات الأمة البشرية منها والمادية على السواء، فالرد في هذه الحالات يكون واجباً شرعياً، كما هو واجب وطني، وحال المسلم في هذا الرد كحال كل الأمم التي تقف صفاً واحداً في وجه أي اعتداء يطال مقدساتها وأرضها وعرضها.

ولكن المسلم في كل أحواله ومهما استفظعت الأسباب الموجبة للحرب وللمقاومة المسلحة، لا يمكن أن يكون ذلك توجهاً نابعاً من اجتهاد شخصي ينبري للقيام به من تلقاء نفسه، فللحرب في الإسلام نظم وأصول ملزمة، لا يجوز للمسلم الخروج من خلالها عن طاعة ولي الأمر، وإجماع الأمة، فالحرب في الإسلام قرار دولة، لا قرار فرد مهما علا شأن هذا الفرد في أمته.

ومما لا شك فيه أن المتأمل بحيادية مطلقة في مضامين التشريعات الإسلامية المتعلقة بعلاقات المسلمين بغيرهم في زمني الحرب والسلم، لابد أن تغمره حالة من الذهول والإعجاب، إذ سيجد في نصوص هذه التشريعات من العدالة والرحمة بغير

المسلمين ما لا يمكن أن يجده في تعامل الآخرين مع مخالفيهم. لقد نظمت الشريعة الإسلامية العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم بصورة سامية لا مثيل لها في التاريخ الإنساني على اختلافه، لقد ضمنت حقه الإنساني في حياة كريمة، فحفظت عقيدة أهل الكتاب ومقدساتهم، وأباحت التعامل معهم في مختلف المجالات الإنسانية، شرط ألا يتعارض هذا التعامل مع التعاليم السمحة للدين الإسلامي، قال المولى سبحانه: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

ولم يكتف الإسلام بذلك بل تعداه لتحذير المسلمين من ظلم المعاهد سواء في ماله أو جهده أو كرامته، فقد قال عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة ومن خاصمته خصمته»، هكذا حفظت كرامة الذميين وحريتهم في ممارسة عبادتهم وعقائدهم، في مجتمع أعلن إيمانه بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

إن موقف المسلمين السمح من أهل الذمة أثار إعجاب وتقدير عدد كبير من علماء الغرب، علماء كانوا من الحيادية بمكانة لا يملكون معها إلا الاعتراف بسمو هذا الدين وتميزه، فها هو

(توماس أرنولد) المستشرق البريطاني، وأستاذ التاريخ المعاصر في جامعة (أوكسفورد) يقول في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): «لقد سكنوا ـ أهل الذمة ـ إلى الحكم الإسلامي وادعين مستبشرين، كما استمر الحكام المسلمون على عادتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى» كما قال: «إذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت ـ بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام ـ بعيدة عن التصديق».

لقد ضمن الإسلام للمواطنين من أهل الذمة التمتع بكل ما يتمتع به المسلمون من حقوق، فلهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما عليهم من الالتزامات، ما عدا ما يتعلق فقط بشؤون الدين والعقيدة، إن هذا الدين ضمن الكثير من الحقوق لأهل الذمة، فعلى سبيل المثال لا يمكن للنظام القضائي الإسلامي دعوة أهل الذمة ومن يقوم مقامهم من معاهد أو مستأمن للقضاء في أيام أعيادهم، كما لا تطبق الحدود الشرعية عليهم فيما لا يحرمونه، بل إن معظم الفقهاء يبيحون لهم التعامل بأمور يحرم على المسلم التعامل بها، كتعاطيهم الخمور والخنازير والتجارة فيهما، إذا لم تكن هذه الأمور غير محرمة في دينهم، كما للذمي الحق في تقلد كل وظائف السلطة التنفيذية، ويستثنى منها بطبيعة الحال ما له علاقة مباشرة

بالمعتقد. وعن التزام المسلمين بتطبيق هذه المساواة غير المسبوقة كتب (آدم متز) قائلاً: «من الأمور التي نعجب لها، كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية».

ولن نبالغ مطلقاً لو قلنا إن هذا الدين الذي نادى بالعدالة وأمر أهله بالالتزام بها سواء في علاقتهم بأنفسهم أو بغيرهم، تجاوز بدعوته هذه ما عليه الشرق والغرب في شتى العصور، إن ملكية الآخر لماله لا تزول حتى في حال مشاركته لجيش بلاده في حربها على المسلمين، بل إن الدين الإسلامي يلزم ولي الأمر بإرسال مال المحارب المتوفى لأهله حتى في هذه الحالة..!! إن هذا الدين لا يقبل بإهمال المجتمع الإسلامي للفقراء العاجزين عن الكسب والعمل من أهل الذمة فلهم الحق الكامل في بيت مال المسلمين، وهم في ذلك كالمسلمين.

إن قوة الإسلام تكمن في امتلاكه مقومات تجعله متصلاً بكل جوانب حياة أفراده، لذا فهو يعد وبشكل عام المحور الأساس في تكوين الخصائص الروحية والمادية للمسلمين، عبادة كانت أم خلقاً، نظاماً اجتماعياً أم سياسياً، هذا الدين أفسح لصاحبه المجال للتعايش مع الآخر وحافظ على حقهما معاً، دين من الحكمة تقويته لا محاربته، فظلم الآخر بسبب اختلاف معتقده أمر محرم..

إن الإسلام دين بإمكان الآخر الاستناد والاستدلال على

تعاليمه السمحة كحجة على أهله، ومن الحكمة الوقوف في وجه أية محاولة لتفريغ عقول المسلمين من مضامينه أو تشويه حقائقه الإنسانية النزعة والهدف، فقد خدم بتعاليمه السامية الإنسانية على اختلافها.

إنه معلوم بالضرورة أن المسلم حتى يكون كامل الإيمان لابد أن يجل جميع رسل الله عليهم السلام، وفيهم بطبيعة الحال رسل اليهود والنصارى، لكن لا شك في أن الكثيرين ممن هم على دين غير الإسلام لا يدركون أن هذا الإجلال أعظم شأناً من إجلال اليهود والنصارى أنفسهم لهم، قال تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ ، إن الإيمان بأنبياء الله جميعاً يعد ركناً من أركان الإسلام.

كما أن المسلم الذي يؤمن برب واحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، يؤمن في الوقت نفسه بأن الله بسعة حكمته قدر على عباده اختلاف أديانهم وتشريعاتهم، قال تعالى: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾، وهو بسعة علمه وقدرته المتكفل بحسابهم، فقد قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾. إن المسلم يؤمن بأن الله خلق

العباد لعبادته لا لاستعباد عباده، خلقهم لنفسه ولم يخلقهم لغيره، مفاهيم يسترضعها أطفالنا مع ألبان أمهاتهم، وبالتالي فطبيعة تعامله مع الآخر نابعة من هذا المنطلق.

لا شك أن الآخر يعجب من تناقض السلام الذي نؤمن به كضرورة في تعاملنا معه، وبين أفعال فئة من المسلمين أساءت فهم الإسلام باستنباطها تعاليمه الشرعية من غير علمائه، فئة شوهت تفاسير الإسلام جهلاً وغلواً، فئة لفظنا نحن أفعالها قبل غيرنا.

إن هذه الفئة الضالة لم تتوقف بالتأكيد عند نصوص شرعية ملزمة تنص صراحة على تحريم قتل المدنيين ولو في ساحة الحرب، كوصية رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام لجنوده في غزوة مؤتة والتي كان بالإمكان تلمس طابع الرحمة في مضافيها، فالمسلم لا يحل له قتل من لا يقاتل، ولو في ساحة الحرب، لا يحل له هدم المنشآت المدنية دون سبب، خصائص إنسانية خاصة ومتميزة اختص بها الإنسان المسلم في السلم والحرب، خصائص عايشها الإسلام في مختلف عصوره.

ولأن التاريخ الإنساني المنصف على امتداده سطر صفحات بيضاء في هذا الشأن، فبإمكاننا عقد مقارنة موضوعية بين السجل الأسود للحروب الصليبية في بيت المقدس، وبين المعاملة الإنسانية الرحيمة التي عامل بها صلاح الدين الأيوبي الفرنجة حين استردادها.. بين وحشية الأمراء والجنود الصليبيين حين استولوا

على بعض العواصم الإسلامية، كطرابلس وغيرها، وبين رحمة الأمراء والجنود المسلمين حين استردوها من أيديهم.

في الحقيقة قد يفهم المسلم جهل الآخرين بحقيقة هذا الدين وعدالة تعاليمه لسبب أو لآخر، ولكن كيف له أن يفهم صمتهم عن جرائم الكيان الصهيوني في حق شعب أعزل لا يكاد يملك قوت يومه، شعب لا يملك أمام ترسانة وحشية عمياء لا يعنيها المستهدف طفلاً كان أم رضيعاً، شيخاً فانياً كان أم امرأة لا حول لها ولا قوة، شعب لا يملك أمام هذا البطش والظلم إلا الإيمان بعدالة قضيته، كما لا يمكن له أن يفهم صمت العالم عمّا يحدث على أرض العراق الحزين، من نهب وسلب وهدم، طال الإنسان العراقي قبل أن يطال مقدساته ومنشآته الحضارية بشتى أنواعها، نحن شعب لا يمكن لنا التعامل بهذه المقاييس غير الإنسانية مع الآخرين فقد أمرنا أن نكون رحماء في القوة والضعف، في الحرب والسلم..

لقد تكررت هذه الوصايا الإنسانية على لسانه عليه الصلاة والسلام للمجاهدين وهم ينوون التوجه للجهاد، فالنهي المطلق عن قتل من لا حول ولا قوة لهم، والنهي المطلق عن هدم المنشآت المدنية كالمباني، والنهي المطلق عن إفساد كل ما يعود بالفائدة على الحياة الإنسانية من نبات وغيره، من أساسيات وصايا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام للمجاهدين قبيل توجههم للجهاد، خشية أن تطال أيديهم بالأذى من حرم الله دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

ولنتأمل معاً قوله عليه الصلاة والسلام، للمجاهدين في سبيل الله: «انطلقوا باسم الله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة، ولا تغلوا، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»، وقوله لجنوده: «اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله، لا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع».

لقد حرم الإسلام على أتباعه التعرض بالأذى لمن نذر نفسه للعبادة من أهل الكتاب، ولو في زمن الحرب، حرم عليهم التعرض للطفل وللمرأة وللشيخ ولو في ساحة الحرب، إن حرب المسلمين كما قال الدكتور أحمد محمد جمال: «حرب أشبه بالسلم، وأقرب للسلامة، وأضمن لإقرار الرخاء والإخاء في الأرض.. إن حرباً كهذه ليست حرب مطامع وفظائع، وافتراء واعتداء، وسلباً لحرية الأحياء، وانتهاكاً لكرامة الحياة»..

إن الدين الإسلامي يرفض الاعتداء سواء كان مصدره مسلماً أو غير مسلم، يرفض ظلم الأفراد والجماعات كما يرفض ظلم الدول، مهما كست هذه الدول اعتداءاتها بمسوغات عقلية، هو دين يرفض الأذى سواء كان موجهاً للبشر أو إلى ما دونهم من المخلوقات، يحرم الاعتداء على الحيوان كما يحرمه على البيئة، وعلى الممتلكات الخاصة كما العامة، وكل تلك الخطوط الحمراء بالنسبة للمسلمين نابعة

من معتقد ديني راسخ، لا من قوانين تتبدل بتبدل الدساتير وأمزجة واضعيها.

هذه هي تعاليم ديننا التي لا يجوز لمسلم الخروج عنها ولو غاضباً حانقاً.. فالمسلم على قوته وثباته يحدد علاقاته بغيره من حلفاء أو أعداء، محاربين أو معاهدين، من منطلق شرعي، الشرع الذي حرم الظلم مطلقاً، سواء بين المسلمين أو بين غيرهم، هذا هو حال المؤمن الملتزم بتعاليم دين ارتضاه لنفسه برضا الله له.

إن فضل الإسلام على أهله وعلى غيرهم من الإجحاف إنكاره أو تشويهه، فقد هذبت تعاليمه القرآنية والنبوية غرائز ومشاعر أتباعه ونظمت أحوالهم بما يحفظ لهم وللإنسانية كرامتها وحريتها وأمنها.

ونحن إذ نقر بأنه قد تكون للحرب ضرورة تستوجب وقوعها كوقوع اعتداء على أوطاننا ومقدراتنا البشرية والمادية، نقر في الوقت نفسه أن هذه الضرورة لا تعني إغفال أن مبدأ السلام حقيقة ثبتها الإسلام في قلوب أتباعه، فالتمادي في الحروب كغاية لذاتها مرفوض شرعاً، والتوجه لعقد السلام مع من لا نخشى غدرهم ونقضهم للعهود مطلوب وبنص قرآني، قال الله تعالى: **﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** وقال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾** كما قال سبحانه: **﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ**

يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أمر إلهي يقتضي تلبية المسلمين نداء السلام حتى لو كان آتياً من عدو، شرط أن يأمنوا غدره بكل المواثيق الممكنة.

نحن المسلمين لا يجوز لنا البتة التعامل مع الآخر من زاوية التعامل بالمثل، فلا يجوز أن نعامل أسرى أو سكان الأراضي المفتوحة إلا من منطلق إنساني، ولو أساء الطرف الآخر لأسرانا، فالانتقام لمجرد الانتقام مفهوم مرفوض إسلامياً، قال عليه الصلاة والسلام في حق الأسير: «استوصوا بالأسرى خيراً» فرغبة الانتقام التي تجتاح قلوب المظلومين، تهذب في ديننا الإسلامي، وبشكل يحفظ معها كرامة أهله، وكرامة غيرهم، حقوق لم تنص القوانين والأعراف الدولية إلا على بعض منها، قال تعالى: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾**.

كما أن الأسير من أهل ذمتنا له كامل الحق في نصرة المسلمين كالأسير المسلم سواء بسواء، وها هو (ابن تيمية) رحمه الله يقف بعنف في وجه التتار الذين أرادوا إطلاق سراح أسرى المسلمين دون غيرهم من أهل الذمة قائلاً: «إننا لا نرضى إلا بفك جميع الأسرى من المسلمين وغيرهم، فهم أهل ذمتنا، ولن ندع أسيراً لا من المسلمين، ولا من أهل الذمة»، إن حق أهل الذمة في حماية الدولة الإسلامية يعادل حق المسلم، وواجب نصرة الدولة المسلمة للأسير المسلم يطابقه حق مماثل لمن اختار مواطنة الدولة

الإسلامية من يهود ونصارى.

إن التاريخ المنصف يؤكد أن الفتوحات الإسلامية التي تجاوزت بلاد العرب لتصل لمشارق الأرض ومغاربها، لم تكن طامعة في ثروات الأراضي المفتوحة ولا راغبة في استعباد أهلها، كما يفعل الغزاة عادة، إنما كانت من باب الدفاع عن الدين، وعن النفس، كان المسلمون لا يقاتلون إلا من توجه لقتالهم، ومن لا يؤمن عهده، ولا يتقى شره، فمحاربة غير المسلمين لم تكن بسبب اختلافهم.

إن هذا التاريخ يؤكد في الوقت نفسه أن إقبال أهالي الأراضي المفتوحة على اعتناق الإسلام لم يتحقق يوماً بقوة السلاح كما يدعي البعض، بل كانت أخلاقهم وتعاملاتهم المميزة مع الآخر، السبب المباشر وراء اعتناقهم هذا الدين ، فقد تبين لسكان الأراضي المفتوحة أن الدين الإسلامي وتشريعاته كان وراء حفظ حقوقهم، وكان من السهل عليهم مقارنة تصرفات الفاتحين من المسلمين المسالمين بغيرهم من الغزاة الذين لا يرقبون إلا ولا ذمة لسكان الأراضي المفتوحة، وقد أشار (توماس آرنولد) أستاذ التاريخ المعاصر لهذه العدالة وذاك الإنصاف للفاتحين المسلمين حقيقة بقوله: «إن من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى انتشار الإسلام ما رآه غير المسلمين من أخلاق المسلمين ومعاملتهم، حيث كانوا يتخذون من هدي الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى وقدوة صالحة».

إن النهي عن الاعتداء في ديننا الإسلامي قطعي الدلالة، لا يحتمل التأويل بأي حال من الأحوال، حتى ولو كان موجهاً لعدو.. وهو نهي مطلق سواء كان اعتداء مادياً أو معنوياً قصد به الاستخفاف بالآخر.

إن السلام المقصود في حديثنا عن علاقة المسلمين بغيرهم، لا يقصد به فقط سلامة الأبدان والأموال والأعراض، بل السلام بمعناه الواسع، سلام يشمل حتى سلامة المشاعر، فهذا الدين الحنيف يأمر أتباعه بمراعاة مشاعر أهل الذمة من اليهود والنصارى، وفي أدق التفاصيل، فقد بين فقهاء الحنفية جانباً من هذه المراعاة فقال أحدهم: «ويجب كف الأذى عنه ـ أي الذمي ـ وتحرم غيبته كالمسلم»، كما قال فقهاء المالكية: «إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم.. فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله».

إن ديننا الإسلامي يوجب علينا كمسلمين أبعد من ذلك بكثير، فالمسلم ملزم برد التحية لأهل الذمة، مراعاة لمشاعرهم، وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله: «إذا تحقق أن الذمي قال سلام عليكم.. فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية والقواعد الشرعية أن يقال له وعليك السلام، فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان» إن الأمر هنا ليس اختياراً، بل واجب على المسلمين الانصياع إليه،

طاعة لله وتنفيذاً لأمره، قال تعالى: ﴿**وإذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾ وهذا الوجوب يتسع ليشمل المعاهدين والمستأمنين من أهل الكتاب.. فدماء وأعراض وأموال أولئك مضمونة بدين الله وشرعه سبحانه، فقد نصت السنة النبوية صراحة على تحريم دماء المعاهد، بقوله عليه الصلاة والسلام: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً».

كما أن عقد المعاهدات السلمية مع من اقتضت المصلحة اعتمادها، رجوعاً إلى مبدأ السلم الذي يحكم علاقات المسلمين بغيرهم مباح شرعاً، ولكن هذه الإباحة لا تعني بأي حال من الأحوال مخالفة بنودها كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، أو القبول باحتمال تعرض الدولة الإسلامية للإخلال بأمنها، إن بنود أمثال هذه المعاهدات لابد أن تقوم على أساس من التراضي لا أثر للضغوط الدولية عليها، ولابد من صياغة أهدافها بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل، هذه الإباحة تشمل التحالفات الحربية، وإيقاف الحرب، شرط أن يحقق كل ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين.

أمثال هذه المعاهدات لو وقعت بين المسلمين وغيرهم تلزم جانب المسلمين على الأقل بتنفيذ بنودها، والإلزام هنا منبعه الدين الإسلامي وتعاليمه، لا القوانين الدولية وواضعوها، هذا الإلزام يبقى نافذاً على خاصة وعامة المسلمين على السواء، إلى أن ينقض الآخر بنود ما اتفق عليه.. عندها فقط يحل المسلمون من كل ما تم الاتفاق

عليه.. قال تعالى: ﴿**إلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ**﴾.

إن الحرب في الإسلام ضرورة تنتهي بانتهاء أسبابها، علاج لوباء استعصى الشفاء منه، إصلاح لأوضاع غير مستقرة، فإذا استتب الأمن وأمن شر العدو، وارتفعت راية الإسلام والمسلمين، رجع المجتمع الإسلامي بعلاقاتهم بغيرهم لاعتماد مبدأ السلام، الأصل الذي قرره الشارع الحكيم في علاقتهم بغيرهم، أصل لا يملك المسلمون ـ وإن رغبوا ـ الخروج لغيره دون ضوابط شرعية ملزمة.

إن هذه الحقائق لم تذكر هنا دفاعاً عن الإسلام، بقدر ما هي الرغبة في إظهار سمو هذا الدين لعقلاء محايدين اختلط عليهم الأمر، فلم يعودوا يفرقون بين حقيقة دين إنساني النزعة والهدف كالدين الإسلامي، وبين تصرفات بعض الجهلة من أتباعه.. وكل ما آمل ممن وقف عند هذه الكلمات أن يبادر بدراسة القرآن الكريم وسنة رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام، دراسة محايدة شاملة لا تقتصر فقط على موضوع بعينه، بل دراسة تشمل كل جوانب هذا الدين العظيم، أوجه له دعوة صادقة للدخول في حدود دين حرم الظلم وبشتى توجهاته، دين وجد ليحقق سعادة البشرية جمعاء.

الفصل الرابع: السعودية والإرهاب:

الوهابية وتصدير الإرهاب

أ.د.عبدالرحمن بن زيد الزنيدي *

(في الوقت الحاضر أن تقول أشياء معادية للعرب كشعب وثقافة، أو الإسلام كدين فذلك سهل إلى درجة تثير الضحك؛ لأنه في الحقيقة ثمة حرب ثقافية بين الناطقين بلسان الغرب وهؤلاء الناطقين بلسان العالم العربي والإسلامي. في وضع ملتهب على هذا النحو فإن الشيء الأصعب الذي تفعله كمثقف هو أن تكون انتقادياً، أن ترفض تبني أسلوب خطابي هو المساوي اللفظي للأرض المحروقة)

إدوارد سعيد.. الآلهة التي تفشل دائماً

الوهابية: إشكالية فهم المصطلح:

على الرغم من صدق رؤية الدكتور (إدوارد) واقعاً إلا أن هناك فئة خارج هذه الصورة تتمثل في أناس محتفظين بعقولهم، منفتحين على

* أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ السعودية.

الحقائق أياً كان مصدرها؛ لهؤلاء بالدرجة الأولى، ولغيرهم بعد ذلك يشعر المهتم بالفكر بمسؤوليته عن المشاركة الثقافية، ويجد انتعاشاً وهو يسهم في معالجة قضايا اختلط فيها الحابل بالنابل مع خطورتها ثقافياً وإنسانياً.

(الوهابية) إحدى القضايا التي تفاقم الاهتمام بها راهناً، وارتبطت بقضية القرن الحادي والعشرين الأولى «الإرهاب» وتناقضت فيها الرؤى والمواقف.

حقاً لم يكن الاهتمام بالوهابية جديداً مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتداعياتها، لقد شغلت هذه الظاهرة العالم منذ ظهورها في القرن الثامن عشر، وانقسم الناس إزاءها؛ سواء من المسلمين أو من المستشرقين إلى أقسام لكل منها موقفه المحدد منها.

المشكلة ليست في الانقسام إزاءها، ولا في المواقف منها، فهذه هي السنة الكونية إزاء مختلف الظواهر في الحياة البشرية؛ المشكلة ـ حقيقة ـ تكمن في الأسس التي تبنى عليها المواقف؛ لأن اختلال أساس النظر ينتج اختلالاً في الحكم عليها، ومن ثم في الموقف منها.

فهل من يجعل مصدره في موقفه من ظاهرة ما فكرها المسطور، ومَن يُمثِّلها من قادة، كمن يجعل مصدره أناساً من خارجها، رافضين لها، أو جاهلين بها؟

ثم إذا اختلف المنتسبون إليها في مواقفهم، فمن منهم يعد موقفه الممثل الصحيح لها؟

من غريب أمر الوهابية أنها حُمِّلت صفات متناقضة، ومن ذلك علاقتها بالعنف والإرهاب:

لقد كانت توصم الوهابية في عقود مضت، إبان المد الثوري الشيوعي بأنها عقيدة استكانة واستسلام من الشعب للحكام، ومن الحكام للقوى الاستعمارية، وأنها استمدت هذا الموقف من أعلام السلفية الأوائل وهو موقف (معاد للثورة بإطلاق وداع إلى الصبر على المنكر والظلم) [1].

ثم انقلب الأمر إلى الضد تماماً حيث أصبحت الوهابية الآن مرادفة للإرهاب، فتعاليمها الدينية تبث فكر الرفض للآخر وقطع الحبال معه، والدعوة إلى إبادته، ومخرجات هذه التعاليم تسعى لتطبيق هذا الفكر في أرض الواقع، وأحلام دولة الوهابية (السعودية) تتطاول كما يقول «دانيال بايبس»: «إلى استبدال القرآن بالدستور الأمريكي» [2] لتتحول أمريكا مسلمة بالقوة!.

تُرى أين الحقيقة؟ وهل الوهابية ذات صبغة إرهابية لا تنفك عنها: (أن تكون وهابياً يعني أنك إرهابي تلقائياً)؟ أو أن تطورات حدثت في السنوات الأخيرة جرى خلالها نقل الروح الثورية ذات البعد العنفي الإرهابي من الراديكالية الشيوعية المنحسرة إلى الوهابية على طريقة القص واللصق؟ أو أن هناك لبساً في الأمر ناتجاً عن الحالة التي وجدت الوهابية نفسها فيها بعد الحادي عشر من سبتمبر ـ نسبة عدد من المتهمين باختطاف الطائرات الأمريكية إليها، وربط القاعدة بها... إلخ ـ ما جعلها في موقع المتهم، وهيأ الفرصة لمن تتعزز مصالحهم بتحطيم هذه الوهابية، فهرعوا يقذفون الاتهامات ضدها على حد قول

المثل «إذا سقط الجمل كثرت سكاكينه»؟

أمامي الآن ملف ضخم مما قيل عن الوهابية في الفترة القريبة والحاضرة من حيث ارتباطها بالإرهاب، لمسلمين وغير مسلمين، لمثقفين وساسة وغيرهم.

بالإمكان تفريد ما جاء فيه في عدد من العناصر:

أولها: الكتابات التي تسعى لتبرئة الوهابية من سمة الإرهاب والعدوان، وهي غالباً من أتباع الوهابية أو المتعاطفين معها خاصة من الذين يشعرون أن الهجوم على الوهابية ـ في حقيقته ـ هجوم على الإسلام نفسه في تعاليمه ومنهجه، لكن هدف تحييد المسلمين غير الوهابيين، وتأكيد التباعد بينهم هو ما أدى إلى التذرع بالوهابية، وعلى كل فهذه التبرئة دفاعٌ ضد الاتهامات الحادة المتكاثرة على الوهابية.

العنصر الثاني: يتمثل في أحكام مطلقة لا تأسيس لها؛ أي أنها لا تبنى على مقدمات منتجة لها فهي أشبه بالشعارات:

(الإسلام الوهابي كان الدعامة الأساسية لموجات من التطرف المسلح أسفرت عن أعمال وحشية في الشرق الأوسط) دور جولد.

(لا يزال الوهابيون يشجعون الظلم المؤسسي للنساء، ويرفضون الحداثة والعلمانية والديمقراطية باعتبارها مناقضة للإسلام) جون كايل.

(الوهابية هي المسؤولة عن ظهور ابن لادن والقاعدة) أرنود دويور شجريف

(.. في مجلس الوزراء السعودي عضوان من آل الشيخ، وهما وهابيان متشددان؛ لأن رأسيهما مغطاة لكن بدون عقال) سايمون هاندرسون[٣].

وهناك الكثير من هذه المطلقات التي هي أشبه بالدعايات التجارية التي تُملي عليك رغبتها بصورة أو عبارة إغرائية لتنساق معها دون تفكير في صدقها وجديتها.

العنصر الثالث في الملف: يتمثل في توصيف صورة الإرهاب التي تمارسها الوهابية ضد الأشياء والأحياء، حيث تورد بعض الأنشطة والمواقف بصفتها دلائل على تبني الإرهاب ودعم الوهابية له؛ مثلاً:

طباعة كتب إسلامية، توظيف دعاة للإسلام في الغرب، بناء مساجد ومدارس إسلامية، طبع وتوزيع نسخ القرآن، تدشين مواقع إنترنت إسلامية، إنشاء كراس في بعض الجامعات الأمريكية والغربية بدعم سعودي، إنشاء الجمعيات والهيئات الخيرية ذات الصبغة الإسلامية مثل رابطة العالم الإسلامي والندوة العالمية للشباب الإسلامي وتساق صور أخرى من داخل السعودية دليلاً على التشدد والإرهاب الذي تمارسه الوهابية علماء ودولة ضد الشعب مثل: منع المرأة من قيادة السيارة، وجود قسم للعوائل في المطاعم، منع النظر إلى النساء في الأسواق، اشتراط المحرم للمرأة عند السفر، عدم وجود دولة إسرائيل في مادة الجغرافيا في المدارس، تحريم تهذيب الحواجب، إلزام الناس بالصلاة خمس مرات في اليوم.

وأخيراً القاعدة: أسامة بن لادن والمتهمون باختطاف الطائرات الأمريكية من السعوديين، والمفجرون في السعودية كلهم منتسبون للوهابية.

لا ريب أن هذا التوصيف لتلك الأعمال على أنها إرهاب يثير الاستغراب الشديد؛ فإن ما ذكر من أنشطة يقوم بها الوهابيون وتدل على الإرهاب تجعلنا نتساءل عن الإرهاب. لا أقصد تعريفه الجامع المانع فهذا ما تحاشاه الكثير من القوى التي يخدمها بقاؤه عائماً ومن ثم قابلاً للتوظيف وفق المصالح المتوخاة، وإنما التساؤل عن مفهوم الإرهاب؛ أي عن صوره التي يدينها العالم اليوم والتي عاشها الناس واقعاً، ولعل خلاصة ما يجمع تلك الصور هو أن الإرهاب (اعتداء بغير حق على الآخرين وممتلكاتهم ترويعاً أو قتلاً أو إفساداً) فهل في تلك الأنشطة ـ توزيعاً للمصاحف أو بناء للمساجد أو نشراً لكتب تعرف بالإسلام أو عملاً إنمائياً... شيء من هذا؟ وإن كان الجواب البدهي هو بـ (لا)؛ فهل المسألة مرتبطة بتصور للدين لدى أولئك لا يرى فيه إلا سبباً للأحقاد والتحزبات والصراعات الدامية مع الآخرين، بحيث طبق هذا التصور على الإسلام، مع أن الغربيين الآن قد تعدلت لديهم تلك النظرة السوداوية للدين فلم يعد طبع الكتاب المقدس والتبشير به في العالم نشاطاً إرهابياً كما عد نشر المصحف نشاطاً إرهابياً؟.

أو أن هناك هدفاً كبيراً مترسخ القناعة وهو أن الانتشار

الإسلامي الذي تحمله الوهابية خطر على مصالح قوى أو فئات معينة دفع إلى التهويل بتعداد أنشطتها في العالم مع مصادرة التساؤل عن هذه الأنشطة أهي إرهاب أم لا؟ من خلال ربطها بالهدف المطلوب وهو:

ـ (ضرورة رد التهديد الوهابي بقوة وإجبار السعوديين على التوقف عن دعم المساجد والمدارس التي نعتبر وجودها هجوماً صارخاً على قيمنا الوطنية..) سوزان كاتز.

ـ (الخلاصة أن السعودية تشكل خطراً جلياً وراهناً على الولايات المتحدة والمجتمع الدولي..) ستيفن شوارتز [٤].

هناك من يحاول تجاوز هذا المأزق (ذكر أنشطة فكرية أو دينية بحتة على أنها إرهاب) بكذب أبلق يختلقه أو يقتنصه من غيره مثل:

❋ تأكيد (أن المؤسسات الإغاثية تدعم الإرهاب) على الرغم من أن التحقيقات أثبتت براءتها من ذلك.

❋ ومثل هذه الكذبة المكشوفة لستيفن شوارتز (يُحدد محتوى خطبة كل جمعة في السعودية ويتم إرسال فاكس بخطب الجمعة من الرياض إلى المساجد في الولايات المتحدة والعالم).

هناك افتراض أخير جعل أولئك الساسة والمثقفين الغربيين يفهمون كل الأنشطة الدعوية والأعمال العبادية ذات الصبغة الإسلامية بأنها أعمال إرهابية، وهو أن الصورة الوهابية لمخرجات هذه الأنشطة ـ وهم عموم أهل الصحوة الإسلامية

في البلاد الإسلامية وفي العالم ـ هي من ينتسب إليها الإرهابيون أتباع القاعدة والقائمون بالتفجير والتدمير، مما يوحي بأن تلك الأنشطة هي سبب إرهابية أولئك الإرهابيين؛ مما يعيدنا إلى التساؤل: مَن يمثل الوهابية حقيقة ـ من المنتسبين إليها؟ وهو ما نرجئه الآن.

العنصر الرابع: يتعلق بتحديد الوهابية حيث تضيع المعالم وتصبح الوهابية كل عمل ثقافي أو عبادي أو دعوي ذي صبغة إسلامية بحيث يدرج أتباعه في سلك الوهابية.

لا شك أن كثيراً من المتناولين للوهابية يشيرون بداية إلى أن الوهابية مذهب نشأ في القرن الثامن عشر في الجزيرة العربية من قبل شخص اسمه محمد بن عبدالوهاب.. وهذه بداية جيدة تساعد على تحرير الوهابية: ماذا تعني وما يمكن ربطه بها من تداعيات الحاضر، لكن المشكلة حينما يُنتقل للحاضر فيصبح كل عمل لا ترضاه تلك القوة، أو ذاك الكاتب نتاجاً وهابياً ومن يمارسونه وهابيين رغماً عنهم.

تحت عنوان عن: (المؤسسات السعودية التي لها صلات بالتنظيمات الإرهابية) يتناول (سايمون هاندرسون) ما يعتبره مؤسسات سعودية ابتداء بسفارات المملكة في العالم ورابطة العالم الإسلامي والندوة العالمية وهيئة الإغاثة ومعها يدرج منظمة المؤتمر الإسلامي وبنك التنمية الإسلامي.

وستيفن شوارتز يرى أن ما يسميه المنظمات الإسلامية الرئيسة في أمريكا ممثلاًلها بـ (مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية)، والجمعية الإسلامية الأمريكية، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وجمعية (إسنا) ومنظمة (نيت) ـ يرى أنها ـ تمثل اللوبي الوهابي في أمريكا.

(جون كايل) يقرر أن الأزهر مسجداً وجامعة أصبح وهابياً والدليل صدور اثنتين من الفتاوى منه: الأولى وجوب حيازة المسلمين للأسلحة النووية لمحاربة الكفار. والثانية جواز المقاومة ضد القوات الأمريكية في العراق، ويرى أن الإخوان المسلمين، والجماعة الإسلامية في باكستان والديوبنديين على الرغم من أنهم لم يكونوا وهابيي الأصل إلا أنهم توهبوا جميعاً الآن.

(لي كابلان) يرى أن الوهابية تجاوزت المسلمين حتى توهب كثير من رجال الفكر الغربيين من خلال الكراسي الجامعية التي تدعمها السعودية حيث يمثل العاملون فيها كما يقول «جنود مشاة» للسعودية في الجامعات الغربية والأمريكية.

في مثل هذه التصورات تضيع البوصلة في تحديد الوهابية ـ كما الشأن في الإرهاب الذي أبقي عائماً ليلصق بكل من ينبغي إلصاقه به ـ لأن الوهابية لم تعد هي ما يعرفها الناس عبر القرون الثلاثة الماضية من المسلمين، ومن غير المسلمين، من الموافقين لها أو حتى الرافضين، وهي أنها تيار فكري حركي ظهر في الجزيرة

العربية له تصوراته الإسلامية ـ التي يقول أتباعه: إنها التصورات الإسلامية الأصيلة ـ وله نظراته للواقع ومنهج التعامل معه.

الوهابية أصبحت حسب هذه الرؤى كل نشاط أو موقف يمارسه مسلمون ويتصف بالعقلانية لكنه لا يتسق مع مصالح أصحاب تلك الرؤى. وإلا ما معنى اتهام أساتذة غربيين ممن يُدرّسون في أقسام الكراسي الجامعية التي تمولها السعودية لمجرد أن أحدهم انتقد اللوبي اليهودي في أمريكا، وأن طالباً في أحدها انتقد إسرائيل في موقفها من الفلسطينيين، وأن ثالثاً قال: إن في كتب اليهود (إن غير اليهودي ليست له قيمة حقيقية)... إلخ [٥].

إن أي شخص يحترم إنسانية إخوانه البشر، ويقدس الحقيقة يسوؤه أن يُغتال الصدق وتُزيف الحقائق وأن تختطف عقول الناس التي ترى في المثقفين مصدرها للتنور والرشد والترقي الحضاري لا شحنها بالخرافة والوهم والتعمية الفكرية خدمة لأهداف سياسية أو مصلحية جائرة أو حتى عادلة.

إن معطى هذه التصورات ـ بمجموعها ـ يثير تساؤلات عدة من أهمها هذا التساؤل: هل الوهابية ـ في تاريخها وحاضرها ـ من الغموض والتميع في أفكارها ومواقف روادها إلى درجة أن يصبح كل شيء قابلاً لأن يعد جزءاً منها، هل هي هكذا لدى من يرسمون لها هذه الصورة؟ أو حتى لدى الناس الذين يخاطبهم أولئك؛ إذ لو كان لدى الناس صورة واضحة متماسكة عن الوهابية لما جرؤ

مثقف أن يقلب الحقائق على الناس دون خوف من أن يفقد مصداقيته الثقافية.

انطلاقاً من وحي هذا التساؤل فإن أهم ما يمكن أن تخدم به الحقيقة في هذه القضية (الوهابية وعلاقتها ببعض التداعيات العالمية الراهنة ـ الإرهاب بالذات ـ) هو إعطاء تصور عنها مبني على حقائق التاريخ والواقع الفكري والحركي لها، بما تسمح به مساحة هذه المقالة.

الوهابية: حقيقة الدعوة

المقصود بـ (الوهابية) في السجال الدائر حولها منذ ثلاثة قرون وحتى اليوم ذلك التيار الفكري الحركي الذي بعثه عالم الدين المسلم محمد بن عبدالوهاب المولود في وسط الجزيرة العربية في ١٧١٣م حيث سافر في شبابه إلى غرب الجزيرة (الحجاز)، وإلى شرقها (الأحساء)، وإلى العراق، وتلقى علوم الدين واللغة على مجموعة من العلماء، ثم تأمل في حال المسلمين عموماً والمجتمع الذي يحيط به خصوصاً، وكانت حالة بئيسة في ذلك الوقت في الجانب الديني والفكري والسياسي لدرجة استثارت رحمة متأمل غربي فيها هو المستشرق الأمريكي (لوثر وب استودارد) الذي قال مصوراً أوضاع المسلمين في القرن الثامن عشر: (كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم

مبلغ ومن التدني والانحطاط أعمق دركة فاربدّ جَوُّه وطبقت الظلمة على كل صقع من أصقاعه ورجأ من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي، واستغرقت الأمم الإسلامية في اتباع الأهواء والشهوات وماتت الفضيلة في الناس وساد الجهل وانطفأت نسمات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، فليس يرى في العالم الإسلامي في ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين.. إلى أن قال: وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء وألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية الضالين، وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالأباطيل والشبهات، ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن، فصار يشرب الخمر والأفيون والحشيش في كل مكان، وانتشرت الرذائل وهتك ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء، وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار) [٦].

في هذا الجو ظهر محمد بن عبدالوهاب فكان هذا الوضع حافزاً له إلى السعي للإصلاح، ولأنه عالم دين بالدرجة الأولى، ولأنه

يرى ـ كما هو شأن عامة المصلحين الحضاريين ـ أن الإصلاح الاجتماعي ينبغي أن يبدأ بإصلاح فكري ديني فقد ركز على هذا الجانب ـ جانب العقيدة بالتحديد ـ وكانت وسيلته هي التدريس وتأليف الكتب الصغيرة والمتوسطة، وبعث الرسائل للعلماء ولأهل المناطق الأخرى في الجزيرة وفي خارجها، وبعد أن اتفق هذا العالم مع أحد الأمراء في نجد وهو الأمير محمد بن سعود أمير بلدة الدرعية المجاورة لعاصمة السعودية الآن (الرياض) أصبحت الوهابية مشروعاً سياسياً لا مجرد تيار فكري أو حتى حركة اجتماعية، على أنه ينبغي أن نعي معنى كونها مشروعاً سياسياً، إذ لا يعني ذلك أن الوهابية أصبحت مجرد وسيلة لتحقيق المصالح السياسية كما قد يتصور من لا يدرك العلاقة بين السياسة والدين في الإسلام حيث التداخل بينهما وتقوي كل منهما بالآخر بل وجزئية إحداهما وهي السياسة من الدين ما دامت حركتها مستهدية بقيم الدين في حفظ الكرامة الإنسانية وتحقيق العدل وإعلاء الفضيلة ونحوها.

محور الوهابية في التغيير الاجتماعي هو العودة بالمسلمين إلى الصورة الأصلية للإسلام التي توجد نظرياً في تعاليم القرآن والسنة النبوية، ووجدت تطبيقاً في حياة الرسول وأصحابه معه ومن بعده، والتطهر من صورة الدجل والخرافات العقدية والطقوس العبادية المختلقة زيادة على دين الرسول محمد، لهذا لم

يشعر الوهابيون أنهم يمثلون منهجاً جديداً أو مذهباً متميزاً؛ إنهم يؤكدون أن منهجهم هو منهج الإسلام في صورته الأولى، ولأن هذه الدعوة ليست خاصة بهم؛ إذ إن أغلب الفرق الإسلامية تعلن أنها تمثل الدين الصحيح؛ فإن الوهابيين يطالبون الآخرين منذ مؤسس الوهابية محمد حتى اليوم أن يتحاكم الجميع فعلاً إلى النصوص الشرعية، وأن يستعد الكل للتخلي عما يخالفها.

وقد أدرك كثير من الباحثين من المسلمين والمستشرقين الذين درسوا الوهابية حقيقة هذا المحور لديها ومن ذلك قول (بوكهارت) (ما الوهابية إذا شئنا أن نصفها إلا الإسلام في طهارته الأولى) وقالت دائرة المعارف البريطانية: (الوهابية اسم لحركة التطهير في الإسلام والوهابيون يتبعون تعاليم الرسول وحده) [٧].

منطلقات الدعوة الوهابية:

لعل من أبرز أفكار الوهابية:

ـ تصحيح التوحيد أي إفراد الله الخالق بالعبادة دون عبادة أحد معه أو من دونه.

ـ نشر العلم والمعرفة، وبناء الثقافة على حركة الفكر الواعي، والوهابية وإن لم تنكر المعارف المدنية في أول ظهورها إلا أنها بحكم منحاها الشرعي من جهة والبيئة التي ظهرت بها من جهة أخرى ركزت على المعرفة الدينية البحتة، ولهذا حينما انفتح

المجتمع السعودي في القرن العشرين اتجهت حركة التعليم فيه نحو تلك المعارف مع أولية التعليم الديني.

ـ الحركية السياسية: بحكم كون النظام الاجتماعي جزءاً من البناء الإسلامي فإنه ما كان بوسع صاحب الدعوة محمد بن عبدالوهاب أن ينحصر في الجانب العقدي والعبادي فكان الجانب الاجتماعي مجالاً لاهتمامه، وبحكم التجربة التاريخية لعلماء الإسلام مع السياسة بما فيها من مغريات ومغويات، فإنهم سلكوا منهجاً وسطاً بين الاعتزال الكامل، والتقحم الكامل فيها، وهذا ما جعلهم ينأون بأنفسهم عن الحركة السياسية مباشرة، مع العمل على إصلاحها من قرب غير ملابسين لها، وللعالم المفضل لدى محمد بن عبدالوهاب وهو ابن تيمية كلمة مشهورة في هذا السياق لما اقترح عليه بعض المعجبين بتنظيره السياسي أن يمارس السياسة فقال: «أنا رجل ملة لا رجل دولة».

في هذا الإطار كان تحالف محمد بن عبدالوهاب مع أمير الدرعية محمد بن سعود لتتولى إمارته تبني الوهابية في المجال السياسي والاجتماعي بحيث تحقق الأمن وتقيم العدل وتتعامل بقيم الإسلام مع الآخرين.

طبعاً لم تجد الوهابية طريقها مهيئاً سالكاً، بل لقد عانت من أجل تثبيت وجودها في الجزيرة؛ عانت من ترسخ الفساد والفوضى الذي استهدفت اقتلاعه، وعانت من القوى المحيطة التي تتخوف

على مصالحها المرتبطة بالأوضاع المستقرة، ولقد بدأ الاستفزاز للدعوة قبل أن يلتقي ابن عبدالوهاب مع حاكم الدرعية حينما كان عند حاكم العيينة عندما هدد حاكمُ الأحساء حاكمَ العيينة إن لم يطرد ابن عبدالوهاب أو يقض عليه، مما جعل ابن معمر «حاكم العيينة» يطرده فعلاً ليتجه إلى الدرعية، ثم تواصلت الاستفزازات فكرياً وسياسياً من قبل فئات مختلفة، وجرت بين الوهابية ودولتها وبين الآخرين مراسلات واتهامات ومناوشات وصراعات عسكرية انتهت بالقضاء على دولتها وتخريب بلادها من قبل والي مصر في ذلك الوقت محمد علي سنة ١٨١٩م، وعادت الفوضى إلى الجزيرة العربية ثم قامت الدولة السعودية الثانية وسقطت.. ثم في مطلع القرن العشرين ظهر الحاكم السعودي الملك عبدالعزيز والد الملك فهد والأمير عبدالله القائمين بالحكم الآن، وتشكلت الدولة السعودية الراهنة باستكمال إعلان اسمها «المملكة العربية السعودية» معلنة وفاءها للوهابية الذي هو في قناعة أهلها ابتداء بالملك عبدالعزيز وفاء للإسلام.

إذاً الوهابية ـ في اعتقاد السعوديين ـ هي تمثل فكري وعملي للإسلام في هذا العصر من قبل المجتمع السعودي، ويرون أن من حق الآخرين مسلمين أو غير مسلمين أن يواجهوهم بكشف أي انحراف فكري أو سلوكي تختلف فيه الوهابية عن الإسلام، وتنسبه إليه زوراً.

على هذا الأساس: بنت الدولة السعودية شخصيتها الداخلية في التعليم والقضاء ونحوهما وتعاملت مع هذا العصر بالتحديث الملتزم بهذا الأساس وبنت علاقاتها الخارجية كذلك عليه حيث تمثلت هذه العلاقات:

ـ بالتعايش السلمي مع المسالمين.

ـ ورفض العدوان والظلم وإنكاره أياً كان مصدره.

ـ والانخراط في المعاهدات الدولية التي تستهدف كرامة الإنسان وتحقيق العدالة البشرية.

ـ ونشر الإسلام وخدمة المسلمين في المجال الديني بنشر القرآن وكتب الأحاديث النبوية بينهم، وبناء دور العبادة لهم ونحو ذلك.

هذه هي وهابية الدولة أما وهابية المجتمع (الشعب) فتتمثل في:

ـ تصحيح إيمانهم بالله وتطهيره مما يرونه شركاً أو ضلالاً.

ـ أداء العبادة الشرعية كما جاء بها الرسول محمد في القرآن والسنة.

ـ التعامل مع الحياة والناس وفق منهج الإسلام:

* مسالمة للمسالمين وحباً للخير لهم أياً كان دينهم أو جنسهم

* ومقاومة للمعتدين ورفضاً للظلم دون تجاوز إلى الجور والطغيان.

هذه هي الصورة التي يرى السعوديون أنهم تعاملوا بها مع الآخرين، وأن تاريخ مجتمعهم خلال القرن المنصرم «دولة وشعباً» يشهد بها، وهذه الصورة ليست ـ وفق تصورهم ـ موقف مجاملة عارضاً، ولا انفعالاً بصيحة تحضر، ولا تديناً جارفاً مر بهم، إنها

صورة تنبثق من قناعة إيمانية يتشربها المجتمع عبر مؤسساته التعليمية والثقافية من تعاليم الإسلام التي يضخها الإعلام والتعليم وأجهزة الثقافة، والتي يصفها الآخرون بأنها تعاليم وهابية.

شبهات حول الوهابية:

من السهل على الناقد أن يقول: جميلة هي الأفكار التي تقدمونها عن وهابيتكم لكن الذي أتعامل معه هو الواقع العملي: هو ما يمارسه أناس منكم من خطف وقتل وتفجير وتدمير نتفق جميعاً على أنه إرهاب، والقائمون به ينتسبون للوهابية أو تخرجوا من مدارسها، مما يعني كونها مصدراً للطاقة التي انطلقت بها حركة هؤلاء الإرهابيين.

هنا نعود للمعيار السليم الذي أشرنا إليه في مستهل المقالة عمن يمثل اتجاهاً مّا إذا تنازعه متناقضون؟

وهنا نشير إلى نقطتين:

ـ أولاهما: التاريخ الحاضر للمجتمع السعودي الذي تجاوز مئة سنة منذ بدأ توحيده الملك عبدالعزيز على موروث الدعوة الوهابية حيث قامت علاقات دولة هذا المجتمع بالدول الأخرى إقليمية وعالمية، وانفتح المجتمع على العالم المحيط به وعاشرت شرائحه صنوف الناس في داخل المجتمع السعودي وفي خارجه، وقد شهد تاريخه في هذه المدة التي تجاوزت القرن أن هذا المجتمع الذي يقوم

تعليمه وقضاؤه على الوهابية لم يحتل أراضي غيره، ولم يغتصب حقوقاً ليست له، ولم يدعم العصابات المرتزقة في بلد مستقر لإشاعة الفوضى فيه، ولم يتدخل في سيادة دولة أخرى، وتقارير الأمم المتحدة وشهادات العقلاء من مختلف الأمم تؤكد من خلال خبرتها على أن «السعودية» دولة احترام للعهود والمواثيق، وحفظ للسلام، وسعي للإصلاح، ومشاركة إيجابية في المنظمات التي تستهدف تحقيق العدالة، ورعاية الحقوق وخير البشرية.

أما الشعب السعودي فقد عاش الآلاف من الأوروبيين والأمريكيين وغيرهم في مختلف مناطق مجتمعه عشرات السنين فلم يجدوا منه عنفاً ولا إرهاباً ـ حتى من أكثرهم تديناً ـ وشهادات المستشرقين الذين زاروا الجزيرة العربية قديماً وحاضراً ومذكرات الذين عملوا سنين وسط هذا الشعب ترسم صور الإعجاب بهؤلاء وتعاملهم مع الآخر.

ومثله صورة السعودي خارج المملكة لم تشتهر خلال العقود الماضية بالعنف والإرهاب لا من طلابها المبتعثين، ولا من عموم أفرادها السائحين، فهل من العدل اختزال كل ذلك والتركيز على أعداد محصورة يمثلون نشازاً في اللحن المتناغم لهذا المجتمع المبتلى بهؤلاء؟.

النقطة الثانية: أنه بإزاء ذلك العدد المحدود من ممارسي الإرهاب، الجم الغفير من العلماء الشرعيين والمثقفين الإسلاميين

الذين أدانوا من المنطلق الوهابي المرتكز على منهج الإسلام أعمال العنف الظالم، والتخريب، وسائر صور الإرهاب التي قارفها أولئك بحق الأشخاص والممتلكات المعصومة، وهيئة كبار العلماء التي تمثل أعلى هيئة علمية شرعية على المستوى الرسمي أصدرت عدة بيانات تدين الإرهاب من منطلق إسلامي بشكل صريح، وجاء في إحدى هذه البيانات لمجلس هيئة كبار العلماء عمّا يمارسه من يقومون بالتفجير وقتل الآمنين بأنه (محرم في الإسلام وأنه غدر وخيانة وبغي وعدوان وإجرام آثم وترويع للمسلمين وغيرهم وكل هذه قبائح منكرة يأباها ويبغضها الله ورسوله والمؤمنون) ثم يبين المجلس (أن الإسلام بريء من هذا العمل وهكذا كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر بريء منه، وإنما هو تصرف من صاحب فكر منحرف وعقيدة ضالة فهو يحمل إثمه وجرمه فلا يحتسب عمله على الإسلام والمسلمين المهتدين بالكتاب والسنة، وإنما هو محض إفساد وإجرام تأباه الشريعة والفطرة وقد جاءت النصوص الشرعية قاطعة بتحريمه محذرة من مصاحبة أهله) (٨).

وكذلك المثقفون ـ وفيهم الإسلاميون ـ أصدروا بيانات عديدة في هذا المقام، فمن الممثل الحقيقي للوهابية؟ أهو المجتمع السعودي وعلماؤه، ومقتفوه مساراً تاريخياً ومواقف واضحة؟ أم أولئك الشباب الذين اعترف كثير منهم أنهم استمدوا أفكارهم الإرهابية من تنظيمات حركية أنتجتها حالات الاختناق التي يعيشها العالم

الإسلامي اليوم تحت وطأة الظلم والإهانات المتتابعة للمسلمين ـ في فلسطين وغيرها ـ من قبل بعض القوى الدولية وعلى رأسها أمريكا، وإغراق المجتمعات المسلمة بالتغريب وتخاذل كثير من قيادات المسلمين أمام هذا الضغط. هذه الحالة والشعور بضرورة مواجهتها وانسداد كثير من آفاق المواجهة المنطقية أفرز هذه الاجتهادات التي قامت عليها مواقف أولئك الإرهابيين المدمرة لأنفسهم ولمجتمعاتهم قبل أن تدمر الآخرين.

إن الناظر في العناصر السابقة فيما تقدمه عن الوهابية من توصيف متجاوز للحقائق وتلفيقات غير مسؤولة يشعر أنه أمام انفعالات سياسية لديها غايات تهدف إلى تحقيقها ولو عبر وسائل غير نزيهة.

إنني أتذكر وأنا أقرأ هذه الأغاليط على الوهابية والتشويه غير المبرر لصورتها ما واجهته الوهابية نفسها قبل أكثر من سبعين عاماً حينما كانت تصاغ التهاويل عن حركة الإخوان التي رعاها الملك عبد العزيز، والتي اعترف المندوب السامي البريطاني في العراق في ذلك الوقت (الميجور ديكسون) في أواخر حياته ـ بعد أن زال المنصب ومطالبه ـ بأن إشاعات الوحشية والإرهاب عنهم كانت من تدبير الأجهزة البريطانية فقال: (رغم أن الكثير قد كتب عن قسوة الإخوان وإرهابهم. إلا أنني يجب أن أقول اليوم: إن هذه الصورة قد بولغ فيها عن قصد وتصميم لخدمة أهداف سياسية

في ذلك الوقت، فقد خامرني شعور بالإعجاب بالإخوان، وربما كان ذلك للسحر الخاص في الرجال المؤمنين حقاً بالله المخلصين لإيمانهم، الذين يعتقدون أنهم مكلفون بتطهير الدين من الرجس. وأنا أعترف بأني عندما تعرفت على بعض الإخوان وجدت فارقاً قليلاً بينهم وبين البدو الطيبين العاديين، لقد كانوا محبين لنسائهم، عطوفين على أطفالهم وجمالهم وخيولهم كالآخرين) (٧).

ترى هل ستصحو ضمائر المندرجين في تيار قذف الوهابية بكل ما يتسنى للقلم أن يخطه من سلبيات؟ وهل سيأتي يوم يندمون فيه على المواقف غير الإنسانية من الحقيقة والناس؟

هناك استدراك أختم به حتى لا يساء الفهم فيما يتعلق بالوهابية، وخاصة ما يردده أتباعها من أنها لا تعني في حقيقتها سوى تطبيق الإسلام بصفائه من خلال مصدريه الأصليين «القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم» فإنه يحسن التأكيد على أن الوهابية حركة إصلاحية ظهرت في ظرف تاريخي معين وفي مكان محدد؛ فكان لذلك أثره فيها ـ كشأن كل حركات الإصلاح ـ. نعم لقد سعى رواد الوهابية خاصة خلال القرن العشرين مع انفتاح المجتمع السعودي على العالم إلى التكيف مع التغيرات الثقافية والاجتماعية المحيطة بهم، مؤكدين في كل تحولاتهم استعصامهم بمرتكز الوهابية الأساس (الكتاب والسنة) وهذا

ما يجعلهم يقدمون أنفسهم على أنهم دائماً ملتزمون بهذا الأساس ويدعون الآخرين ممن يختلف معهم من المسلمين إلى التحاكم إليه.

لكن هل يعني ذلك أن الفهوم والتطبيقات ذات المرجعية الإسلامية لأتباع الوهابية تمثل الحق المساوي لنصوص الوحي «القرآن والسنة»؟ الجواب لا، هي اجتهادات قد يمثل بعضها المدلول الوحيد للنص وقد يمثل غيره مدلولاً صحيحاً مع وجود مدلولات أخرى وقد يكون في بعضها نقص خاصة في القضايا الاجتماعية، التي تسعى الوهابية المعاصرة لأسلمتها، أو لبنائها على المرجعية الإسلامية، ولهذا فقد يوجد أكثر من تطبيق اجتهادي لدى الوهابية وغيرها. وقد تكون هذه التطبيقات مقبولة شرعاً دون تناقض في الجوانب السياسية والاقتصادية ونحوها تماماً مثلما أنهم ـ المسلمون ـ يتوزعون على المذاهب الفقهية باجتهاداتها التي تلتقي أحياناً وتختلف أحياناً وكل يعتبر الآخر مسلماً مع أنه على مذهب غير مذهبه. هنا في هذه النقطة قد يغالي بعض أتباع الوهابية فيحصرون الحق في كل الجوانب في دائرتهم نافين شرعية الاجتهادات الأخرى، ومثلها يحصل من أتباع المذاهب الأخرى، وهنا أيضاً قد يتجاوز بعض الأتباع فيأخذون بعض الفتاوى الاجتهادية ـ فيحولونها إلى حكم شرعي صالح لكل

زمان ومكان، وبعض الذين يستندون في قضايا الجهاد والتكفير ـ الآن ـ إلى فتاوى علماء الوهابية قبل قرن أو أكثر.. هم من هذا الصنف حيث ينقلون فتاوى فقهية اقتضتها ظرفية معينة، واستهدفت غايات عملية مرتبطة بالظرف والناس ـ ينقلونها لظرفيات أخرى وأناس آخرين. وهذه صور من الغلو المرفوض في الدين حتى وإن وقع من منتسبين للوهابية؛ لأن أساس الوهابية الذي يحصر النص المعصوم في «الوحي» ويقول بتغير الفتاوى بتغير الزمان والمكان، ويرد الاختلافات إلى الكتاب والسنة يرفض هذا الغلو في أسسه البنائية قبل معطياته.

وعموماً فأتباع الوهابية بشر كسائر الناس قد يخطئ العالم منهم في اجتهاد، وقد يتجاوز المسؤول منهم حدود الحق، وقد يجري من الأفراد العاديين تصرفات غير سوية لا إسلامياً ولا إنسانياً، ولكنها تبقى في إطاراتها الفردية سواء نتجت عن اجتهادات خاطئة، أو كانت انسياقاً مع ضغط الظروف المحيطة، ويظل المسار العام للوهابية فوق هذه الأخطاء والسقطات، والتفاعل المباشر مع الوهابية من قبل مختلف الأطراف من المسلمين أو من غير المسلمين جعلهم يدركون هذه الحقيقة ويتعاطفون معها، ويدركون الظلم الذي يصب عليها من خارجها.

والمسلمون العقلاء عموماً يدركون أن أنشطة «السعودية» التي توصم بالوهابية ـ نشراً للمصحف وبناءً للمساجد وتعريفاً بالدين الإسلامي وإسهاماً في إغاثة المحتاجين من المسلمين وغيرهم وتعاوناً مع الدعاة إلى الإسلام ـ أنها مشروعة إسلامياً ودولياً وأنه لا صلة لها بالإرهاب، بل هي عامل زرع لروح السلام والتفاعل الحضاري من قبل المسلمين مع الآخرين مما يشهد به نشاط المراكز الإسلامية التي تدعمها المملكة في مختلف أرجاء العالم.

هوامش

(١) موسوعة الحضارة الإسلامية حسن حنفي وآخرون ج ٢ ـ ٢/٩.
(٢) عن «مقال الطابور الخامس الوهابي» سوزان كاتز ـ فرونت بيج ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٢.
(٣) النقول كالتالي:
أ ـ دور كولد ـ ممثل إسرائيل في الأمم المتحدة ـ نيويورك بوست ٦ أبريل ٢٠٠٣.
ب ـ جون كايل ـ عضو جمهوري بمجلس الشيوخ ـ فرونت بيج ٣ يوليو ٢٠٠٣.
ج ـ أرنود ديور شجريف ـ رئيس مركز الدراسات الدولية الاستراتيجية ـ واشنطن تايمز ١٦ يوليو ٢٠٠٣م.
د ـ سايمون هاندرسون في شهادته أمام اللجنة القضائية المختصة بالإرهاب بمجلس الشيوخ ١٠ سبتمبر ٢٠٠٣م.
(٤) أ ـ سوزان كاتز ـ فرونت بيج ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٣.
ب ـ ستيفن شوارتز ـ منتدى الشرق الأوسط ٢٧ فبراير ٢٠٠٣.
(٥) لي كابلان ـ فرونت بيج ٥ أبريل ٢٠٠٤.
(٦) في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» ـ ترجمة حجاج نويهض وتنظر نقول أخرى تصور هذه الوضعية في «محمد بن عبدالوهاب» مسعود الندوي ص ٣٢.
(٧) ينظر كتاب «حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لعبدالله الرويشد ففيه من هذه النقول ما يفيد ص ١٢٠.
(٨) انظر إصدار « الإرهاب» الذي أصدرته وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية عام ٢٠٠٤ حيث جمع بيانات هيئة كبار العلماء بشأن الإرهاب ورصد مواقف علماء ومثقفين آخرين.

الحكومة السعودية وتنظيم القاعدة

خالد المعينا *

نحن –السعوديين – الذين أتيحت لنا فرصة مناقشة قضايا الإرهاب مع رجال ونساء من مختلف البلدان والثقافات عبروسائل الإعلام العالمية عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وجدنا أنفسنا نواجه ردود أفعال واسعة تتراوح بين الحيرة مروراً بحب الاستطلاع والشكوك وصولاً إلى العدائية الصريحة.

هناك الكثيرون الذين يودون صادقين معرفة الحقيقة: هل السعودية فعلاً منبع الإرهاب، حسب ما ظل يردده عبر القنوات التلفزيونية، كثير ممن يدعون أنهم خبراء ومختصون في هذا الشأن؟

قلنا مراراً لهؤلاء الذين يبحثون: إن تورط خمسة عشر سعودياً من بين التسعة عشر شخصاً الذين نفذوا الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن لا يعني بالضرورة أن السعودية مصنع

* رئيس تحرير جريدة عرب نيوز ـ السعودية.

لإنتاج الإرهابيين. فإذا ما أخذنا دولة بأكملها ـ حكومة وشعباً ـ بجريرة ارتكبها بعض مواطنيها، فهذا يعني أنه لن تبقى هناك دولة على وجه الأرض لا توجه لها أصابع الإدانة، فالرجل الذي حاول تفجير طائرة أثناء رحلة لها من باريس إلى الولايات المتحدة بواسطة حذائه المفخخ بريطاني الجنسية، كما أن بعض البريطانيين أيضاً ضمن سجناء خليج جوانتانامو، وقاتل مراسل صحيفة وول استريت جورنال دانيال بيرل Daniel Pearl بريطاني، والذين قاموا بتفجيرات في إسرائيل في وقت سابق هم رعايا بريطانيون. ومع هذا لم يقم أي عاقل بتوجيه أصابع الاتهام إلى بريطانيا بأنها وراء هذه الأعمال!

وفي أكثر من مرة طلبنا من أولئك الذين غررت بهم هذه الدعاوى ضد المملكة العربية السعودية أن يسألوا أنفسهم أسئلة رئيسة محددة: هل هناك سجلات لحكومة المملكة العربية السعودية تقول إنها استخدمت العنف كوسيلة سياسية في علاقاتها مع الدول الأخرى؟ هل سبق للمملكة أن شجعت أي مجموعات أو منظمات للقيام بمثل هذه الأعمال؟ أو، على الأقل، هل سمحت لأي مجموعة أن تنظم، بدعم منها أو داخل حدودها، أي معسكرات لتدريب الإرهابيين على كيفية استخدام الطائرات لضرب ناطحات السحاب أو زرع قنابل في نواد ليلية؟ إذا كانت الإجابة على هذه الأسئلة بنعم، فسيكون هناك حق في توجيه اللوم

للمملكة ووصمها بالإرهاب. لكن الإجابات التي جاءت من أولئك الذين لديهم الاستعداد لتقبل وفهم البراهين التي تساق، وليس أولئك الذين تسيطر عليهم أجندة ا لهمز واللمز، كانت "لا" مدوية وبملء الفم.

وقد أكدت هذا النفي لجنة أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي كونها الرئيس بوش والكونجرس للتحقيق في كل ما له صلة بهذه الهجمات. وتقرير اللجنة موجود على شبكة الإنترنت لكل من أراد الاطلاع عليه. وقد برأت اللجنة المملكة من أي تورط في أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكذلك من أي علاقة لها بأحداث إرهابية سابقة، مثل الهجوم على سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام ١٩٩٨م، والهجوم على المدمرة يو اس اس كول USS Cole في عدن في العام ٢٠٠٠م، ومع أن اللجنة وجدت أن المملكة لم تقدم أي مساعدة أو دعم للإرهابيين، إلا أن عناوين الصحف ظلت تتحدث عن علاقة السعودية بالإرهاب على أنها حقائق مطلقة. وقد عرف إريك هوفر Eric Hoffer هذا الاتجاه في تفسير وفهم الأمور بقوله: "أضف قطرات قليلة من الحقد لنصف حقيقة وستحصل على حقيقة كاملة"! لكن الأسوأ من الحقد الذي فاضت به أفواه وأقلام المعلقين كان هو الجهل الكثير والخوف الذي سكن عقول هؤلاء، الأمر الذي يجعل –وفي أحيان كثيرة –من الصعوبة للصحافيين الوقوف ضد ما بات حقيقة مسلماً بها.

فعندما قام مختطفو الطائرات الثلاث، ولأول مرة في التاريخ، بنقل الحرب إلى داخل الأراضي الأمريكية، وضرب مراكز حيوية في الولايات المتحدة لم يستوعب الشعب الأمريكي ذلك الحدث. كيف حدث ذلك ولماذا؟ كل ما عرفوه أن معظم الإرهابيين من السعوديين، وأن أسامة بن لادن ولد في السعودية. لقد كان صعباً عليهم عدم الربط بين هذا وذاك، إذ كلما جاء ذكر ابن لادن في وسائل الإعلام جاء مصحوباً بصفة "السعودي المولد" وظل هؤلاء يعودون بصورة مستمرة إلى ما حسبوه "أدلة دامغة" من أن السعوديين إرهابيون بطبيعتهم، وأنهم وهابيون، وأنهم يلبسون ثياباً غير مسبلة، وأن نساءهم لا يسمح لهن بقيادة السيارة، إنهم ـ باختصار ـ يكرهون الحرية والحضارة وطريقة الحياة الأمريكية، وبالطبع فهم معادون للسامية لأنهم يعترضون على حق إسرائيل في احتلال فلسطين.

قبل هذا التحليل معظم الرجال والنساء الذين يشاهدون البرامج التلفزيونية في الولايات المتحدة، ولم يتوقفوا لحظة واحدة ليسألوا أنفسهم ـ على سبيل المثال ـ إذا كان السعوديون يكرهون أمريكا إلى هذا الحد فلماذا إذن انتظروا كل هذه المدة حتى يقوم خمسة عشر سعودياً بالدخول إلى أمريكا وتلقي دروس في الطيران بينما كان هناك الملايين من السعوديين الذين سافروا إلى الولايات المتحدة من قبل ولم تكن لديهم أي رغبة في إلحاق الأذى بأمريكا؟

هم أيضـاً لم يسألوا أنفسهـم عن وجود مـئات الآلاف من الغـربيين الذي عملوا فـي المملكة خلال العقـود الثلاثة الماضـية ومعظمهم من الأمـريكيين الذين جلبـوا مـعـهم خـبـرتهم في الهندسـة والإدارة والطب. جـاؤوا إلى المملكة ومـعلومـاتـهم عن النـاس والبلد قـد استقوها مما دونه الرحـالة أو من قصـص ألف ليلة وليلة، وكـانت لديهم الرغبة في مساعدة المملكة على الـتطور حتى تصبح شريكاً لبلدانـهم، لكن كيف لـم يقـابلوا أي إرهـابيين سـعـوديين طوال هذه المدة التي قضوها؟ فإذا كان السعـوديون متعطشين لدماء الغربيين كيف كـانت تسـير نسـاء وأطفـال هؤلاء الغـربيـين في مـدن المملكة وشـوارعها؟ وقامت مجمعاتهم السكنية في قراها وصحاريها، وقد كـانت أكـثـر أمناً من بعـض مـدن هؤلاء الغـربيين! ظل هـؤلاء طيلة الأعـوام السابقـة يعيشـون ويعملون ويتفـاعلون ولم تسجل حـالة عنف واحـدة ضـد الغـربيين بـدافع الدين أو القـوميـة أو الثـقـافـة أو الحضـارة. ظلت عـلاقة المملكة مع الغرب ـ على مسـتوى الحكومات ـ هي نفسـها التي كانت بالأمـس، مصـالح مـشتركـة تعززها النوايا الحسنة المشـتركة وثقـافـة حـل الخـلافـات السـياسـية عن طريق الحوار. لم يتغير شيء في السعودية يجعل من شعبها وحكومـتها مسـؤولين عن الخـمسـة عشـر شـخصـاً مضطربي العقـول الذين قرروا إفراغ شحنة الانتقام بقتل نحو ثلاثة آلاف شـخص لا علاقة لهم بذلك كله؟!

إذاً لماذا خمسة عشـر من الذين نفذوا هجمات الحادي عشر من سـبـتمـبـر سـعـوديون؟ الذين يسـألون هذا السـؤال، عليـهم أولاً أن يسـألوا سـؤالاً آخـر عن القـاسـم المشـتـرك بين جـميع المجـموعـات المرتبطة الآن بما يسـمى (بالإرهاب الإسـلامي). القـاسم المشـتـرك هو الحرب الأفـغانية ضـد الاحتلال السـوفيتي. دعـونا لا ننسى أنه لم يكن هناك منتـقـدون ومـعارضـون لتلك الحـرب في كـافة أرجـاء الولايات المتـحـدة. كـانت تلـك الحـرب هي الأداة التي قـصـمت ظهـر الاتحـاد السـوفـيتي. واليـوم الولايات المتـحـدة هي الـدولة العظمى الوحيدة في العالم لأن الاتحـاد السوفيتي قد تلقى الضـربة القاضية من المجـاهدين الأفـغـان، ولم يسـمـع أي أحـد بـأن الأمـريكيين قـد اشـتكوا من ذلك. كان للـحرب الأفـغانيـة مسـاندون كـثيـرون كل له أسـبـابه الخـاصـة، لـكن السـؤال هـو: من قـام بتـزويد المجـاهدين بالتـقنية والسـلاح والذخيـرة ومعسكرات التدريب والمستـشـارين العـسكريين وغيـرها؟ إنهـا الولايات المتحدة، والدعم البـشري جـاء من العـالم العـربي والإسلامي. فـقد تطوع الشبـاب كمجـاهدين بعد أن رأوا فـيهـا حربـاً لتـحرير أحد بلدانهم التي احـتلها المعتـدي. لكن حـمـلات تجنيـدهم نظمـتـهـا الولايات المتـحـدة بدعم من الحكومـات الإسـلامـيـة، إذ أرسلـوا إلى مـعـسـكرات تدريب في أفـغـانسـتـان وتدربوا على اسـتـخـدام القنابل والمتفجـرات وغيـرها من الأسلحـة الحـديثة وطرق حـرب العصـابات. وكـان تدريبـهم على أيدي أفـراد

الجيش الأمريكي. وفي الوقت نفسه فقد تدربوا على التعامل من خلال منظار واحد وهو: «قد تم تحديد العدو لك ومهمتك هي استئصاله بغض النظر عن التكلفة سواء من ناحيتك أو من ناحية أي شخص آخر في العالم بأسره».

أنجزت المهمة للأمريكيين من قبل نفس الأشخاص الذين يوصفون الآن بأنهم «أصوليون» وحملات التجنيد تمت في المدارس التي هيأها الخبراء الأمريكيون، إنها مركز تجنيد الإرهابيين. بالطبع لم يكونوا إرهابيين في ذلك الوقت بل مجاهدين، رغم أن لحاهم كانت معفاة ويرتدون الثياب نفسها التي يرتدونها اليوم. إنهم (مقاتلو الحرية) الذين يستحقون الاستقبال في البيت الأبيض.

الشباب المسلم ـ أو «مقاتلو الحرية» كما أسمتهم واشنطن، تدفقوا على أفغانستان من مختلف بقاع العالم. وبحسب الأرقام التي نشرها مجلس الشؤون الخارجية الأمريكي: «كانوا ٥٠٠٠ سعودي، ٣٠٠٠ يمني، ٢٨٠٠ جزائري، ٢٠٠٠ مصري، ٤٠٠ تونسي، ٣٥٠ عراقياً، ٢٠٠ ليبي، وعشرات الأردنيين، جميعهم قاتلوا جنباً إلى جنب مع المجاهدين الأفغان. ومن بين هؤلاء ـ يقول المجلس ـ عاد ما بين ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ إلى الجزائر ليشكلوا العمود الفقري للمتطرفين الإسلاميين، الذين ظلوا يقاتلون الحكومة لمدة تسع سنوات في حرب أهلية حصدت أرواح أكثر من ١٠٠,٠٠٠

شخص. والذين عادوا لمصر أصبحوا أعضاء فاعلين في الجماعة الإسلامية وحركة الجهاد ولكن الكثيرين منهم اعتقلوا وحوكموا محاكمات جماعية عرفت بمحاكمات "العائدين من أفغانستان» .

أما بعض المصريين الذي رأوا أنهم سيزج بهم في السجون إذا عادوا إلى وطنهم فقد بقوا في أفغانستان. وأشار تقرير مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية إلى أنه وفقاً للسلطات الأمريكية فإن هناك نحو ٢٠٠ من الطلاب الأفغانيين السابقين أقاموا في منطقة نيويورك ونيوجيرسي، وبعضهم أقام حول مسجد نيوجيرسي حيث يلقي عمر عبدالرحمن خطبه، وأضاف التقرير أنه، وبطلب من مصر والجزائر، قامت باكستان بالتضييق على الأفغان الذين ظلوا فترات طويلة هناك، أما بعض من يسمون «الأفغان العرب» فقد ذهبوا إلى آسيا وانضموا إلى مجموعة أبي سياف ـ التي سميت على أحد المجاهين الأفغان المشهورين ـ في الفلبين أما الأفغان العرب الآخرون فقد استمروا في قتال الروس في طاجيكستان، والبعض منهم اشترك في الصراعات التي يكون المسلمون طرفاً فيها مثل الحرب في البوسنة والشيشان.

فالذين خرجوا علينا في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م يريدون حل مشكلات العالم الإسلامي ـ كما اعتقدوا ـ كالتنمية وضعف مستوى التعليم وفساد الحكومات والمأساة الفلسطينية عن طريق شن هجمات على نيويورك وواشنطن. قاموا بذلك من

واقع ما تعلموه في أفغانستان، فلا المناهج في تلك المعسكرات قامت بإعدادها الحكومة السعودية، ولا المدرسون تعاقدت معهم السعودية. فالأمريكيون هم الذين أشرفوا على تلك الدورات التدريبية، وهم الذين كانوا يوجهون المدرسين. وكان أسامة بن لادن يقيم بصورة دائمة في أفغانستان ويحظى بالتكريم لا بالملاحقة من الأمريكيين. صحيح أن خمسة عشر من المضللين الذين شنوا الهجوم على برجي مركز التجارة العالمي سعوديون لكنهم لم يكونوا قد خرجوا من واقع كراهية السعوديين للحياة الأمريكية، ويمكن أن يكونوا من أي مكان حتى من بين أولئك الأفغان المئتين الذين قطنوا منطقة نيويورك ونيوجيرسي. فإذا سلمنا بالمنطق الذي يقول إن السعودية ترعى الإرهاب لأن خمسة عشر من التسعة عشر هم من السعوديين، فسيكون صحيحاً أيضاً وصف أمريكا بأنها ترعى الإرهاب؟!

إنها صدفة محضة أن يكون خمسة عشر من بين التسعة عشر من السعوديين، وحتى يأتي الوقت الذي يفهم فيه هذا جيداً، يمكن أن نقول إن الحرب ضد الإرهاب لم تبدأ بصورة فعالة بعد ـ لأنها والحال كذلك ـ سوف تظل قتالاً بين مختلف ضحايا الإرهاب وليس بين ضحايا الإرهاب من جهة والإرهابيين من جهة أخرى، ولا يخدم الحرب ضد الإرهاب أن تتصرف دولة ما على أساس أنها هي وحدها التي عانت من الهجمات الإرهابية، فليست أمريكا

وحدها التي عانت من الهجمات الإرهابية، رغم أنها تلقت أقسى الضربات حتى الآن، فالسعودية هي أيضاً ضحية الإرهاب لأنها عانت من هجمات كثيرة منذ مدة زمنية طويلة. وقد اتفق كل المحللين وكذلك البيانات الصادرة من القاعدة أن هدفهم المنشود هو السعودية. فطموح القاعدة هو الإطاحة بالحكومة السعودية، بل الإطاحة بالحكومات في جميع البلدان العربية والإسلامية.

الولايات المتحدة والغرب تعد أهدافاً ثانوية لهم، فهم يهاجمون الغرب لأنهم يرون أنهم بذلك يكسبون تأييداً في العالم الإسلامي، وهم يهاجمونه كذلك لأنهم يرونه يرتبط بعلاقات صداقة مع معظم الحكومات في العالمين العربي والإسلامي ويدعمها.

هذه هي الحقيقة، فالسعودية وليست أمريكا هي الهدف الأول للإرهابيين. إن الذين يربطون السعودية بالإرهابيين يأتون بزعم يحمل في طياته كل السذاجة، فهل تدعم السعودية وتمول جهات تعمل على تخريبها؟! وهذا واحد من الأدلة التي تبرهن على أن مثل هذه المزاعم هي محض هراء. فالمملكة ظلت صديقاً للولايات المتحدة وعملت داخل منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك) على استقرار أسعار البترول، ووفرت قواعد عسكرية للولايات المتحدة خلال حربي الخليج الأولى والثانية، وتتعاون مع الولايات المتحدة في النواحي الاستخباراتية ذات العلاقة بالإرهاب. فالسعودية تقف بصلابة ضد تنظيم القاعدة مثلها مثل الولايات المتحدة.

الحرب ضد الإرهاب يجب أن تتم على عدة جبهات، وحيث إن الإرهابيين يركزون على قضايا الإسلام والمسلمين في حربهم، فعلى العلماء والقادة المسلمين أن يوضحوها جلية للعالم على وجه العموم والمسلمين على وجه الخصوص. إن ما تقوم به هذه الفئة لا يتفق مع التعاليم التي جاء بها الإسلام، وقد أضرت بقضايا المسلمين في كل مكان. هذه الحقيقة قد تم التأكيد عليها في السعودية وفي كل بقاع العالم الإسلامي. ففي السعودية حذر العلماء والحكومة وكذلك وسائل الإعلام من فداحة الانقياد وراء أولئك الذين يريدون استخدام الإسلام للوصول إلى السلطة والمجد. لكن ـ وعلى أية حال ـ هذا جزء من الحملة، والجزء الآخر ينبغي أن يشن عن طريق الآخرين، وأعني أمريكا أكثرمن أي جهة أخرى. هذا الجزء من الحرب يشمل إدراك وفهم: لماذا المسلمون العاديون رجالاً ونساء في مختلف أنحاء العالم يتعاطفون مع ما يقوم به الإرهابيون؟ فعلى مدى قرابة نصف القرن ـ وهي المدة الزمنية التي عاشها هذا الجيل الذي لايزال على قيد الحياة ـ ظل المسلمون شيبهم وشبابهم، يرون أمريكا تعمل كشريك نشط في ارتكاب الجرائم الإسرائيلية ضد الفلسطينيين. لقد رأوا الإدارات الأمريكية المتعاقبة تمد المعتدي بالسلاح والمال والدعم اللوجستي والاستراتيجي والغطاء الدبلوماسي، بينما يقوم هذا المعتدي باحتلال الأراضي الفلسطينية وقتل مواطنيها وتدمير منازلهم وانتهاك كرامتهم، لقد رأوا أيضاً أمريكا تستخدم الفيتو في

الأمم المتحدة لوقف أي تحركات تهدف إلى إيقاف إسرائيل ومنعها من انتهاك القوانين والأعراف الدولية. لقد رأوا الغضب الأمريكي على قتل أي إسرائيلي وصمتها المطبق عند قتل الفلسطينيين. ولقد رأوا كذلك النهج غير العادل وغير الأخلاقي الذي تنتهجه أمريكا، والمتمثل في اعتبارها القيام بممارسة القتل بالصواريخ والقنابل والقصف بالطائرات ومن على الدبابات الذي تمارسه إسرائيل عملاً صحيحاً ومشروعاً، بينما من غير الشرعي والأخلاقي أن يلجأ الفلسطينيون إلى العمليات الانتحارية، وهي الوسيلة الوحيدة التي يستخدمها الفلسطينيون، إذ ليست لديهم أي وسيلة أخرى لحمل هذه القنابل، فبالنسبة للأمريكيين فإن الأخيرين «جبناء» بينما أولئك الذين يقتلون من على الطائرات والدبابات «عسكريون شجعان».

فهل يتم التوصل إلى حل للمشكلة الفلسطينية يضمن للفلسطينيين كرامتهم وشرفهم وأمن حدودهم المعترف بها دولياً؟ لا يبدو هذا في الأفق الآن، لكن لو تحقق هذا فسوف يسحب البساط من تحت أقدام أولئك الذين يستخدمون المأساة الفلسطينية كمبرر لجرائمهم، المبادرة الأمريكية في هذا الشأن والإصرار على جعل إسرائيل تنصاع لذلك سوف يغير من نظرة المسلمين للولايات المتحدة، ويترك الإرهابيين دونما حجة يعتمدون عليها في ترويج ما يرونه، لكن من المحزن أنه ليست هناك فرصة لذلك، فإسرائيل ستستخدم المؤيدين لها في أمريكا، ونفوذها الإعلامي الضخم وسيطرتها على متخذي القرار داخل القوة

العظمى لكي لا يتم تنفيذ ذلك، لأن ذلك إذا تم فإنه يعني ببساطة تخلي إسرائيل عن أحلامها التوسعية التي كانت دافعاً لحملاتها المتمثلة في الكذب والعدوان والاحتلال والصلف طيلة العقود الماضية. ومن المؤكد أن القاعدة ستستخدم قوتها الإرهابية لقتل أي سلام عادل يمثل بداية النهاية لوجودها.

لكن ينبغي على أمريكا أن تستمع في بعض المرات، وعليها أن تدرك أنها تتقاسم المسؤولية في تغذية ودعم الإرهاب. عليها أن تدرك وتعي لماذا يتم وصمها بالعدو، ومن غير الحكمة توجيه اللوم بكل بساطة للعالم الإسلامي، لاشك أن العرب يتحملون بعض المسؤولية، لكن لا يمكن بحال من الأحوال أن تتجاهل أمريكا إسهامها في بروز الإرهاب العالمي. والوسيلة لذلك هي أن يتخلى الأمريكيون والعرب عن الكثير من قناعاتهم ويقروا بخطأ بعض أفعالهم. هذا ليس أمراً سهلاً. وقد كان ليو تولستوي Leo Tol-stoy وهو أحد أبرز الذين اهتموا بمراقبة النفس البشرية، محقاً عندما كتب: «أعرف أن معظم الرجال، حتى أولئك الذين لا يعانون من مشكلات معقدة، نادراً ما يقبلون أبسط الحقائق وأكثرها بداهة، إذ إن ذلك سيحملهم على الاعتراف بخطأ قناعات ظلوا ـ مسرورين ـ يقولونها لزملائهم ويعلمونها آخرين وظلوا ينسجونها خيطاً خيطاً في نسيج حياتهم».

إن لجنة الحادي عشر من سبتمبر التي برأت السعودية وبقوة

من أي تورط في تلك الهجمات البربرية قد وجهت توبيخاً للدولتين على إبقاء علاقاتهما الراسخة والقوية خلف الكواليس، وكان من نتائج ذلك أنه لا الشعب الأمريكي ولا الشعب السعودي يقدر أبعاد هذه العلاقة. وفي هذا السياق يقول تقرير لجنة الكونجرس: «مشكلات العلاقة بين الولايات المتحدة والسعودية يجب أن تواجه بصورة علنية» ومضى: «على الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية أن تقررا ما إن كانتا ستبنيان علاقة تكون فيها القيادة السياسية في كلا البلدين مستعدة للدفاع عنها علناً.. علاقة أكبر من النفط». هذا الأمر في صالحنا نحن الاثنين، وللقيام بذلك نحتاج إلى بناء جسورعلى المستوى الشعبي. وواشنطن بإمكانها أن تحقق ذلك من خلال مجال محدد هو تسهيل عملية دخول الشباب السعودي للدراسة في أراضيها، وعملية إغلاق الأبواب في وجه هؤلاء بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر أمر مفهوم ولكنه لا يخلو من رؤية فيها نظر قاصر. نعم يمكن أن ينفذ إرهابي محتمل، ولكن التعامل الاستخباراتي والتمحيص يمكن أن يتم التعامل به في مثل هذه الحالات. إننا نحتاج إلى التفاعل مع بعضنا البعض، وإلى معرفة بعضنا البعض وفهم بعضنا البعض، وهذا لن يحدث ما دام هناك سور لا يمكن عبوره على مستوى الشعوب.

تنظيم القاعدة يستهدف السعودية

د. يفجيني بريماكوف *

مقدمة:

بات الإرهاب الدولي في الأعوام الأخيرة من أخطر التحديات التي تواجه البشرية، وقد تنامى هذا الخطر بعدما اكتسبت هذه الظاهرة، ذات التاريخ القديم ـ الذي يرجع إلى قرون عديدة، في زماننا بالذات ـ وجهاً أكثر وحشية وبشاعة.

كان الإرهاب سابقاً يرتبط بنشاط بعض الأفراد أو المنظمات المحلية، وفي بعض الأحيان كانت هذه المنظمات تستخدم كأدوات بأيدي بعض الدول، ولذا كانت تمولها، ولكن دون أن يتغير طابعها المحدود.

وفي نهاية القرن العشرين صار هذا النموذج الخاص بالإرهاب الدولي يفقد الارتباط بدوائر الدولة. وبقي بدرجة ما دعم الدول لبعض الجماعات الإرهابية، غير أنه كان في طريقه إلى الزوال كما بدأ بجلاء.

* رئيس وزراء ووزير خارجية روسيا الأسبق ـ روسيا.

وقد حدث ذلك بشكل كبير نتيجة لسياسة "اللاعبين: الرئيسيين على الصعيد الدولي، الذين خرجوا من الحرب الباردة، وراهنت الولايات المتحدة بصورة رئيسة على ممارسة الضغوط وفرض العقوبات، وحتى استخدام القوة العسكرية. أما روسيا فدعت إلى اتخاذ موقف متوازن، واتخاذ التدابير السياسية بصفة جوهرية. كما اتخذت مثل هذا الموقف بلدان كثيرة تعتبر أعضاء في الاتحاد الأوروبي.

وعلى سبيل المثال مارس هؤلاء وأولئك دوراً ملموساً في قيام معمر القذافي في أواسط النصف الثاني من أعوام التسعينيات بقطع الصلات مع "الألوية الحمراء" الإيطالية و "الجيش الجمهوري الإيرلندي"، وأبعدت من البلاد منظمة أبي نضال الارهابية، كما قطع العلاقات مع الجماعات الفلسطينية المتطرفة مثل "جبهة التحرير الفلسطينية ـ القيادة العامة" والجهاد الإسلامي الفلسطيني". وأبعد من ليبيا الأشخاص الذين يشتبه بتورطهم في الإرهاب والذين كانوا يمارسون النشاط ضد الأنظمة في مصر والأردن.

وفي التسعينيات حدثت تغيرات إيجابية في الحياة الداخلية لإيران. فقد تخلت إيران عملياً عن فكرة تصدير الثورة الإسلامية، بصورة أساسية تحت تأثير الرأي العام الداخلي الإيراني، أو بعبارة أخرى تخلت عن نشر النموذج الديني الإيراني لتنظيم الدولة والمجتمع.

وبدا أن من شأن هذا كله أن يضعف الإرهاب. لكن لم يحدث ذلك، وبدأ الارهاب الآن يعمل في شكل تنظيم دولي حقق الاكتفاء الذاتي

والتمويل وقطع الصلة بأية دولة، غير أنه يمد أذرعه الأخطبوطية إلى كافة القارات. وأدى هذا إلى صعوبة الكشف في الوقت المناسب عن أفعال الارهاب وأصبحت أفغانستان القاعدة الرئيسة للإرهاب الدولي.

ما زالت بالطبع التنظيمات الإرهابية "المحلية" تثبت وجودها، مثل "الجيش الجمهوري الإيرلندي" ومنظمة الباسك في أسبانيا. لكنها لا تمارس دوراً رئيساً ـ حيث إن مركز الارهاب الدولي هو تنظيم القاعدة الذي توجد له فروع كثيرة في مختلف البلدان.

وفي الظروف الراهنة أصبحت مكافحة الارهاب أكثر صعوبة. لاسيما وأن الطرق التي يستخدمها الإرهابيون تضاعف من خطره. والآن يستخدم المسلحون الذين يمارسون الإرهاب القوة ضد السكان المسالمين، حتى بدون طرح أية شروط، بل لمجرد تخويف البلاد، وشل المجتمع، وسلبه القدرة على المقاومة. وقد تجلى هذا التكتيك بشكل بارز على الأخص في ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م حين أدى نسف ناطحتي السحاب في نيويورك بصورة وحشية إلى مصرع آلاف الأمريكيين.

ولابد من القول أن المحاولات لشل البلاد، وإثارة الفزع لدى قيادتها، وإرغامها على الارتجاف أمام الإرهابيين، تمارس ليس فقط عن طريق ارتكاب أفعال إرهابية ضخمة كهذه، كما حدث في ١١ سبتمبر، بل إن سلسلة الأفعال الإرهابية التي نفذت في المملكة العربية السعودية وفي تركيا ومصر وروسيا تستهدف أيضاً تخويف الأنظمة، وخلخلة الوضع في هذه البلدان.

"**أيديولوجيا**" "**القاعدة**":

لماذا وجه ضد هذه البلدان بالذات النشاط الجارف لتنظيم "القاعدة" الإرهابي وفروعه؟ فلقد أعلن أسامة بن لادن زعيم "القاعدة" الهدف، وهو إقامة دولة الخلافة الإسلامية المترعة بروح الحرب في البلدان التي تقطنها الشعوب الإسلامية. علماً بأن المراد إقامتها ليس في أرض خاوية، بل في أراضي عدد من الدول الموجودة. فكيف يتم التعامل معها؟ إن الجواب على ذلك واضح: فتنظيم "القاعدة" يريد "تطهير المكان" من أجل إقامة الخلافة، ليس عن طريق تصفية الأنظمة العلمانية فقط (تركيا) بل الأنظمة المعتدلة (المملكة العربية السعوية) في البلدان التي يقطنها المسلمون. ويتبين ذلك ليس فقط من أقوال قادة "القاعدة" فحسب ـ بل في المملكة العربية السعودية بالذات نفذ أكبر عدد من الأفعال الإرهابية. ولم يكن هذا وليد الصدف.

لقد أعلن أسامة بن لادن الحرب على الولايات المتحدة التي تدعم الأنظمة الإسلامية المعتدلة والعلمانية عسكرياً واقتصادياً وسياسياً.

كما أصبحت البلدان التي يشكل المسلمون فيها أقلية فيها هدفاً آخر لأفعال الإرهاب. ومهمة الإرهابيين في مثل هذه البلدان ـ زعزعة الأنظمة، وليس فقط تهيئة الظروف المواتية، بل وتشكيل جماعات إسلامية متطرفة بصورة مباشرة تبشر بالأفكار الانفصالية.

وبالتالي فإن الخط الفاصل بين "القاعدة" والبقية (لا تؤيد "القاعدة" رسمياً أية دولة) لا يتحدد على أساس حضاري ـ ديني، كما يزعم البعض في الغرب، وليس بين المسلمين وغير المسلمين. ولو اعتمد العالم مثل هذا "المنطق" فإن الخط الفاصل الأيديولوجي الذي زال بعد "الحرب الباردة" سيستبدل بآخر على أساس حضاري ـ ديني. ويمكن أن يقود هذا إلى عواقب غير حميدة وتعد كارثة بالنسبة إلى المسلمين وغير المسلمين.

وإذا ما تحدثنا عن التناقض الفعلي، والخط الفعلي للمواجهة، فإنه يواجه أحدهما الآخر: من جهة ـ الحركة المتطرفة المغامرة، التي تدعو إلى التعامل مع البشر والشعوب والبلدان بالأساليب الحيوانية المميزة للقرون الوسطى، ومن جهة أخرى بقية العالم الذي يسير على هدى القيم الحضارية العامة بغض النظر عن الانتماء الديني للناس. علماً أن الحضارة العالمية تتطور على أساس حضارات مختلفة، ومنها الحضارة الإسلامية طبعاً. ويعتبر تفهم ذلك أمراً في غاية الأهمية، وبدونه لا يمكن أن تتشكل الجبهة الضرورية جداً من أجل مواجهة الإرهاب الدولي والتي تضم كافة القوى السلمية في العالم. ولا يمكن أن تنجح أعمال هذه الجبهة بدون مشاركة الدول الإسلامية فيها بنشاط، والتي يعتبر الإرهاب بالنسبة لها اليوم شيئاً خطراً لا يقل عن خطورته بالنسبة إلى العالم غير الإسلامي.

القاعدة تستهدف السعودية:

لم يكن من قبيل الصدف أن أصبحت المملكة العربية السعودية إحدى المناطق الرئيسة للنشاط الإرهابي لتنظيم "القاعدة". فإن القوى المتطرفة تضع هدفاً مباشراً لها وهو نسف أركان النظام القائم في هذه البلاد. والإرهابيون لا يخفون هدفهم هذا. فقد جاء في بيان صادر عن إحدى الجماعات المرتبطة بـ"القاعدة" أن العملية التي نفذتها في ٢١ أبريل ٢٠٠٤م، والتي أسفرت عن تدمير أحد المجمعات الحكومية في الرياض ومصرع العشرات من رجال الشرطة والأهالي المسالمين من سعوديين وأجانب، أن هذه العملية موجهة ضد النظام السعودي.

علماً أن التوجه ضد النظام السعودي ينبثق ليس عما ورد ذكره آنفاً فحسب من عدم قبول النظام الإسلامي المعتدل، بل بسبب تواصل عملية الإصلاحات التقدمية في البلاد. ومجمل القضية أن سياسة القيادة السعودية تتعارض بصورة مباشرة مع نشاط وخطط المنظمات الإرهابية المتطرفة المنضوية تحت لواء "القاعدة" أو الملتفة حولها.

ومعروف أن ابن لادن قد طرد من المملكة العربية السعودية ومن ثم سحبت الجنسية السعودية منه. وكان بوسع "الإرهابي رقم واحد" أن يعتبر هذه الخطوة تحذيراً جدياً له. لكن بقيت الآمال لدى رجال "القاعدة" و "طالبان" كما يبدو في أن هذا ليس سوى خطوة استعراضية موجهة إلى الغرب، وأنهم سيحتفظون حسب الزعم بصلاتهم مع المملكة العربية السعودية، وسيتلقون كالسابق الأموال

من الصناديق الخيرية مع التزام السلطات الصمت. ولربما أن المتطرفين الإسلاميين كانوا يعولون على أن تصبح المملكة العربية السعودية إحدى ركائز "القاعدة". لكن أصابتهم خيبة أمل. ذلك لأن الأسرة السعودية الحاكمة "خادمة الحرمين الشريفين" لم تكن أبداً تدعم النهج المتطرف. وكان اتجاه تفكيرها وما زال، كما تشير إلى ذلك كافة الدلائل، موجهاً نحو تعزيز النهج السلفي الإسلامي وليس التطرف البتة، والذي يختلف عنه النهج السلفي كل الاختلاف.

ولقد مارس الشيخ محمد بن عبدالوهاب دوراً كبيراً في الحركة السياسية ـ الإسلامية من أجل إقامة نظام حكم إسلامي في المملكة العربية السعودية. وهو يحظى بكل احترام في البلاد. لكن القيادة السعودية لم تنظر إلى الوهابية بأشكالها المتطرفة بصفتها عقيدة رسمية. وقال الملك عبدالعزيز منذ عام ١٩٤٦م: يقال إننا وهابيون، لكننا في واقع الحال مسلمون نتبع كتاب الله وسنة رسوله. وحينما التقيت ولي العهد الأمير عبدالله في يناير عام ٢٠٠٣م كرر في الواقع هذه الأقوال وأكد قبل كل شيء أن السعوديين هم من أهل السنة، ولم يكن من قبيل الصدفة أبداً أن أدان المفتي العام عبدالعزيز آل الشيخ رئيس هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية ليس الإرهاب فقط بل والغلو في الدين باعتباره ظاهرة غريبة عن الجوهر الحقيقي للعقيدة الإسلامية.

بيد أن القضية لا تكمن في الأيديولوجيا فقط. فالقيادة ترفض

الإرهاب عملياً، وتظهر عدم قبولها للدوائر المتطرفة التي تمارس نشاطها بأساليب الإرهاب، واعتقل في المملكة العربية السعودية المئات من المشتبه بتورطهم في ممارسة النشاط الإرهابي، بينما يجري البحث عن الكثير من المطلوبين للعدالة، وتنفذ عمليات أمنية لكشف الجماعات السرية، وقد فرضت رقابة مشددة على تحويلات الأموال التي يمكن أن تستخدمها المنظمات الإرهابية الدولية، كما فرضت رقابة على المؤسسات الخيرية.

تصعيد المواجهة:

عندما شعر تنظيم "القاعدة" بأن النظام السعودي لا يسير معه قرر زعزعة الوضع في البلاد بواسطة الأعمال الإرهابية. إن أسامة بن لادن في عجلة من أمره، وتسعى "القاعدة" إلى جعل الهجمات الإرهابية في أراضي المملكة العربية السعودية ظاهرة يومية. ويكمن وراء ذلك خوف الإرهابيين من "ضياع الوقت". فإن الهجمات على النظام تجري في الوقت الذي تتنامى فيه سمعة المملكة ومكانتها. وقد ساعد على ذلك اضطرار الولايات المتحدة إلى سحب وحدات قواتها البرية من البلاد، وتحول المملكة بعد طرحها لمبادرة "الأرض مقابل السلام" إلى أحد قادة الحركة من أجل إجراء تسوية عادلة في الشرق الأوسط، وموقف المملكة العربية السعودية المبدئي من العملية العسكرية الأمريكية في العراق، وبدء

التحرك نحو إجراء الإصلاحات في الداخل.

ان المعركة بين السلطات السعودية والمنظمات الإرهابية ما زالت بعيدة عن الانتهاء. فما زال يوجد في البلاد أعوان للمتطرفين. وقد حذر ولي العهد على لسان مستشاره عادل الجبير جميع من يحاول تبرير الإرهاب بالمعتقدات الدينية، وأكد أن كل من يفعل ذلك سيعتبر شريكاً للإرهابيين وسيناله القصاص.

وثمة جانب آخر لخطر الإرهاب على المملكة العربية السعودية. ذلك أن تنظيم "القاعدة" ينقل بعض رجاله من منطقة القبائل على الحدود الباكستانية الأفغانية إلى العراق. وفي الواقع يمكن أن يقام في هذه البلاد القريبة من أراضي المملكة العربية السعودية رأس جسر لنشاط "القاعدة" وتجري إعادة نشر مسلحي التنظيم في بلدان أخرى في المنطقة.

إن الأحداث المرتبطة بنقل المسلحين من أراضي أفغانستان وباكستان إلى العراق، تؤكد مرة أخرى أن الأمن في العالم المعاصر لا يتجزأ. وأن الإرهاب الدولي يعمل بموجب "قاعدة الأواني المستطرقة" وتمثل أفغانستان وكوسوفو وجمهورية الشيشان والآن العراق الجسور الرئيسة لتنظيم "القاعدة" وتجري إعادة الانتشار في هذه الحدود أساساً. ولا ريب في أن قواعده تستخدم لشن عمليات فاعلة في الدول المجاورة لها أيضاً.

اذن تتوفر المسوغات الأكيدة للاعتقاد بأن منظمات مستقلة

ذاتياً تعمل علي الصعيد الدولي وتتمتع بالاكتفاء الذاتي تدعو إلى الإرهاب الجماعي بصفته وسيلة لتحقيق أهدافها. ونحن نتحدث إلى الآن عن منظمة واحدة فقط هي "القاعدة" ولكن أين الضمانات بأنها ستبقى بصفتها الظاهرة الوحيدة؟

آفاق قاتمة:

يتفاقم الوضع كون الطريق غير مغلق أمام المنظمات الإرهابية المستقلة ذاتياً، للحصول على السلاح النووي، وغير ذلك من أصناف أسلحة الدمار الشامل ـ الكيميائي والجرثومي والإشعاعي. علماً أن المقصود بالأمر عدد من المنظمات الإرهابية بالذات. إن "القاعدة" بزعامة أسامة بن لادن ليست المثال الوحيد على ذلك، أقوال (تينيت) مدير وكالة المخابرات المركزية سابقاً" إن تنظيم بن لادن ليس سوى واحد من عشرات التنظيمات الإرهابية التي ابدت الاهتمام بالحصول على السلاح الكيميائي والجرثومي والإشعاعي والنووي أو أنها حصلت عليه فعلاً، وعلى سبيل المثال وصف ابن لادن مسألة الحصول على هذا السلاح باعتبارها "قضية دينية" وقال: إننا سنقرر كيف سنستخدمه.

إن الوضع في مطلع القرن الحادي والعشرين أصبح يساعد على تسلح الإرهاب الدولي بسلاح الدمار الشامل بشكل كبير، وذلك بحسب المعطيات التالية:

أولاً: أن انفصال المنظمات الإرهابية عن دوائر الدولة وتمتعها بـ " الاستقلالية الذاتية " يمنحها حرية كبيرة في المناورة.

ثانياً: أن الاكتفاء الذاتي مالياً يزيد من قدراتها الكامنة.

ثالثاً: أن ما يساعد على حدوث الاندماج بين الإرهاب وسلاح الدمار الشامل هو عملية العولمة التي جعلت المعلومات متوفرة للجميع، كما أنها تساعد على تجاوز شتى أصناف العقبات. ويجب أن نواجه هذه الحقيقة .

رابعاً: أن تطور السلاح يقود إلى صنع أصناف من السلاح النووي أصغر حجماً، ويسهل صنع السلاح الجرثومي والكيميائي، الأمر الذي يجعل موضوعياً حصول الإرهابيين على سلاح الدمار الشامل أمراً سهلاً.

وتتوفر المسوغات للاعتقاد بأن الارهابيين من تنظيم "القاعدة" أصبحوا أقرب من غيرهم إلى الحصول على السلاح الإشعاعي. وأعلن جون ايشكروفت وزير العدل النائب العام الأمريكي أن عبدالله مجاهير الذي اعتقل بمطار شيكاغو في ٨ مايو عام ٢٠٠٢م، والمعروف باسم خوسيه باديلا القادم من باكستان كان يدبر (بتكليف من القاعدة) لتنفيذ تفجير "قنبلة قذرة إشعاعية". وكانت واشنطن هي المستهدفة.

إذن العالم لا يقف بعيداً جداً عن احتمال استخدام الإرهابيين لأحد أصناف السلاح النووي. وثمة مئات الأهداف المحتملة في كل

بلاد كبيرة لتنفيذ عمليات إرهابية في المنشآت التي تحتوي على السلاح النووي، وفي الوسائل التي تنقله، وفي المحطات الكهروذرية، ومصانع معالجة الوقود النووي، وتنطوي إصابتها على خطر وقوع كارثة نووية ضخمة واسعة النطاق. وفي مطلع عام ٢٠٠٢م وجدت في ٤٣ دولة محطات كهروذرية قادرة على إنتاج المواد النووية، وكما تتراكم في أكثر من ١٠٠ دولة احتياطيات من المواد المشعة. ولا تتوفر مسوغات للاعتقاد بأن هناك رقابة وحراسة مضمونة لجميع هذه الاحتياطيات.

ويجب على المجتمع الدولي أن يستنتج بأنه ينبغي في الظروف الجديدة إعادة النظر في جميع الأفكار السائدة في الماضي حول أساليب وطرق حفظ الأمن ـ أي أمن البلاد و حليفاتها، وإحلال وضمان الاستقرار على الصعيدين الإقليمي والعالمي. ويرد من بين أهم المهام إبداء مقاومة مضمونة للإرهاب الدولي الذي يتسلح بأساليب جديدة. وحتى تكون هذه المقاومة فاعلة ينبغي رص صفوف جميع القوى السلمية في العالم. وربما سأجني على الحقيقة إذا لم أقل إن التسوية السلمية والعادلة للنزاع العربي ـ الفلسطيني تعتبر شرطاً مهماً للغاية من أجل أن يحتل العالم الإسلامي عموماً مكانته التاريخية المهمة.

الفصل الخامس: مواجهة الإرهاب بمقاييس

المملكة العربية السعودية تحفظ أمنها

إدوار ووكر *

عقب الهجمات الإرهابية التي تعرضت لها المملكة العربية السعودية خلال السنتين الماضيتين، اتخذت الحكومة السعودية عدداً من الإجراءات الرامية إلى مواجهة الإرهاب وأحضرت مرتكبي تلك الهجمات للعدالة، وفي الآونة الأخيرة، عملت الحكومة السعودية على اتخاذ المزيد من الإجراءات الصارمة لمواجهة تهديد الإرهابيين وذلك على ثلاث جبهات ذات صلة بعضها مع البعض هي: الأمن والدين والإصلاح.

الجبهة الأولى: الأمن:

بتاريخ ١٢ مايو ٢٠٠٣م، شن المتطرفون السعوديون هجمات على ثلاثة مجمعات سكنية يقطنها غربيون في مدينة الرياض فأوقعوا ٣٤ قتيلاً. أعقب ذلك سلسلة هجمات أقل حدة من الأولى كانت آخرها تلك التي وقعت في شهر سبتمبر عندما اغتيل مواطن

* سفير أمريكي سابق في عدة دول عربية ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

بريطاني وآخر فرنسي [١]. إن طبيعة الهجمات التي وقعت عام ٢٠٠٣م، خاصة تلك التي استهدفت الغربيين دعت السفارة الأمريكية إلى أن تصدر تحذيرات إلى ٣٧٫٠٠٠ من مواطنيها المقيمين في المملكة العربية السعودية وإلى أن تطلب في نفس الوقت مغادرة طوعية للدبلوماسيين غير الرسميين، وفي نفس الوقت أصدر البريطانيون تحذيرات من السفر الذي لا تستدعيه الضرورة إلى المملكة، وقد أفاد عدد من المسؤولين السعوديين أن التحذيرات أدت إلى مغادرة حوالي ثلث الغربيين من المملكة، إلا أن معظم أولئك الذين غادروا كانوا من أعضاء الأسر وكانت مغادرتهم مؤقتة فقط. ولم تتأثر عكسياً الخدمات الحيوية أو إمكانيات الإنتاج بفعل تلك الأحداث، اتضح ذلك من ارتفاع إنتاج النفط السعودي.

إن التهديد في المملكة العربية السعودية، الذي كان موجوداً في السابق، قد أصبح أكثر بروزاً منذ هجمات عام ٢٠٠٣م، حيث اتضح ذلك من خلال الجهود السعودية المتواصلة، الجيدة الدعاية، والعنيفة أحياناً، التي تسعى إلى تدمير الشبكة الإرهابية، فقد أصدرت السفارة السعودية في واشنطن تقريراً في سبتمبر عام ٢٠٠٤م تطرق إلى أكثر من ٤٠ حادثة منفصلة منذ شهر مايو ٢٠٠٣م، تم خلالها إما اعتقال إرهابيين أو قتلهم في اشتبكات مع قوات الأمن، وتفيد السفارة السعودية أنه أثناء مجريات هذه الأحداث قتل ٥٨ إرهابياً وقبض على ٩٨ منهم؛ وفي الوقت نفسه لقي ٣٦ من أفراد الشرطة حتفهم بينما أصيب عدد كبير.

في ٦ ديسمبر ٢٠٠٣م نشرت وزارة الداخلية أسماء وصور ٢٦ من المشتبه بهم المطلوبين للجهات الأمنية، وهذا هو الأسلوب التكتيكي نفسه الذي كان ينتهجه مكتب التحقيقات الفدرالي والذي لم يكن معروفاً في السعودية من قبل. ومع حلول شهر أغسطس عام ٢٠٠٤م ، كان ١١ فرداً من المطلوب القبض عليهم ما يزالون طلقاء، بينما تم قتل ١٢ واعتقال ثلاثة [٢] وقد كان الإعلان نفسه عن هؤلاء أمراً غير مألوف، إذ وافقت أسرهم على نشر الإعلان، ومن المعروف أنه في المجتمع المبني على الترابط الأسري في المملكة العربية السعودية تعتبر موافقة الأسر على المساعدة في القبض على أبنائها مؤشراً على التحول والارتباك الذي شعر به الكثير من السعوديين حيال الهجمات التي وقعت على الأجانب الذين كانوا ضيوفاً في بلدهم، وكان هذا الإحساس مؤثراً بصفة خاصة عندما وقع مسلمون ضمن ضحايا الإرهابيين.

لم ينجح الإرهابيون في كسب دعم عامة الناس. وقد أدى ذلك إلى زيادة تدفق الوشايات والمعلومات السرية حول مواقع ونشاطات الإرهابيين المشتبه فيها. في مسودة تقرير مقدم من قبل أنثوني كوردسمان Anthony Cordesman ونواف عبيد في شهر سبتمبر ٢٠٠٤م، خلص مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية إلى ما يلي: " إلى الآن، يبدو أن هناك دعماً اجتماعياً طفيفاً للتطرف العنيف في أي مكان على نطاق المملكة، وإلى هذا الحد هناك دراسات استطلاعية لآراء عامة الناس ذات صلة بهذا الموضوع تشير إلى أن

الشباب السعودي أكثر رغبة واهتماماً بالتعليم والوظائف والعمل بدلاً من أي شكل آخر من أشكال التطرف، وأن القضية السياسية الأكثر استقطاباً للآراء هي قضية النزاع العربي الإسرائيلي وليس الدين " [٣].

يعتبر السجل السعودي خلال السنتين الماضيتين واحداً من أكثر الجهود عنفاً من أجل استئصال الإرهاب من المملكة، والاعتقاد السائد لدى جهات الأمن السعودية، والكثير من المسؤولين في الولايات المتحدة الأمريكية أن هذه الجهود كانت مثمرة، ففي نشرة التقرير السنوي لوزارة الخارجية الأمريكية بعنوان: "أنماط الإرهاب الدولي - ٢٠٠٣م" ، أثنى مساعد وزير الخارجية السيد ارميتاج في ١٩ أبريل ٢٠٠٤م على المملكة العربية السعودية في إجراءاتها التي اتخذتها قائلاً: " كما تلاحظون من هذا التقرير، إن التفجير الذي وقع في الأسبوع المنصرم في مدينة الرياض لم يكن الأول من نوعه في المملكة، هذان الهجومان اللذان وقعا في العام الماضي لم يكن لهما الأثر الذي كان يرمي إليه منفذو الهجومين، وإن وحشيته لم تضعف عزيمة السلطة السعودية بل عملت تلك الوحشية فقط على تقوية العزيمة السعودية وزيادة الإصرار على مواصلة جهود الإرهاب المضاد وفتح أبواب جديدة على مصراعيها للتعاون ضد الإرهاب. وهكذا، أطلقت السعودية حملة كاسحة على الإرهاب، شملت إجراءات عسكرية وإجراءات لتعزيز القانون، بل سعت أيضاً إلى تحليل الذات والإصلاحات الداخلية، ذلك هو نوع الالتزام الذي يجعلنا ننتصر جميعاً " [٤].

وفقاً لإفادة المتحدث باسم وزارة الداخلية السعودية فإنه منذ اتخاذ تلك الإجراءات الصارمة لاحظت السلطات السعودية انخفاضاً في كمية ونوعية العمليات الإرهابية في المملكة. فقد انخفضت منافذ وصول الإرهابيين إلى مواد التفجير العالية التقنية وتراجعت مصادرهم وعمليات إطلاقهم للنار أثناء قيادتهم للسيارات بدلاً من العمليات الواسعة النطاق التي كانت تستهدف المجمعات السكنية والمباني الحكومية، كما أن هناك مؤشراً على أن نوعية المجندين الجدد في صفوف الإرهابيين قد هبطت، لأن أولئك الذين تخرجوا من أفغانستان إما أنهم لقوا حتفهم أو وقعوا قيد الأسر. هؤلاء المجندون الجدد لا يتمتعون بالمهارات الفنية والتنظيمية اللازمة للقيام بهجمات متطورة أو تكوين خلايا محكمة التنظيم وملاذاً آمناً لأنفسهم(٥).

لا أحد يستطيع القول إن التهديد قد انتهى، لكن حدته خفت بكل تأكيد، وحيث إن الدولة ألقت القبض على عدد كبير من الإرهابيين فإن المعلومات التي حصلت عليها من التحقيقات قد ازدادت تصاعدياً.

إن الإجراءات السعودية ضد الإرهابيين كانت متوافقة مع الجهود السعودية الهادفة إلى تعزيز أمن مرافقها وقوات الأمن نفسها، وكان الاهتمام الواضح والشديد يتمثل في أمن مرافق إنتاج النفط وأمن الشخصيات الأجنبية العاملة في المملكة. في الواقع كانت المملكة قد بدأت في حشد هائل للأمن في المنشآت

نتيجة للحرب الإيرانية ـ العراقية ، إلا أن رد الفعل الأقوى بدأ منذ أن استهدف الإرهابيون في المملكة عمال النفط وشركات النفط الغربية. فشركة النفط الوطنية السعودية (أرامكو) قد رفعت من قوة الحراسة داخل الشركة وقامت بتعزيز الأسوار المحيطة بالشركة والمنافذ المؤدية إلى داخلها. كما إنها وسعت من عمليات دورياتها من أجل إنشاء خط أو من السور إلى ما وراء محيط الشركة، بالإضافة إل ذلك فقد تم تعزيز الأمن حول المجمعات السكنية عبر المملكة حيث أصبح رجال الحراسة المسلحين الآن عنصراً ثابتاً في العاصمة الرياض.

لقد تم تخصيص نفقات هائلة لتطوير الأمن عبر حدود المملكة وشمل ذلك إبرام عقد بعدة بلايين من الدولارات من أجل تأمين أجهزة مراقبة حدود عالية التطور بهدف كبح حركة الإرهابيين والمهربين عبر الحدود خاصة اليمن. لاشك أن هذا الجهد كان مدعوماً بعائدات إضافية ضخمة نتيجة لارتفاع أسعار النفط. علاوة على ذلك، قامت قوات الأمن السعودية في كل قطاعاتها بتحسين التنسيق والتعاون فيما بينها والتخلص إلى حد كبير من روتين تسلسل القرارات الذي كان يعيق رد الفعل السريع حيث كان لابد من رفع القرارات إلى المستوى الوزاري لاعتمادها قبل وضعها موضع التنفيذ.

الجبهة الثانية:

انطلقت الجبهة الثانية من المواجهة السعودية للإرهاب على مستوى الإسلام. فقد أشار الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية في مجلس العلاقات الخارجية بنيويورك في أبريل ٢٠٠٤م قائلا: "في الواقع أن المؤسسة الدينية في المملكة العربية السعودية هي الجهة الأكثر تأهيلاً لدحض وإبطال شرعية دعاوى القاعدة" وكان بيان الأمير سعود الفيصل قد أتى بعد سلسلة من البيانات الصادرة من الأسرة الحاكمة والمؤسسة الدينية التي سعت إلى تحريم الإرهاب والفكر المنحرف الذي يؤيده.

بعد أن عرفنا أن حادثة ١١ سبتمبر نفذها أسامة بن لادن وأن غالبية المهاجمين كانوا سعوديين، فإن الكثير من الناس فهموا أن الفكر الوهابي هو العامل المشجع للإرهابيين. القلة فقط من الناس كانت وقتها تعرف، أو تعرف الآن، ما هي الوهابية. وعلى الرغم مما تعتقده أنت عن مصدر فلسفة أبن لادن وفقاً لتقرير لجنة ١١ سبتمبر، إلا أن أصل الأيدلوجية التي يتبعها أبن لادن ليست هي الوهابية: "يعتمد أبن لادن اعتماداً كلياً على الكاتب المصري سيد قطب الذي كان عضواً في جماعة الأخوان المسلمين وجرى إعدامه عام ١٩٦٦م بتهم تتعلق بمحاولة قلب نظام الحكم في مصر".

حذر قطب من أن أكثرية الناس، وفيهم المسلمين، قد انجذبوا نحو المباهج المادية بدلاً من انتهاج فكره المتشدد في الإسلام. وقال

هو وجماعته أنه لا يوجد حل وسط، وما لم يحمل المسلمون السلاح فإن الجهل والماديات سوف تنتصر.

إذاً، جذور المشكلة نبعت من مصر ومن الإخوان المسلمين في مطلع القرن العشرين. إن الأخوان المسلمين يسعون اليوم إلى الحصول على الاحترام، بيد أن ماضيهم تميز بأحداث إرهابية في الكثير من الدول العربية. وكان النفوذ المصري ونفوذ الأخوان المسلمين قد ازداد اتساعاً في النسيج السعودي بعد طرد الأخوان المسلمين من مصر وسوريا في الستينيات والسبعينيات، فوجدوا ملاذاً لهم في السعودية التي كانت تعاني من عجز في الموارد البشرية خاصة في مجالات التعليم والقضاء والإمامة في المساجد. وكان عدد من المعلقين في الولايات المتحدة الأمريكية قد شكك في الاتهام الصادر من وزير الداخلية السعودي الأمير نايف في نوفمبر ٢٠٠٢م، ومؤخراً في صيف عام ٢٠٠٤م، القائل أن الإخوان المسلمين هم السبب في المشاكل الإرهابية في السعودية، واعتبروا هذا الاتهام تهرباً من المسؤولية. ومع ذلك كان الأمير صائباً في رأيه، حيث إن أيدلوجية القاعدة قد نشأت من الإخوان ومن التابعين لهم الذين لجؤوا إلى المملكة.

في فبراير عام ٢٠٠٣م، قام مجلس هيئة كبار العلماء في السعودية بتكذيب الحجج لدى القاعدة وأعلن: "إن سفك دماء الأبرياء، وتفجير المباني والسفن، وتدمير المنشآت العامة والخاصة

هي أعمالٌ إجرامية ضد الإسلام. أولئك المنفذين لمثل تلك الأعمال لديهم معتقدات منحرفة وأفكار مضللة ويجب تحميلهم مسؤولية جرائمهم. إن الشريعة الإسلامية تحرم بوضوح توجيه مثل هذه الاتهامات ضد غير المسلمين، وتحذر من اتباع أولئك الذين يحملون مثل هذه المعتقدات المنحرفة " (٦).

في ديسمبر ٢٠٠٣م وضع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد الأجندة السعودية حول دور الدين في مهاجمة الإرهاب ووضع تحدياً شاملاً أمام السلطات الدينية والعلماء في مجمع الفقة الإسلامي في مكة شملت الأجندة المطالبات والدعوات التالية:

- يجب على العلماء أن يوضحوا بجلاء المخاطر التي يشكلها التطرف على عقيدة وسلوك المسلمين ومواجهة الفكر المنحرف الذي أفضى إلى ظهور الإرهاب في المملكة.

- يجب على العلماء استخدام الحجج الدينية لدحض " الفتاوى الضالة " مشيرين إلى الأوامر الدينية الصادرة من الذين شرعوا القتال والتفجيرات الانتحارية.

- يجب عليهم مكافحة ممارسة نعت آخرين، وفيهم المسلمون السويون، بـ " الكفار الذين يجب الجهاد ضدهم ".

- يجب على العلماء صياغة معاني واضحة لعبارات مثل الجهاد، الجماعة، دار الحرب ودار السلام " نتوقع منكم توضيح المعنى الصحيح لهذه العبارات لتكون مرجعاً للشباب " (٧).

أفادت السفارة السعودية أنه " خلال عام ٢٠٠٣م تم اتخاذ إجراءات تأديبية تجاه ألفين من أئمة المساجد الذين كانوا ينتهكون الأوامر القاضية بعدم الوعظ الذي يدعو إلى التعصب، كما تم تحويل أكثر من ١٥٠٠ آخرين إلى برامج تعليمية " بالإضافة إلى ذلك، فقد ورد أن وزارة الشؤون الإسلامية قد بدأت في " برنامج يمتد لثلاث سنوات يهدف إلى تعليم الأئمة ومراقبة المساجد والتعليم الديني حتى يتسنى استئصال التطرف والتعصب " (٨).

كان الإجراء الذي اتخذته السلطات ضد القادة الدينيين الراديكاليين مبنياً على أمر رسمي بتاريخ ٧ ديسمبر ٢٠٠٢م صادر من وزير الشؤون الإسلامية الذي كان يرمي إلى "منع الأشخاص غير المصرح لهم من إلقاء خطب في المساجد، وحذر خطباء المساجد من إلقاء أي خطب تحريضية ومن إثارة مشاعر الناس ". كما حذر الوزير من استخدام المساجد كمنابر سياسية " (٩). تم توكيد ذلك الإجراء السعودي في مايو ٢٠٠٣م باعتقال ثلاثة من المشايخ الذين كانوا يدعون إلى الدفاع عن الإرهابيين الذين نفذوا هجمات شهر مايو في مدينة الرياض، وقد تراجع هؤلاء الثلاثة عن مواقفهم وفتواهم تلك على شاشة التلفزيون السعودي في شهري نوفمبر وديسمبر من ذلك العام.

الجبهة الثالثة: الإصلاح:

هناك إجماع هامشي جداً حول دوافع الإرهابيين، وقد يعزى ذلك ببساطة إلى حقيقة أن الدوافع تختلف بين الجنسيات والأفراد. لكن، إذا كان صحيحاً ما يتردد من أن الشباب السعودي يكافح من أجل الحصول على التعليم والوظيفة والعمل، فإنه ينبغي على السلطات السعودية التركيز على النواقص والقصور في هذه النواحي الثلاث.

للوفاء بالوعد الذي يتوقعه السعوديون من حكومتهم، يجب على المملكة البدء في عملية إصلاح طموحة موجهة نحو الاقتصاد والنظام التعليمي والديمقراطية. كان رد فعل الملك فهد على الهجمات الإرهابية في الرياض واضحاً من خلال البيان الذي أصدره في ٢٠ مايو ٢٠٠٣م حيث قال: لا أحد يجهل مدى جدية تحركنا نحو الإصلاح، وأقول لكل مواطن إن كل فرد من بيننا لديه دور ومسؤولية تجاه هذا المسعى، أقول لكل موظف حكومي إن الخدمة العامة شرف، ولها التزامات من أجل المصلحة العامة وليس لها أي مزايا خاصة. أقول لكل رجل أعمال إن اقتصادنا ليس مجرد رأس المال والربح، بل هو استثمار في الأمن القومي والسلامة القومية. أقول لكل امرأة هذا البلد للجميع وسوف تكونين شريكة في صناعة مستقبله، وأقول لكل المسؤولين في التعليم إنهم صناع أجيال المستقبل. إن التعليم الجيد ينهض بالشخصية ويغرس القيم في الصغار من أجل مصلحة هذا البلد " [(١٠)].

عرض الملك أجندة طموحة حول الإصلاح الاقتصادي، الفساد،

والإصلاح التعليمي ـ وجميعها مجالات هامة تتطلب عملاً في مكافحة الإرهاب. ولوضع أفكار الملك فهد موضع التنفيذ أسس ولي العهد الأمير عبدالله في أغسطس ٢٠٠٣م مركزاً للحوار الوطني هدفه الرقي بمستوى تبادل الآراء العامة حول الإصلاح وعقدت أربع جولات من الحوار حول التعليم، التطرف ودور النساء، قضايا الشباب. في مارس ٢٠٠٤م اعتمد الملك فهد تأسيس " جمعية حقوق إنسان وطنية مستقلة " وفي خطوة إصلاحية هامة اعتمدت المملكة العربية السعودية في أكتوبر ٢٠٠٣م خططاً لإجراء انتخابات يتم بموجبها انتخاب نصف ممثلي أعضاء من ١٧٨ مجلس بلدي على نطاق المدن والقرى في ١٣ محافظة، وتقرر إجراء الانتخابات بداية ٢٠٠٥م، وقد كان.

وهناك إصلاحات اقتصادية هامة ضمن إطار التحرك للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية. فقد بُدئ في الإصلاحات القانونية المتعلقة بحقوق النشر، البراءة، أسواق رأس المال، الاستثمار الأجنبي، وأرباح رأس المال، وذلك من خلال التفاوض حول ٣٥ اتفاقية تجارة ثنائية مع أعضاء منظمة التجارة العالمية.

أما في مجال التعليم، وهو الأهم بالنسبة لمستقبل السعودية، فإن سرعة الإصلاح تعتبر معقدة وبطيئة. فبينما قام السعوديون بتقييم كتبهم المدرسية للتحقق من المواد المسببة للإثارة وأنهم توصلوا إلى أن ٥٪ من النصوص غير مناسبة، وبينما يقومون بمراجعة مناهجهم بهدف التحديث، إلا أن التغيير كان طفيفاً في المناهج التربوية التعليمية. وضع السعوديون اثنين من البرامج

التـجـريبيـة في الريـاض وجدة من أجل تجـربتـهـمـا في الأسـالـيب التـعليمـيـة الجديدة، وهذا تطور مـحل ترحيب، بالإضـافة إلى ذلك، عمل الـسـعـوديون على تأسـيـس مـجـالس طـلابيـة في المدارس الـحـكومـيـة لـلبدء في تعليم الطلاب الصغار المسؤوليات الوطنية والمشاركة في التوجيه.

الخلاصة:

ما زال ينتظر المملكة العربية السعـودية الكثير من العمل من أجل تـحسـين تطور وفعالـية أجهزتها الأمنيـة، وللسعوديين حليف راغب في العـمل معهم يتمثل فـي الولايات المتحدة الأمريكيـة، وبامكان السعودية توسعـة جهودها إلى ما وراء حدودها بحـيث تقوم بتجنيد الدين ضـمن الحرب على الإرهاب. وفي هذا المجال، يجب أن تأخذ في الاعتبار الاسـتعانة بدول إسلامية أخرى ابتليت بالإرهاب الـراديكالي. وفي كـلا الـحـالتين أحرز الـسـعـوديون تقـدمـاً ملحوظاً، لكن عليـهم أن يقطعوا مشواراً أطول في مـجال الإصـلاح. إن بداية السعوديين مشجعـة: أولاً من خلال الإقرار بالمشاكل التي تحتل أولوية عليا لديهم، وثانياً: من خـلال اتخاذ سلسلة من الإجراءات للتحـرك إلى الأمام في كافـة الجبهات الثـلاث المذكورة ضمن هذا المقـال، وثالثاً من خلال اسـتـخدام الدعم العريض من الشعب السعودي ضد الإرهابيين، وإدراك المجتمع خطر الإرهاب. لاشك أن السـعـودية أكثـر أمناً اليوم عـما كان عليـه الحال قـبل عام مضـى، وأنـهـا إذا ظلت على نفس المنوال الراهن فإنـهـا سوف تكون أكثر أمناً خلال السنوات القادمة.

الهوامش:

١ ـ Center For Strategic and Inernational Studies (Working Draft, Saudi National Security...).

٢ ـ تقـرير صـادر عن المكتب الإعـلامي في سفـارة المملكة العربيـة السـعـودية في واشـنطن بتاريخ ١٣ اكتوبر ٢٠٠٤م.

٣ ـ Center For Strategic and International Studies,Ibid,pp 147 - 148.

٤ ـ من حـديث نائب وزير الخـارجيـة الأمـريكي أرمـيتـاج في ٢٩ أبريل ٢٠٠٤م، بمنـاسبـة صدور التقرير السنوي لعام ٢٠٠٣م حول (أنماط الإرهاب العالمي).

٥ ـ تقرير لمكتب وكـالة الاسيوشيـتدبرس في الرياض بعنوان: (السعودية تكشف عمليات القاعدة) ١٠ سبتمبر ٢٠٠٤م.

٦ ـ تقرير لمسـؤولين سعـوديين يدينون فيـه العنف ويدعون إلى الإصلاح، المكتب الإعلامي في سفارة المملكة العربية السعودية في واشنطن. ديسمبر ٢٠٠٤م، ص ٢٥.

٧ ـ جريدة (عرب نيوز)، الأحد ١٤ ديسمبر ٢٠٠٣م.

٨ ـ تقـرير صـادر عن المكتب الإعـلامي في سفـارة المملكة العربيـة السـعـودية في واشـنطن حول: (الإصلاحات السياسية والاقتصادية في السعودية) سبتمبر ٢٠٠٤م.

٩ ـ تقرير المسؤولين السعوديين. مرجع سابق. ص ٢٨.

١٠ ـ Center For Strategic and International Studies, Ibd, P. 17

معاناة العربية السعودية من ظاهرة الإرهاب

خالد بن حمد المالك *

لم يكن مصطلح الإرهاب معروفاً من قبل بهذا الحضور اليومي القوي في مختلف وسائل الإعلام، وما كان له أن يتكرر أو يتردد تداوله على النحو الذي نراه اليوم في الندوات والمؤتمرات بمختلف مستوياتها وتنوع اهتماماتها لولا أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م.

والإرهاب بمفهومه اليوم لم يكن من قبل ـ وتحديداً قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ـ لصيقاً مع كل حدث مأساوي يعلن عن حدوثه في هذه الدولة أو تلك، مثلما أنه لم يوظّف أو يستثمر من قبل للدلالة أو التدليل على مفهوم هذا النوع من الأعمال الدموية.

الإرهاب إذاً كمفردة أو كلمة، كمصطلح أو توصيف لحالة، بدأ يأخذ بعداً جديداً ويستقطب اهتماماً دولياً أكبر منذ أن أطلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر بوجهها المشؤوم، وبالتالي فلم يعد الإرهاب باتفاق دول العالم

* رئيس تحرير جريدة الجزيرة ـ السعودية.

مصطلحاً أو لفظاً أو كلمة عابرة لا تثير الاهتمام، بل أضحى يقوى ويتمدد بيننا مثلما تتمدد النار في الهشيم، بفعل من يخطط له ويموّله ويتبنى أفعاله.

والإرهاب ـ كما نفهمه ـ يقوّض أمن الشعوب ويقتل الأبرياء، ويحدث حالات من البلبلة وعدم الاستقرار في العالم، وهو عمل بغيض ومكروه وأسلوب لا يعالج قضية ولا ينتصر لحق، إنه باختصار: عمل مجنون وطائش ويائس يرتكب منفذوه ومموّلوه والمخططون له جرائم بحق الإنسانية دون رادع من ضمير.

والإرهاب بأضراره وآثاره المدمرة لا يقوم به فقط أفراد أو خليّات أو تنظيمات محدودة العدد والعدة والإمكانات، وإنما تقوم به وتمارسه وتفعله بعض الدول أيضاً وهو ما يُسمى بإرهاب الدولة، مثلما تفعل إسرائيل في فلسطين بعدوانها وقتلها للقيادات الفلسطينية، اغتيالاتها للأبرياء من النساء والشيوخ والأطفال، وكما تفعل في هدمها للمنازل والمستشفيات والمدارس والمساجد على امتداد الأراضي الفلسطينية المحتلة تحت ذريعة أنها تحارب بذلك الإرهاب وهو زعم واهٍ وغير صحيح.

وبذلك فإسرائيل ـ وحدها ـ من سبقت غيرها في استعمال مصطلح «الإرهاب» على مستوى الدولة، وحددت الفلسطينيين ـ بالاسم ـ باعتبار مقاومتهم المشروعة للاحتلال الإسرائيلي البغيض عملاً من أعمال الإرهاب الذي يجب أن يواجه بمثل ما تقوم به إسرائيل اليوم، وهو طرح يتكرر يومياً ومنذ أمد طويل ضمن السياق الإسرائيلي للتغطية على ما تقوم به هذه الدولة من أعمال

إرهابية بحق الشعب الفلسطيني الذي يدافع عن حقه في إقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريفة.

ومما يثير الانتباه ويشكك في الأهداف والنوايا نحو مزيد من الأسئلة الغامضة التي تبحث عن إجابات لها، أن اهتمام العالم بقضية الإرهاب ومتابعته لآثاره المدمرة وجهده للتضييق على فاعليه لم يأت إلا بعد أن دكّ الإرهابيون معالم القوة في الولايات المتحدة الأمريكية وهزوا كبرياء أقوى دول العالم بضربات إرهابية موجعة وقاتلة في اليوم الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، وهو ما جعل إدارة بوش تسارع بحملتها التي بدأت منذ ذلك اليوم ـ ولم تنته بعد ـ فيما سُمي بمحاربة الإرهاب، ولا يلوح في الأفق ـ كما يبدو ـ أي نجاح أو تأثير لهذه الحملة في تجفيف منابعه أو التضييق على فاعليه بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات على هذه الحوادث الإرهابية.

ونظرتنا ـ كسعوديين ـ لشبكات الإرهاب، وموقفنا من المنظمات الإرهابية ـ هو اليوم كما هو من قبل ـ موقف ثابت يقوم على مساندة من يقوم بمحاربتها والتصدي لها بكل السبل المتاحة والمشروعة لتطويقها والقضاء على عناصرها وأفرادها من غير انتقاء، لأن ما تقوم به القاعدة ـ بنظرنا ـ يماثل ما تقوم به إسرائيل، ولا يختلفان عما يقوم به أي إرهابي أياً كان اسم الدولة التي ينتمي إليها ويحمل جنسيتها هذا الإرهابي أو ذاك.

فالإرهاب بمدلوله وشواهده وآثاره المؤلمة يستوطن كل دول

العالم، وهو بذلك لا ينتمي إلى فئة دون أخرى، أو إلى دولة دون غيرها، أو إلى دين دون آخر، وإنما هو ظاهرة قاتلة تغذيها عناصر وتجمعات ودول بقصد الإضرار بالشعوب والدول بلا وجل أو خوف، ضمن نظرة ضيقة وقراءة غير صحيحة لما ينبغي أن يكون عليه مستقبل العالم، وإذا ما قيل بغير ذلك فهو كلام واستنتاج يحتاج إلى دليل.

ومنذ اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر في العام ٢٠٠١م والمملكة العربية السعودية ـ مع شديد الأسف ـ تحتل موقعاً متقدماً في تصنيف ظالم من بعض الدوائر في الولايات المتحدة الأمريكية للدول التي تعتبرها المصدرة والداعمة للإرهاب، وفق ما تروج به وله الآلة الإعلامية النشطة في أمريكا التي تغذيها وتوجهها قوى معادية للمملكة يسوؤها ويزعجها أن تستمر العلاقة السعودية الأمريكية منذ أكثر من نصف قرن بكل هذا التميز، فاستغل اللوبي الصهيوني المعادي للمملكة ما قيل عن مشاركة خمسة عشر من المواطنين السعوديين في العمل العدواني الإرهابي على أمريكا في الحادي عشر من سبتمبر لتضرب هذه القوى العلاقة التاريخية بين البلدين في الصميم، من خلال القول بأن ما حدث إنما يمثّل موقفاً عدوانياً على مستوى الدولة السعودية لشعب الولايات المتحدة الأمريكية، وأنه قد آن الأوان لفك هذا الارتباط في علاقة الأخوة والصداقة بين البلدين.

ولسنا في حاجة إلى نفي علاقة المملكة السعودية أو علمها المسبق بكل ما هو عمل إرهابي أو عدوان يندرج ضمن هذا التصنيف، فقد كفانا ذلك ـ وبعد طول انتظار ـ التقرير الذي صدر عن الكونجرس الأمريكي والذي نفى فيه أن تكون المملكة قد تورطت في هذه الاعتداءات أو أنها كانت ملاذاً آمناً لمن قام به من رعاياها، وذلك بناءً على ما توصلت إليه التحقيقات الشاملة والدقيقة حول هذا الموضوع، حيث لم يتبين لها أي صلة للمملكة بما حدث أو أن لها علاقة بأولئك الأشخاص الذين ينتمون إلى المملكة وقيل إنهم كانوا ضمن المشاركين في هذه الاعتداءات.

لقد أصبح الجميع اليوم على علم بأن المملكة العربية السعودية هي الدولة الأكثر تضرراً بأفعال هؤلاء الإرهابيين، وأن معاناتها من ذلك سبقت أحداث الحادي عشر من سبتمبر بسنوات، وأنها نبهت مبكراً دول العالم وحذّرت الجميع من خطورة ظاهرة الإرهاب، مستشهدة بما تتعرض له المملكة من تفجيرات ومحاولات مستمرة لزعزعة الأمن والاستقرار فيها، غير أن صوتها وتحذيراتها كانت تذهب سدىً ولا تلقى ذلك الاهتمام الذي كانت المملكة تتوخاه من المجتمع الدولي المتحضّر، ربما لأن آثاره وجحيمه لم يكن قد امتد إلى الدول التي تقود اليوم الحملة الشرسة والعنيفة ضد أماكن ورموز ومسؤولي العمليات الإرهابية، وبالتالي لم تأخذ هذه الدول إشارات المملكة بمحمل الجد فتعطيها حقها من الاهتمام والمتابعة والإسهام في إخماد هذه الفتنة العمياء.

ومثلما تأثرت الولايات المتحدة أمنياً واقتصادياً بما حدث لها من أعمال إرهابية، كانت الأعمال الإرهابية في المملكة العربية السعودية ذات تأثير كبير أيضاً على أمنها واقتصادها، وشواهده واضحة لمن يزور المملكة ويطلع على آثار التفجيرات في عدد من مدن المملكة، بما لا مجال فيه للادعاء بأن المملكة خارج أسوار من تضرر من الدول بهذه الأعمال الإرهابية، أو أنها بمأمن من آثاره بحكم أن بعض من ينتمون إلى المملكة ممن يقال إنهم إرهابيون هم من فعلوا ما فعلوه في الولايات المتحدة الأمريكية وفي غيرها من الدول.

ولو تحدثنا عن معاناة المملكة من ظاهرة الإرهاب باختيار تفجيرات الرياض أنموذجاً لكفانا القول بأن الرياض ـ قبل غيرها ـ ضحية لهؤلاء الإرهابيين، فقد هدمت المجمعات السكنية وقُتل من قتل فيها من الأبرياء، وركّز هؤلاء الإرهابيون على رجال الأمن بتفجير المباني التي يعملون فيها وإطلاق الرصاص على من يوجد منهم في الميادين والطرقات، ولم يسلم المواطن وغير المواطن من المدنيين من أعمال لا إنسانية قاموا بها مع علمهم بأنها تتنافى مع تعاليم الإسلام، وتلك كان لها ردود فعل شعبية واسعة، إذ دانها واستنكرها وندّد بها المجتمع السعودي مؤكداً أنها لا تعبّر عن موقف الإسلام وأن الشعب السعودي ضد هذا النوع من الأعمال.

وبهذا فنحن نستغرب هذه الحملات الإعلامية ضد المملكة العربية السعودية مع وضوح الرؤية وانجلاء الحقيقة، ولا ندري هل من يقوم بهذه الحملات من وسائل الإعلام المعادي للمملكة

لديه اقتناع بأنه يخدم بذلك الأمن والسلام العالميين، أو أنه ـ وقد وظّف هذه الظاهرة الإرهابية لتمرير بعض اقتناعه ـ إنما أراد بذلك أن يصب الزيت على النار لإشعال المزيد من الفتن في هذا العالم، والإساءة إلى العلاقات الدولية لهدف ربما أفضى بعد ذلك إلى عجز الدول عن السيطرة عليه.

ومع هذا فإن المملكة العربية السعودية قد واجهت ظاهرة الإرهاب بمقاييس سياستها وبما يحقق مصالحها دون إملاءات من غيرها. وبمعنى آخر فإن مواجهة المملكة لهذه الظاهرة لم تكن بضغوط خارجية، وإنما كانت منسجمة مع ظروف الواقع ومستجدات الأحداث، وهو ما وسّع أمام مسؤوليها دائرة التصدي لهؤلاء، باستهداف فكر الغلو عندهم، وثقافة من تخلّى عن تعاليم دينه الحقيقية، وبإعادة النظر بكثير من المسلّمات التي كانت قائمة.

ومن الواضح أن قرار حكومة المملكة إنشاء «الهيئة العليا للإغاثة» بعد دراسة متأنية للموضوع قام بها مجلس الشورى ثم مجلس الوزراء السعوديان، كان بمثابة إشراف مباشر من الدولة على جميع التبرعات المالية التي كانت الجمعيات الخيرية تقوم بإرسالها إلى خارج المملكة، لينسجم هذا القرار مع توجهات وحرص المملكة على إنفاق هذه الأموال على ما خصصت له وعدم استخدامها في غير أهدافها، كما أن توجيهات خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده بتكوين لجنة عليا برئاسة النائب الثاني

لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران، لمراجعة جميع المناهج التعليمية وتطويرها وتنقيتها من ثقافة الغلو والانحراف والتطرف مع التركيز على سياسة الوسطية، إنما هو قرار سليم يؤكد مدى حرص المملكة العربية السعودية على مواجهة الإرهاب بمقاييسها هي، ووفق ما تبيّن لها من حاجة إلى إعادة النظر في كثير مما كان يعد من المسلّمات قبل تمادي البعض في القيام بأعمال إرهابية وترويع الآمنين.

إن الإرهاب وإن قالت وزارة الخارجية الأمريكية في تقرير لها إنه «لا يوجد تعريف دولي وحيد مقبول عالمياً للإرهاب»، فهو في مفهومنا يمثّل هذا العدوان الآثم والصارخ الذي تقوم به الدول والمنظمات والأفراد ضد أمن واستقرار الشعوب، إسرائيل أنموذج بما تقوم به في فلسطين، والإرهابيون الذين يفجّرون المجمعات السكنية ويقتلون الأبرياء في مدينة الرياض ومدن أخرى أنموذج آخر، ولا ينبغي الخلط بين عمل هؤلاء الإرهابيين وأي عمل مشروع يدافع به الإنسان عن حقه في حياة حرة كريمة، كما هو الحال في مقاومة الشعب الفلسطيني للعدو الإسرائيلي المحتل لأرضه على مدى نصف قرن مضى وانقضى، دون تدخل من العالم لإلزام إسرائيل بالقبول بقرارات الشرعية الدولية.

مقاييس المملكة في مواجهة الإرهاب

سليمان بن عبدالعزيز الربعي *

أبعدُ من خطر الهجمات الإرهابية التي تواجهها المملكة العربية السعودية داخلياً، المحاولات الخارجية المنهجة لترويج فكرة وجود علاقة إيجابية وعضوية بينها وبين الإرهاب. منذ أحداث ١١/ ٩/ ٢٠٠١م والمملكة تعاني معاناة حقيقية بسبب الصورة النمطية التي تسوّقها ـ على نطاق واسع ـ أطراف وقوى مختلفة، بوسائل وآليات مفتوحة، غايتها النهائية : **الضغط عليها باتجاه التغيير؛ ليس الكمي أو الجزئي فقط، وإنما أيضاً النوعي الكلي الذي يشمل خلفياتها الفكرية وهويتها الثقافية وتركيبتها الاجتماعية.**

إشكالية هذه الصورة أن خطرها تراتبي مزدوج؛ فنتائجها التضليلية مبنية على مقدمات مغلوطة. لقد كان مجرد انتماء بعض خاطفي الطائرات التي ضربت واشنطن ونيويورك إلى السعودية

* محاضر بجامعة القصيم ـ السعودية.

كافياً من وجهة نظر تلك القوى لاتخاذ موقف عدائي منها، توظف «لعولمته» وسائل التأثير التقليدية وغير التقليدية، وتقفز لإشاعاته على القوانين العلمية لبلوغ الحقائق، في إعادة معاصرة لمقولات الفلسفة السفسطائية التي سادت إبان القروسطية الأوروبية.

هنا بالتحديد، لن نتكلف في الكشف عن افتقار هذا المنهج للموضوعية واستعصائه على التفسير المنطقي، سوى طرح عشرات النماذج لمنظمات غربية مارست الإرهاب المنظّم داخل مجتمعاتها وخارجها[١] ، ومع ذلك لم يتم تجريم دولها ولا أديانها، وإنما اعتمدت المحاسبة على مبدأ المسؤولية الفردية، في تناقض ينتج صورة دالة على أنه لا علامة فارقة للسياسة الغربية اليوم ـ خاصة الأمريكية منها ـ أوضح من سياسة الكيل بمكيالين!

لقد فشلت السياسة الأمريكية في مواجهة الأحداث فشلاً ذريعاً ومدّوياً. فعوضاً عن أن تستند معالجتها للمشكلة إلى وعي بالمحددات الموضوعية لثقافة الأزمة والامتثال لضوابطها المعرفية التي تمثل أدنى الشروط التي يُفترض ـ من منحى قيمي وحضاري ـ أن تتوافر عليها القوة العالمية الأولى لحل معضلاتها؛ استندت إلى تأثير نزعة الانتقام التي تنحو إلى تغييب المعنوي : التثّبت والعقل، واستدعاء الحسي : الثأر والعضل، بما تمظهر في ردود أفعالها من خلال نموذجين أحدهما : «فعلي» كما في حربي أفغانستان والعراق، والآخر : «ذهني» تصنيفي ـ وهو وثيق الصلة بالبعد الفعلي إذ يمثل دعامته اللوجستية فكرياً ـ بتقسيم العالم

قسمة حدّية في محورين للخير والشر، استناداً إلى مرجعيات خاصة، تبرز منها : المرجعية الدينية التي عبّر عنها الرئيس الأمريكي جورج بوش حين وصف الحروب التي تشنها إدارته على الآخرين ـ بحجة محاربة الإرهاب ـ بأنها «حروب مقدسة»، وهو تعبير دال على سياسة «ثيوقراطية» حقيقية!

غياب ثقافة الأزمة وحضور ذهنية الهيمنة بنهجها الثلاثي المبتدع أمريكيا : «الاستباق/ الصدمة/ الرعب» الذي لم يقتصر على الحرب الحسية بل اطرد على ما أسماه بعض رموز هذه الذهنية بـ «حرب الأفكار»[٢]، قاد إلى نتائج عكسية زادت من تأزم الموقف على المستويات كافة.

فعلى المستوى الداخلي الأمريكي تصاعد الشعور بالخوف من خطر مّا تؤكد الآلة الدعائية الحكومية وقوعه وشيكاً لحشد التأييد لسياستها، وتزايدت حالات رفض الآخر، بسبب تلك الآلة التي تصور العالم على أنه يحسد الأمريكيين على مكتسبات الحرية والرفاهية، وهي ـ تتبنى لتنمية هذا الرفض ـ السؤال الشهير : لماذا يكرهوننا؟!

وعلى المستوى الخارجي برزت صور الكراهية ضد أمريكا كما لم تبرز من قبل؛ نظراً لمنهج الاستعلاء الذي تتبناه إدارتها، ولمواقفها البراجماتية في القضايا الإنسانية، فاتجهت الدول للبحث عن تحالفات سياسية واقتصادية بديلة، وأضحت الشعوب تعي

حقائق شعارات الديمقراطية الخاصة التي تسعى إلى صياغة العالم حسب خططها المكيافيلية!

لقد كان البديل عن هذه الرؤية الأحادية، اعتماد منهج عقلي إيجابي يعمل داخلياً على امتصاص حالة الصدمة التي يشعر بها المجتمع الأمريكي، بتقييم المشكلة ووضعها في إطارها الواقعي، وعدم إلقاء مسؤولية منظمات وأفراد على دولة بأكملها أو دين بعينه[٣]، تزامناً مع تفعيل المشاركة الدولية الإيجابية في ذلك، بالتعامل مع الحضارات والدول والشعوب انطلاقاً من مبدأ الاعتراف بسنة الاختلاف الديني والوعي بأدبيات التداول الكوني.

وبكل حال؛ فإذ لا شك أن المملكة إحدى ضحايا هذه الذهنية التي طالما ضللّت الرأي العام العالمي إزاء حقائقها؛ فإن التاريخ ـ بمتوازييه المعرفي النظري والإنساني العملي ـ يشهد بأن الحقيقة مهما غُيّبت، لا تموت.

مؤخراً انتهت اللجنة الأمريكية المكلفة بحث أسباب ودوافع أحداث ١١ أيلول إلى تبرئة المملكة من علاقتها بالهجمات. وعلى الرغم من الأهمية الاعتبارية لهذا التقرير، فإنه لا يمكن الاعتماد عليه لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن المملكة؛ لأنه لا يهتم إلا بالجانب السياسي فقط؛ والقناعات السياسية متحولة بتحول المصالح، متغيرة بتغيّر حسابات الربح والخسارة، وإذن فهي لا تبني علاقات آمنة ودائمة وصحيحة، والدليل على ذلك أنه على الرغم من

نتيجة هذا التقرير الرسمي، مازالت قوى اليمن تمارس نهجها «الدوغمائي» البغيض بتضليل الوعي العام. وعليه، فالذي يعنينا بدرجة أساس هو بيان الحقائق للرأي الغربي بوصفه المشارك الموضوعي لنا في مهمة عمارة العالم؛ إذ نؤمن أن قناعات الشعوب ثابتة ودائمة بكونها ذات امتدادات كمية وكيفية عميقة.

لهذا كله، فإن إرادة الظهور التي تشعر بها الحقيقة السعودية، تتغلب على إرادات تلك القوى الساعية إلى التجهيل والتعتيم؛ لتعلن أنها تتأسس على منابذة الإرهاب ورفضه، لا على مستوى التنظير فقط، وإنما على المستوى التطبيقي، بما يتعمق في الحقائق الملموسة فعلياً، بدءاً بمواجهة فكره وتعرية مضامينه، وهي المواجهة التي أبانت أن الإرهاب والغلو والعنف نتاج فكر دخيل وطارئ على المجتمع السعودي لا يمثله ولا يعبّر عنه بأي وجه؛ لأنه لا يصدر عن الموثرات الفعلية في تشكيل وعيه الفكري وضبط ممارساته السلوكية؛ إذ هذه الموثرات : الدينية والتعليمية والاجتماعية بريئة منه، بل هي تحاربه، ولا تنتهي هذه الحقائق الملموسة في مواجهة الإرهاب في المملكة، إلا باجتثاثه حسياً ومواجهته ميدانياً.

مصدر هذه الحقائق باعثان رئيسان مهمان:

أولهما ـ الخلفية الدينية التي تمثل هوية المملكة إذ ترفض الإرهاب وتجرّمه. وهنا لابد من تأكيد أن هذه الخلفية هي خلفية

إسلامية بحتة وليست شيئاً آخر مذهبياً كان أم أيديولوجياً. سبب هذا التأكيد محاولات غير سوية تسعى إلى عزل المملكة دينياً بزعم اختصاصها بمفهوم أيديولوجي معين يختلف عن المفهوم الإسلامي العام، بما يتذرع له أصحاب تلك المحاولات بذرائع مختلفة، من أبرزها ذريعة المصطلح الشهير «الوهابية»؛ للإشعار بأنه مذهب خاص بالجغرافية السعودية. والحقيقة أنه ليس ثمة شيء في الدين اسمه الوهابية، والشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ لا يعدو أن يكون عالماً إصلاحياً نادى بالرجوع بالمفاهيم العقدية الإسلامية إلى جذورها الأولى النقية، محذّراً من الخرافات والجهل، مقيماً دعوته الإحيائية التجديدية على المبادئ التي كان عليها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بمقتضى النص الديني الصحيح، وهو على الصعيد الفقهي كان منتمياً ـ في الغالب ـ إلى المذهب الحنبلي : أحد المذاهب الفقهية الأربعة الشائعة في العالم الإسلامي.

مهما يكن من شيء، فهذه الخلفية الدينية الإسلامية التي تستند إليها المملكة، تحرّم الإرهاب وتتوعد عليه. فهي ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تحرّم الظلم والإفساد والسعي في الأرض بالجريمة والاعتداء على الآخرين وحقوقهم ومكتسباتهم، وتقرر أنه من قتل نفساً ـ أيّاً كان معتقدها ـ بغير حق، فكأنه قتل الناس جميعاً، وأن من قتل المعاهد من غير المسلمين لم يجد رائحة الجنة، بل ويقيم نبيها ـ

صلى الله عليه وسلم ـ نفسه يوم القيامة خصماً لمن يغدر وإن كان غدره موجهاً إلى غير المسلم، ويقرر هذا النبي الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهمية أن تكون قيم العدل والخير منهجاً مقنناً متواضعاً عليه حتى بين المختلفين في عقائدهم؛ للإيمان بأهميتها تجريداً؛ فيعبّر عن احتفائه بحضوره حلفاً بين بعض قبائل العرب قبل الإسلام اتفقت فيه على الانتصار للمظلوم، مع أنه كان حلفاً بين وثنيين، مبيّناً أنه لو دُعي إلى مثله في الإسلام لقبل. وفي عمق مبادئ هذه الخلفية الدينية ترسيخ لأهمية الأمن بكونه شرطاً ضرورياً للوجود الإنساني بمعناه الإيجابي : عقدياً، وتعبدياً، وأخلاقياً، ومعيشياً.

كما تؤكد على احترام النفس البشرية ووضعها الموضع الذي تستحقه؛ لأنها تعتقد أن الله كرمها وشرّفها، ومن ثم فهي تدعو إلى تحريرها من أسر العبودية لغير الله، وتحرّم ظلمها ـ أيّاً كان معتقدها ـ، وتقرر أن من أنقذ نفساً من الموت فكأنه أنقذ الناس جميعاً، بل تذهب في احترامها لهذه النفس إلى مدى أبعد، باستمرار الوعي بأهميتها بعد الموت بغض النظر عن هويتها؛ ففي صورة معبّرة، يقف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما مرّت به جنازة مع أنها لغير مسلم، وحين سُئل عن سبب قيامه، علّل بما يدل على ما قدمناه؛ حيث قال : «أليست نفساً»؟!

يمتاز الوعي الإسلامي باحترام قيمة الإنسان، بثبات واطراد حتى في الحالات الاستثنائية في سياقاته، وهي حالات الحرب التي تقفز فيها كثير من الديمقراطيات اليوم على القيم الإنسانية، حيث

يحثّ على الركون إلى السلام، ويمنح فضاءات واسعة لفض النزاعات بعقود الصلح والهدنة، ويقرّ تواصل المسلم مع الآخر في هذه الحالات بمواثيق الإجارة والأمان، ويحذّر من مغبة مقاتلة غير المقاتلين؛ إذ يحرّم قتل الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال والمنقطعين للعبادة وذوي الظروف الخاصة، ويصل توقيره للقيم الإنسانية الأخلاقية إلى تحريم مباغتة المقاتلين ومفاجأتهم، مشترطاً لمشروعية القتال إشعارهم ببدئه وإيذانهم به.

وإذا كانت هذه الخلفية تحرص على المحافظة على حياة الحيوان بتحريم قتله دون سبب، وتحريم ترويعه وتجويعه وتحميله فوق طاقته وتكليفه بأعمال لا تناسبه؛ فأحرى أن تحرّم إرهاب الأبرياء وترويع الآمنين وإزهاق الأنفس والتعدي على الممتلكات والحقوق.

صحيح أن هناك تطبيقات خاطئة تعتدى وتتجاوز وهي تنتسب إلى هذه الخلفية الدينية، لكنها لا تعدو أن تكون نتاج فهم خاص ممن ليس لهم اعتبار علمي، ولهذا فهي لا تمثل حقيقة الإسلام، ولا تعكس فكر الممثلين الحقيقيين له، من العلماء المعتبرين سواء كانوا في إطار المؤسسة الدينية الرسمية أم كانوا في خارجها؛ فإن هؤلاء العلماء مازالوا يصدرون الفتاوى العلمية والبيانات الواضحة في براءة الإسلام من الفكر الشاذ وتطبيقاته المنتكسة.

إن من الغايات المهمة التي تسعى إليها المملكة في محاربتها للإرهاب، تصحيح رؤية الآخر عن الإسلام التي تأثرت سلبياً

بأخطاء بعض أبنائه مع عظيم الأسف، وهي غايات لم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن أهدافها الاستراتيجية؛ لأن المنهج الوسط الذي يجسّد حقيقة الإسلام وجوهره، هو المعلن وهو المعتمد في السياسة ومناهج التعليم وفي تضاعيف الحياة اليومية؛ كما أن همّ إبراز الإسلام الوسطي حاضر في وعيها بمسؤوليتها الدينية؛ لأنها تستشعر حمالتها المضاعفة في ذلك؛ بوصفها مركز العالم الإسلامي دينياً؛ لوجود الأماكن المقدسة فيها. ولهذا فجهودها في تعرية فكر الغلو ومواجهة تطبيقاته، متقدمة على غيرها من الجهود؛ بكونها بدأت قبل أحداث ١١ / ٩، ومن ثم فهذه الأحداث لم تسببها لكنها ألقت شيئاً من الضوء عليها.

ثانيهما ـ الوعي بالآثار السلبية للإرهاب. كما تنطلق المملكة في محاربة الإرهاب ومواجهته من موقف عقدي أخلاقي، فهي تنطلق في ذلك أيضاً من إدراك عميق لنتائج الإرهاب السلبية في الواقع. وهو إدراك غير أناني ولا ذاتي، بمعنى أنه لا يرفض الإرهاب للخوف على مصالح خاصة أو ضيقة، إنما يرفضه لآثاره الكارثية على المصالح العامة عالمياً؛ وهو ـ بالمناسبة ـ مستند إلى الخلفية التي تستشرف تحقيق قيمة التبادل الإنساني التي عبّر عنها المصطلح الشرعي بـ «التعارف»؛ وهي ذات ضابطين : الصدق ، والعدل.

إن التجرد الموضوعي يؤكد أن رفض المملكة للإرهاب، رفض مبدئي مطرد. فالإرهاب إما أن يكون وسيلة لتسجيل مواقف

سياسية أو تحقيق مكتسبات اقتصادية، أو وسيلة لتصدير فكر معين، والمملكة ليست منظمة ثورية لتتوسل بالعنف للوصول لأهداف سياسية، وليست عاجزة مادياً كي تبحث عن المادة بوسيلة ما ، كما أنها ليست منظمة أيديولوجية حتى تنتهج خيار الصراع لترويج فكري، وإنما هي دولة ذات أسس قانونية تؤمن بأن العالم لا تتحقق مصالحه في التنمية والتواصل مع وجود الإرهاب.

هذا على الصعيد المبدئي. وأما على الصعيد التطبيقي، فإن السمة الثابتة التي لا تخطئها عين مراقب «منصف» للسياسة السعودية، بُعدها ـ الذي يبلغ درجة «الحساسية» ـ عن التدخل في شؤون الدولَ الأخرى، ورغبتها في عدم خوض معارك، أيّاً كانت صورتها ونتائجها، مع الآخرين. ولكم عانت بسبب ميلها إلى سياسة عدم الرد بالمثل وتغليبها المسامحة والمصالحة من سياسات زعماء ودول تفتعل لها الأزمات؛ لأنها في وارد تحقيق برامجها التنموية الخاصة حثيثاً، وتحقيقها منوط بالتوافر على قيم مهمة في مقدمتها قيمتا الأمن والاستقرار، مما يدل على أن من مصلحتها مواجهة الإرهاب كما تفعل اليوم بقناعة وثبات ونجاح بحمد الله.

لأن هذين الباعثين مطردان في منهجيتهما العلمية وفاعليتهما التطبيقية، فإنهما بقدر ما يُبرزان من جوانب التقاطع والتوافق مع جهود دول وقوى مختلفة تحارب الإرهاب، أو تتوسل بمحاربة الإرهاب لتحقيق أهدافها، بقدر ما يكشفان عن جوانب اختلاف

كبيرة معها. لكن جوانب الاختلاف هذه ليست نتاج تناقضات في الباعثين السالفين اللذين يشكلان خلفية المملكة في موقفها من الإرهاب، وإنما هي نتاج تناقض الرؤية المقابلة التي أدّت إلى الوقوع في أخطاء أخلاقية وإنسانية لا تكاد تحصى.

في هذا السياق بالذات تبرز أهم قضية تعني المملكة والدول العربية والإسلامية، وهي قضية تحرير مصطلح الإرهاب. إن المنهج العلمي يفترض، بل يشترط، لنجاح الجهود المعنية بمحاربة هذه الظاهرة، التزام العالم بمقدمة ضرورية بدهية فيه، تتمثل في بيان المقصود به وتعريفه تعريفاً علمياً تواضعياً مشتركاً بإشراف الهيئات الدولية الرسمية؛ لتصدر الجهود عن رؤية معرفية تمنح منهج المواجهة قيمة وفاعلية، كما تضمن العافية من الخلاف الذي يمنع التعاون أو يحدّ من نجاحه.

لكن في حين تنادي المملكة والدول العربية والإسلامية بهذه الضرورة، تتهرب أمريكا ومن انضوى في محورها من مجرد الحديث عنها؛ لأنها تختبر مناهجها ونواياها وغاياتها؛ ولهذا بقيت الرؤى ضبابية والجهود مشتتة، كما ظلت ذهنية الهيمنة تستولي على المنهج الأمريكي بتصنيف الأفكار والأفعال والمصطلحات بما يوافق قناعاتها العقائدية الخاصة، وبما ينسجم ومصالحها بقصد الاستعلاء العلني لما تأخرت نتائج العلو بالعولمة!

إن في وعي المملكة والدول العربية والإسلامية أن الإرهاب الذي

يجب أن يحتشد العالم من أجل محاربته، هو الإرهاب الذي يتوجه إلى الأبرياء بالإيذاء الحسي أو المعنوي بغير ذنب. وبقدر ما ينتفي هذا التعريف عن مقاومة الشعوب المحتلة للمحتل الذي يجثم على أرضها ويستلب حضارتها وثقافتها وإنسانها، ومن ثم تعد مقاومته مشروعة متوافقة مع الفطرة السوية والعقل الصحيح، بقدر ما يصدق ـ أي تعريف الإرهاب ـ على دول منتمية إلى هيئة الأمم، تمارس إرهاب الدولة بالقتل والإبعاد والقهر، في صور دامية صارت من اليوميات المعتادة للضحية وللجلاد وللشهود الساكتين، وخاصة الساكتين القادرين على منع العدوان؛ إذ لا يحركون ساكناً، بل إنهم يمدون المعتدي في غيّه؛ فيزودونه بالسلاح، ويمنحونه غطاء سياسياً، ويحمونه من مجرد الإدانة المعنوية، ليصبحوا بذلك مشاركين في مشهد الظلم.

وحتى نعطي القارئ الكريم حقه في المشاركة في إنتاج هذه الورقة، فإننا نحيل إلى فطنته ليحدد على الخارطة العالمية جغرافيات الضحايا والجلادين والساكتين القادرين!

في الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة ١٤٢٥هـ، الموافق ٥ فبراير ٢٠٠٥م، عقد مؤتمر دولي عن ظاهرة الإرهاب في الرياض. هذا «المؤتمر / الضرورة» لم يعقد بمبادرة من الأمم المتحدة ولا من هيئات حقوق الإنسان والمنظمات الدولية الأخرى؛ لأنها أضحت ـ مع شديد الأسف ـ مؤسسات مسلوبة الإرادة، بل

وموجهة أيضاً، كما أنه لم ينعقد بدعوة من الدول التي ترفع شعار محاربة الإرهاب وهي تمارس ألواناً منه من خلال «تنميط» الآخرين واتهامهم، وإنما عقد بمبادرة ودعوة من المملكة العربية السعودية؛ ليكون شاهداً على أنها أرض الإسلام والسلام، ولتؤكد به ومن خلاله رفضها المطلق للإرهاب الذي تتفق على تحريمه الأديان، ويتواضع على رفضه العقلاء، ولتعلن به ومن خلاله أيضاً رفضها المشاركة في وزر شهادة الزور، وإثم إقرار الظلم، وسيئة الإيمان ببعض القيم والكفر ببعض.

الهوامش

(١) بالنسبة للمنظمات يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية ـ بحسب تقرير نشر في (USA Tody) ـ أكثر من ٥٥٠٠ مليشيا إرهابية تتحرك في أكثر من ٢٤ ولاية، وتجتذب إليها أكثر من ٥٠ ألف عضو، وهي تعلن مناهضتها الشديدة للحكومة الفيدرالية، وتفسر الدستور بما يحقق أهدافها. يشير التقرير إلى أن هذه المليشيات في تنام مستمر، وأن نسبتها قد ارتفعت ما بين ١٩٩٦ و ١٩٩٧ إلى ٢٠٪. وبالنسبة للأفراد تكفي الإشارة إلى نموذج الأمريكي : «تيموثي مكفاي» الذي فجّر مبنى الإدارة الفيدرالي في أوكلاهوما عام ١٩٩٥. وهو بدوره ينتمي إلى مليشيا إرهابية في ولاية متشجان تعلن العنف وسيلة للتغيير بل وللتعبير أيضاً كما أكد زعيمها القس «نورمان».

(٢) من الخطير جداً أن هذه الذهنية التي عبّر عنها وزير الدفاع الأمريكي «رامسفيلد»، تتغذى برؤى مفكرين ذوي تأثير نافذ في السياسة الأمريكية. وهي ذات منهجين بارزين. الأول : التبشير النظري العقائدي بنهاية التاريخ على يد الحتمية الأمريكية ـ إن جاز التعبير ـ سياسياً واقتصادياً وفكرياً وحضارياً، وأبرز ممثلي هذا المنهج : المفكر الأمريكي الياباني الأصل «فرانسيس فوكاياما». المنهج الثاني : الدعوة لتطبيق الحتمية الأمريكية على الحضارات والثقافات المغايرة، بطريقتين : أـ الاستعداء بمنطق اللزوم والصيرورة الكونية كما في دراسات «صموئيل هينتنغتون». ب ـ الاستعداء التحريضي التوسعي الإمبريالي الصريح وفق قانون القوة، قانون «الكاوبوي»، كما يفعل ـ مثلاً ـ «دانيال بايبس». وهذا المنهج هو الذي يتقاطع فيه السياسي والفكري أمريكيا في الغالب، وممن جسّد هذا التقاطع زمناً طويلاً. وزير الخارجية الأسبق : هنري كيسنجر.

(٣) وهذا ما دعا إليه بعض السياسيين المعتدلين، كان من آخرهم عضو مجلس النواب عن ولاية كاليفورنيا «راندي كننغهام» في شهادته أمام اللجنة المختارة المختصة بالاستخبارات في المجلس بتاريخ ٤/١٠/٢٠٠٤م.

الفصل السادس : السعودية والحملات

- التغطية الإعلامية الغربية لتعامل السعودية مع الإرهاب ......
....(فيليب سيب)

- اللوبي الإسرائيلي في أمريكا والحملات المغرضة ضد السعودية.................... (ريتشارد كورتيس وديلندا هانلي)

التغطية الإعلامية الغربية لتعامل المملكة العربية السعودية مع الإرهاب

د. فيليب سيب *

من أسباب بقاء المملكة العربية السعودية غامضة للكثير في الغرب أن التغطية الإخبارية غالباً ما تكون بسيطة، مما يؤدي إلى نوع من الغموض والتضليل يكون تأثيره في الغالب سلبياً. وحيث إن السعودية تعمل جاهدة لإعادة تحديد علاقاتها مع باقي دول العالم، بل وإلى تطوير تعاملها مع الإرهاب، فإن مثل هذا النوع من التغطية يعتبر عائقاً كبيراً.

في أمريكا، التي يزداد فيها الاهتمام بمسائل تتعلق بالإرهاب، نجد أن الفكرة عن المملكة تغيرت حديثاً. وسواء أكان ذلك يعزى إلى التغطية الإخبارية أو إلى سياسة الحكومة أو قضايا أخرى تتعلق بالحرب على الإرهاب، فإن مثل هذا التحول لا يمكن تجاهله. وعلى النقيض من ذلك، يجب

* استاذ الصحافة بجامعة ماركويتي ـ ويسكانسن ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

الاهتمام به من الأمريكيين والسعوديين على السواء. وبخصوص هذه المفاهيم، لاحظ العالم شبلي تلحمي Shibley Telhami أن الفكرة الخاطئة التي تزداد انتشاراً في الولايات المتحدة هي أن النظام السياسي الحالي القائم في المملكة العربية السعوية هو الذي يؤدي إلى «تطرف الجماعات المعارضة»، علاوة على أن «دعم الولايات المتحدة للعائلة المالكة يُنظر إليه على أنه السبب الجوهري في استهداف هذه الجماعات للأمريكيين».

قد يعتبر البعض ذلك تشخيصاً غير سارّ نظراً لأن الشراكة الأمريكية ـ السعودية كانت تعتبر ـ حسب قول تلحمي ـ «من أقوى علاقات الصداقة الطويلة الراسخة للولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط». ومع ذلك فإن الحالة في الوقت الراهن والفهم السلبي للعلاقة أصبح متجذراً بسبب محتوى ونغمة التغطية الإخبارية.

إن وسائل الإعلام ـ وبالتحديد أخبار التليفزيون وغيرها من الوسائل التي تركز على جمهور المستمعين ـ لا تتعامل دائماً بشكل جيد مع التعقيد الذي يمثل جزءاً لا يتجزأ من الثقافة والسياسة والعلاقة السعودية مع الغرب.. ففهم المملكة العربية السعودية يتطلب معرفة بعض الشيء عنها، وهذا هو الجانب الذي كان فيه أداء وسائل الإعلام الغربية ضعيفاً، إضافة إلى ما

يعانيه النظام التربوي في المناهج الغربية من ضعف أيضاً. إن المسائل المعقدة المتعلقة بالإسلام والنفط لا تقدم نفسها للتحليل الصحفي أو التحليلي، لذلك فإن التعامل مع مثل هذه القضايا لا يزال في الغالب سلبياً كمسائل أحادية البعد، ويمكن وصفها في خطوط عريضة سريعة أو تعميم مقتضب.

لقد ترتب على ذلك نتائج أصبحت ملحوظة في المملكة والغرب أيضاً. فقد ورد في تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر أن «عدداً كبيراً من المثقفين السعوديين الذين تعاطفوا مع أمريكا ينظرون الآن إلى الولايات المتحدة كدولة غير صديقة». كما يشير التقرير إلى أحد الإصلاحيين السعوديين الذي ذكر أن «عرض صورة المملكة العربية السعودية في وسائل الإعلام الأمريكية عزز من موقف الراديكاليين الذين يتهمون الإصلاحيين بأنهم عملاء للولايات المتحدة».

ويتكرر نفس المشهد الذي يوضح مدى الضعف في التعامل مع وسائل الإعلام الغربية وذلك بسبب ربط الإرهاب بالإسلام في التغطيات الإخبارية.

الإرهاب والإسلام والمفاهيم العامة:

إن كلمة «الإسلام» أصبحت لدى بعض عامة الأمريكيين مرتبطة بكلمة «الإرهاب»، وهذا الوضع غير المناسب هو نتاج التربية غير

الصحيحة والتغطية الإعلامية غير الصحيحة. ولتغيير ذلك ـ لإعطاء الأمريكيين والآخرين صورة أفضل وأصدق للعالم ـ يجب على المؤسسات الإعلامية تناول الحقائق الجديدة التي ترسم كيف يعمل العالم.

وهذا أيضاً يؤثر في الفهم الصحيح للمملكة العربية السعودية. إن التغطية الإخبارية السيئة (التي تزيد من تفاقم المشكلات التي ولّدتها التربية غير السليمة) تساهم في كثير من التعميمات السريعة لدى الغرب: فكل العرب سواءٌ، وكل المسلمين سواءٌ. فهذه الحماقة في التشبيه أصبحت الآن حكمة مقبولة لدى بعض الجهات، وجعلت العامة البسطاء ينظرون إلى بعض الدول على أنها الأسوأ مثل المملكة. ويمكن الحديث عن القضية السعودية على أنها معقدة مما جعل الكثير من الأخبار لا تصل بسبب هذا التعقيد. وتتنوع أسباب ذلك، فمنها ما يعود إلى الكسل ومحاولة تخفيض تكاليف التغطية الإخبارية والنزول إلى شريحة مستهلكي الأخبار الذين يعتقد أنهم غير مهتمين بالعالم حولهم. وذلك ما ينتج عنه النغمة السلبية في تغطية أخبار السعودية وغيرها من الدول في العالمين العربي والإسلامي مما يؤدي إلى انتشار هذه النظرة السلبية لدى الرأي العام.

إن الحقائق التي يجب تناولها ترتكز على فهم للتاريخ

والثقافة. وفي ذلك كتب الباحث جون اسبوسيتو: «لقد نسي الكثير منا ما أظهرته خريطة العالم الإسلامي في القرن العشرين. فأسماء المناطق (الشرق الأوسط) والدول، وكذلك الحدود وزعماء تلك الدول هم من صنع القوى الاستعمارية الأوروبية». وأضاف قائلاً: «إن بناء أمة في العالم الإسلامي بحدودها المصطنعة المرسومة والتي توحد شعوباً تنوعت هوياتهم على مر القرون تعتبر عملية هشة تزرع بذور أزمات لاحقة بسبب الهوية والشرعية والقوة والسلطة. وعندما نسأل اليوم لماذا بقي الكثير من العالم الإسلامي غير مستقر سياسياً، أو لم يتطور، فيجب علينا أن نتذكر أن أكثر الدول الإسلامية الحديثة لم يتجاوز عمرها بضعة عقود، وقد تشكلت حسب ما فرضته القوى الأوروبية الاستعمارية المنقسمة آنذاك».

ويقودنا هذا إلى مسألة تتعلق بالتغطية الإخبارية للمملكة العربية السعودية وباقي العالم الإسلامي: فهل يجب أن تركز التغطية على الدول أم على الأمة الإسلامية أو المجتمع الإسلامي على مستوى العالم. ولكن يبدو أن الأسلوب الثاني سيواجه بعض العقبات. ففي ضوء الخلافات المنتشرة بين الطوائف الإسلامية نجد أن التعامل مع المجتمع الإسلامي ككل متماسك، قد يكون صعباً. ويقول اسبوسيتو: «مثل

المجتمعات القبلية أو العرقية فإن الدول الأممية تتوحد عندما تواجه تهديداً خارجياً، ولكن سرعان ما تعود إلى تفرقها وصراعها الديني بعد ذلك».

لذا، فإن وسائل الإعلام عندما تتعامل مع «الإسلام» ككيان ديني سياسي متماسك، فإنها قد تنزلق إلى السذاجة الكبيرة وتعميم الآراء، وهو ما يتبناه الناس ويخلدونه، وفي هذه العملية يبدو أن تغطية الكيانات إعلامياً مثل المملكة العربية السعودية قد لايكون مناسباً بسبب الجهد الذي ينصب على «الصورةالكبيرة»، ولكن هذه الصورة الكبيرة تصبح تحت المجهر فقط عند تحديد عناصرها الكثيرة بوضوح.

وعلى الرغم من التحديات الكامنة في رسم التغطية الإعلامية الخاصة بالمملكة العربية السعودية وأجزاء أخرى من العالم الإسلامي، فإن هذه التغطية تستحق أن تعطى أولية قصوى من المؤسسات الإخبارية لأسباب منها أن القوة الموحدة للتكنولوجيا الإعلامية تعمل الكثير من أجل إعادة تعزيز مفهوم الأمة كوحدة وطنية عالية. فالمعلومات التي يسهل الوصول إليها مثل الأخبار التي تقدمها المحطات الإخبارية مثل (سي إن إن) و(بي بي سي)، وحديثاً قناتا «الجزيرة» و«العربية» وغيرها من المؤسسات التليفزيونية الموجهة للعالم الإسلامي على مستوى عالمي يمكن أن تعزز التضامن بين

المشاهدين. كما أن الإنترنت تذهب إلى أكثر من ذلك، حيث لا تقتصر على تقديم المعلومات بل هي وسيلة للتفاعل تستطيع أن توجد تواصلاً وتوحداً مع أبعد المجتمعات. وقد كتب الباحث جاري آر بونت «يعتقد أن الوصلات الرقمية التي يمكن لعدد كبير من الناس النظر من خلالها إلى ديانتهم وموقعهم في العالم الإسلامي، وانتسابهم إلى مجتمعات أوسع، وقد سبقهم في ذلك (الغرب) إلى حد كبير».

ومع استمرار الإنترنت في تقليل تأثير الحدود الوطنية وغيرها من الحدود فإن كامل المنظومة الإعلامية على مستوى العالم وتكنولوجيا المعلومات ستساعد في إيجاد مجتمعات فاضلة تستحق التغطية مثل التي كانت للدول التقليدية. ويتوقع أن تلعب المملكة العربية السعودية دوراً هاماً في إعادة تشكيل المجتمع الإسلامي العالمي، وهو ما يستحق التغطية إعلامياً.

إن الحقائق السياسية الجديدة والتقدم الكبير في تكنولوجيا الاتصالات يتطلب إعادة تقييم نطاق التغطية الإخبارية. ولتقديم تغطية صحفية دقيقة وشاملة يجب أن تتناول المؤسسات الإخبارية إعادة التشكيل الهيكلي والتوازنات الاجتماعية والسياسية بين الدول والشعوب. ويجب أن تتولى وسائل الإعلام المبادرة في هذا الجانب بدلاً

من انتظار صناع السياسة لتغيير طريقتهم في التعامل مع العالم، والتي تكون غالباً ردود أفعال تتألف من استجابات غير مخططة لحوادث غير متوقعة.

وحيث تقوم الدول والمؤسسات عبر العالم بتطوير طرق جديدة لمعالجة الإرهاب والتطورات الجغرافية والسياسية الأخرى، فإن وسائل الإعلام يمكنها أن تلعب دوراً حيوياً على المستوى الداخلي والخارجي، حيث يمكن أن تقدم المعلومات وتساعد في توحيد الجهد العالمي في مواجهة الإرهاب. وتمثل المملكة العربية السعودية أحد العناصر الهامة التي تلعب دوراً رئيساً في ذلك. وعلى مستوى أوسع يمكن أن تساهم الوسائل الإخبارية في اجتثاث الصورة النمطية عن السعودية التي تفسد الرأي العام والسياسة العامة. وهذا واجب كبير، ولكن يمكن إنجازه إذا قررت المؤسسات الإخبارية والصحافيون في الغرب أن يتم النظر إلى العالم بطريقة جديدة.

الوسائل الإخبارية ونظرية «صراع الحضارات»:

منذ أن قدم صامويل هانتنغتون نظريته عن صراع الحضارات في مقاله الذي نشر في دورية (فورين أفيرز) عام ١٩٩٣، تواصل النقاش حول ما إذا كانت أفكاره صحيحة أو

ساذجة. وبالنسبة لوسائل الإعلام فهذا النقاش مهم لأنه يساعد في تشكيل طريقتهم في تغطية أخبار العالم. وبالنسبة للسعودية يمثل هذا النقاش عاملاً مهماً في تحديد المواقف الثابتة التي توجه التغطية الإخبارية للمملكة.

وفي مقاله الأصلي الذي قام بتنقيحه وتوسيعه في كتابه عام ١٩٩٦، باسم «صراع الحضارات ورسم الوضع العالمي»، قال هانتنغتون: «إن صراع الحضارات سيطغى على السياسة العالمية، وستصبح خطوط الاختلاف بين الحضارات هي خطوط المعركة في المستقبل».

وفي كتابه قال هانتنغتون: «إن الحضارة والهوية الحضارية التي هي على المستوى الأوسع هوية الحضارة، هي التي تشكل أنماط التلاحم أو عدم التكامل والصراع فيما بعد الحرب الباردة». وفيما يلي ملخص للنتائج التي ترتبت على أفكار هانتنغتون:

ـ لأول مرة في التاريخ تصبح السياسات العالمية «متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات».

ـ حيث إن ميزان القوة بين الحضارات يتحول فإن التأثير النسبي للغرب في انحدار.

ـ ترتيب العالم ينبثق من أسس حضارية.

ـ طموحات «الخلاصيين» (المسيحيون الجدد) تسير بالعالم

الغربي بشكل متزايد إلى الصراع مع الحضارات الأخرى وخاصة مع العالم الإسلامي والصين.

ـ إذا أراد الغرب أن يعيش، يجب على أمريكا أن تعيد تأكيد هويتها الغربية وتتوحد مع الدول الغربية الأخرى لمواجهة تحديات الحضارات الأخرى.

وأحد الأسباب التي استندت إليها نظرية هانتنغتون في الصراع هو أن صناع السياسة والوسائل الإخبارية وغيرها يتحركون إلى حقبة ما وراء الحرب الباردة دون فهم كبير لكيفية تشكيل العالم الجديد. وهم مستعدون لقبول جغرافي سياسي جديد وخاصة ذلك الذي يرسم ملامح علاقات الهويات المتعاكسة التي ستلغي ما تم تركه في الخلف.

واليوم هناك شخصية أساسية تلعب دوراً مهماً في الصراع الجغرافي السياسي، هي شخصية أسامة بن لادن. وهو لا يشكل في حد ذاته «حضارة» تتصادم مع الغرب، فيمكن نبذه كمجرم نصب نفسه مدافعاً عن الإسلام، أو يمكن اعتباره شخصية لها وزنها، تدافع عن أجندة سياسية يرى فيه الكثير أنه شرعي على الرغم من عدم موافقتهم على كل تكتيكاته، ولكن هناك ما يزيد عن عقد من الإرهاب يتجاوز وجود شخص بعينه. فهل تم تفعيل نظرية هانتنغتون بمثل هذه الأحداث الإرهابية؟ وهل وجهة نظر هانتنغتون في الصراع ستكون هي

الدليل في تخطيط التغطية الإخبارية؟ كل ذلك يبقى خاضعاً للنقاش . يقول السيد تشارلز جوبشان الباحث في العلاقات الدولية: «إن الصراع المتواصل بين الولايات المتحدة والراديكاليين الإسلاميين لا يمثل صراعاً بين حضارات، ولكنه نتيجة لجماعات أصولية متشددة تستغل عدم الرضى في الدول الإسلامية».

وهناك بعض المراقبين الذين لا يؤيدون نظرية هانتنغتون، فإنهم لا يرفضونها كلية، فهم يلاحظون الانجذاب نحو الاهتمامات الحضارية. وقد لاحظ شبلي تلحمي تغيراً في الهوية الذاتية في العالم العربي، وكتب «إن العرب تاريخياً لهم ثلاثة أفكار سياسية: الإسلام والعروبة والوطنية المرتبطة بالدول على انفراد. وفي مسح قام به تلحمي في ست دول عربية في شهر يونيو من عام ٢٠٠٤م تبين أن «هناك المزيد من العرب الذين يُعرِّفون هويتهم أولاً على أنهم مسلمون في المقام الأول». ولكن هذا التوجه ليس موحداً. فقد لاحظ تلحمي أن الناس في مصر ولبنان يرغبون في تعريف أنفسهم على أنهم مصريون ولبنانيون أكثر من كونهم عرباً أو مسلمين، بينما في السعودية والمغرب والإمارات العربية المتحدة والأردن يشيد الكل أو الغالبية بهويتهم الإسلامية باعتبار أنها فوق كل المسائل.

إن نظرية الصراع مهمة عند دراستنا لكيفية تغطية وسائل الإعلام الغربية للمملكة العربية السعودية. فبينما يقومون بالبحث عن وجهة نظر تتعلق بما بعد الحرب الباردة، والآن ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، حول كيفية عمل العالم حالياً، فإن الصراع بين الحضارات يظهر وكأنه خطة رئيسة. وبناء على ذلك تم تصنيف دول مثل السعودية بسرعة غير مناسبة. وهذه هي المشكلة طبعاً لأن المناسب والسرعة لا تتوافقان غالباً مع التحليل المعقد للأمم والثقافات.

ومع ذلك، هناك اتجاه واضح للتغطيات الإخبارية لدى الغرب عند تناولها لمسألة السعودية ودول عربية وإسلامية أخرى يتصف بنوع من السطحية العرضية. وهذا مدمر على المدى البعيد لمستهلكي الأخبار لأنها هي موضوع مثل هذه التغطية.

إن استيراد النظريات، ونظريات عن النظريات، يعتبر أمراً غير مجهد، ولا يحتاج الصحافيون بل يجب أن لا يتبنوا واحدة منها كأساس لبناء أسلوبهم في التغطية. ولكن عليهم أن يتعرفوا على الأفكار المتنوعة حول كيفية تغير العالم. وفي التغطية الإخبارية، كما هو الحال في السياسة، يتكون هناك فراغ إذا لم يكن هناك «عدو». يقول الدكتور عديد دويشه إنه «بعد سقوط الشيوعية العالمية نظر الغرب إلى الإسلام الراديكالي على أنه العدو المحتمل الأكثر خطورة»، وقد ظهر هذا جلياً عقب هجمات ٢٠٠١م عندما

طالعتنا أكثر الصحف الأمريكية انتشاراً بعناوين مثل: «هذه حرب دينية» و«نعم إنها عن الإسلام» و«غضب المسلمين» و«الجذور الفكرية العميقة للإرهاب الإسلامي». عرف كيبلنغ ما يمكن أن تتعلمه الولايات المتحدة الآن «الجهاد ١٠١»، «ثورة الإسلام»، وغيرها، والكثير ناقش الحروب الصليبية وعرض صوراً لريتشارد قلب الأسد.

وقد دفعت الأحداث الكثير من وسائل الإعلام لتبني نظرية هانتنغتون كحقيقة بغض النظر عن الانتقادات العديدة لها.

لقد أدت هجمات الحادي عشر من سبتمبر وما تبعها من حرب على أفغانستان وحرب على العراق في ٢٠٠٣م، إلى عبارة سياسية وصحفية مختزلة: لدينا مجموعة من الأوغاد يجمعهم الإسلام، وهذا يعني أن هناك صراعاً يجري بين الحضارات.

إن المعالجة السياسية والصحفية للمملكة العربية السعودية غالباً ما تعكس مثل هذه النزعة لوصف حتى الأصدقاء القدامى بالأوغاد . لقد أعقبت هجمات الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة شعوراً بأن القاعدة ليست عدواً كافياً ـ يجب أن يكون وراء هذا النوع من الحرب شيء أكبر من هذا الخصم الذي لم يكن له حتى دولة خاصة به، وكان فقط يحتل أرضاً قاحلة في أفغانستان، وقد تبع ذلك غضب تلقائي على الإسلام بشكل أوسع، وانصب جزء من هذا الغضب على المملكة العربية السعودية

باعتبارها من أكثر الدول الإسلامية حضوراً، ورافق ذلك تغطية إخبارية محمومة، وقد نتج عن ذلك تغير في العلاقة الأمريكية السعودية لم تظهر على مستوى الحكومات بنفس المستوى الذي ظهرت فيه لدى الرأي العام لدى الطبقة الوسطى. وقد أوجدت هذه التغطية مشكلات وبطريقة أخرى كانت مضللة.

وهناك بعض الأصوات التصحيحية التي أسمعت صوتها أحياناً كما هو الحال في تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر. فقد رسمت صورة مختلفة للمملكة العربية السعودية عما رسمته الكثير من المؤسسات الإعلامية. لقد قدمت معلومات تميل وسائل الإعلام الغربية إلى تجاهلها، وذلك على نحو:

ـ لقد صدت الحكومة السعودية أسامة بن لادن في أوائل ١٩٩٠م عندما أراد أن ينظم الجهاد لتحرير الكويت، وبدلاً من ذلك انضمت المملكة إلى التحالف الذي قادته أمريكا.

ـ علمت وكالة المخابرات الأمريكية في عام ١٩٩٨م أن الحكومة السعودية شتتت خلايا القاعدة التي استهدفت المصالح الأمريكية.

ـ في عام ١٩٩٨م أيضاً قطعت الحكومة السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع نظام طالبان في أفغانستان.

ـ ضغطت الحكومة السعودية على الحكومة الباكستانية ـ أكثر مما فعلت الولايات المتحدة ـ للتخلي عن طالبان وابن لادن.

ـ كشفت اللجنة أنه لا توجد شواهد على أن الحكومة السعودية

«كنظام أو مسؤولين كباراً» مولوا بشكل فردي تنظيم القاعدة.

ـ على الرغم من التقارير الصحفية المخالفة، لم يسافر سعوديون بالطائرات إلى خارج الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر حتى تم إعادة فتح المجال الجوي للطيران في الولايات المتحدة، وليس هناك أي دليل على تدخل سياسي من البيت الأبيض لصالح السعوديين.

وقد قام مكتب التحقيقات الفيدرالية بتفتيش السعوديين الذين غادروا في رحلات مستأجرة.

طبعاً تقرير اللجنة ينتقد المملكة العربية السعوية بشأن قضايا مثل تقييد العلاقات الأمريكية السعودية في تبادل المخابرات خلال أواخر التسعينيات واستخدام ابن لادن العقود السعودية في زيادة رأسماله، وبشكل عام «كانت السعودية حليفاً مزعجاً في محاربة الإرهاب الإسلامي». ولكن هذا التقرير يظهر توازناً نادراً ما نجده في التغطية الإخبارية. ويقدم النقد في إطار الفهم الأوسع والأكثر دقة للعلاقات الأمريكية السعودية. ولكن مثل هذا الإطار غالباً ما يكون مفقوداً في الإنتاج الإعلامي.

النظر إلى المستقبل: كيف يمكن تصحيح مضامين الوسائل الإعلامية؟

لعل من أكبر ما يقلق أولئك الذين يرغبون في رؤية علاقات متينة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة ما أظهرته لجنة الحادي عشر من سبتمبر «إن الكثير من الأمريكيين ينظرون

إلى المملكة العربية السعودية على أنها عدو وليست حليفاً» وإذا أردنا أن نغير ذلك، يجب أن تتحصن وسائل الإعلام ـ مثل صنّاع السياسة العامةـ من قبول صور نمطية والحكم على الاختلافات الثقافية بطريقة ساذجة. وإلا فإن التغطية الإعلامية للمملكة العربية السعودية ستساهم في تفاقم المشكلات والخلافات.

وفي الوقت نفسه هناك البعض ممن له أغراض خاصة يرغب في تعزيز التصادم العنيف بين الحضارات. ويمكن أن تتمثل هذه الحالة كهدف من أهداف تنظيم القاعدة، حيث تتعزز إمكانية تحقيق هذا الهدف بسبب الرأي السائد بين المسلمين وهو أن هدف الولايات المتحدة في العراق هو «إضعاف العالم الإسلامي».

وقد انبثق عن هذه الأشياء وغيرها من الأمثلة على صراع الحضارات ـ الحالية والمتوقعة ـ واقع معقد للصحافة في القرن الحادي والعشرين. وبالنسبة للمبتدئين، يجب أن يصبح حجم التغطية الإعلامية العالمية أكثر توافقاً، وأي شخص يعتقد أن حرب العراق عام ٢٠٠٣م تشكل جولة أخيرة في التغطية العالمية من قبل المؤسسات الإخبارية الغربية قد يصاب بخيبة أمل. فالتغطيات الإخبارية لأزمات رئيسة قد تتضاءل بسرعة ويقل الاهتمام الذي تعطيه لقضايا ساخنة.

وتمتد هذه الاهتمامات إلى ما وراء صراع الحضارات الذي يصفه هانتنغتون. لذا يجب أن يكون لدى صنّاع السياسة

والصحفيين اهتمامات مشابهة في التمسك بمثل هذه القضايا. لقد تناول تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر الحاجة إلى الدخول في «صراع أفكار».

وتمثل التغطية الإخبارية جزءاً من ذلك. وبينما تقرر الحكومات آلية التكيّف مع مثل هذه الحقائق المستجدة، فإنه يجب على العاملين في الصحافة أن يعيدوا موازنة أولياتهم إذا كان الصحفيون سيساعدون العامة في تطوير إحساس أفضل لما يجري في العالم.

هذه المسائل هي من صميم وسائل الإعلام الغربية في تغطيتها للمملكة العربية السعودية. وقد يستفيد أولئك الذين يهتمون بالتوقعات الصحفية الجديدة للمملكة العربية السعودية من تبني الطريقة المقدسة في بحثهم عن العلاجات. وما يشكل التوجهات العامة للتغطيات الإخبارية هو أكبر من تفاصيل السياسة السعودية المتعلقة بالسياسات الداخلية والوجود الأمريكي ـ الغربي في الشرق الأوسط، فهذه الأشياء وحوادث اليوم تظل بالتأكيد ذات أهمية ولكنها أيضاً شواهد لقضايا أعمق. وجذور هذه القضايا هي أيضاً جذور مشكلات ونجاحات للتغطية الإعلامية للمملكة العربية السعودية.

وتقع مسؤولية التغطية الإعلامية الغربية الخاطئة بشكل رئيس على وسائل الإعلام، إلا أن هناك أطرافاً أخرى في اللعبة يشاطرونها اللوم. وعلى المدى البعيد نجد أن العوائق الرسمية

وغير الرسمية على التقارير الإخبارية لا ينتج عنها صحافة أقل نقداً بل تؤدي إلى تغطية مشوهة ليس فيها فائدة لا لموضوع القصص الإخبارية ولا لمستمعي هذه القصص.

وقد أوصت لجنة الحادي عشر من سبتمبر أن «المشكلات في العلاقة الأمريكية السعودية يجب أن تتم مواجهتها بشكل مفتوح» وأن يتم تجديد العلاقة بينهما بحيث «تشتمل على اهتمامات مشتركة فيها تَحمُّل أكبر واحترام للثقافة تترجم إلى التزام بمحاربة المتطرفين أصحاب العنف الذين يولدون الكراهية».

ويمكن أن تلعب وسائل الإعلام الغربية دوراً مهماً في العلاقة الأمريكية السعودية المتجددة. وتمشياً مع توصيات لجنة الحادي عشر من سبتمبر فإن الصورة الإعلامية الأكثر دقة للمملكة ستتطلب انفتاحاً أكبر وتعقيداً من جانب كل الأطراف المشتركة في تغطية المملكة ونقل تقارير عن أكثر الجوانب تعقيداً في الرد على الإرهاب.

الهوامش

1- Shibley Telhami, The Stakes: America in the midddle East (Boulder, Co: Westview press,2004), 159.
2- Telhamim, the Stakes,132.
3- The 9/11 Commission Report (New York:w.w.norton.2004),373.
4- John L.Esposito, Unholy War: Terror in the Name of Islam (New York: Oxford,2002) 75,79.
5- Esposito, Unholy War, 39.
6- Gary R. Bunt, Islam in the Digital Age (London: Pluto Press,2003),211.
7- Samuel P. Huntingion, “The Clash of Civilizations?” Foreign Affairs, vol.72 no.3 (Summer 1993),22.
8- Samuel P.Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of world Order. (New York: Simon and Schuster, 1996), 20.
9- Charles A.Kupchan, The End of the American Era (New York: Knopf,2002)70.
10 - Shibley Telhami “Arabs Increasingly Define Themselves as Muslims First”. Daily Star, July 16, 2004.
11- Adeed Dawisha, “Arab Nationalism and Islamism: Competitive Past, Uncertain Future, “International Studies Review, vol. 2 , issue3 (Fall 200)89.
12- Ervand Abrahamian, “The U.S. Media, Samuel Huntington, and September 11,” Middle East Report, no.223 (Summer 2002),62.
13- The 9/11 Commission Report, 74, 115, 122, 123, 171, 329, 373.
14- The 9/11 Commission Report,122, 170, 371.
15- The 9/11 Commission Report, 373.
16- Shibley Telhami, “Manipulating U.S. Elections is not an Al-Qaeda Goal”, Daily Star, July 26,2004.

اللوبي الإسرائيلي في أمريكا والحملات المغرضة ضد السعودية

ريتشارد كورتيس وديلندا هانلي *

غالباً ما يكون الرد سلبياً ومعتمداً على قوالب نمطية جاهزة إذا سألت أي أمريكي أن يصف لك السعوديين. المشكلة أنه إذا قامت السعودية بأي عمل أو لم تقم به فإنها تتعرض لحلملة تشويه مستمرة. لماذا هذا الهجوم على السعودية؟ ومن هم الذين يعملون صباح مساء من أجل استمرار هذا الهجوم؟ وكيف يتم شن هذه الحملات؟

السعودية مستهدفة لأنها ذات تأثير كبير ليس في العالمين العربي والإسلامي فحسب، ولكن على نطاق العالم. هناك أكثر من ١,٣ بليون مسلم يتوجهون في صلواتهم الخمس تجاه مكة المكرمة حيث القبلة. والسعودية تساعد على رسم سياسة المجتمع الإسلامي في العالم. وعلاوة على مواقفها الأخلاقية، فإن السعودية تمتلك ربع احتياطي العالم من

* صحيفة «واشنطن ريبورت أون ميدل إيست افيرز» ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

النفط الخام وتزود الولايات المتحدة بحوالي ١٧٪ من وارداتها من هذا النفط. وجهات النظر السعودية تحظى بالاحترام داخل منظمة الدول المصدرة للبترول «أوبيك» والتي تعمل على الحفاظ على استقرار أسعار النفط لصالح المنتجين والمستهلكين. السعودية أيضاً يعمل بها أكثر من ستة ملايين عامل أجنبي من ١٢٠ دولة. في فبراير ٢٠٠٣م بلغت استثمارات السعودية في كافة أنحاء العالم نحو ٧٠٠ بليون دولار، ٦٠٪ منها في الولايات المتحدة. فإذا ما قرر السعوديون فجأة بيع أصولهم الاستثمارية في أمريكا فستحدث كارثة للاقتصاد الأمريكي. ولا ينافس السعودية في هذا النفوذ المالي إلا قلة من الدول.

إن ثراء السعودية وقوتها يجب أن تجلب لها النفوذ والاحترام والتأثير على شؤون العالم، ويجب أن يكون لجهودها في حفظ السلام ومعوناتها المادية لمختلف بلدان العالم ومنها ـ على سبيل المثال ـ أفغانستان وكشمير وكوسوفو والكويت والعراق، وكذلك، وعلى وجه الخصوص، الأراضي الفلسطينية مردودها الإيجابي. لكن السعودية تُهاجم في وسائل الإعلام الأمريكية بصورة أساسية نظراً، لدعمها للقضية الفلسطينية. فإذا لم تكن السعودية صوتاً رائداً للسلام في المنطقة فإنها لم تكن لتثير حنق الأعداء، إذ

إن أعداءها هم أولئك الذين لا يريدون السلام. هذا يقودنا إلى السؤال الآخر : من هم الذين يهاجمون السعودية ويعملون على انتزاع صوتها القوي؟ الإجابة هي : إسرائيل ومؤيدوها من اليهود والمسيحيين الصهيونيين. فبدون العون المادي السعودي فإن الفلسطينيين سيعيشون في فاقة ويتعرضون للمجاعة وبذا تتمكن إسرائيل من إكمال مشروعها للتطهير العرقي. ومن دون التذكير المستمر بالقضية الفلسطينية من قبل الأمير عبدالله، ولي العهد السعودي، وغيره من الزعماء المنصفين فإن العالم سوف يتجاهل الاحتلال الإسرائيلي غير الشرعي، وجدار الفصل العنصري، والعزل السياسي والكساد الاقتصادي في الضفة الغربية وقطاع غزة. إن المؤيدين المتعصبين لإسرائيل يعملون بكل ما أوتوا من قوة من أجل إسكات صوت السعودية وجعلها في موقف المدافع دائماً. إنهم يعملون من أجل تحويل الصديق القديم لأمريكا وشريكها التجاري إلى العدو رقم واحد.

والأمريكيون الذين يضعون رعاية ومصلحة إسرائيل أولاً وقبل كل شيء وعلى حساب مستقبل أمريكا يسمون جماعة إسرائيل أولاً. وهناك العديد منهم في الكونجرس ووسائل الإعلام ووسط رجال الدين المسيحي وفي البيت الأبيض وحوله. المشكلة أنهم لا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم خونة،

وهم كذلك. إذ هم يسببون أذى كبيراً للولايات المتحدة عن طريق تدمير مصداقيتنا في العالم وكذلك تشويه مواقفنا المنصفة والشجاعة. إن دعمهم للاحتلال الإسرائيلي غير المشروع للأراضي الفلسطينية يضفي الكذب على أي جهود أمريكية لتحقيق الحرية والمساواة والسلم والعدل. والجماعة التي تضع مصالح إسرائيل أولاً لم تنشأ هكذا خبط عشواء بل تمت رعايتهم بكل عناية ليكونوا كذلك. فهناك أعضاء من الكونجرس وحكام ولايات وأمناء بلديات ورؤساء شرطة ونجوم سينمائيون ورجال أعمال ورجال دين نصارى يرسلون على حساب الدولة في رحلات إلى إسرائيل، ولا يقابلون الفلسطينيين أبداً للتعرف على الجزء الآخر من القصة، ولا يمرون عبر حواجز التفتيش أو يشهدون منزلاً يهدم. وعندما يقول السياسيون العائدون ما يراد لهم قوله ويصوتون بالطريقة المطلوبة فإنهم يكافؤون من التبرعات التي تجمع من الحملات التي تنظمها جمعيات العمل السياسية المؤيدة لإسرائيل بأسمائها المختلفة الخادعة مثل ديلاور فالي باك Delawre Valley PAC أو صن باك Sun Pac أو الأمريكيون من أجل الحكومة الصالحة Americans for Good Government .

ولكن من يحدد السياسيين الذين يتلقون التبرعات من

جمعيات العمل السياسية المؤيدة لإسرائيل؟ إنها لجنة العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية إيباك AIPAC وهي من أكثر مجموعات الضغط الفاعلة والمثيرة للجدل في الولايات المتحدة. فهي التي تقرر من يحتاج إلى إجازة في إسرائيل ومن الذي يستحق معاملة خاصة هناك. «إيباك» لا تتبرع مباشرة للمرشحين، لكنها تنظم عملية الدفع التي تقوم بها جمعيات العمل السياسية المؤيدة لإسرائيل مثل «تحالف المرأة من أجل إسرائيل» أو «لكي نحمي تراثنا». وتمضي «إيباك» أكثر من ذلك بكتابة تشريعات للكونجرس، منها على سبيل المثال، قانون العقوبات ضد إيران وليبيا. وكذلك فإن المجلة التي تصدرها «إيباك» والمسماة تقرير الشرق الأدنى Near Eas Report تنشر مقالات تحمل عناوين مثل «برنامج إيران النووي غير المشروع» و «متأصل في الإرهاب : أجندة حزب الله الإسلامية المتطرفة».

وتأثير ونفوذ «إيباك» عادة ما يناقش في وسائل الإعلام خصوصاً عندما يتم استهداف أعضاء من الكونجرس مثل بول فيندلي Paul Findley أو سينثيا ماكيني Cynthic McKinney أو إيرل هيلارد Earl Hillard ، من قبل إيباك لخروجهم عن الخط المرسوم. ومثل هذه الحملات التي تستهدف الشخصيات النافذة يتم الترويج لها على نطاق

الولايات المتحدة بغرض تخويف السياسيين الآخرين. فنفوذ اللوبي المؤيد لإسرائيل وتأثيره على النظام السياسي الأمريكي أمر لا يمكن الاستهانة به.

وبالإضافة إلى إيباك هناك العديد من المنظمات المؤيدة لإسرائيل في الولايات المتحدة. أهمها «رابطة مقاومة تشويه السمعة» والتي ضبطت تقوم بعمليات مراقبة غير قانونية ضد الأفراد باستخدام ملفات مسروقة من مراكز للشرطة، و«اللجنة اليهودية الأمريكية» و «الجماعة اليهودية المتحدة» و «المجلس الديمقراطي الوطني اليهودي» و «الائتلاف اليهودي الجمهوري» وجميعها تضغط من أجل دعم الولايات المتحدة لإسرائيل والمراقبة الدائمة لما يكتب في وسائل الإعلام.

لكن أكبر هذه المجموعات التي لها نفوذ في السياسة الخارجية الأمريكية هي المنظمة الصهيونية الأمريكية Zion-ist Organization of America التي تأسست في العام ١٨٩٧م. هذه المنظمة حشدت تأييد ودعم حكومة الولايات المتحدة والكونجرس والرأي العام الأمريكي من أجل خلق دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨م. وحسب موقعها على شبكة الإنترنت فإن هذه المنظمة، التي يصل عدد أعضائها إلى ٥٠,٠٠٠ شخص، معفاة من الضرائب، وتعمل لتقوية العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية من خلال النشاطات

التعليمية وبرامج الشؤون العامة وتأييد التشريعات المؤيدة لإسرائيل والتي تطرحها الحكومة الأمريكية، وكذلك محاربة الاتجاهات المناوئة لإسرائيل والتصدي لها في وسائل الإعلام والكتب المدرسية وكتيبات الإرشاد السياحي ومجمعات سكن الطلاب. يمول فرع المنظمة للشباب «ماسادا Masada» أحد أكبر البرامج التي تعمل على إرسال اليهود الشباب لزيارة إسرائيل. ولعل أحد الأساليب التي تستخدمها المنظمة الصهيونية الأمريكية وغيرها من المنظمات الداعمة لإسرائيل توضحه الحملة الأخيرة التي أطلقتها كل من المنظمة الصهيونية الأمريكية والرابطة المناهضة للتشويه. فقد تبنت هاتان المنظمتان حملة كتابة رسائل تهديد لجامعة ديوك Duke University بعد موافقتها على استضافة مؤتمر الطلاب الوطني الرابع للتضامن مع فلسطين في أكتوبر ٢٠٠٤م. وبينما أقر رئيس المنظمة الصهيونية الأمريكية مورتون كلين Morton Klein أن طلاب الجامعة لديهم الحق في التعبير بحرية، إلا أنه كتب يقول : «هذه الحرية ليست مطلقة ويجب التخلي عنها عندما تكون هناك مصالح بذات الأهمية والقيمة تتعرض للخطر». وهذا يعني أن حرية التعبير يجب أن تتنحى جانباً عندما يتعلق الأمر بمصلحة إسرائيل.

وتقول آخر فقرة من خطاب كلين المشار إليه : «إننا نحث جامعة ديوك على أن تتراجع عن قرارها استضافة مؤتمر حركة التضامن مع فلسطين وعلى الجامعة ـ على الأقل ـ أن تصدر بياناً عاماً تدين فيه بكل قوة وصراحة أقوال وأفعال حركة التضامن مع فلسطين وحركة التضامن الدولية. وإن أي خطوة أقل من هذه ستعدّ تغاضياً صريحاً ويمنح الشرعية لأفعال هذه المجموعات العنصرية والمعادية للسامية والتي تروّج الكراهية والعنف. وفي هذا العصر الذي يتزايد فيه الإرهاب الإسلامي المتطرف وكذلك الكراهية فإنه من الضروري أن تتحركوا الآن». هذا وقد استلمت جامعة ديوك أكثر من ٣٠٠٠ رسالة من كافة أرجاء الولايات المتحدة تطالب الجامعة بإلغاء المؤتمر.

هذا مثال واحد يوضح كيف أن المنظمات والجماعات المؤيدة لإسرائيل تقوم بالتلويح بالعصا لتهديد الجامعات ووسائل الإعلام والمشرّعين. فإذا ما حاول أي شخص توجيه سهام لنقد إسرائيل أو حتى البقاء على الحياد فإنه ربما يوصم بأنه «معاد للسامية». تلك الوصمة التي تعد قبلة الموت لمن أراد أن يكون له مستقبل في السياسة أو صناعة السينما أو الدخول إلى عالم رجال الأعمال. وتقوم المجموعات المؤيدة لإسرائيل أيضاً بتنظيم حملات كتابة الرسائل وإرسال صور

من هذه الرسائل عبر الفاكس والبريد الإلكتروني مع إرسال صور منها إلى محرري الأخبار والزعماء السياسيين. وهي رسائل مليئة بالتعريض بالمسلمين والعرب. ومن نتائج عمليات الترويع هذه، والتي تصاحبها عمليات منح رشاوى، أنها جعلت معظم المسؤولين يعملون بكل جهدهم لإسعاد اللوبي الإسرائيلي. فمن السهل والمريح أن تعيش بسلام بدلاً من أن تجرؤ على الكلام.

والمجموعات اليهودية المؤيدة لإسرائيل ليست وحدها في الساحة، بل انضمت إليها المنظمات الصهيونية المسيحية الأصولية مثل «سفارة القدس المسيحية الدولية» و «المسيحيون أصدقاء المجموعات الإسرائيلية» و «الزمالة الدولية للمسيحيين واليهود». فالصهيونيون المسيحيون يعتقدون أن دولة إسرائيل يجب أن تبقى حتى العودة الثانية، أي عندما يعود المسيح للأرض ويعتنق اليهود المسيحية أو يموتون في المعركة الفاصلة، وهناك مابين ٥٠ إلى ٨٠ مليون صهيوني مسيحي في الولايات المتحدة يجدون غاية السعادة في تأييد أي جهود تمتدح إسرائيل وتقدح في الإسلام والدول العربية. إنهم لا يتورعون عن إذكاء نار الكراهية والإسراع بالعالم نحو معركة هرمجدون Armageddon . وإسرائيل ومؤيدوها في الولايات المتحدة يستثمرون أموالاً

طائلة وجهوداً مضنية في مجال العلاقات العامة. ولأن إسرائيل تتلقى أكثر من ٣ بلايين دولار عوناً من الولايات المتحدة كل عام فهي قادرة على استثمار بعض منها من أجل استقطاب المزيد من العون في المستقبل. فعلاوة على دفعها السخي لبيوت الخبرة وشركات العلاقات العامة، فإن سفارة إسرائيل في واشنطن العاصمة وكذلك قنصلياتها في لوس أنجلوس وأتلانتا وهيوستن وميامي وشيكاغو وغيرها من المدن الأمريكية تعمل جنباً إلى جنب مع الصحافة. فإذا ما نشر أي مقال ينتقد إسرائيل فإن الرد يكون فورياً ومنذراً بالخراب لأن مؤيدي إسرائيل ربما يهددون الناشر بأنه سيفقد العائد من الإعلانات إذا لم ينشر مقالاً آخر في اليوم التالي يفنّد المقال الأول. والصحافي الذي كتب المقال يتم وصفه "بمعاداة السامية" ومستقبله الصحافي يصبح مهدداً.

وحتى المجلة التي نصدرها وهي: واشنطن ريبورت أون ميدل إيست أفيرز Washington Report On Middle East affairs عانت من التخويف والتهديد. فقد ذكر لنا المعلنون أن متصلين كثراً قد اتصلوا بهم طالبين منهم عدم نشر إعلاناتهم في المجلة ويوحون إليهم ظلماً أننا "معادون للسامية".

وعندما يخبرونهم أن العرب أيضاً ساميون وأن الكثير من كتابنا يهود فإن المتصلين يردون عليهم أن هؤلاء دون شك "يهود يكرهون ذاتهم". وقد ظل أحد اليهود يتصل بنا بصورة مستمرة لعدة سنوات عبر هاتف الاتصال المجاني للمجلة مما كلفنا الكثير من جهد العاملين وفواتير الهاتف. وأخيراً وفي مناسبة عيد رأس السنة عام ٢٠٠٢م تنصّت رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي على تهديداته بتدميرنا، ومن يومها كف الرجل عن الاتصال.

وعندما كتبنا رسالة وقعها أكثر من تسعين دبلوماسياً أمريكياً سابقاً موجهة للرئيس جورج بوش تنتقد سياسته الخارجية في الشرق الأوسط، تلقينا سيلاً من الخطابات الغاضبة. وقد رفضت معظم الصحف الأمريكية نشر مقالات حول الرسالة والمؤتمرات الصحافية التي أعقبتها. وعندما نقلت محطة سي سبان C-SPAN التلفزيونية مؤتمراً صحافياً عقد بعد عودة الدبلوماسيين الموقعين على الرسالة من رحلة لهم إلى الضفة الغربية، جاءتنا المزيد من الرسائل متهمة إيانا بدعم الإرهاب عند الحديث عن معاناة الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلي. وفي المرة تلو المرة حضرت مجلة واشنطن ريبورت مؤتمرات ومحاضرات حول الشرق الأوسط، وباستثناء النزر اليسير منها فإن هذه

المناسبات تمر دون أي ذكر لها في وسائل الإعلام الأمريكية.

وبضغوطهم المستمرة التي يمارسونها على الصحافة، فإن المؤيدين لإسرائيل قد صنعوا (مؤامرة صَمْت إعلامية) عندما يكون الأمر متعلقاً بنقد إسرائيل. فمعظم الصحف اليومية، وربما جميع المحطات التلفزيونية والإذاعات، تخشى من غضب المعلنين والقراء المؤيدين لإسرائيل. لهذا السبب تحتفظ وسائل الإعلام بمسافة بينها وبين كل شيء يمت للعرب والإسلام بصلة. فطالما بقيت القضية الفلسطينية دون حل فسوف يتعرض الإسلام للقذف والتشويه حتى في وسائل الإعلام المحترمة في الولايات المتحدة، وسوف تكون هناك محاولات لجعل كلمة "مسلم" و "إرهاب" مترادفتين.

لقد ركزت وسائل الإعلام على ما يصيب إسرائيل من قرح، وظللنا نقرأكل أمنيات وأحلام الضحايا الإسرائيليين من جراء "العمليات الانتحارية"، وعرفنا الحزن الذي أصاب أصدقاءهم وأقاربهم. لكن عندما يقتل الفلسطينيون فهم دون أسماء ودون أعمار ودون وجوه. إنهم يجردون من إنسانيتهم، ويُسلبون هويتهم، ويُحولون إلى مجرد أرقام. "وفاة أربعة فلسطينيين في غزة اليوم": إنهم لم يقتلوا أو تطلق عليهم النيران أو يغتالوا بواسطة الجنود الإسرائيليين أو المستوطنين: إنهم فقط توفوا. وسائل الإعلام تنتقي

العبارات لتحويل اللوم من الجلاّد إلى الضحية. يقولون لنا إن إسرائيل تهاجم رداً على الإرهاب الفلسطيني أو لمعاقبة أسر الإرهابيين أو منع حدوث عمليات إرهابية.

وقد رأينا الشيء نفسه في العراق، فبينما تتظاهر وسائل الإعلام الأمريكية بأنها تغطي بصورة متوازنة ما يحدث في الشرق الأوسط إلا أن الواقع لا يعكس ذلك أبدا. فوسائل الإعلام هذه تردد عبارات نمطية مؤذية وتظل تقوم بذلك حتى صدّق معظم الأمريكيين ما يردد عليهم بوصفه الحق الذي لا يأتيه الباطل مثل: "المسلمون والعرب إرهابيون" و "إنهم لا يضعون قيمة للحياة البشرية"، "المسلمون ينتمون إلى دين يؤيد الإرهاب" و "المسلمون مناهضون للغرب ومناهضون لأمريكا"، و "الجهاد حرب مقدسة".

لكن الحملة الإعلامية الشرسة ضد السعودية والعالم العربي لم تبدأ في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م. لقد بدأت في هوليود Hollywood منذ عقود من الزمان. فالأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية، إما عن قصد أو دون قصد، ظلت تغذي عقول الأمريكيين بصور من قبيل: " شيوخ النفط الأغنياء الفاسدون" و "البدو قطاع الطرق" و "العرب المتطرفون الأشرار المناوئون لأمريكا".

وفي دراسته الوافية التي شملت نحو ألف فيلم وبرنامج

تلفزيوني وضمها كتابه: العرب الأشرار: كيف تشوّه هوليود أمة Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People، قام البروفيسور جاك شاهين بتحليل الصور التي ترسمها وسائل الإعلام الأمريكية عن العرب. وقد خلص شاهين إلى أن صورة العرب والمسلمين في السينما الأمريكية مليئة بالعنصرية البغيضة. إن أفلام هوليود، التي تعمل على تسلية وترفيه وتعليم الناس في كافة أرجاء العالم، قد خلقت سلوكيات ومشاعر وصوراً سلبية مغرضة عن العالم العربي.

وفي كلا الحالين، أي قبل وبعد الحادي عشر من سبتمبر، ظلت الكتب والدوريات تفرّخ تعصباً أعمى ضد المسلمين. فالقسم الإسلامي في أي مكتبة في الولايات المتحدة لا يعرض القرآن الكريم للبيع أو كتباً عن سيرة النبي محمد، بل يعرضون عناوين مثل: "الجهاد الأمريكي: الإرهابيون يعيشون بيننا" لمؤلفه ستيفن إمرسون و "الإسلام يصل أمريكا" للكاتب دانيال بايبس Daniel Pipes.

وينظر المسلمون في أمريكا إلى بايبس على أنه "زعيم الرهاب الإسلامي أو الفوبيا الإسلامية في أمريكا". وفي أعقاب التفجير الذي حدث في مدينة أوكلاهوما، سارع إميرسون الذي يدعي أنه "خبير في الإرهاب" والذي تربطه علاقات وثيقة مع إسرائيل والمؤسسات المؤيدة لإسرائيل في

الولايات المتحدة للإشارة بأصابع الاتهام للمسلمين رغم أنه لا علاقة لهم بتلك العملية التفجيرية. ورغم أن كلاً من بايبس وإميرسون قد جرى تكذيبهما ودحض تصريحاتهما أكثر من مرة، إلا أن وسائل الإعلام مازالت تقتبس ما يرددانه من تصريحات مناوئة للمسلمين. وبعد حادثة تفجير مركز التجارة العالمي في عام ١٩٩٣م كسبا أموالاً من تسويقهما لتحذيرات كانا يطلقانها، مفادها: أن العالم الإسلامي بأسره في حرب مع الغرب.

أما الكتب التي توجه نقداً لاذعاً للسعودية مثل كتاب دور جولد Dore Gold المسمى: "مملكة الكراهية" وكتاب: "وجهان للإسلام: بيت آل سعود من التقاليد إلى الإرهاب" لمؤلفه ستيفن شوارتز Stephen Schwartz فقد أصبحت من أكثر الكتب مبيعاً. والكتب التي تتعرض للسعودية سرعان ما يتم الترويج لها من خلال مقالات تسطرها أقلام أولئك الذين يذكون نار "صدام الحضارات". نذكر هنا أن دور جولد هو سفير إسرائيل الأسبق في الأمم المتحدة ومستشار لرئيس الوزراء الإسرائيلي آريئل شارون. أما شوارتز فهو عضو في مؤسسة (برادلي) المؤيدة لإسرائيل والتي تتخذ من واشنطن مقراً لها. وكل من جولد وشوارتز لم يزورا المملكة العربية السعودية الأمر الذي يجعل خبرتهما وكتاباتهما عن

السعودية محل تساؤل كبير.

يستمر تذكير المواطنين الأمريكيين على الدوام بأن خمسة عشر من بين التسعة عشر شخصاً الذين تورطوا في هجمات الحادي عشر من سبتمبر هم من السعوديين، وأن أسامة بن لادن قد ولد في السعودية. ونادراً ما يشار إلى أن المملكة العربية السعودية هي أيضاً ضحية إرهاب القاعدة وأن أسامة بن لادن منشق وجُرد من جنسيته السعودية عام ١٩٩٤م. والجهود السعودية لمحاربة الإرهاب على المستويين المحلي والدولي لا يشار إليها إلا لماماً، بينما هناك تضخيم للمساعدات التي تقدمها المملكة للمناطق المنكوبة في العالم. وهنا نود الإشارة إلى أن العناوين الرئيسة في وسائل الإعلام الأمريكية تمتلئ بالصراخ من أن المؤسسات الخيرية السعودية تدعم الإرهاب.

ومهما يكن من أمر فإن السعوديين بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة مستهدفون بحملة تشويه مستمرة يقف وراءها اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة. فهناك عناصر في وسائل الإعلام الرئيسة تتعاون من أجل القيام بحملات تشويه وأعمال تخويف ضد المسلمين وكل من يقف في صفهم. إنهم يعملون ليلاً ونهاراً ودون كلل لدق إسفين بين الولايات المتحدة والدول الإسلامية.

فعقب الحادي عشر من سبتمبر تساءلت وسائل الإعلام والسياسيون ورجل الشارع العادي كيف لجماعة مثل هؤلاء أن تقوم بمثل هذا العمل. الكل كان يتساءل: "لماذا يكرهوننا؟". كانت بعض الإجابات تعكس حقيقة التوجه المناهض للعرب والذي لعبت وسائل الإعلام على مدى السنين دوراً في خلقه وتعزيزه: "إنهم يكرهون حريتنا"، أو "إنهم يريدون قتل الكفار". وتمضي القائمة على هذا النمط. لكن أعداداً قليلة فقط من الأمريكيين هي التي سألت نفسها كيف سمحنا لأنفسنا معاقبة شعوب كاملة بجريمة قام بارتكابها عدة أشخاص؟!.

حاول الصحافي مورين دود Maureen Dowd، في عموده بصحيفة نيو يورك تايمز في ٢٤ أبريل ٢٠٠١م، أن يقدم شرحاً لسبب واحد يجعل الناس يستخدمون قالب كراهية ذا نمط واحد. فكتب في هذا الصدد: "إن القوالب الجاهزة ليست فقط تجعلك في موقف الهجوم، ولكنها أيضاً مريحة إذ إنها تعفي الشخص من بذل أي جهو٢٧٧ عقلية أو عاطفية. إنها تحوّل الحياة إلى مجرد قصص خيالية وأسطورية، وتجعل من غير الضروري اللجوء إلى محاولة فهم الأمور والمسائل المعقدة».

إذاً ماذا نتوقع من السياسة الأمريكية وهي محاطة بكل

هذه الروايات عن الأبطال الغربيين وهم يتصدون للمعتدين العرب؟ مثل هذه القوالب الجاهزة من الحكايات تستخدم في الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية وألعاب الكمبيوتر.

وفي أيامنا هذه تستخدم حتى في الحروب الحقيقية. لقد نجحت هذه الحملات في ترسيخ هذا المفهوم النمطي . فعندما يواجه الأمريكيون بأحداث مثل الحادي عشر من سبتمبر والحرب في العراق أو الانتفاضة الفلسطينية وعقولهم تلفها سحابة القوالب الجاهزة المعادية للعرب، فإنهم لا يأبهون بالبحث عن الحقائق الكامنة وراء هذه الأحداث. والحق يقال إن السياسة الخارجية الأمريكية هذه الأيام هي سياسة مدمرة في الكثير من أنحاء العالم. ورغم الجهود التي لاتعرف الكلل والتي ظل يبذلها على مر السنين دبلوماسيون أمريكيون ومبشرون وعلماء ورجال أعمال في الشرق الأوسط، إلا أن السياسة الأمريكية الحالية ربما تفضي في النهاية إلى بلورة شعور معاد لأمريكا عند العرب.

فصناع السياسة في الولايات المتحدة بحاجة إلى النظر في سياستنا الخارجية في المدة بين ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٤م. فهذه السياسة مجردة من أية شرعية أخلاقية بفضل دعمنا للاحتلال الإسرائيلي وغزونا واحتلالنا للعراق. ومثلها مثل إسرائيل، فإن الولايات المتحدة الآن تعتمد في تسوية

النزاعات على القوة بدلاً عن المفاوضات والقانون الدولي. لقد قيل للأمريكيين إننا نساعد في بناء عالم أفضل وإننا نعمل على إدخال الديمقراطية والحرية في الشرق الأوسط. وبعض الأمريكيين ربما يعتقدون أن الطائرات المقاتلة والدبابات التي تهاجم المدن المأهولة بالسكان هي التي تحقق السلام. ربما يصدقون أن أولئك الذين يحاربون لوضع نهاية للاحتلال الأجنبي هم متمردون وأشرار. البعض يصدق أن القوة تصنع الحق، وأن معاهدات جنيف وقرارات الأمم المتحدة لاتنطبق على ما تقوم به الولايات المتحدة. وهناك الكثير من الإسرائيليين الذين ظلوا ومنذ عقود يؤمنون بمثل هذا النوع من المقالات.

سوف يستمر أولئك الذين يعملون لتحقيق مصالح إسرائيل داخل الولايات المتحدة، يشكلون سياسة أمريكا الخارجية، ويتجاهلون القانون الدولي، ويوصون بالهجوم على الدول الإسلامية وعدم تشجيع أي علاقات صداقة بين الولايات المتحدة والمجتمعات الإسلامية والأوربية. لقد نجح هؤلاء في إحداث اضطراب في منظومة السلام والأمن الدوليين، فإذا ما نجحوا أيضاً في بناء جدار «بينهم وبيننا» أي بين المسلمين من جهة والنصارى واليهود من جهة أخرى، فسيكونون قد نجحوا في جعل العالم عالماً للأقطاب، وفي مثل

هذا الوضع تكون السعودية ساحة من ساحات المعركة حتى ولو كانت الحرب من خلال التشويه الإعلامي والابتزاز السياسي والديني وليست حرباً تستخدم فيها القنابل والجنود.